رحيل في بدايات الألفيّـة
.الجزء الثاني.

حكاية الحر المملوك

روايه

صدقي شعباني

ماســـتر

رحيل فى بدايات الألفية

الجزء الثاني

حكاية الحر المملوك

صدقى شعباني

تصميم الغلاف

بيشوى ظريف

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ١٠٨٧٢/ ٢٠٢٠م

ISBN: 978-977-85710-8-0

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماستر ©

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـداء

إلى والدتي/

الّتي طالما تمنّيت أن يجمعني بها لقاء ولو كان في حلم، فتأبى إلاّ أن تختفي بين جوانحي لتزيد صورتها إذكاء في خاطري. إلى الّتي لم يتيسّر أن تهدني طول عمرها، وكتب لي طول العمر لأهديها حبّي وحشاشة قلبـــي.

تصديــر

** «حدّثنا سليمان بن حرب قال: حدّثنا شعبة عن واصل الأحدب عن المعرور قال: لقيت أبا ذرّ بالرّبذة، وعليه حلّة وعلى غلامه حلّة فسألته عن ذلك، فقال: إنّي ساببت رجلا فعيّرته بأمّه فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه ممّا يأكل وليلبسه ممّا يلبس ولا تكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموه فأعينوهم.»

صحيح البخاري

** «الحرّية مع الألم أكرم من العبوديّة مع السّعادة.»

أبو حامد الغزالي

** «الرجل الذي يحرم رجلا آخر من حريته هو سجين الكراهية و التّحيّز و ضيق الأفق.»

نلسون مانديلا

كندشان كدفو (تريشور)
٣٠-٨-٢٠٠٢

.١.

حاولت (أنا) أنسى،
فنسيت بأن أنسى!!

.٢.

وفتحت شبابيك الذّكرى،
علّ الأحباب يوافوني،
ونعيد القلب كما كان-
يشتاق الذّكرى ولا ينسى،
لكنّ الأشياء تهاوت،
ونسيت بأن أنسى؛
آه، حاولت (أنا) أنسى!!

.٣.

أحرقت بخوري /
ونذوري...
صلّيت،
وتلوت الأوراد...
حفيت (...) وشققت الأثواب،
لبست الصّوف،

وصار البيت كهوفا...
لكنّي نسيت بأن أنسى؛
آه، حاولت (أنا) أنسى!!

- ٤ -

النّخل... وهذي الغابات،
وماء اللّه... وأحبابي-
جفاة! تركوني لأسرار
(تحفل بالسّرّ)،
وأوهام الصّمت،
نبذوا قرباي وشوقي؛
الجيرة-
آه الجيرة أحبابي...
فطريقي تتشعّب في ضلعي،
وتدمي حناياي (...)
آه، حاولت بأن أنسى،
لكنّي نسيت...
الأحباب نسوني؛
لكنّي نسيت...
النّخل هنا ينسى-
والقلب هنا ينسى-
والكلّ هنا ينسى،
بأنّي نسيت!!
آه، حاولت بأن أنسى-
لكنّي نسيت!؟!!

على متن الطّائرة باتّجاه مدينة مسقط
٢٠٠٢.٩.١

.١.

من أجلهم
من أجل أن يحتملوا أسماءنا،
من أجل أن يحتملوا أشياءنا،
نحبّهم...

.٢.

من أجل أن يعتنقوا سمرتنا
وخوفنا...
أحبابنا/
نحبّهم-
لأنّهم حياتنا وموتنا،
أطفالنا-
أحبابنا نحبّهم...

.٣.

نحبّهم،
لأنّنا في سنّهم
أحبّنا آباؤنا-

من أجل أن نحتمل الأسماء-
والأشياء...
أحبّنا آباؤنا
كي نحمل الإعياء للأبناء-
كي نذكر أسماءنا
ونعطي الأحفاد ما جادت به
(السّماء)!!
من صورة مطبوعة،
من سمرة مدبوغة،
من آية في القلب-
(يرسمها الآباء)
تمنعنا إذا كبرنا
أن نحاصر الخريطة الصّغيرة
أن نهجر الأسماء والأشياء-
ونعطي الأبناء وجها آخر-
ونعطي الأبناء صوتا آخر...
نعطيهم(و) من لغة-
من لهجة في صوتنا
تحتقر الآباء...!!

.٤٠

من أجلهم-
أحبابنا نحبّهم...
من أجل (
أن يحبّنا الأبناء)!؟!

كندشان كدفو (تريشور)
١٧-٨-٢٠٠٢

من القلب للقلب باب-
أدلاّء كثر...
ومن طاقة الرّوح (...)
حتّى الغموض المبعثر في باطني
ألف رمز
يترجم عن نفسه في رموز
أحاول أن أمتطي لمعها-
أحاول أن أستبين الطّريق/
إلى سرّها...
من شتات الجزيرة
هذي الّتي عمّدتني بماء الضّياع؛
وأعطت لوجهي احتراق الشّموس؛
وقالت:
تمرّد على الأحرف المبهمات،
وجرّد سيوفك في الكلمات،
وقل في ضياعك/
ما قد تريق القبائل فيه نداء اللّغات...
ليغدو ستارا يعلّق في البهو؛
يغدو نشيدا ترتّله الألسنه...!!
من شتات الجزيرة (...)
حتّى اختلاجي...
(كطير رسا فوق ريشه قطر الغمام)

غزاني السّؤال المحيّرجدّا:
+ لمن تترك العمر...
.يا هاربا خلف ظلّك؟!
+ لمن تترك الذّاكره-
والشّذى...
والوجوه الّتي سوف تشقى بدونك؟!
+ لمن تترك الحدو...
والقافله؟!!!

جيبور (راجستان)
٩ - ٨ . ٢٠٠٢

لم أعد أجدي لشيء...
لم أعد أصلح للصّمت،
ورغم الحزن أضحك...
رغم هذا الماء-
والمطر المسافر في دمي-
رغم هذا الدّفء (
في قدمي يعطّل مشيتي)
- كم مرّ من حزن؟
ومن قلق عليك؟
- كم مرّ من خوف بلا إسم عليك،
وأنت في فوضى اللّغات،
تحاول الإنصات للنّبر الغريب؟!
تحاول الموت البطيء،
وتنتهي في كلّ شبر من تراب ليس لك-
من تراب ليس للماشين خلفك،
ليس للماشين حولك؟
لكنّه يبقى التّراب-
لونه لون الوجوه
لون هذا الفقر حول القصر!
لون المعابر والدّروب!
- يا أكبر...!
المدن الّتي خلّفتها،

صارت بلا معنى...
غدت مثل الخطى-
مثل شيء لا يليق بما اعتراني
حينما أوليت وجهي للضّجيج،
وللّغات؟!...
- يا أكبر...!
المدن التّي أعطيتها إسما كبيرا-
والحصون،
وما أراه في الذّرى يعلو ويعلو/
في انهياري-
كلّه يمتدّ جسرا في دمي؛
لكنّها جيبور تعطيه اليتامى-
وتوزّع الباقي القليل
على الثّكالى...
والدّموع،
ومن تعثّرت الأحلام فيه،
فلم يجد غير الطّريق/
إلى الحصن المعلّق في الذّرى
كي يغنّي/
أو يبيع الحصن في ورق رديء،
أو...
أو...
- يا أكبر...!
المدن الّتي خلّفتها-
صارت بلا معنى...
ولم أعد أجدي لشيء!!!

دلـهــي

١٠-٨-٢٠٠٢

-١-

دلهي تودّع آخر الحمقى-

تودّعني أنا...

-٢-

دلهي:

تودّع آخر الأسماء...!

دلهي:

تودّع آخر الأشياء...!

-٣-

دلهي:

تودّع آخر ما تبقّى من زمان ليس لي!

دلهي:

تودّع آخر ما تبقّى من زمان كان لي!

-٤-

دلهي الّتي عابثتها

ارتدّت عليّ...

وكلّ شيء كان فيها-

صاخبا...

مال عليّ!!

وكلّ حصن كان فيها-
غافيا...
داعبته
علّي أرى ما كان يحبو في الحجارة
من دمي...
دلهي الّتي أوليتها ظهري-
رمت سهما؛
فغاب السّهم في ورم السّلالة
غاب فيّ...!!

-٥-

دلهي:
انتهيت!
وما انتهيت!
غامري دلهي قليلا
كي أموت معلّقا
في حصن جدّ كان لي!!

كندشان كدفو (تريشور)

١٨-٨-٢٠٠٢

خفيفا كطيف سيأتي المطـر
كنسمة صبـح تثير الشّجــر
وتأسر قلبـــي حدّ الخـــدر

*   *   *

خفيفا كهمس سرى في السّكون
فأرّق عينــــي وبثّ الشّجـــون
بكلّ فـــؤادي وأدمى الجفــون

*   *   *

خفيفـــا سيحملني فوق كــفّ الرّبيـــــع
سيحملني مثقـــلا بالحنين المريـــــــــــع
إلى جنّتيـن وسحر بديــــــع

*   *   *

خفيفا كطيف سيأتي المطر
كمسّ
كهمس
كروح/
سمت فوق كلّ البشر

كندشان كدفو (تريشور)
٢٢-٨-٢٠٠٢

ذكرتكم واللّيل قد هجعـــا
وبي قروح زادت الوجـــــعا

أسلو هواكم تـــــارة وأرى
طورا فؤادي مثقلا ولعـــــا

قسّمت دمعي بينكم شيعـا
كما يهود قسّمت شيعـــــا

وارتبت في قلبي كما فعلــوا
بالعجل إذ قاموا له تبعـــا

إذا بدوتم خانني جلـــــدي
فمن يغيث الخائف الفزعـا

ومن يميط السّترعن كلف
بكم كثير أورثا الجزعـــــا

سأفرش الدّارلكم سكنـــا
حتّى تزيدوني بكم متعـــــا

ونستعيد الوصـل في حلل
من سحرها ازددنا بها شبعا

-_ مشاهد وفصول _-

كندشان كدفو (تريشور)
٢٧-٨-٢٠٠٢
- ١ -

(حدود مشهد تسيّجه الخضرة من جميع الجهات... أشجار جوزالهند تحتلّ المكان بأسره، تشمخ، وتكاد ذوائبها تعانق أجواز الفضاء... في الوسط تماما بيت على النّمط الهنديّ الحديث، يتكوّن من طابقين اثنين، وفي الفرندا كرسيّان من الخيزران، بينهما منضدة عليها صينيّة بها كؤوس فارغة وقنّينة فارغة أيضا... فجأة، يسمع صوت كلب... ينبح الكلب ثلاث مرّات، ثمّ يصمت قليلا، ويستأنف النّباح...)

رجل شيخ:
(يجلس على أحد الكرسيّين، ويمدّ يده فيأخذ كأسا من الكؤوس الفارغة يضعها بين شفتيه، ثمّ يعيدها إلى الصّينيّة من جديد...)
: كلب ينبح...
رجل شيخ:
(يجلس على الكرسيّ الثّاني، ويمدّ يده فيأخذ كأسا من الكؤوس الفارغة يضعها بين شفتيه، ثمّ يعيدها إلى الصّينيّة من جديد...)

: هل شاهد حيّا يذبح؟!

الرّجل الأوّل:

(يأخذ القنّينة الفارغة، فيرميها ناحية الجهة الّتي يأتي منها النّباح... يخيّم الصمت)

: أو رجلا شيخا،

يضرب كلبا ينبح؟!

الرّجل الثّاني:

(يتحامل على نفسه، فيقصد النّاحية الّتي رمى فيها الرّجل الشّيخ الأوّل القنّينة... يأخذ القنّينة ويعود فيضعها على الصّينيّة من جديد)

: مات الكلب المسكين

لأنّه حاول أن يعتاد على السّكر

فلم يقدر...!!

الرّجل الأوّل:

(يرفع القنّينة كأنّه يصبّ شيئا في كأس أولى ثمّ في كأس ثانية)

: فلنشرب نخب الكلب،

وننبح حتّى الفجر!!

الرّجل الثّاني:

(يرفع كأسا إلى مستوى شفتيه كأنّه يشرب)

: هل نحن الكلب؟!

الرّجل الأوّل:

(يدفع الصّينيّة عن المنضدة فتنكسر القنّينة والكؤوس)

: نحن الكلب هوى كأسا-
فانقلب الكأس
ومات الكلب!!

الرّجل الثّاني:

(يتحامل على نفسه... يفتح فمه فيصدر صوتا مثل نباح الكلب)

: فلننبح مثل الكلب مرارا،
ثمّ نموت!!

(يسدل السّتار على المشهد)

كندشان كدفو (تريشور)
٢٨- ٨ - ٢٠٠٢

- ٢ -

(الطّريق معتمة... ظلمة كثيفة على الجانبين، وسكون تقطعه من حين لآخر نسمات خفيفة كانت تهبّ فتجعل ذوائب أشجار جوز الهند تحفّ حفيفا...)

صوت أوّل:
ما أثقل هذي الظّلمة!!

صوت ثان:
(يبدو أنّه لم يكن مصاحبا للصّوت الأوّل، بل نبع من مجثم ما)
: ما أثقل هذا الصّوت...!!

صوت أوّل:
(ينتبه إلى الصّوت الثّاني)
: من؟! صوت آخر؟!

صوت ثان:
(حانقا)
: هل صوت غيري،
يعبر في البدء،

ويعطي الأسماء لكلّ الأشياء؟!

صوت أوّل:

(يبدو أنّه لم يكن يريد أن ينتبه إلى نبرة الحنق البادية في كلام الصّوت الثّاني، وأنّه كان سعيدا لأنّه وجد مرافقا سيخلّصه من وحدته، حتّى ولو كان هذا المرافق مرافقا ثقيلا)

: فلننس بأنّا أصوات...

صوت أوّل:

(مقاطعا)

: شأنك أن تنسى!

وشأني أن أنحت من عدم الأشياء-

ملايين الأسماء!!

صوت ثان:

(مهادنا)

: فلتقبل صوتا آخر،

قد يمددك بما لم تحظ به-

برأي في بطن الغيب...

وحكايا بطعم الشّهد،

ولون التّين الخمريّ-

يودّ البلسم لو يعطيه أديم الأرض،

ويفرش من حوله أسرار البحر...!!

صوت أوّل:

(يحتدّ غضبا من جديد... يستغلّ بزوغ القمر، فيأخذ

شيئا بالقرب منه يقذف به الصّوت الأوّل)
: هل تجرؤ، يا بعضا من صوت،
أن تغزو مملكتي-
أن تعطي نفسك حقّ التّعميد،
وتجرحني...!!

صوت ثان:
(يصمت، إذ يبدو أنّ ذلك الشّيء الذّي رماه به الصّوت الأوّل قد أحدث به ضررا)
: ...

صوت ثان:
(في أمر)
: اخرج، يا صوتا أخرق،
منها ولا ترجع-
فالصّوت أنا،
والصّوت لنا،
نحن الصّوت نقول،
فهل تسمع،
يا صوت الطّين الأخرق؟!!

(ينسدل السّتار على الطّريق والظّلمة والسّكون... والصّوتين الأوّل والثّاني)

كندشان كدفو (تريشور)
٢٩-٨-٢٠٠٢
-٣-

(رواق مقبّب يكتنفه الصّمت والظّلال... يفضي الرّواق إلى معبد راماكريشنا... والمعبد أمامه مجمرة نحاسيّة متناهية الطّول، وبداخله تجثم سكينة وجلال وهدوء...)

كريشنا:
(متربّعا في فضاء المعبد، ينفخ في نايه، فجأة يتوقّف، ويخاطب شخصا غير مرئيّ)
: أنا أعطيت الأشياء بقاياها...
أنا أولدت الصّبح،
وأولمت لأحبابي...
(يواصل النّفخ في نايه)

سوميتا:
(فتاة صبيّة، ما تزال في ريعان الشّباب... نذرت لخدمة المعبد... تتقدّم بخفر حتّى تقف أمام كريشنا)
: أنا- مولاي- فتاتك،
نذروني فعمّدني...

كريشنا:
(ينظر إلى صبا الفتاة... يؤخذ بجمالها... يمدّ يده، فتنقلب

اليد إلى مرقى مرمريّ)

: أنا أعطيت البركات لروّادي،
ومنحت النّفحة...
فامشي في المرقى،
وكوني السّرّلذاتي...!!

سوميتا:

(تصفّق بيديها، فتسود المعبد- للحظة- ضجّة خفيفة، وتدخل فتيات حسان، ينتظمن في حلقة حول سوميتا، وهنّ ينقرن الدّفوف)

: مولاي، عطاياك هبات،
وعطاياي عطايا الموهوب؛
فهات من بعض هباتك هبّات،
كي نرقى ونمنح هذا الصّبح،
ونولم للأحباب...
وهات من بعض هباتك هبّات!!

الفتيات
الحسان :

(يتحوّلن إلى كورس... يردّدن مع بعض على إيقاع الدّفوف)

: مولاي، عطاياك هبات،
فهات من بعض هباتك هبّات...!!
فهات من بعض هباتك هبّات...!!

كريشنا:

(يقبض يده الممدودة فيحتضن سوميتا والفتيات

الحسان)

: من مثلي اليوم لأحبابي؟!
من مثلي اليوم لطلاّبي؟!
أنا أولدت وأولمت،
وشققت فؤادي،
وأعطيت الحبّ...
وقسّمت هواي،
لأحجب بعض التّرويع القدسيّ،
وأمنح للإنسان تلابيب الفتنه...

الفتيات:
(يردّدن)
- أعطيت الحبّ
وقسّمت هواي.
- أعطيت الحبّ
وقسّمت هواي.

سوميتا:
(وهي تضع يديها حول عنق كريشنا، وتنظر إليه مأخوذة بجماله السّماويّ)
: من مثلي اليوم أنا حبّه؟!
منحوني فأعطوني قلبه!!

كريشنا:
(في نشوة المأخوذ، وقد جذب إليه سوميتا وراحا في عناق كونيّ سرمديّ)

: قلبك قلبه، يا حبّه!
نذروك فأعطوني قلبي
وقد خنته!!

الفتيات:
(يردّدن على إيقاع الدّفوف)
: قلبك قلبه، يا حبّه!
يا حبّه!
يا حبّه!

(ينسدل السّتارعلى الرّواق والمعبد وكريشنا وسوميتا والفتيات... ويسود هدوء وجلال وسكينة)

كندشان كدفو (تريشور)
٣١- ٨ - ٢٠٠٢
٤٠.

* فصل *

المشهد الأوّل

(غرفة بالطّابق الأوّل... إنارة خفيفة... صمت... يخرق الصّمت صرير الباب وهو يفتح... يدخل... يأخذ الوسادة إلى الجانب الآخر، ويخلع قميصه ويتمدّد)

هــو:
ماذا؟!
................:
لا شيء جديد...
واليوم كأمس!!
هــو:
الأرض تدور مع ذلك،
والشّمس تشعّ-
لنحيا كما الأحياء!!
أليس كذلك؟
................:

الأرض تشيخ-
هرمت هذي الأرض،
وناءت بالحمل الأعظم...
والشّمس خباياها جنون،
وغدا تحترق الشّمس
ليسكن بركان الإنسان...!!

هـــو:

لا تذهب في الرّوع كثيرا...
لنغنّ، وننشد مثل الأموات
أناشيد الأحلام
وملح الأرض
ونور الشّمس
وأعياد الأحياء...!!

...............:

هل تسمع هذا الصّوت؟!
(ويضع يده على أذنه اليسرى كأنّه يتحقّق مصدر صوت ما)
: إنّي أسمعه...
آت من خلفي وأمامي،
ويقول:
- يا أهل الأرض جميعا،
لبّوني...
فالموت بداية
والبدء نهايات الأشياء!!

المشهد الثّاني

(يدخل فيفسح له الآخر مكانا على السّرير... يجلس)

القادم الجديد:
(يروز المكان بنظرة خاطفة، ثمّ يلتفت صوبي)
: في كلّ مكان...
إنسان يحلم بالخبز؛
في كلّ مكان...
إنسان جائع...
..............:
: أعلم أنّ الإنسان يجوع...
القادم الجديد:
(مقاطعا، وقد كان ينتظر هذه الفرصة ليواصل)
: والعادة أن نعطي-
إن جاء إلى البيت غريب-
بعضا من فيض عطايانا...
للجوعى... وشذّاذ الآفاق،
ومن ماتوا من الفقر... ومن
عاشوا يمنّون النّفس بغريب/
يأتي كي يمنح من فضله-
بعضا من فيض عطايانا...
(يطأطئ رأسه للحظات، ثمّ يرفعه...)
هل تفهمني؟! هل تفهني؟!
...............:

لا تحمل في القلب همومك/
وهمومي؛
وامنح مادام الفقر،
ومن جاءوا،
ومن عاشوا يمنّون النّفس تباعا-
بمجيئي؛
فاليوم أحاول أن أنسى،
بأنّي نسيت...
واليوم أقيّد أحبابي...
بإحساني!!

(ينسدل السّتار على الغرفة، والإنارة الخفيفة والصّمت... وهو، و... ، والقادم الجديد)

الجـزء الثّاني

- حكاية الحرّ المملوك/الرّاوي -
(المكاشفة والأسرار)

- ١ -

تكتشف فجأة أنّك لست أنت!؟! وأنّك طوال كلّ هذه السّنين الّتي مرّت كنت تعيش داخل جلد شخص آخر، ربّما كانت له نفس ملامحك ومخايلك، إلاّ أنّه يظلّ في النّهاية غريبا عنك في كلّ شيء!!

... كنت أعلم أنّ الأسئلة المحيّرة لا تأتي في حينها، وقد لا تأتي أبدا، رغم أنّ هذه الأسئلة نفسها تبدو لنا أحيانا من الأهميّة بمكان، نحتاجها حتّى نتأكّد من صوابيّة بعض ثوابتنا، ونحتاجها أكثر حتى نؤكّد ثقتنا من أنّنا مازلنا قادرين على طرح الأسئلة، وبالتّالي مازلنا قادرين أن نكون أنفسنا، فلا نضيع وسط دوّامة المتاهة!!

... لكن، ومع ذلك، سوف لن أكون في حاجة إلى كلّ هذه الأسئلة الّتي أتحدّث عنها، كما لن أكون في وضعيّة الحرج إزاءها بحيث يتعيّن عليّ أن أسعى جاهدا إلى إيجاد الأجوبة على كلّ الأسئلة الّتي كنت طرحتها... فقط سأكون مضطرّا إلى سؤال وحيد، سأعتبر أنّ كلّ وجودي الحاضر متوقّف عليه، إذ على ضوئه ستترتّب أشياء وأشياء... سؤال محيّر ككلّ الأسئلة الّتي داهمتني من قبل وأعجزني أن أجد لها الأجوبة المناسبة. في هذه المرّة سيكون لزاما عليّ أن أطرح السّؤال، وأن أجد الإجابة كلّفني ذلك ما كلّفني، فلا خيار!!

. هل أنا الشّخص الّذي كنته منذ أربعة وثلاثين عاما؟ هل هو الشّخص ذاته؟ أم شخوص كنت أتقمّصها في كلّ مرحلة من مراحل حياتي دون علم أو وعي منّي؟!!

أدرك أنّ سؤالا مثل هذا، أو بالأحرى أسئلة مثل هذه، قد لا تستحقّ كلّ هذا العناء، وهذه الكلمات الكبيرة الّتي بدأت بها حديثي،

فليس فيها ما يعدّ ابتكارا أو تأصيلا لشيء ما... بالقطع قد يكون ذلك صحيحا؛ بل هو صحيح إذا ما فرط السّؤال منّي وتجاوزني، لأنّي أعلم أنّ هذا السّؤال لا يخصّ أحدا غيري، وقد لا يهمّ أحدا غيري أيضا!!

لا أدري لماذا عندما حملت القلم، وتجاسرت على الكتابة، بدا لي ما كتبته أليفا، بل ومعادا إلى حدّ ما، لأنّي كثيرا ما بدوت غريبا لنفسي وأنا أشرد بعيدا وراء حدود غير منظورة، ألوك الأفكار دون أن أجد الرّغبة في تدوينها. كنت مستسلما إلى دعة السّكون والشّعور الأثيريّ بالعطالة اللّذيذة حيث لا قيود تشدّني إلى ضآلة الواقع ومستلزمات الوجود... في شروداتي تلك، وبين الأتون الّتي تفضي إلى مجاهل الذّات، كان يصاحبني إحساس بالتمزّق والتّلاشي؛ وكنت أظنّ دائما أنّ شخصا ما يأتي من الأقاصي ليأخذ بيد شخص آخر، ربّما كنت أنا، فيقوده عبر أكثر المسارب وعورة إلى أكثر الأماكن إلغازا، وكأنّما يروم بذلك أن يكرّر فيه صور أبطال وهميّين كانت تحفل بهم قصص الأطفال والأساطير وحكايات ألف ليلة وليلة... وخلال ذلك السّفر، لم يكن يخطر لي أن أعذّب نفسي بما قد يخطر لذهني من أسئلة محيّرة، إذ كان يكفيني أن أنطر من حولي حتّى أنسى كلّ شيء- الصّور، الخيالات، الألوان الّتي كانت تمتزج بألوان أخرى فتتوالد منها عشرات الألوان الغريبة الآسرة، المدى الرّحيب، والأصوات الّتي كان يحملها الأثير... الشّعور بأنّك لست أنت، بل لست أيّ شخص آخر؛ وإنّما مجرّد خيال أو طيف انضمّ إلى بقيّة الخيالات والأطياف الأخرى في سمفونيّة الحفل الكونيّ!! كان ذلك الإحساس، في تغريبة الهروب، واستحال الإحساس إلى تحدّ وأنا أمسك القلم:

.هل أنا نفس الشّخص، أم آخر بلا هويّة؟!!

الآن، تنتابني قشعريرة اللّفظ والمعنى، وأجدني مربكا أمام نفسي، أكثر ممّا لو كنت أمام حشد من النّاس، لأنّه ليس من السّهل عليّ أن أقف بعد كلّ هذا العمر موقف السّؤال والمساءلة؛ هذا إذا

كان هذا السّؤال وهذه المساءلة من النّمط المعتاد للجميع، فما بالك وهما يمتّان إلى شيء كان من المفروض أن لا يلتفت إليه لأنّه - كما يقولون- تحصيل حاصل!... سيكون سخيفا بعد أربعة وثلاثين عاما أن أورّط نفسي في حبائل سؤال قد يعيش أحدهم عمرا بأكمله دون أن يطرحه، إمّا لأنّه لا يستحقّ عناء الطّرح، وإمّا لأنّه من الرّثاثة بحيث لا يلتفت إليه!... ومع ذلك أطرح أنا هذا السّؤال- وهذا السّؤال بالذّات، وأجدني، بحكم التزام أخلاقيّ لا أدرك مصدره تحديدا، مطالبا بالإجابة عليه...

للحظات لا أستطيع منع نفسي أن أكون مثل أيّ خليّ لا تعجزه الإجابة على سؤالي، تحت أيّ ظرف من الظّروف، وحتّى وإن وجد هذا السّؤال مفاجئا، وفي غير محلّه؛ سينخرط في سيل من الكلمات الّتي لا تحيل على شيء خارج حدود الحروف الّتي تؤطّرها، وسيكون سعيدا أنّه فلان بن فلان، من قرية أو مدينة كذا، وولد سنة كذا، وهو من بلد كذا... كم سيكون سهلا عليّ لو فعلت مثله، إذ على الأقلّ سأخفّف عن نفسي بعض الحمل، وأجنّبها مؤنة العذاب، لأتفرّغ لباقي الأعباء الأخرى الّتي تثقل كاهلي، وهي كثيرة على كلّ حال!!... أنا فلان بن فلان بن فلان، أصيل في سلسلة العراقة القبليّة، متأصّل في بداوة بلا حدود، تمتدّ من الأفخاذ إلى البطون، إلى العشائر، وهلمّ جرّا؛ ولدت لأب وأمّ عربيّين مسلمين، في الرّابع والعشرين من آذار سنة ثمان وستّين وتسعمائة وألف، وعرفت مرارة التّشرّد، وأن أكون في عائلة دون أن أشعر أنّي فرد من أفراد هذه العائلة... وماذا بعد؟!... أشياء وأشياء، قد تفيض بها الأوراق والأضابير؛ ولكن يظلّ السّؤال هو السّؤال، وتظلّ أنت ليس ذلك الخليّ الّذي وددت لو كنته، ولكن مجرّد جسم غريب في بلد غريب، تماما مثل القوقعة الّتي أخرجت لتوّها من البحر...

كنت أعتقد دائما أنّي أنا- بداهة مثل بداهات أخرى تعلّمناها ونحن صغار، داخل فصول مغلقة، في شتاءات شديدة البرودة،

أمامنا المعلّم بتكشيرته العابسة وعصاه الطّويلة: تشرق الشّمس من المشرق، وتنحدر في غروبها ناحية الغرب؛ وإذا انطلقت من نقطة ما، فإنّك ستعود إلى نفس تلك النّقطة. مثلما فعل ماجلان- ذات يوم- ليثبت كرويّة الأرض؛ وفي قرن من القرون، صحا العالم على حقيقة من الحقائق الجديدة، بأنّ الأرض تدور؛ و... و... ويحاكم جاليليو ويحكم عليه بالموت؛ ولأنّ جاليليو ظلّ متمسّكا باعتقاده لآخر لحظة رغم شراسة رجال الكنيسة اعتقدت أنت أنّك الشّخص ذاته منذ أربعة وثلاثين عاما. « لكن»... (نفس الاستدرك دائما... نفس الحيرة... نفس القلق إزاء السّؤال!!)

... لأحد أن يتعذّب مرّة في حياته، ولي أن أتعذّب مرّات، وأن أحتمل العذاب مادام السّؤال بداخلي، يؤرّقني، ويزعزع كياني... أودّ أن أعترف- ولو كذبا- أنّي أنا، وأعيش بعدها مرتاح البال دون منغّصات، آخذ الأشياء على علاّتها، ولا أحمّل الكلمات أكثر ممّا تحتمل، وأضع حدّا لمشاكساتي فأحقّق مصالحة مع الحياة... أودّ أن يذوب الجليد الّذي تراكم وتراكم حتّى خوّضت فيه من رأسي حتّى أخمص قدميّ، إلى الحدّ الّذي ضيّعت فيه الجهات، واختلطت فيه عليّ المسمّيات... أودّ حقيقة لو أكون أنا- كائنا ثابتا على أرض صلبة، يؤمن أنّ كلّ شيء بخير، وأنّ الكون بخير، وأنّ النّاس جميعهم أسوياء، توحّد بينهم إنسانيّة خيّرة، ويجمعهم مصير واحد، غير أنّ السّؤال يلحّ في كلّ مرّة، ويلحّ أكثر حين أرى تلك الوجوه المدبوغة الّتي لوّحتها الشّموس المداريّة تشرئبّ نحوي في تحدّ وهي ترسل تلك الابتسامات الغامضة، الّتي رغم غموضها أدرك جيّدا ما تحمله من ألفاظ ومعان... إنّي أكاد أسمع الهمسات، وحتّى حركات الأيدي لا تفوتني، وتقلّصات الوجوه، وتلك المحاولات المقصودة لتصيّدي وأنا داخل السّيّارة، والالتفاتات... كلّ ذلك كنت حريصا أن لا يغيب عنّي طوال الوقت، بالرّغم من أنّني كنت أتفادى الاحتكاك بكلّ ما أراه، والإمعان فيه مباشرة... كنت

دائما أحاول النّظر من طرف خفيّ؛ ألتقط كلّ شيء، أراقب، أدقّق في الملامح، أنظر في الأعين على حين غرّة، حركة الشّفاه، جرس الأحرف والكلمات على غرابتها، وأنا الآتي من تخوم حضارة قد هرمت وشاخت، وأشرفت على الموت صبرا!!؟... كنت أرى غربتي بداخلي، قبل أن أراها في من حولي؛ وكنت أسمع الكلمات، رغم أنّي لا أفهمها، وهي تنطق في لهوجة سريعة، أقرب إلى دفق موج هادر:

.إنّه الجسم الغريب!!

سأعترف أنّي كنت غريبا إلى حدّ ما، حتّى أكون منصفا، ولا أظلم أحدا في لحظة من لحظات الغضب المدّمرة؛ غريب برأسي الحليق، وقبّعتي الّتي قال عنها زميل لي في العمل إنّي وأنا ألبسها أشبه أحد الماويّين في فترة الخمسينات؛ وغريب أيضا بذلك السّروال الّذي لم أتخلّ عنه رغم الإلحاح، في قرية صغيرة أهلها مشهورون بلباسهم الخاصّ: شيء مثل الفوطة كانوا يشدّونه حول وسطهم ويثبتونه بطريقة فيها الكثير من المهارة بحيث تكشف عن سيقانهم وجزء ضئيل من أفخاذهم... وغريب بالفانيلاّ وذلك الجرزي دون أكمام الّذي كنت اشتريته من أحد المخازن المشهورة بمدينة مسقط. وما أعجبني فيه حقيقة أنّه كان مليئا بالجيوب... (ويجب أن أعترف هنا أيضا أنّي منذ غادرت بلدي، ذلك القابع في استحالة صمت المتوسّط، منذ سنتين تقريبا، وتحديدا في الثّامن والعشرين من شهر أيلول سنة ألفين، غدوت شخصا مختلفا تماما... تخلّيت عن عادات قديمة، ربّما كانت أثيرة لديّ، وفي المقابل اكتسبت عادات جديدة أيضا، قطعا ليست كلّها حسنة، وبعض من عاداتي القديمة الّتي تخلّيت عنها أجدني في أحايين كثيرة أفتقدها، فأرجع على نفسي باللاّئمة، وأقسم في لحظة من لحظات الضّعف والقهر أنّي لن أغتفر لها ذلك أبدا... ولكن ما باليد حيلة، والعمر في انحدار، والصّحّة لا تسمح!... وأنا أكتب، وحتّى وأنا أفكّر وأشرد في الوجود من حولي، كنت أشعر لا إراديّا أنّي في حاجة

إلى سيجارة، وأنّ الأفكار والهواجس والهلوسات ستكون أجمل، وأكثر أصالة إذا كانت معفّرة برائحة التّمباك... لا حيلة إذن إلاّ التّعلل، وكما تعوّدت من قبل على أشياء، يجب أن أتعوّد الآن على أشياء أخرى، حتّى وإن بدت مستهجنة ومبتذلة أيضا!!...)

هل يمكن للهوس أن يبلغ حدّا أكثر من الحدّ الّذي بلغه عندي؟!

وهل يمكن للأفكار- على تضاربها- أن تتضخّم داخل شخص كما تضخّمت بداخلي؟!... سيكون أفضل أن أتغاضى عن الإجابة، وأواصل حتّى لا أضيع في متاهة من التّساؤلات الغير المجدية فأضيّع «رأس الخيط»- كما يقولون... كنت بصدد الحديث عن العادات القديمة والعادات الجديدة، وقد جاء ذلك عفوا حينما تطرّقت إلى الجرزي والجيوب؛ وأنا هنا أضع عشرات الأسطر حول الجيوب، لأنّها غدت هوسا غير مفارق... صحيح لم يكن لديّ الكثير لأخاف عليه، ولكنّي كنت حريصا أن لا أضيّع القليل الّذي كنت أملكه، وهذا القليل الّذي كنت أملكه لا يتعدّى بعض الأشياء الصّغيرة من المفاتيح- في الحقيقة هو مفتاح واحد لا غير، حملته معي في كيس بنّيّ صغير، أما بقيّة المفاتيح الأخرى فقد خبّأتها في شقّتي بـ«صور»، في أماكن اعتقدت أنّه سيكون من العسير على أيّ شخص أن يتفطّن إليها فيما لو رام البحث عنها... وبعض العملة... وتذكرة السّفر... والجواز- جواز سفري!!

لم أكن أخشى على شيء خشيتي على جواز سفري؛ وقد قضيت ثلاثة أيّام بأسرها تتقاذفني الوساوس والظّنون، فكنت أفترض أشياء غريبة ليس لها وجود إلاّ في مخيّلتي؛ وما أكاد أهدأ، وتعاودني بعض الطّمانينة حتّى يداهمني السّيل من جديد... أرى نفسي بلا جواز، في الحقيقة بلا هويّة... أراني مساءلا منبوذا... وربّما مسجونا أيضا!!... لا يمكن أن أنسى تلك الأيّام؛ ولعلّ مما زاد وطأة تلك المخاوف الوحدة القاتلة الّتي كنت متسربلا فيها!!... لقد حدث كلّ شيء كما في الحلم، وبسرعة خاطفة لم أكن، بحال، قادرا على التّحكّم فيها... ربّما

الخاطر... غرابته وطرافته في آن... ربّما التّوافق المستحيل والرّغبة في قلب موازين الأشياء، حيث كنت طرحت سؤالا وأنا أكتب بعض الأقاصيص، ولم أكن أتصوّر بتاتا أنّ نفس ذلك السّؤال قد ينقلب إلى كرة يمكن أن ترتدّ بفعل صدفة مذهلة إلى ملعبي... «هل زرت الهند؟!»؛ لم أكن أفكّر، آنئذ، في أبعد من الحروف الّتي كانت تؤطّر السّؤال، كما لم أكن أقصد شخصا بذاته، رغم أنّي كنت أقصد «أيّ عمانيّ» وأنا أسال؛ أمّا أن يكون المقصود أنا، فذلك ما لم أكن أتوقّعه البتّة... على كلّ حال طرحت الفكرة فيما بعد، ولاقت قبولا من جانبي، واتّفقنا- أنا وصديقي الهنديّ... كان عليّ أن أحصل على التّاشيرة، واعتقدت في البداية أنّه يمكنني تحصيلها في نفس اليوم؛ لكن عندما ذهبنا إلى السّفارة، وأخذ الموظّف الأوراق المطلوبة والرّسوم والجواز أعلمنا أنّ التّاشيرة ستكون جاهزة في اليوم المقبل... أسقط في يدي!... مشكلة حقيقيّة!!... إنّه الجواز، في حياتي لم أأتمن عليه أحدا؛ كان دائما معي، وكنت أخشى أن يضيع منّي!!... هذا الخوف كلّه، والرّعب، كان لهما ما يبرّرهما في الحقيقة: فبالإضافة إلى أنّي لم أحمل معي كفاية من المال، فقد تركت بطاقة الصّرف في شقّتي بمدينة «صور»، وبينها وبين مدينة مسقط مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريبا تقطعها السّيّارة في ثلاث ساعات... لو كان معي مال لبتّ في أحد الفنادق، وتسلّمت الجواز في اليوم التّالي، وسيكون الله قد كفاني شرّ القتال؛ أمّا والحالة هذه، فلم يكن لديّ خيار آخر إلاّ أن أقبل بالحلّ الّذي اقترحه صديقي الهنديّ: أن نعطي وصل استلام الجواز إلى أحد الهنود، وننقده أجرته، وهو يرسله لنا بالبريد السّريع في اليوم الموالي... قبلت على مضض، سيّما أنّنا لم نقابل ذلك الشّخص في دائرة رسميّة، والأكثر من ذلك أنّ صديقي الهنديّ لم يكن يعرفه... وعدنا في نفس اليوم ليلا، ومن اللّيلة الأولى ابتدأت الأفكار السّوداء، وتلاها الرّعب... ماذا لو لم يرسل ذلك الشّخص الجواز، فنحن في النّهاية لا نعرف عنوانه، اللّهم إلاّ ما

كان من رقم هاتف محمول قد يكون مزيّفا؟!... ماذا لو باع الجواز؟!... ماذا لو تصرّف فيه بطريقته، فأنا بالرّغم ممّا حدث لا أعني له شيئا، حتّى أنّه لم يرني، إذ تمّ كلّ شيء على يد صديقي الهنديّ؟!... وماذا؟!... وماذا؟!.... كنت أنتظر قدوم اليوم التّالي بفارغ الصّبر؛ وليت الأمر كلّه كان سيحسم صباحا، إذ كان عليّ أن أنتظر إلى المساء... وجاء المساء، وذهبت ففوجئت... لم يصل الجواز بعد... «وصوله في اليوم التّالي مؤكّد»، هكذا قال صديقي... كنت أريد أن أصدّق، لكنّها نفس الوساوس والظّنون عليها لعنة الله... وبتّ ليلتي كسابقتها... أرق... رعب... تهيّؤات... خيالات وافتراضات... ونوم متقطّع... وتلا ذلك اليوم اليوم الّذي يليه، وقد مرّ عليّ كأنه دهر... وذهبت، وشعرت عندما أخبرني «شانيل»- كان ذلك إسم صديقي- أنّ الجواز معه، كأنّ ثلوج القطب قد ذابت كلّها بداخلي، أو كأنّ بردا منعشا قد غزاني ليطفئ نارا كانت متأجّجة في كياني!!

... كنت إلى حدّ ما غريبا حتّى في نظر نفسي؛ وكنت لنفس ذلك السّبب أعذر أولئك الّذين كانوا يرمقونني بنظراتهم الفاحصة، ليس فقط في جوار منزل السّيّد «لوهيداكشان»- الطّيّب جدّا-، بل في كلّ «كندشان كدفو»، وحتّى عندما ذهبنا عدّة مرّات بالسّيّارة إلى مدينة «تريشور»، كنت أشعر غريزيّا أنّ كلّ شخص فيها يعرفني جيّدا... ربّما كان ذلك خاطرا سخيفا، من جانبي، أفرزه تحفّزي القبليّ، وخشيتي المفرطة، وذلك الهوس الغريب الّذي كنت تحدّثت عنه منذ قليل، ولكنّ ذلك ما حدث على كلّ حال!! في وقت ما، حين كان يركبني التّحدّي، فأقرّر أن أنغلق على نفسي أمام تلك النّظرات المتصيّدة والوجوه الفضوليّة، سرعان ما تداهمني الخواطر والأسئلة، وحتّى أكثر الافتراضات استحالة: ماذا لو كنت أمريكيّا؟! أو إنجليزيّا؟! أو أيّ مواطن من جنسيّة غربيّة؟! ماذا لو كنت أيّ شيء، غير هذا الجسم الغريب الّذي شاء له سوء الحظّ أن لا يكون مثل هؤلاء الّذين كانوا

يتفحّصونه بغرابة كلّما مرّ أمامهم، ذا بشرة تضرب إلى الغموقة القاتمة؟ إذ على الأقلّ سأضيع بينهم دون أن أثير اهتماما أو انتباها من أيّ نوع؛ ولا مثل أولئك الّذين جاءوا حملة لعلم الحضارة، وحين استقرّبهم المقام أصبحوا نهبة خيرات وغزاة، ثمّ خرجوا- على مضض- بنفس الصّفة، وعادوا أخيرا سيّاحا ورحّالة وجوّابة آفاق- ذوي شعور صفراء وعيون زرقاء وكلام كثير يقال بإغراء سيكون سماعه جميلا حتّى وإن لم يكن مفهوما!! (هل هي نفس العقدة التّاريخيّة الّتي تحدّث عنها ابن خلدون في مقدّمته: المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب؟! هل هي سلطة الشّكل والصّورة والجاذبيّة؟! أم شيء آخر يظلّ غامضا في الباطن يتحكّم في الرّغبات والأهواء؟!)... ماذا لو كنت أيّ شخص آخر، غير ما أنا عليه الآن، ببشرتي الّتي ليست لا إلى البياض ولا إلى السّواد، وملامحي الّتي كانت تفصح إلى حدّ ما عن هويّتي وانتمائي؟!... هل كانوا سينظرون إلى بعضهم، كما فعلوا، ويضحكون؟! هل كانوا سيتصيّدونني؟! هل كانوا سينتبهون إلى وجودي أصلا؟!

.كان لديّ إحساس أنّي لست مخيفا مثل الأمريكيّ أو الإنجليزيّ! وأنّي وديع، تماما مثل ذلك الفيل الصّغير الّذي شاهدته في جوار ذلك المنزل حيث كنت أقيم!؟!...

ستغرقون في الضّحك جرّاء هذا التّحول الغريب المفاجئ؛ وربّما ستتّهمونني بالنّزق وعدم القدرة على سلسلة أفكاري في نسق منهجيّ شديد الوضوح؛ وربّما تساءلتم بينكم وبين أنفسكم، أو فيما بينكم، عن علاقة بداية الحديث الّتي كانت سؤالا في الهويّة والانتماء بما انتهيت إليه الآن من تطرّقي إلى الفيل ووداعته!!... سأعترف أنّ التّحول كان مفاجئا حقّا، ولكنّي لا أجد أيّ تناقض من أيّ نوع بين البدايات والنّهايات، كما أنّي أعتبر ما كتبته إلى هذه اللّحظة شديد الوضوح، آخذا بعضه برقاب بعض وفق منهجيّة مخطّط لها سلفا؛ كلّ ما في الأمر أنّ حكاية الفيل جاءت سابقة لأوانها بعض الشّيء، وهي

حكاية مركزيّة، شديدة الأهميّة، ليس فقط لرمزيّتها، ولكن لقدرتها على تلخيص حكايتي الرّاهنة وإلمامها ببعض ما أعانيه، ومازلت... في الحقيقة هناك الكثير الكثير الّذي أريد أن أحكيه، بعضه مازال عالقا بذهني، أحسّه شديد القرب منّي إلى درجة الاستبداد، والبعض الآخر أراه، يوما بعد يوم، يتميّع ويترجرج أمامي، تماما مثل الزّئبق، والسّبب في ذلك أنّي مازلت إلى الآن أعيش التّجربة الّتي أنا بصدد تدوينها... أعيش أحداثها... أعيش فصولها، كلّ يوم، فصلا فصلا... وأكتوي بنارها، وربّما هذا ما دفع بصورة ذلك الفيل المطيع إلى ذهني... أراني، بشكل ما، ذلك الفيل، على الرّغم من الفارق الفيزيولوجيّ بيني وبينه؛ وأرى «شانيل»، صديقي الهنديّ، مدرّبيه اللّذين جاءا به، ذات صباح، إلى البئر الّتي تتوّسط عالما أثيلا من الخضرة الدّاكنة ليحمّماه...!! كنت أودّ- صراحة- لو جاءت حكاية الفيل في موضع غير هذا الموضع، سيّما أنّي اعتقدت، في البداية، أنّي رسمت الخطوط العامّة، ووضعت خطّة محدّدة للكتابة، لكن- وكما سبق أن قلت- مازالت التّجربة قيد المعايشة، وليس من اليسير حقّا أن تتحكّم بكلّ مهارتك في أشياء شديدة القرب منك، بعضها مسلس قياده لك، وبعضها الآخر شارد موغل في شروده.

* حكاية الفيل الصّغير:

[... أعتقد أنّها ليست المرّة الأولى الّتي أراه فيها، إذ أكون على الأرجح قد رأيته من قبل... ربّما في الضّحى!! لا، لم يكن ذلك عند الضّحى، بل في فترة الغداء، ونحن حول الطّاولة؛ وقد رآه أوّل من رآه السّيّد «لوهيداكشان»، وبما أنّه كان حريصا جدّا على إدخال السّرور والبهجة إلى قلبي، إذ كان يعتبرني فردا من العائلة، ويحنو عليّ كأحد أبنائه، بل لقد وجدته في أحيان كثيرة يعاملني كما لو كنت قطعة من الزّجاج الثّمين الّذي يخشى عليه من العطب... ما كاد يراه حتّى ترك

اللّقمة من يده وهرع في خفّة الشّابّ صائحا بي أن تعال... انصعت لأمره، إذ لم أكن أملك غير ذلك، فمنذ وصولي إلى منزله بعد رحلة بالحافلة امتدّت أربعين ساعة من «مومباي» إلى «كيرالاّ» نشأت بيني وبينه علاقة، على فجاجتها، تظلّ طبيعيّة بين المضيف الّذي يرشد خلال رحلة الاستكشاف والضّيف الّذي لا يملك إلاّ أن يطيع!!... كان كلّ أفراد العائلة تقريبا في الخارج يشاهدون الفيل الصّغير وهو يعبر بجانب سور المنزل الوطيء؛ وقد سبقني السّيّد «لوهيداكشان» إلى أقرب نقطة يمكن مشاهدة الفيل من خلالها، ولمّا أخذ موقعه إلى جانب شجرة الجوز القريبة من بوّابة المدخل أشار إليّ فاقتربت منه... كان المشهد رائقا إلى أقصى الحدود في تلك الفترة من فترات ما بعد الظّهر، وكان صاحب الدّار غاية في الظّرف وهو يوجّه إليّ أسئلته المقتضبة، دون أن ينظر إليّ، بلغة إنجليزيّة نصف سليمة... قال، وهو يسألني، هل توجد فيلة في بلدك؟! فأجبته أن لا، غير أنّ لدينا بعضها بحدائق الحيوان... وقال لي بعد فترة صمت قصيرة، آنظر إلى الفيل ما أجمله، فصدّقت على كلامه، إذ كان الفيل فعلا جميلا إلى أبعد الحدود، وهو يتهادى في مشيته ويشمخ برأسه الكبير وجسمه الضّخم... كان كلّ شيء فيه يوحي بالعظمة رغم شكله الهلاميّ، ولم أكن أتصوّر، في لحظة من اللّحظات، أنّ مثل ذلك الكائن يمكن لأيّ شخص أن يعامله كما رأيته في ذلك الصّباح الصّيفيّ الغائم، كدمية لا تملك من أمرها شيئا... وأنا أراه، انتابتني مشاعر شتّى، لم أستطع تمييزها بوضوح للوهلة الأولى، وشيئا فشيئا، وجدتني حانقا عليه، لأنّي بمجرّد رؤيته بدوت عاريا أمام نفسي، مثله تماما، مسلوب الإرادة، يقودني «شانيل» من أنفي مثلما كان يفعل ذانك الدّليلان به؛ ثمّ شعرت نحوه بعد ذلك بشيء من الشّفقة السّاخرة يمازجها غير قليل من الاحتقار!!... شاهدتهم من بعيد، هو والدّليلين، عندما جاءا به، وكنت واقفا مستندا إلى عمود «الفرندا» المرمريّ، فتقدّمت وجلست على شيء كان يتوسّط

الحديقة اعتقدت في البداية أنّه يحمل بعدا دينيّا، سيّما أنّ عائلة مضيفي كانت هندوسيّة، ولا أنكر أنّي كنت أجهل الكثير عن عاداتها وطقوسها... وقف أحدهما أمامه، وهو يمسك عصا، ووقف الثّاني خلفه، وكان يحمل عصا أيضا؛ وكان الفيل مقيّدا بسلسلة مشدودة إلى قدمه الخلفيّة اليمنى، وأديرت بحنكة حول وسطه، قريبا من مقدّمة جسمه، وسلسلة أخرى أحكم شدّها حول رأسه... اقترب أحد الدّليلين من البئر، وهو يحمل سطلا... ملأ السّطل ماء، ثمّ رشق به جسم الفيل... فعل الدّليل الثّاني مثله... وتواصلت لعبة التّحميم لبضع ثوان... في وقت ما، رأيت الدّليل الّذي كان يقف في المؤخّرة يضرب الحيوان ضربات خفيفة على عجيزته، فيتأخّر بخلفيّتيه، ويمدّ قائمتيه إلى أمام حتّى تلتصق بطنه بالأرض المعشوشبة ثمّ ينبطح على جانبه الأيسر... حينما ضربه الدّليل، ظننت أنّه سيثور... حسبت أنّه سيثأر لكبريائه الّتي جرحت، غير أنّه خيّب أملي... كان مسالما وديعا، وأوعية الماء تغمر وجهه وبطنه وكلّ عضو من أعضاء جسمه، حتّى ذيله الطّويل ونابيه الأبيضين النّاصعين... وتتوالى ضربات العصا من جديد، فينفر الحيوان المسكين في محاولة للتّوازن، يقف بعدها، ثمّ يؤخّر خلفيّتيه ويقدّم قائمتيه، وما أن تلامس بطنه الأرض حتّى ينبطح على جانبه الأيمن... كنت أنظر إليه وأنا أتساءل: هل كان سعيدا؟! هل كان يستمتع فعلا بحمّامه الصّباحيّ؟! أم كان شقيّا في تلك اللّحظة، شأن كلّ من سلبت إرادته وحمل على ما يكره؟!... قلت لنفسي، لا شكّ أنّه سعيد، فمن كان مثله، يحمّم كلّ صباح، ويعتنى به، ويقدّم له طعامه في مواعيد محدّدة، لابدّ أن يكون محظوظا؛ ثمّ أرتدّ إلى نفسي ثانية، فتطالعني أحداث رحلتي منذ أن انطلقت من مدينة «صور»، إلى أن ركبت الطّائرة، ووصلت إلى مدينة «دلهي»، ثمّ اليومين الفظيعين اللّذين قضّيتهما بـ«مومباي»، وأخيرا حلولي بقرية «كندشان كدفو» بعد رحلة الأربعين ساعة؛ حينئذ، أرى حدود المأساة، وتتكشف

لي الخبايا المستورة كما لو كانت على صفحة مرآة صقيلة شديدة البياض، فأشعر بالرّثاء لحالي وحال ذلك الفيل الوديع... لا شكّ أنّهم كانوا يجبرونه على فعل أشياء لا يحبّها، مثلي؛ ولا شكّ أنّهم كانوا يجبرونه على فعلها في أوقات ربّما كانت لا تناسبه؛ ولا شكّ أنّهم كانوا- في الكثيرمن الأحيان- يشعرون بالغبطة إذا بالغوا في إهانته والسّخرية منه، مثلي... حتّى وهم يرشقونه بالماء على مؤخّرته، كانوا يجبرونه على أن يلقي بفضلاته دون إرادة منه!!

- ٢ -

(...) لم يكن الثّالث من تمّوز يوما عاديّا!! كان الجميع يعلم ذلك، ليس فقط أولئك الذّين أمضوا اليوم الفارط يطوفون على أفراد الإدارة واحدا واحدا من أجل أن يوقّعوا لهم على وثيقة إخلاء الطّرف، وذلك حتّى يتمكّنوا من الحصول على بدل تذاكر سفرهم وجوازاتهم، بل وأولئك الّذين حجزوا في مواعيد متأخّرة نوعا ما... وقد وجدت نفسي في الخضمّ، مشمولا بحمّى السّفرومراسيم المغادرة، على الرّغم من أنّني- للسّنة الثّانية على التّوالي - أقرّر البقاء وعدم العودة لأسباب متعدّدة انضاف إليها سبب جديد- قراري قضاء بعض الوقت في رحلة إلى «هندستان».

لعلّي كنت أبدو سخيفا، أو أخرق، أو أفتقر إلى ذلك التّوازن الّذي كنت محافظا عليه طيلة سنة بأكملها؛ ولعلّي كنت أيضا أبدو عقلانيّا، ومفيدا، وقد وجدتني أصحو في الصّباح المبكر، على خلاف عادتي، لأهرع إلى شقّة صديق من أصدقائي ربطتني به علاقة من نوع خاصّ، مازلت إلى الآن غيرقادرعلى فهمها أوتفسيرها، سيّما أنّ ما بيني وبينه من نقاط الاختلاف أكثرعشرات المرّات من الأشياء المشتركة...

لعلّ شخصيّته هي ما شدّتني إليه، أو أمانته الّتي قلّ مثيلها في عالم- ابن إبرة- ضاعت فيه الأمانة، أو صراحته المفرطة الّتي جعلت الجميع يتجنّبونه وينفرون منه!!... المهمّ أنّي خرقت الرّوتين المعتاد للأيّام الماضية في محاولة للتّغيير؛ وقد كنت أبدو، في ذلك اليوم، شخصا مغايرا بالفعل، أو هكذا بدوت في نظر نفسي... أشياء كثيرة كنت أحسّها بداخلي، وحشد من المشاعر المتنافرة كنت أعجز ما أكون عن التّعبير عنها، غير أنّها كانت تستبدّ بي إلى درجة الهذيان، فتارة تستخفّني أريحيّة أحسّ تحت وطأتها أنّ الوجود، بل الكون كلّه لا يسعني، وطورا تجتاحني حالة الاكتئاب اللّعينة- هذه الّتي ولدت معي وظلّت- بين الفينة والأخرى، فأحسب أنّ كياني كلّه قد انقلب رأسا على عقب، وربّما انعكست تلك الحالة على مظهري الخارجيّ أيضا... حينئذ، أجدني منطويا، متقوقعا على ذاتي، أقرب إلى صمت أشبه بالسّكون، وحتّى مجرّد الكلام كنت أشعر بالعزوف عنه، والأسئلة حين كانت توجّه إليّ، أقتصر- للإجابة عليها- بالإشارة أو الإيماء...!!

أستشرف الأيّام القادمة... وبقدر سعادتي أنّ المكان ما يعتم أن يصبح خاليا، ويصير كلّه لي، يتراءى لي شبح الوحدة... والسّكون المخيّم... والسّاعات الطّويلة... والصّمت الثّقيل، حيث ولا نأمة تشي بحياة أو بقيّة حياة... أحاول أن أعزّي نفسي بالنّسيان، وأتعلّل أنّ هذا الوضع الّذي أفكّر فيه وأحسب له ألف حساب لم يعد غريبا عنّي، إذ صرت قادرا على التّأقلم معه!! سيكون عليّ أن أتسلّح ببعض الصّبر، فالقليل منه يكفي، والاستعداد لتقسيم اليوم إلى فترات محدّدة؛ في الحقيقة، ليست الفترات الّتي أعنيها هي نفسها المتعارف عليها، حيث الصّباح تعقبه الظّهيرة، ويلي الظّهيرة المساء، ثمّ يجيء اللّيل فيجلّل الأرض بظلمته؛ فقط ما أعنيه أنّه سيكون عليّ أن أقلب منطق الأشياء المعتاد كي ما أكون قادرا على الصّمود؛ فإذا ما فكّرت أنّه سيكون بوسعي احتمال نهارات صيف مدينة «صور» الحارقة أكون

كمن يجذّف ضدّ التّيّار، أو مثل «سيزيف» الّذي حاول أن يتحدّى الآلهة فعاقبته الآلهة... إذن، لابدّ من وجود بديل! لا بدّ من الخيار الأصعب، وهو أن أتحوّل إلى كائن ليليّ، سأحوّل اللّيل إلى نهار والنّهار إلى ليل!!... خلال الصّيف الماضي، وعلى امتداد شهرين كاملين، هما كلّ الإجازة السّنويّة المسموح بها، وعادة ما تنطلق من الرّابع أو الخامس من تمّوز وإلى غاية السّابع من أيلول، كان أكثر ما يؤرّقني اليوم الأوّل... لم أكن أبالي بالشّهرين، أو بالأحرى كنت أتجنّب التّفكير بهما، وإنّما ما كان يجبهني باعتباره تحدّيا كان يفرض عليّ أن أكون في مستواه هو الرّابع من تموّز... سيمرّ الصّباح عاديّا، وسنلتقي، كلّنا، كالعادة، لنثرثر ونتبادل آخر الأخبار؛ ودون شكّ، سنحاول قدر المستطاع أن نتفادى الحديث عن السّفر، وسنقتصر في حديثنا على الطّقس، والحرارة الغير العاديّة، ونحن نحتسي الشّاي على عتبة المدخل المفضي إلى مطبخ المركز، وربّما مرّ بنا واحد من أهل البلد فسلقته الألسنة، ويكون ذلك مؤشّرا لينقلب الهجوم على أحد أفراد الجماعة، شأننا في سائر الأيّام... وستمرّ الدّقائق والسّاعات، ربّما للمرّة الأولى خلال عشرة أشهر، بسرعة مذهلة، ينتهي بعدها كلّ شيء في الثّانية أو الثّالثة بعد الظّهر... ستأتي سيّارات التّاكسي تباعا، لتتوقف عند واحد من مداخل العمارات الثّلاث، وسيكون الجميع في الانتظار، مستعدّين، بأمتعتهم المحزومة سلفا، وثيابهم الّتي أعدّوها لهذه المناسبة، وأطفالهم الصّغار، إمّا محمولين على الأذرع، أو يمسكون بأيديهم ليقودوهم إلى عالم مايزالون يجهلون عنه الكثير الكثير... (إنّه قدر الكبار أن يتعذّبوا بهذا الرّحيل الدّائم، وقدر الصّغار أن يولدوا، وينشأوا ويترعرعوا في بلد غير البلد، وأن تعتاد ألسنتهم لغة غير لغة آبائهم وأجدادهم)... وسيكون عليك أن ترى كلّ شيء بملء عينيك، وأن تودّع أصدقاءك الكبار واحدا واحدا، وأن تحمل أصدقاءك الصّغار لتطبع قبلات المحبّة والوداع كليهما على وجناتهم المتورّدة،

وأنت ترى تلك الابتسامات الصّغيرة على شفاههم... تراها ولا تفهمها؛ هي قطعا ابتسامة فرحة ما، ولكن أيّة فرحة؟! أهي فرحة العودة إلى البلد؟ إلى الوطن؟! لكن ماذا يعرف هؤلاء الصّغار عن الوطن غير أنّه مدينة كبيرة أو قرية صغيرة، لهم فيها جدّ وجدة طيّبان، يحنوان عليهم ويحبّانهم وينتظران رؤيتهم بفارغ الصّبر؛ ولهم فيها أيضا أخوال وأعمام بدأت أسماؤهم ترسخ في أذهانهم شيئا فشيئا، وخالات وعمّات، منهن المتزوّجة الّتي أنجبت أطفالا هم أصدقاء هؤلاء الصّغار، والعانس الّتي لوّحت عشرات المرّات للقطار المارّ أمامها، إلاّ أنّه تجاهلها ومضى لا يلوي على شيء، ومنهن التي مازالت تنتظر بختها...!! وسيكون عليك أن تلوّح بيدك، وأنت ترى سيّارات التّاكسي تعود من حيث أتت، قائلا:

.مع السّلامة.

فتجيبك أصوات عديدة، مشوّشة، مندغمة، مردّدة بنبرات فيها شجى ممزوج بفرحة لا تكاد تبين:

.مع السّلامة... مع السّلامة...

... نفس المشية، ونفس الخطى، لم يكد يتغيّر فيهما شيء، رغم أنّ ذهني يضطرم بآلاف الأفكار، تحملني في لحظات قصيرة جدّا على كفّ الرّيح، تجوب بي الأقطار، وتهوّم بي، أراني عبر المساءات العبقة الأكثر بعدا، في إحدى المقاهي على مشارف المدينة الّتي كانت سنة النّوم تداعبها إلاّ أنّها ترفض أن تستسلم لها بسهولة... تقاوم كي تبقى محافظة على فتنتها العصيّة، تلك الفتنة الّتي كانت تطالعنا- ونحن جلوس في الرّحبة حول كؤوس الشّاي أو القهوة، تتناهى إلينا من الدّاخل أنغام الشّوق والذّكرى تصدح بها حنجرة «السّتّ»- في الأنوار الباهرة المنبعثة من محطّة السّكّة الحديد، وجموع المسافرين الّتي لا تنقطع حتّى ساعة متأخّرة من المساء... والمواعيد المضروبة سرّا، والالتفاتات اللاّئبة كلّما مرّت فاتنة مرماح من أمامنا... والأحاديث الّتي تبتدئ هادئة، خافتة، رصينة، ثمّ تنتهي إلى صخب وقهقهات معربدة، غالبا ما تستثيرها حكايا

«ذات مغزى» أو نكات لا يملك الواحد أمامها إلاّ أن يضحك... ودخان السّجائر... وسلطنة الأراكيل وهي تتوسّط الحلقات المضروبة حولها... وأطياف الذّكرى... والأصدقاء الّذين خلّفتهم ورائي، وكنت أخاف أن أهاتفهم، أو أراسلهم، كي لا أضعف وتخونني الدّموع، وأنا ابن الأربعة والثّلاثين عاما، أشعر أنّي شخت وهرمت كثيرا، ويجدر بي، إذا أردت أن أحافظ على بعض الوقار المتبقّي لديّ، أن لا أبكي، حتّى ولو كان ذلك سرّا، من دوني النّوافذ مغلقة والأبواب موصدة... ويعبر الطّيف ليحلّ محلّه طيف آخر، وينسدل السّتار على صورة المدينة الغافية، ويبهت شبح المقهى وتتميّع وجوه الأصدقاء؛ وفجأة تنفجر آلة الزّمن، ترتجّ فيسمع لها دويّ مخيف، وأنظر من حولي فلا أرى أمامي شيئا، والمدى الّذي كان يعجّ بالصّور والأصوات والوجوه والضّحكات ينهار دفعة واحدة، يتشظّى، ويرتدّ إلى مزق صغيرة، لا تكاد ترى... السّنون والأعوام، والأيّام، والسّاعات، تصبح كلّها غير حقيقيّة، وإنّما مجرّد احتمال؛ وأرتدّ إلى داخلي، أحاول أن أبحث عن شيء، عن حقيقة ما أتعزّى بها... أسعى إلى اكتشاف ولو جزء من الأشياء الّتي كنت ضيّعتها في غفلة منّي... التّاريخ، اليوم، السّنة!!... أصطدم بالأسئلة، وفي لحظة ما، تنقلب هذه الأسئلة إلى خيوط عنكبوتيّة، تلتفّ حولي فتكبّلني تماما؛ وأسعى - مدفوعا بغريزة البقاء- أن أتفادى الغرق: أستجمع ما تبقّى لديّ من قوّة، وأدفع بيديّ البائستين إلى الأمام، في محاولة لاختراق الموج الهادر... كنت- بشكل ما- أخوض حربا ضدّ نفسي، وكنت في هذه الحرب أنزع إلى أخفّ الأضرار، لأنّي على أتمّ العلم بما يمكن أن تتمخّض عنه حرب ضروس كهذه، أجدني مدفوعا إلى أتونها وأنا مجرّد من كلّ الأسلحة، مجرّد حتّى من الوعي أنّي أخوض حربا... وما دام الأمر كذلك، فلا وجود لاحتمالي الرّبح والخسارة، وإنّما هو احتمال وحيد أنا أدركه من البداية: الخسارة، ولا شيء غير الخسارة: هي خسارة الأرض، موطئ القدم الّذي كنت أفخر دائما أنّه أصلب من أن يخيس بي، وأنّي

حين أكون مستقطبا في حدوده أشعر بالصّلابة والثّبات، وأنّي شخص له تاريخ وجذور، و«أصل وفصل»، على حدّ قول النّسّابة وأهل السّير والأخبار... خسارة الشّعور بالحنين، ونفحات الحبّ الّتي تهمي بعبقها وأرجها بين الفينة والأخرى، كتعزية لهذا الضّياع والشّتات، بين الأبعاد المترامية والمسافات الغير المحدودة، عبر رحيل في أصل زمن هلاميّ، لا شكل ولا لون له... خسارة الماضي، الماضي كلّه، بذكرياته، بآلامه، بأحزانه، بأفراحه، وكلّ شيء نبت مع هذا الشّخص الّذي هو أنا، وترعرع معه، طفلا مشرّدا بين الدّور والبيوتات، عرف الموت منذ وقت مبكر، وعاشر الألم حتّى صار هو والألم وجهين لعملة واحدة... احتفى بالصّمت، فعلّمه الصّمت كيف يصير مغلقا... علّمه كيف يصير منطويا، وأعطاه الألغاز والأسرار، وسلّحه بالسّتائر الكامدة والأبواب الموصدة... والمفاتيح الصّغيرة...!! خسارة الأشياء الأثيرة، وما خلّفته ورائي، مدسوسا بين الرّكام، في غرفتي الصّغيرة في تلك المدينة النّائمة بين الجبال... وشوشة الأصوات... إغراء الهمسات... والأحلام الّتي كانت تنبعث سحريّة من بين دفّات الكتب الّتي كانت تحفل بها الأرفف الحجريّة!!... خسارة الذّاكرة بمعنى ما!؟!

المشية ذاتها، والخطى ذاتها، لاشعوريّا يقوداني، وراء أصوات محرّكات سيّارات التّاكسي الّتي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، إلى البوّابة الخارجيّة؛ لم تكن لديّ فكرة واضحة عمّا يمكن أن أفعله هناك، ولكنّي كنت أحسّ، في داخلي، أنّ شيئا عزيزا قد ضاع منّي، وأنّه عليّ- بالرّغم من كلّ شيء، برغم الحسرة والأسى والبكاء من غير دموع- أن أودّع ذلك الشّيء طائعا؛ في تلك الحالة فقط ربّما سأكون سعيدا لأنّ أحدا لم يغصبني على شيء، وإنّما وهبت ما وهبت للضّياع عن كرم وطيب خاطر!! ياه، ما أسرع ما يطوي الخواء والفراغ الأشياء! وما أسرع ما تنطمس الملامح بمجرّد أن يلّفها غبش الظّهيرة! وما أسرع ما يحلّ السّكون، ويأتي الصّمت مجلّلا بهالته الرّهيبة!!...

كان باب غرفة الحارس مغلقا، وكذلك النّافذة؛ وقد ألقيت عليهما نظرة عابرة، وأنا أتّجه صوب البوّابة... خلال الأيّام السّابقة، كانت عادة الحارس أن يجلس إلى بعض أصدقائه على المقعد الطّويل، قريبا من المدخل، بين نخلتين، كانتا تظلّلانه بجدائلهما المتهدّلة، وتقيانه وهج الحرارة اللاّفحة؛ وقد كنت أمرّبهم فألقي التّحيّة أو أجلس إليهم لبعض الوقت فنتبادل الحديث ونحن نحتسي الشّاي... أمّا اليوم، فيبدو أنّ الحارس نفسه قرّر أن يمنح نفسه إجازة، وأن يبتعد عن هذا الموكب الحزين الّذي كنت الشّاهد الوحيد على أطواره، إذ ليس له فيه ناقة ولا جمل، وهو ابن البلد الّذي لا يستغرق للعودة إلى بيته أكثر من ربع ساعة بالسّيّارة، بعدها يجد نفسه محفوفا بأطفال يضجّون من حوله، وزوجة تخلع له حذاءه، ثمّ تأتيه بطشت الماء فتغسل له قدميه... وتقدّم له طعامه، وتجيئه بصينيّة الشّاي، فيسحب من جلبابه علبة السّجائر، ويأخذ سيجارة ثمّ يتسلطن...!!

سيكون عليّ أن أصبح ممثّلا، ولو مرّة واحدة في حياتي، وأن أتقمّص دور الحارس، «ابن البلد الصّعيديّ»، فهذا الباب الحديديّ الكبير الّذي أراه أمامي كان لا بدّ لأحد أن يغلقه بعد أن أقفر المكان، فمن يدري؟ ربّما خطر لأحدهم أن يقتحم حرمة الصّمت والسّكون، فيعبث بقداسة الأشياء في الدّاخل بعد أن اكتسبت مسحة جلال كونيّ منذور للتّأمّل والعزلة... طافت على شفتيّ ابتسامة وأنا أفكّر بدوري الجديد، وتقدّمت وئيدا فشددت ظلفتي البوابّة إلى بعضهما، ودفعت بالقضيب الطّويل إلى الحلقة الحديديّة... ثمّ عدت من حيث أتيت!!

***

أمور كثيرة تختلط عليّ، وكلّما حاولت أن أتفاداها وجدتها تحاصرني وتضيّق عليّ الخناق... كنت أريد دائما أن أكون بعيدا،

كنت أريد أن أحافظ على تلك المسافة الّتي تجعلني لا أتورّط مع من أريد الحديث عنهم، وكان أكثر ما يعجبني اختبائي، هروبي ليس وراء الكلمات فقط، بل وأيضا ذلك الاختفاء المتواصل وراء الأسوار العالية والجدران الغارقة في فوضى الظّلال، والأمكنة المستحيلة: كنت أعتقد أنّ ذلك كفيل بأن يوفّر لي جانبا من الحرّية في أن أقول ما أفكّر فيه بكلّ صراحة، أن أقول شيئا مغايرا عمّا قيل من قبل...! سعادة ما، فرح بلا حدود، نغمة ذات جرس خاصّ تهسّ، توسوس في أذني، احتفائي الّذي بقدر ما يؤرّقني يبثّ في نفسي شعورا بالفخر والارتياح، أن أكون الرّاوي... شخص لا يكتب من أجل المتعة دائما، وفي كلّ الحالات، كما لا يغترّ ببهرج الشّهرة الّتي تجلبها له فتنة الكلمات ومتانة الحبكة، إنّما يكتب أحيانا تحت وطأة شعور بالغبن والظّلم، شعور بعدم الارتياح، شعور بالرّثاثة والرّتابة يراه في كلّ شيء من حوله: أشعر بميل خاصّ نحو هذا الرّاوي، أحاول أن أكونه، وأخاف أن أتورّط في الكتابة عن نفسي، حتّى في أحرج اللّحظات حين لا يكون هناك مفرّ من البوح والاعتراف... أفكّر مليّا قبل البدء، تنازعني نفسي، وعشرات العقبات الّتي تبدو أمامي أحاول أن أتخطّاها، في صمت، ودون ضجيج كبير، أصطنع أشخاصا آخرين في مخيّلتي، ليسوا وهما كلّهم، وليسوا خيالا جامحا من إفراز ذاكرة تهرب من جفافها إلى عزاء ما... كنت أرى نفسي دائما، أتراءى لعيني كلّما حاولت أن أكتب شيئا، أتجرّد من صفاتي الكثيرة، أقسّمها كما أقسّم أيّ شيء آخر، وأعطي من نحتهم قلمي على أوراقي وقد كسوا لحما وسرت في شرايينهم دماء الحياة، شخص- هذا الشّخص أنا- يتحوّل إلى أشخاص عديدين، ينفصم كلّ شيء فيه ويتمزّق، يتشظّى، يسيل الكلام على شفاه عديدة كان من المفروض أن تنطق به شفتاه، كلام كثير، أحيانا يبدو غير مفهوم، وأحيانا أخرى يلتبس بالصّمت، يصير ثقيلا غير محتمل، إنّه هروب الوحدة إلى العدّة، الميل إلى الامتلاء، على الرّغم ممّا فيه من المراوغة والمماحكة...

في وقت ما، أتساءل عن هذا الثّوب الجديد الّذي ارتديته: ألا يكون أكبر مقاسا؟ أليست نرجسيّة مفرطة أن أتعدّد في كمّ هائل من الأشخاص؟ أليس هروبا...؟! أليس الأجدر أن أواجه الجميع بالصّفة الّتي أنا عليها في الواقع؟ أليس جبنا أن أتوارب وراء الأسماء الكثيرة والأشياء العديمة الفائدة؟!... أنا الرّاوي، نفس الرّاوي، لم يتغيّر فيه شيء، سوى أنّه هذه المرّة، لا يجد أمامه خيارا إلاّ أن يقول على الملأ: ربّما أعادت الأشياء نفسها، ربّما كانت الأحداث تتكرّر، ليس في مستوى المخيال فقط، وإنّما أيضا على أرض الواقع، ولكنّه متأكّد من شيء واحد: إذا لم يجد الرّاوي ما يعيده أعاد نفسه، لا بدافع التّضخيم- تضخيم حجمه- أو الدّعاية الّتي ستمكّنه من اكتساب شهرة الظّهور وذيوع الصّيت، ولكن بدافع خفيّ مردّه إلى استنفاد كلّ السّبل الّتي كانت تقوده دائما إلى الإفلات، والخوف من المتاهة... فقبل كلّ شيء وبعده، يظلّ هذا الرّاوي إنسانا، يخاف الوحدة، ويودّ لو يتعدّد... يوجس خيفة من السّفر والتّرحال سيّما إذا كان هذا السّفر وهذا التّرحال مفاجئين، بعيدي الشّقّة...

أنا الرّاوي، مجرّدا من أسمائه المتعدّدة والأشياء الّتي كان يتخفّى وراءها، قرّرت أخيرا أن أعترف... لا يهمّ أن يكون اعترافا على نفسي أو اعترافا أبرّئ به نفسي، المهمّ أنّه اعتراف وكفى!!

***

(...) ماذا تبقّى من كلّ ما كان؟ وهل المكان هو نفسه المكان الّذي عرفته من قبل؟ والأصدقاء الّذين عرفتهم، أصدقاء لم يكتب لي أن أعرفهم هناك، في ذلك البلد الّذي ننتمي إليه جميعا، وعرفتهم هنا، بمحض الصّدفة بعد أن ألقت بنا عصا التّرحال، ولفظتنا الدّور والشّوارع والبوّابات، شسوع المسافات والأميال الّتي يكفي مجرّد التّفكير فيها قبل السّفر حتّى تبعث على الغثيان، ما يزيد على ستّة آلاف

ميل، وفي ما بينها لا بدّ من الانتظار. لا بدّ من ذلك الإحساس الجديد، ذلك الشّعور بعدم الانتماء إلى مكان، في لحظة ما. نكون في حيّز، يلفّنا. نتعزّى قليلا. وما أن نستريح على المقاعد حتّى يأتينا الصّوت عبر المضخّمات منبّها إلى ابتداء الرّحلة من جديد... هذه المرّة. كما في المرّة السّابقة. سيكونون وحدهم. لن أرافقهم. سأظلّ والصّمت. وسأعتاد عزلتي وسط الفراغ... الخطى تقودني. لا أملك أن أتحكّم فيها. ولولا أنّي اعتدت المسار لربّما كنت ضعت. هي المسافة. الطّريق الّتي تتعرّج، تشكّل زاوية حادّة، من البوّابة الخارجيّة. ثمّ الممشى المسفلت بين رفيف أشجار النّخيل، وبعد ذلك الفضاء الغامر. حيث تستقطب الرّؤية تلك العمائر. والانغماس في لذاذة الهدوء المعفّرة برائحة حرارة مثقلة بالرّطوبة... المشهد لا يتغيّر. معالمه قد تختفي. غير أنّها هي هي دائما. أحيانا يشدّك. ليس في كلّ الأوقات. وإنّما في المساءات الرّاحلة، حين تخفّ حدّة الشّمس ويروق الهواء. حينئذ يهمد الباطن. تنقلب المشاعر الملوّثة بروائح مزكمة عطنة إلى أخرى جديدة. وتولّي كوابيس الأيّام المنقضية دونما رجعة لتحلّ محلّها أحلام من نوع آخر. الحكايا، والأحاديث الّتي لا تنتهي، والتطلّع إلى منظر القمر من حين لآخر، ونفثات الدّخان، وأقداح الشّاي، وفناجين القهوة. ويا ليل لو تطول قليلا!!

كنت في حاجة إلى سيجارة...!!

كنت قد اقتربت من الشّقّة حين التفتّ إلى الوراء. شقّتي. حنين ما يجرفني إلى تلك الشّقّة. غير أنّي في تلك اللّحظات لم أكن أملك إلاّ أن أتطلّع إلى الوراء. ليس لأنّي ربّما اكتشفت شيئا لم أكتشفه من قبل. أو لأنّي كنت أريد فعلا أن أجد شيئا مغايرا. وإنّما أردت أن أرى المنظر غداة الرّحيل... هل تغيّر شيء؟! هل كان الباب الّذي يفضي إلى الإدارة والأقسام كما هو دائما؟! والسّاحة. وتلك الحديقة الصّغيرة، والأروقة. والمطعم. والمدخلان اللّذان يؤدّيان إلى الطّابق العلويّ،

والبحر، ترى هل هو نفس البحر الّذي أدمنت رؤيته خلال سنتين متتاليتين، أم بحر آخر له نفس الإسم، غير أنّه يحفل الآن بآلاف الأسراروالألغاز؟!... كان يروقني الهروب، وكنت أبحث عن أكثرالأماكن أمنا، بعيدا عن المطاردات، والقهقهات، والأعين المتلصّصة، وذلك الاقتحام المباغت في السّاعات المتأخّرة من اللّيل... اقتحام طفيليّ، لا أنكرأنّه لم يكن لي فيه خيار، كما أنّي لم أكن أملك حياله أيّ شيء، بقدر ضيقي به إلاّ أنّه أتاح لي فرصة للاكتشاف، أواخر اللّيل، تحت سماء لا قمر فيها أكثر أيّام السّنة، ظلمة شبه معتمة، ليس بعيدا عن تلك الأشجار المعمّرة، كلّما نظرت إليها، أو تطلّعت نحوها غزاني إحساس غريب أنّي - رغم محدوديّتي في الزّمان والمكان- كائن خالد، يملك لغة خاصّة، هي اللّغة الّتي تخوّله أن يتحدّث إلى كلّ شيء من حوله... الطّيور الرّاحلة أبدا، أطياف الموتى الّذين كنت أستحضرهم أمامي، فيتّصل بيننا الحديث، جدّي أبو النّجا، والدتي الّتي قضت وهي لم تجاوز الرّابعة والعشرين من عمرها، الأصوات الكثيرة، أصوات لم أكن أعرف تحديدا أهي أصوات حقيقيّة أم أصوات نابعة من داخلي، لكنّي كنت أشعر أنّها قريبة منّي إلى حدّ الألفة والاستئناس، كان كلّ شيء من حولي متناغما، أليفا، وكنت أحاول أن أتاقلم مع المشهد، أن أكون جزءا منه... إلاّ أنّه في لحظات معيّنة، ينقلب كلّ شيء في باطني، ويعروني ضيق بلا حدود، وقرف، عندئذ أغدو نزقا، شكسا، وعدوانيّا، أو بالأحرى مازوكيّا، أتلذّذ بتعذيب نفسي، وبدل أن أستمتع بما يحيط بي أجدني أرتدّ إلى الدّاخل، أستدعي صورا بعينها، أستحضر أشخاصا آخرين، لم أكن أميل إلى محاورتهم بقدر ما كنت ميّالا إلى محاسبتهم... ومن بين أولئك الأشخاص كانت صورة «ح» الأكثر حضورا في مخيّلتي، لم يكن صديقا حميما في يوم من الأيّام، ولولا أنّي تعرّفت إليه عن طريق صديق آخر، كنت أعتبره تعزية حقيقيّة في هذه المدينة المقطوعة، ربّما لم تتّصل بيننا عرى المصاحبة، «ح»- لا أدري لماذا كان

يقترن في ذهني دائما بصورة «شلهوب»، شخص آخر ربّما لم يكن له وجود في الواقع، وهو موجود في مخيّلتي فقط، تصوّرته دائما معقوف الشّاربين، عظيم البطن، يرتدي عوينات طبّية ويدخّن كثيرا... صورة أشبه برسم كاريكاتوريّ، فيها الكثير من التّضخيم والتّهويل، تشي بعدم التّعاطف وعدم الارتياح أيضا، وكشكل من أشكال العقاب كتب عليّ أن يرتبط مصيري طوال سنة كاملة بهذا الشّخص... كان إلى حدّ ما أشبه بالقضاء النّازل، كان قدرا لا مفرّ منه!!

أكون كاذبا ومراوغا إذا قلت إنّي أحببته يوما، أو ارتحت إليه، أو صفت إليه نفسي؛ كان تآلفنا بحكم العادة ليس إلاّ، إكراما لذلك الصّديق، صديقي «ع»- الفتى السّاحليّ، الآتي من تخوم الزّمن الرّاحل، بقيّة من رائحة عطرة هفت في لحظة من اللّحظات مثل الحلم العابر، ثمّ تلاشت كما تتلاشى نسمة صيف-؛ وبحكم نفس العادة، كنت أتغاضى عن الكثير من «الأشياء»- هي في الحقيقة خطايا- كنت أراها ولا أراها، كنت أعتبر أنّه إذا بدر منّي ما يسيء إلى «ح»، سيكون ذلك في الوقت نفسه إساءة إلى الجميع، وأوّلهم صديقي «ع» الّذي تعرّفت عن طريقه إليه... كانت علاقتنا أشبه بمسرحيّة تراجيديّة، على النّمط الإغريقيّ، في ثلاثة فصول، تنطلق رتيبة، متأنيّة، ثمّ في لحظة ما، تبدأ المأساة، ويتقوّض كلّ البناء... ولعلّه هو نفسه كان يدرك حدود تلك العلاقة، ويعرف جيّدا أنّها إذا بلغت حدّا معيّنا ربّما انقلبت إلى نقيضها تماما، وما كان بالأمس القريب يعدّ صحبة وصداقة سيصبح قطيعة وبرما لا شفاء منهما... لكنّه لم يكن يبالي، كان كلّ همّه أن يجد متنفّسا لأرقه، أن يهرب، لا يهمّ إلى أين، إذ قد يكون هروبه إلى ممالك ليست له، وأماكن محرّمة ليس من حقّه اختراقها أو العبث بممتلكاتها... الكثير من الأسرار لم يظهر في حينه، وقد استغرق وقتا حتّى يتّضح كلّ شيء: إذ عرفت فيما بعد أنّي لم أكن الضّحيّة الأولى ولا الأخيرة، وأنّ هناك من أصدقائنا من كان مثلي، أو أشدّ حياء منّي... حاول أن يحتمل، وأن

يتجمّل بذلك الصّبر الخرافيّ في مواجهة ظاهرة غريبة، لا تشبه ظاهرة أخرى، وليس لها ما يوازيها فيما عرف عن حالات النّرجسيّة والفصام و«الشّيزوفرينيا»!!

كانت تجمعنا المساءات، بعد انتهاء الدّوام، وبعد أن نكون قد أخلدنا إلى بعض الرّاحة بعد الغداء، نخرج فرادى أو في جماعات إلى المقهى؛ هناك ننسى لبعض الوقت أنّنا غرباء، ننسى تلك الغربة المفروضة علينا، وشسوع المسافات؛ ونجهد أن نتناسى ما خلّفناه وراءنا في ذلك الوطن الّذي كلّما مرّ علينا يوم في مدينة «صور» أخذت صورته تتميّع في أذهاننا، تتميّع مثل الزّئبق، تتراقص أمام أعيننا إلاّ أنّنا كنّا دائما نملك ما ندفع به تلك الصّورة... نتحلّق حول النّضد الدّائريّ الكبير، وما أن يستقرّ بنا المقام حتّى نومئ إلى النّادل... كان «حاتم» هو الآخر، مثلنا، وافدا، اضطرّته الظّروف إلى القدوم، وقد كانت الأيّام الطّويلة الرّتيبة كفيلة أن تؤلّف بيننا... اعتادنا واعتدناه، كان يكفي أن نشير إليه حتّى يأتينا بأقداح الشّاي، ودورق الماء... الحكاية نفسها تتكرّر كلّ يوم، اللّهمّ إلاّ ما كان من بعض التّفاصيل الدّقيقة الّتي بالكاد يمكن ملاحظتها... أشخاص عديدون، من أماكن متقاربة أو متباعدة، منهم الشّماليّ، ومنهم الجنوبيّ، وكمّ هائل من اللّهجات؛ صحيح أنّه لم نكن نعرف الكثير عن بعضنا، لم نكن نعرف شيئا عن أهواء كلّ منّا وطباعه، وما وحّد بيننا، في لحظة حنين جارفة، الرّغبة في الاستئناس والقرب؛ كانت الأيّام- الأيّام وحدها- كفيلة بكلّ شيء، وكلّما ازددنا اقترابا من بعضنا بدأت الفوارق تظهر وأوجه الخلاف تتعمّق... وهكذا بدأت حكايتي وماساتي مع «ح»!!

كلّما تذكّرته أحسست بذلك الجرح الّذي أوشك على الاندمال يتقرّح من جديد، يتقيّح، وتعاودني نفس المشاعر الّتي عانيت منها على امتداد كلّ الأيّام الماضية، مزيج من قرف تخالطه نقمة وضغف وأشياء أخرى أراني إلى الآن غير قادر على التّعبير عنها... أريد أن أنسى-

حقيقة أريد أن أنسى، أريد أن أمحو هذه الصّورة من ذاكرتي إلى الأبد، وهذا الشّخص الّذي تعرّفت إليه في ساعة سوء طالع تمنّيت لو أنّ بيني وبينه ما بين المشرق والمغرب...

إلاّ أنّه يأبى أن يستسلم، يرفض أن يعتقني، وما يكاد يمرّ بعض الوقت أكون خلاله قد ارتحت إلى الاعتقاد أنّي تخلّصت منه حتّى يفاجئني على حين غرّة، أراه يتطلّع إليّ على مقربة، ترتسم على شفتيه ابتسامة ملغزة أقرب إلى التّشفّي، وهو يمسك بسيجارته، كلّ ملامحه تشي بما يختزنه من تسلّط وجبروت، يحدّ فيّ نظراته كأنّه يقول لي: لا تحاول الإفلات، وإذا ما فكّرت لحظة في الهروب ستجدني أمامك؛ إنّه خطئي، منذ البداية، والصّمت الّذي راكمته على امتداد الفترة الماضية تحوّل إلى عجز كلّي، حاولت أن أتحدّاه مرارا، أن أقول له بصراحة ما أفكّر فيه... حاولت أن أقول له رأيي فيه، وإنّي قد ضقت به ذرعا، وإنّي لا أريده، لكن ما باليد حيلة!! كان الكلام الّذي رتّبته، وقرّرت أن أجبهه به، يتلاشى إذا رأيته، تتصلّب شراييني في الدّاخل، وأحسّ باختناق في حلقي؛ وتتواصل المأساة، ويستمرّ العذاب دون هوادة، وأنظر إليه، أسترق النّظر إلى عينيه، فأرى نفس الملامح، نفس الإصرار على ملاحقتي...

يهتزّ الباب في أيّة لحظة، تحت وطأة ضرباته، ويدخل تسبقه رائحة الدّخان الّتي كانت تشي دائما بحضوره... ويطلق السّلام في لهوجة، ثمّ يجلس... كنت أتفاداه، أتعمّد أن أجعله يحسّ بضيقي به، نادرا ما كنت أردّ تحيّته، وإذا رددتها فببرود لا يكاد يخفى، لكن كان يتظاهر باللاّمبالاة، ومن على النّضد يروق له أن يأخذ جهاز التّحكّم عن بعد ويبدأ لعبته الأثيرة الّتي لا تنتهي إلى ساعة متأخّرة من اللّيل... السّفر عبر القنوات- دون توقّف!!... كنت أتساءل بيني وبين نفسي: هل تكون الوحدة ما دفعه إلى ترك شقّته؟! هل يكون ذلك الشّعور بالخوف، الخوف من شيء ما، الخوف من الصّمت، الهروب من العزلة الّتي

تسيّج حياته؟!... ربّما يكون كلّ ذلك مجتمعا، أورغبة الامتلاء من حياة يغيظه منها أن تمرّرتيبة جدباء، وهو الضّليع في عالم اللّيل والأسرار، تنبو به الأماكن فيخترق الجدر إلى الحدود المتاخمة للذّة بلا حدود... «صور» المدينة- أو مدينة اختصرها خياله في الفندقين على الأطراف المتباعدة، وصورة الجارية الحسناء القادمة من لوثة الاحتراق، والفناجين الصّغيرة المسكوبة على حرقة الشّفاه، وصحون المزّة، وصوت العشق يتردّد على أنغام الأرغن وكلمات المغنّي!!... موجود وغير موجود، يغطس جسده في الأريكة، ويشطح به الخيال بعيدا، إلى درجة تندغم فيها الرّؤية من حوله... حتّى أنا وصديقي- الّذي يشاطرني نفس الشّقّة- ربّما تحوّلنا في ذهنه إلى مجرّد نقاط... إلى مجرّد كائنين ضئيلين قميئين، لا يهمّه منهما إلاّ أنّهما كانا وسيطين إلى عالمه الجديد...

كان حصارا!! كان صداما خفيّا، واحتداما في الباطن يأبى أن يترجم عن نفسه في كلمات، ملازمة غرفتي الصّغيرة، أستدعي أطياف النّوم، أتقلّب في الفراش، لكن تظلّ رائحة الدّخان تلاحقني، والأصوات المزدحمة الآتية من جهاز التّلفزيون تعفّر أفكاري وتزيدها تشوّشا... أفتح الباب، أجتاز المجاز الضّيّق، أنا على يقين أنّه رآني، أتجاهله تماما، وأفتح الباب الخارجيّ، ثمّ أغلقه بعنف، وما هي إلاّ أن يستقبلني عالم اللّيل الضّائع برائحة الحنين والذّكرى، والغضب أيضا!!

- ٣ -

لا شيء يبقى على حاله، وكما مرّ العام الأوّل بسلام، والعام الّذي يليه، سيمرّ هذا العام أيضا، وسأنسى كلّ شيء، ليس فقط شبح «ح»، بل وأيضا كلّ المشاعروالأحاسيس الّتي ولّدها في نفسي... الحنق، الغضب الأبكم، الإرهاق القاتل وأنا أتمدّد، في المساءات المتأخّرة وإلى

السّاعات الأولى من الصّباحات الغافية، على ذلك المقعد الخشبيّ في حديقة المركز، الهلوسات الّتي غدت حالة مرضيّة ملازمة، والأرق... سوف يمرّ كلّ ذلك، وستبقى في ذاكرتي، من بين اللّحظات، لحظة مكاشفة مازلت أحتفظ بها إلى الآن، أحتفظ بها كما هي، بزخمها، بحميميّتها، وشحنة الصّدق الّتي ولّدتها، في أحد المقاهي بالمدينة، ذات مساء راحل، وقد تألّبت الطّبيعة فجأة، لا على الكائنات فحسب، وإنّما على كلّ شيء، حتّى تلك الأشياء الصّغيرة، الّتي لا تراها العين عادة، وتظلّ متخفّية في شرانقها المستحيلة...

لم أكن في حاجة إلى أن يدعوني، كما لم يكن هو أيضا في حاجة إلى دعوتي- هو صديقي «ع»، بعد أن توثّقت بيننا عرى صداقة تكاد تكون غير واقعيّة بالنّظر إلى الوضع الّذي نعيشه في بلد كلّ فرد يحاول أن يظلّ فيه إلى أطول فترة ممكنة حتّى ولو أدّى به الأمر أن يبذل ماء وجهه أمام «المواطنين»، أهل البلد، الّذين بيدهم «الحلّ والعقد»، والحرمان والغفران... كان في انتظاري أمام شقّته، وما أن رآني حتّى تحرّك في اتّجاهي، سرنا جنبا إلى جنب دون أن نتبادل كلاما كثيرا، خرجنا من البوّابة فاستقبلنا الشّارع، وأزيز السّيّارات الّتي لاتنقطع حركتها في ليل أو نهار... رغم صمته كنت أحدس ما يهجس به، كنت أدرك أيّ إنسان هو، حرمته الحياة، وقست عليه كثيرا، وحمّلته وزرا ثقيلا، زادته قسوة والده ثقلا على ثقل، وهو ابن الثّالثة والأربعين، تزوّج وهو ما يزال يدرس بإحدى الجامعات في ذلك البلد الصّغير على ضفّة المتوسّط، وتصوّر في البداية أنّ كنف العائلة سيوفّر له الملجأ، وذلك الحلم الصّغير الّذي لا يشبه أيّ حلم آخر في بساطته... ليطلب الغنى من يريد أن يصبح غنيّا، وليتركوا له مساحة للهدوء وراحة البال: ليصخب العالم، ولتدوّ الأصوات اللاّإنسانيّة، ولتهتزّ العجلة الجهنّميّة وتطو الأرض طيّا، ولكن ليتركوه وشأنه، ينتظر بكره وأوّل أبنائه... كان التّرهّل باديا عليه، وكان كلّ جسده ينطق بتعب لا يرحم، ليس فقط

جرّاء السّنوات الّتي يحملها أينما حلّ، ثمان سنوات بكاملها، والسّنة التّاسعة سيكون عليه أن ينهيها بنفس المدينة الصّغيرة الّتي شهد بنيانها ترتفع لبنة لبنة، وتتمدّد بشوارعها العريضة ومطاعمها الّتي لا تحصى ولا تعدّ، وليس له خيار، التزامه بإنهاء إجراءات حصول زوجته على الجنسيّة، شقّته الّتي مازالت لم تكتمل بعد، والتّحدي الّذي طرحه على نفسه منذ أن طرد والده عائلته وألقى بمتاعه- أثاثه القليل وأشيائه الّتي كان يعتزّ بامتلاكها لأنّها الأشياء الّتي شقي كثيرا حتّى حصل على المال الّذي اشتراها به- إلى الشّارع، وهو بعيد، قد طوته المسافات وغيّبته دياميس الغربة، في رحلة الأميال، على امتداد خارطة النّسيان، من المغرب الكبير إلى الشّرق العربيّ مرورا بالبحر الأحمر... لا يدوم الصّمت طويلا بيننا، يمتدّ إلى بعض لحظات فحسب، ثمّ تسيل شجونه، وتحتدم الكلمات على شفتيه، وتطغى على ملامحه مسحة من مأساة أثيلة، كنت أحرص على مراقبته وأستدعي في ذهني الحركات القادمة... لن يتأخّر في استخراج علبة سجائره، وسيسحب سيجارة يشعلها، ثمّ يشفط منها أنفاسا متتالية، وسيرشف حسوة من الشّاي، وسيبدأ الحكاية... الحكاية المتجدّدة، رغم أنّي سمعتها مرّات إلاّ أنّي لم أملّها، تقال دائما بأسلوب مختلف، ويمتزج الأسلوب بمشاعر أقدر أن أحدسها من البداية إلاّ أنّها تتدرّج وتتصاعد إلى درجة تغدو فيها الأحاسيس الأولى، بالمقارنة مع المشاعر الجديدة، مجرّد صورة باهتة، بلا لون، هناك الغضب الّذي تحوّل مع الوقت إلى مرارة وقهر، ونبرة التّأنيب واللّوم الّتي استحالت مع الأيّام إلى نبرة أشبه بالمناجاة، تسمعها، تظنّها موجّهة إليك، كجزء من تتمّة الحكاية، إلاّ أنّك إذا دقّقت جيّدا، وتطلّعت إلى تينك العينين المتعبتين اكتشفت أنّه يخاطب شخصا آخر، اكتشفت أنّه يستحضر شخص والده ويتوجّه إليه بالخطاب... ما ذنب الزّوجة؟ ماذا جنت، وهي الّتي كانت دائما تقف إلى صفّه، وتلومه هو، زوجها، إذا نشأت بوادر الخلاف بينهما؟

وأبناؤه- ابنه وابنته، هل أذنبا هما الآخران؟! على حبّه لهما إلاّ أنّه لم يتردّد لحظة واحدة في طردهما؛ كان دائما يتساءل بينه وبين نفسه، أو يتطلّع إليّ ويقول كأنّه لا يصدّق أنّ الّذي حصل منذ خمس سنوات أو ستّ سنوات قد حصل فعلا: هل يمكن لإنسان أن يلفظ فلذة كبده وقرّة عينيه، ويتبرّأ منه، دون أن يؤنّبه ضميره، أو يشعر بوخزة النّدم الّتي ستظلّ تلاحقه إلى آخر لحظة من حياته؟!... هو لم يطلب الكثير، لم يكن شرها في يوم من الأيّام، وكان راضيا أن يعيش في كنف أبيه، سيكون سعيدا حتّى لو خصّص له غرفة صغيرة يعيش فيها هو وزوجته وأبناؤه، ولن يضيره أن ينام على الأرض ويتناول طعامه على طبق من القشّ، لكن يصطدم بالصّرامة والشّدّة الباديتين في الوجه، والكلمات الّتي كانت تعبّر عن نفسها في صمت: أنت الآن رجل، ولن أكون مسؤولا عنك، فلديك زوجتك وأبناؤك!!... كان مجبرا على الاستسلام، وقبل ذلك حاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ترجّاه وتوسّل إليه بكلّ الوسائل، طمأنه أنّه لا يطمع في شيء، وأنّه يكفيه من دنياه القليل، فقط ليدعه إلى جانبه ويتركه يربّي أبناءه في سلام...

نجلس متقابلين، أمام المدخل، في مواجهة الشّارع، أتفادى النّظر إليه، خلال مساحة الصّمت الّتي تمتدّ بيننا، وأتطلّع إلى كائنات المساء المتأخّر وبداية اللّيل: السّيّارات الكثيرة الّتي تنطلق في كلا الاتّجاهين، غير مبالية بعشرات اللّهجات الّتي تكتظّ بها المدينة، ومئات الوجوه الّتي تحمل سمات حضارات عدّة قادمة من وراء المحيط الكبير، والبنايات الّتي لم تكن موجودة، وتصحو في يوم من الأيّام فترى الحيطان وقد ارتفعت والأبواب قد وضعت في أماكنها والنّوافذ وهي تفتح على المدى المترامي...

تتناهى إليّ من الطّرف الآخر نهنهة حرّى فأعرف أنّها مقدّمة للكلام، ليس الكلام المعتاد، وهو يستعدّ للسفر بعد أن حصل على التّذكرة وحجز على أحد الخطوط الأوروبيّة، وإنّما كلام آخر سينضاف

إلى حكايته الأولى... لم تعد حياتي ملكا لي وحدي، كما أنّ مشاعري الّتي احتفظت بها دهرا بين جوانحي لم تعد هي الأخرى تخصّني، تخصّ عالمي الّذي بنيته بداخلي وضربت من حوله الأساسات العميقة والأسوار العالية بعد أن كاشفته مرارا، واتّصل بيننا الحديث طوال السّنتين المنقضيتين...أشعر أنّي غدوت جزءا من عالمه الخاصّ، وأنّي بالنّسبة إليه الآن أكثر من صديق، وأنّي لا أختلف عن أيّ من أبنائه... أرى ذلك في عينيه، حين يهدأ ويروق، وفي ملامحه الّتي سرعان ما ترتدّ إلى صفائها، ألمس خوفه عليّ في نبرة صوته، وهو يقول لي بعذوبة:

- لا أريد لك أن تتعذّب مثلي؛ والأفضل أن تعود معي!

كلماته تنكأ الجرح الّذي لم يندمل بعد، تغوص بباطني لتثير الوتر المشدود، أشعر بالضّيق إلاّ أنّي أجهد أن لا يرى ذلك باديا عليّ، أتحصّن بالصّمت، وأكتفي بالنّظر إليه، لأنّي أعرف أنّه سوف لن يكتفي بتلك الكلمات، سيقول من جديد، وسيكون عليّ أن أسمعه إلى النّهاية، حتّى لو لم أرد ذلك، لأنّي أحبّه، وأخاف أن أجرحه:

- يجب أن تعود!

أمدّ يدي على النّضد أمامي، أحاول أن أتغلّب على ضعفي بالنّقر بأصابعي على الطّاولة، أتريّث قليلا قبل أن تخرج الكلمات من بين شفتيّ:

- لا أستطيع!!

يتذكّر فجأة أنّي أطلعته على نيّتي في السّفر، ليس غربا باتّجاه ضفّة المتوسّط، وإنّما شرقا عبر المحيط، يضع السّيجارة بين شفتيه ويجذب نفسا عميقا ثمّ يطلق الدّخان فينعقد حلقات فوق رأسه، ويحسو من كأس الشّاي. يقول:

- أعلم ذلك، لكن سيكون من الصّعب عليك أن تنسى إذا فكّرت في النّسيان... هناك أهلك، والهروب ليس هو الحلّ في نظري.

هو على حقّ. كان دائما على حقّ؛ ولكنّي كنت ميّالا إلى مخادعة

نفسي، أتلذّذ بحلم الانفصال، وأستعدّ للحظة حاسمة، هي لحظة الحريّة ربّما، أو النّسيان الّذي سأدفع ثمنه باهظا حتّى أحصل على ما تصوّرته دائما رمزانعتاقي وحريّتي... نسيان الأرض، والأشياء الحميمة، والمدينة الّتي تقترن في ذهني دوما بصورة لفاتنة تتربّص للإغراء والإغواء، والأصدقاء، وفوق ذلك كلّه غرفتي الصّغيرة الّتي لم أكن أتصوّر يوما أنّي قادرعلى التّخلّي عنها... تلك الغرفة لم تتخلّ عنّي، وأنا الآن أفكّر في هجرانها، بكلّ ما فيها، بأرففها الحجريّة الّتي تزدحم فيها الكتب ازدحاما: كتب التّاريخ (تاريخ الطّبريّ، والمسعوديّ، وابن الأثير، واليعقوبيّ...)، وروايات غابريل غارسيا ماركيز وحنّا مينا والطّيّب صالح وعبد الرّحمان منيف وجمال الغيطاني، ودواوين محمود درويش وسعدي يوسف وأدونيس، ومخطوطاتي- قصائدي وروايايتي- الّتي أكتشف الآن أنّي قد أفقدها إلى الأبد، بعد سنتين متتاليتين من الهروب والمجابهة، لا أدري مجابهة ماذا، ولكنّي هكذا كنت أشعر في قراري، أتخيّل أعداء من حولي وأتحفّز لمجابهتهم أو الارتداد والنّكوص عنهم... وأسماء أشخاص يعزّون عليّ كثيرا، وعناوين، ورسائل كنت أتمنّى أن أكتبها إلاّ أنّي أضرب عنها صفحا ممنّيا نفسي بكتابتها في يوم ما... أغاني «السّتّ»، والحاكي القديم، وبعض الأشياء الصّغيرة الأخرى الّتي انقرضت في عالم المدينة المتحرّك فنأت بنفسها إلى تلك الغرفة حتّى تكون قادرة على تحدّي الزّمن، ومقاومة الموت!!...

لا أقول شيئا... يغالبني الصّمت فيغلبني، وأجدني أتباعد، أحنّ إلى الأماكن الّتي طلّقتها بمحض إرادتي، أتذكّر من تخلّيت عنهم، وملامحهم، وأحاديثهم، وحتّى مؤامراتنا الصّغيرة خلال حرارة الصّيف القاتلة، نهرب إلى عزاء أثيل، فنغلق من دوننا الأبواب، ونسرح قليلا على إيقاع النّغمات ورائحة الدّخان والأنخاب الّتي كنّا نحاول تهريبها من الصّخب الجهنّميّ إلى عتاقة الماضي المنسيّ... ما بين « يا ليل الصّبّ متى غده»، و «حبيبي على الدّنيا إذا غبت وحشة»، و «معلّلتي

بالوصل والموت دونه»، إلى سنوات لا تنسى وأحداث تظلّ في الذّاكرة، رغم الحيطة والرّغبة في محوها... فبعد الكأس الأولى، وإطفاء النّور، وغرق المكان في عتمة شفيفة تخترقها من حين لآخر ذبالة شمعة وانية، يحلو البوح، تأتي الكلمات بمفردها ونتحوّل نحن إلى ضيفان، نسمع الجرس، ويهزّنا النّبر الحزين، نعود القهقرى سنوات... المدينة «العربي»، أو المدينة العتيقة، يغزوها الرّذاذ، فتنتعش الأجساد المتعبة، وأتركه في صمته يحاول أن يجمع شتات ذكرياته وهو ما يزال طالبا، يحسو من كأسه ويدخّن، ثمّ يحسو مرّة أخرى، ويتأنّى قليلا قبل أن يجذب من سيجارته نفسا جديدا... نحن لسنا قريبين من بعضنا في المكان فحسب، والّذي يجمعنا ليس مجرّد الحاجة إلى كسر الرّوتين اليوميّ وإيجاد مساحة للعربدة اللّذيذة، وإنّما ما يوحّد بيننا أيضا رابطة الدّم؛ صحيح أنّنا كنّا دائما بعيدين، حتّى ونحن ندرس في نفس المعهد، في السّنة النّهائيّة من التّعليم الثّانويّ، ولدينا نفس المدرّسين، ونفس الأصدقاء أيضا، ونجتمع في أغلب الأحيان في قاعة المذاكرة، ولا يندر أن نلتئم في حلقات فنتبادل أطراف الحديث ونضحك مليّا، وربّما تحوّل ضحكنا إلى قهقهات عالية حتّى نجلب انتباه الفتيات سواء المتحلّقات حولنا أو أولئك الجالسات غير بعيد عنّا؛ وصحيح أنّنا كنّا نعرف بعضنا- لسنا جيرانا، ولا نسكن في نفس الحيّ- إلاّ أنّ علاقتنا كان يشوبها شيء من البرود، نتبادل التّحايا، نتصافح ويمضي كلّ منّا في طريقه... بعد عشر سنوات، نتقابل من جديد، بعيدا عن الشّواغل والمشاغل، وبعد أن تقدّم بنا العمر، وأصبح كلّ منّا يشعر في داخله أنّه يكبر سنوات في كلّ عام ويتحوّل إلى كائن أسطوريّ خارج حدود الزّمان والمكان... يتغيّر كلّ شيء... تحول الألوان، وينقلب الكون كلّه رأسا على عقب، ولأنّ الأشياء تتبدّل بسرعة مذهلة نحاول أن نتوقّف قليلا، نتناسى للحظة أنّنا في عالم متحرّك، لا يهدأ، ونختار من بين الأماكن النّواصي والتّخوم، فيجمعنا المقهى، أيّ مقهى نرتاح إليه، وكنّا نبدّل

المقاهي كما يبدّل غيرنا السّيّارات والأثاث... ونوع السّجائر والنّساء أيضا...!!

... تسقط الأسئلة دفعة واحدة، والتّخمينات، وأحاول أن أتغلّب على الفضول إذا رأيته آتيا يتوخّى الجادّة، ويتوارى عن العيون وراء الظّلال... هؤلاء الّذين يجلسون في المقهى، ويضحكون، ويتبادلون خراطيم الأراكيل، والنّدل بفانيلّته الحمراء ذات الخطوط السّوداء المتعامدة، والأشخاص الّذين يمرّون على مقربة، باستمرار، وقد يحدث أن يتوقّفوا قليلا فيلمّوا ببعض من معارفهم فيثرثروا لبعض الوقت ثمّ يعودون من حيث أتوا، وغير هؤلاء، والشّوارع، والميادين، وربّما المدينة بأسرها، إذا نظرت في عينيه اكتشفت أنّ كلّ هذه الأشياء لا تعني له شيئا، وأنّ وجوده ليس في الحقيقة إلاّ مجاملة لنا جميعا... لم يقل إنّه فوق كلّ شيء، وإنّه قد وجد بالخطأ في عالم ربّما يفصله عنه قرن من الزّمان على أقلّ تقدير، إلاّ أنّ كلماته كانت تقول أكثر من ذلك... يتحدّث إلينا- هذا ما كنت أعتقده أنا على الأقلّ-، ويده لا تني تعبث بنظّارته السّوداء الّتي كانت تحجب عينيه دائما، يسهب في الكلام، يدقّق، يورد أمثلة عن أشخاص، ليسوا أشخاصا عاديّين، فلاسفة وعلماء اجتماع وعلماء نفس وأنتربولوجيّين وأخصّائيين في علم النّفس المرضيّ والتّربويّ وألسنيّين- ميشال فوكو، ورجيس دوبريه، وبورديو، وشومسكي، وجان بياجيه، وكارلو، وآلان، وغيرهم كثير... ويحلو له بين الفينة والأخرى أن ينطلق إلى عوالم أثيريّة، يتخّذ أجنحة سحريّة ويحلّق بعيدا، فتختزن نبرته كمّا هائلا من التّمرّد المتوحّش، وتوقه إلى الانفلات... كنّا نحن- بمعنى ما- صنائعه، جزءا من العالم الّذي كان يشيّده في خياله، ويرسم منظوره ويحدّد زواياه، ولا أنكر أنّه كان ساحرا بارعا، لا يفوته شيء، وما يعزب عنه في لحظة من لحظات الشّرود لا بدّ أن يجد وسيلة ما لمعرفة ما فاته... كان رغم تمرّده على واقعه، وضيقه بما حوله ومن حوله، يسعى أن يكون له

موقع ما داخل الكون، أن يكون قائد الحفل الأوركستراليّ الّذي يتحكّم في كلّ شيء، ويحدّد بحركة بسيطة من يده مسار الأنغام والتّرانيم... الأشياء الّتي لا نعرفها نحن، وربّما لا نلقي إليها بالا، والأسرار الّتي لا يتداولها إلاّ بعض الأشخاص، وفي أضيق الحلقات، والأحداث الّتي وقعت والّتي لم تقع بعد، وهي مؤهّلة دائما أن تقع، فجأة، وعلى حين غرّة، وأسماء أقاربنا المشتركين في الحيّين- الغربيّ والشّرقيّ، وأسماء الكبار الّذين ماتوا والّذين مازالوا أحياء وقد بلغوا أرذل العمر، وأسماء الّذين ولدوا حديثا، والّذين كبروا في غفلة منّا، والنّساء المتزوّجات، والغير المتزوّجات، وفلانة الّتي طلّقها فلان لأنّها كانت تواعد خليلها سرّا في بيت الزوجيّة، وفلان الّذي اشترى سيّارة من تلك السّيّارات ذات الأربعة أحصنة، ودفع ثمنها مبلغا محترما، ولم تمض عليه أيّام حتّى تمكّنت منه عادات جديدة، أفلس، وبدل أن يهتمّ بزوجته وصغاره صار همّه أن يفني اللّيل في طقوس سكره ما بين الحانة والبيت على متن سيّارة لم يكن قادرا على القيام بأمرها... وفلان الّذي هرب من السّجن، وتمكّنوا أخيرا من ضبطه... قال: قال لي بعض الثّقات ممّن لا أتّهم أمانتهم: حين اقتحم رجال الدّرك المنزل، فتّشوه غرفة غرفة حتّى انتهوا إلى غرفة النّوم... لم يحسّ بهم حين دخلوا فقد كان يئنّ تحت ثقل زوجته الّتي كانت تصرخ من اللّذة وهي تعلوه!!... والعمّ سرحان- عند هذا الحدّ نبدي استغرابا، ننظر إلى بعضنا في تساؤل، يتطلّع هو بدوره إلينا، ويقول في تعجّب: ألا تعرفون العمّ سرحان؟! نقول بصوت واحد، وفي نفس الوقت: ومن هو العمّ سرحان؟!... وبعد أن يعدّل نظّارته، وبإلقاء نظرة حواليه يدرك أنّه يسيطر على المكان تماما، يواصل موضّحا: العمّ سرحان جارنا، وقد مات اليوم... كان طوال عمره يخاف من الموت، ويكره سيرته، وإذا صادف أن سمع أحدهم يتحدّث عنه أصابه خوف ورهبة وفرّ بجلده... كان يتفادى المرور من أمام المقابر، فإذا ما اتّفق أن وجد نفسه بمحاذاة إحداها

خلع نعليه وأطلق ساقيه للرّيح... ويصمت مليّا، يسحب سيجارة ويرمي علبة السّجائرعلى النّضد بطريقة مسرحيّة، يشعل السّيجارة ويجذب نفسا خفيفا، ويكون ذلك إيذانا لنا بمواصلة الحديث، أو بالأحرى تغيير مجراه..!!

الصّيف، الحرارة تخفّ شيئا فشيئا، وضوء النّهاريهت، والمدى الّذي كان مترامیا يبدأ بالانكماش مخلّفا شعورا غامضا بالارتياح... آخر الأصدقاء يدخل ويغلق باب السّور وراءه، وتسود للحظة حالة من الفوضى اللّذيذة، الكلّ يتكلّم، وفي نفس الوقت... ننسحب جميعا إلى أقصى الرّحبة في مواجهة الدّارمن النّاحية الشّرقيّة، وقد فرشت البسط والمفارش... كان كلّ شيء معدّا، والوليمة جاهزة... تحلّقنا في حلقات صغيرة، وشرعت الأيدي في المجالدة... وغير بعيد، كانت تلك القواريرالعجيبة تلتئم على نفسها، دافئة، في أحواض من الثّلج، تمتدّ إليها بعض الأيدي بين الحين والآخر، وما بين المزمزة والشّراب كان المسجّل يتدفّق شجنا بأنغام مهرّبة من الزّمن الدّابر...

كنت أراقبه طوال الوقت، وبقدرما كان بقيّة الأصدقاء يمعنون في الشّراب دون أن يفرّطوا في نصيبهم من الأكل، كان هو يشرب ويتكلّم، ويدخّن: كانت تلك خطّة من بعض خططه، وهوعلى قدركلفه بالشّراب، كان يخشى أن يسكر، كان يخشى أن تغيم الأشياء في مخيّلته، وأن يضيّع رأس الخيط، لا بدّ أن يظلّ صاحيا، وأن يلمّ بكلّ أجزاء المشهد... كان الشّراب- بالنّسبة إليه- مجرّد وسيلة كفيلة بأن تقوده إلى حالة، وكانت هذه الحالة مزيجا من شعور بحزن طاغ إذا تعمّق التبس بمشاعرأخرى غاية في الغموض... ربّما الخوف، أو بمعنى أدقّ الرّهبة جرّاء إحباطات الماضي، وذكريات سوف لن تمّحيّ من ذاكرته أبدا... الوحدة القاتلة رغم وجوده وسط هذا الحشد من الأصدقاء، وإحساس بالتّفتت والتّمزّق يجهد أن يقهره بعزيمته الّتي لا تفلّ... يهرب من الواقع المرير إلى عالم الكتب، وإذا سئم الكتب عاد إلى الواقع من

جديد كي يتزوّد منه... عائلته كانت ملجأ حقيقيّا بالنّسبة إليه، والده الّذي يكنّ له معزّة خاصّة في قلبه، ووالدته الّتي طغى احترامه لها على حبّه إيّاها، وهي الّتي كانت تخاف عليه من هبوب النّسيم، يخجل أن ترى عليه آثار الشّراب، مرّة واحدة- لا يمكن أن ينساها-، ودّ لو أنّ بينه وبينها بعد المشرقين، كان غاضبا ومحبطا، لذلك أفرط، كان يبحث عن عزاء، وتصوّر أنّ الشّراب هو ذلك العزاء، وبدل أن ينتظر حتّى يتخفّف من سكره هرع إلى البيت... كان في حالة لا يحسد عليها، وما أن أبصرته والدته حتّى انتابها خوف وتمكّن منها هلع، أوشكت أن تولول، أيقظت كلّ أبنائها ليلا، كانت مصرّة على استحضار الطّبيب، غير أنّه بكلمات قليلة جهد أن يجعلها ثابتة صلبة طمأنها:

- سأكون بخير، فلا تقلقي!!

ومنذ ذلك اليوم، حرّم أن يعود إلى المنزل وهو مايزال تحت وطأة الشّراب... كانت الخمر هاجسا أكثر منها عادة أو إدمانا، أو مثيرا من مثيرات المتعة كما كانت لدى الكثيرين، ومنهم أصحابنا... خليط متنافر جمعتهم الوظيفة، ووحّد بينهم ثقل الرّوتين ووطأة الفراغ!!

... الذاكرة العصيّة، الشّوق الدّائم والحنين، الرّغبة في تحطيم الطّوق المحاصر والتّحليق إلى أعلى، رحابة الفضاء، الانخطاف الأقرب إلى الوجد حين التّفكير في الرّوغان، ومعانقة الحريّة الهاربة، ربّما تخيّل نفسه فارسا من فرسان العصر القديم، ربّما انتشى لحظة هروب، أو غداة لحظة من لحظات الخلوّ إلى نفسه، كلّ شيء عنده بقدر، طبقة صوته لا تتجاوز حدّا معيّنا، تظلّ رتيبة هادئة، حتّى عندما يحتدم النّقاش وتسود الفوضى، لا شيء عنده يعلو على العقل، ولا يؤمن بحضارة تحطّم القاعدة وتعتنق الاستثناء... يتحدّث عن مناهج التّربية الحديثة، ويسهب إذا تعلّق الأمر بالمدرسة المفتوحة، يستهويه الجنون، ليس الجنون «النّثريّ»، على الطّريقة الواقعيّة المرتثّة، وإنّما الجنون «الكلاسيكيّ» كما نظّر له ميشال فوكو، وآمن به... ربّما تحلو

المقاطعة في وقت ما، ربّما انزلقت نكتة من بين الشّفاه وعمّ المكان صخب وضحكات ما تعتم أن تتحوّل إلى قهقهات... حينئذ تنفرج شفتاه الكامدتان عن ابتسامة فاترة، يجهد أن يمسك بسدى الحديث من جديد، يتأنّى كثيرا في كلامه، وكأنّه يقرأ من ورقة منشورة أمامه... كان فمه يتدفّق بكلام وعيناه تنطقان بكلام آخر، مغاير تماما، تلك الرّفرفة الخفيفة الّتي تضفي على ملامحه القاسية مسحة من الرّثاء، وتجعله أقرب ما يكون إلى طائر بحريّ موارب بين زرقة الماء من تحت وزرقة السّماء الّتي تحجبها سحب بيضاء متكاثفة أشبه برقائق الثّلج... وتسأله وهو يحتضنها بين ذراعيه، في الغرفة الصّغيرة بذات الشّقة الّتي أجّرها مع أحد الزّملاء لإعطاء دروس إضافيّة إلى طلاّب السّنة النّهائيّة من التّعليم الثّانويّ، و«استضافة» بعض النّساء الصّغيرات المحترفات من حين لآخر: «لماذا لا تنظر إليّ؟... لماذا لا تقبّلني؟!... قبّلني!!» إلاّ أنّه كان يراوغ، يسمع ولا يسمع، ويواصل عمله، كأنّه يؤدّي واجبا ثقيلا على قلبه... ونتسامر، يطول بيننا الحديث، وتحطّ عليه جهمة ثقيلة، لا أملك أن أواسيه لأنّي أعلم أنّه يرفض أن يكون مثارا للرّثاء والشّفقة، وأكتفي بالنّظر إليه وهو يدخّن ويتكلّم عن أحداث ماضية موغلة في النّسيان... المأساة الّتي كنت أخشى أن أساله عنها، نظرة الحزن المتألّقة في عينيه، الفضول الّذي كنت أحاول دائما أن أخمد صوته بداخلي، كلّ ذلك أراه مختصرا، أراه قريبا وبعيدا في نفس الوقت... أتظاهر بالشّرود، وأناى، أتشاغل بمراقبة الفراغ، ويأتيني صوته أشبه بالهمس، وهو يقول:

- لم أفعل شيئا أستحقّ عليه كلّ ذلك...

كان يتعمّد أن يقطع حديثه إذا أراد أن يشدّ انتباه سامعه... يتظاهر بعدم الاهتمام، وفي الوقت الّذي يعطي فيه الانطباع بلامبالاته وعدم اكتراثه يكون مسيطرا على الموقف تماما... كان يريد أن يضفي قداسة من نوع ما على كلّ شيء يتعلّق به، سيّما أشيائه الحميمة وحكايته الّتي

كان سيطويها النّسيان لو لم يلق بنا القدر في طريقه... كنّا نحن في نظره خاصّة الخاصّة، ومحطّ سرّه ومحلّ ثقته، وهو الّذي انتهى إلى القناعة أنّ المجتمع الحاليّ في تركيبته ليس إلاّ رجعا لصدى مجتمع القرن الرّابع أو الخامس للهجرة، يقسّمه - كما قسّمه المؤرّخون العرب من قبل - إلى خاصّة وعامّة، ويحلو له أن يلصق بالعامّة كلّ النّعوت الّتي كان التّوحيدي يتفنّن في إيرادها... سوقة ودهماء، ورعاع وطغمة، يعيشون ليومهم ولا يحترمون من كان مثله، جهبذا من جهابذة العصر، يشقى في علمه في حين ينعم الجهلة بجهلهم!!

طريقته في الإمساك بالسّيجارة بين إصبعيه السّبّابة والوسطى آسرة، يعبث بها مليّا صعدا ونزولا كأنّ غايته ليست التّدخين وإنّما إلهاء نفسه، ينظر إليها، فكأنّما يخاطبها ويشكو إليها همّه وبثّه، وهو الّذي تعوّد على الصّمت، ليس بيننا فحسب، بل وحتّى في منزله، بين أهله الّذين يحبّهم إلى درجة الجنون... إخوته البنات، وأشقّاؤه الّذين يكبرونه، وشقيقه الأصغر الّذي ما ينفكّ عنه كلّما وجد فرصة للإلمام به والمكوث إلى جانبه... يريده أن ينشأ مثله، مجالدا مصارعا، ينتزع ما يعتبره حقّه بيديه، لا يركن إلى السّلم حتّى إذا ما ظلم ردّ الظّلم بالظّلم... كنت أراه متناقضا إلى حدّ ما، إفراطه في التّمسّك بروابطه القبليّة - أو بالأحرى روابطه الأسريّة الضّيّقة، وحديثه كلّما وجد فرصة للحديث عن الحداثة وما بعد الحداثة، عن العلم والأنساق، والبنى، ومعاداة الشّاذّ والمهمّش... كنت أتساءل دائما - لم أكن ميّالا إلى مجادلته، وكنت أتفادى احتدام النّقاش بيننا: أين الولاء للأسرة من شموليّة العلم؟! وهل إذا تشبّثنا بجذورنا الضّاربة في أصل أربعة عشر قرنا من الهزائم والنّكسات - على حدّ تعبير أغلب النّقّاد العرب وغير العرب - نكون أوفياء للحداثة؟!... أين موقعنا من الحداثة الّتي نتحدّث عنها إذا كنّا نفكّر بأكثر البنى الاجتماعيّة تقليديّة وتخلّفا؟!!...

يتأمّل السّيجارة في يده، يعبث بها، يقرّبها من فمه، ينزلها مرّة

أخرى، بحركة بسيطة من سبّابته يخفقها فيسقط الرّماد في المنفضة على الأرض... في الأخير يجذب نفسا - نفسا قصيرا، يرمق المكان بنظرة متأنّية، فيضبطني وأنا أختلس النّظر إليه، كنت كالمجرم المحاصر وهو يرتكب جريمته... أدرت وجهي بسرعة، ولم يفتني أن أرى ابتسامة خبيئة ترتسم على شفتيه الكامدتين، قال:

- لم يجدوا دليلا واحدا ضدّي فأطلقوا سراحي... قبل ذلك قضّيت أيّاما مريرة في السّجن؛ لم أكن خائفا بقدر ما كنت أفكّر في طريقة للدّفاع عن نفسي...

ويصمت مرّة أخرى...

لم يكن في الشّقّة أكواب، فعمد بعض الأصدقاء إلى علبة من تلك العلب المنتشرة في أرجاء الشّقّة فقطعها نصفين بسكّين المطبخ وصبّ في قعرها حثالة الشّاي... امتدّت يده إلى العقب فحسا حسوة، ثمّ نظر إلى أقصى الغرفة حيث كان ينام صديقنا الثّالث الّذي أفرط في الشّراب... قال مواصلا:

- كان الخوف آخر ما أفكّر فيه... كنت أخشى أن أضعف، لذلك كنت دائما متيّقظا... حتّى النّوم إذا ألمّ بي كنت أحاول أن أحوشه، لا بدّ أنّ أظلّ صاحيا إلى النّهاية، لا يمكن أن يأخذوني على حين غرّة، كنت أعرف أنّهم سيجرّبون كلّ شيء حتّى يضطرّوني إلى اعتراف من أيّ نوع... أنا لم أفعل شيئا أعترف عليه، وما فعلته كان بدافع القناعات الّتي آمنت بها وسأظلّ وفيّا لها حتّى لو أخذوني إلى حبل المشنقة...

يتوقّف...

وجودي لم يعد يعني له شيئا، وهو لم يعد يعنيه أن يقنعني بقدر ما كان يريد أن يقنع نفسه بأنّ كلّ ما فعله، وما سيفعله - إذا قدّر له أن يفعل شيئا ما، كان دافعه إيمانا صادقا أنّه بالإمكان أن يكون هناك عالم أفضل من الّذي نعيش فيه... أنّ هناك عالما في مكان ما، مازال في طفولة دائمة لم يطله الهرم والشّيخوخة...

أصغي إليه من جديد، وهو يقول:

- لم يكن يعنيني الألم، فقد جرّبته وتعوّدت عليه، وإنّما ما كان يعنيني وأفكّر فيه باستمرار أثر الصّدمة... الانفجار الّذي لا شكّ أنّه سيحدث في أيّة لحظة إذا علمت والدتي أنّي داخل زنزانة بالكاد تسمح باستيعابي...

***

الزّمن يتمرّد، يرفض أن يترك الأشياء تمرّ بسلام، يعود القهقرى، وينطلق في أحيان كثيرة إلى الأمام دون سابق إنذار، يستثير الذّاكرة السّاكنة ويحوّلها إلى برك وحمم فائرة، فتتداخل الحكايات إلى درجة الفوضى، وتتشابك الخطوط الأكثر تنافرا، ويسود شيء من الفوضى الطّاغية... صور الأشخاص، الّذين اعتدت عليهم، واعتقدت، في وقت ما، أنّه صار لك من القدرة ما يمكّنك من التّمييز بينهم دون عناء، والأشياء الأقرب، الأكثر حميميّة، وهي تتشكّل من عدم ما، من فراغ، لتأخذ فيما بعد شكلا حقيقيّا، يكفي أن تتخيّله حتّى يتجسّد أمامك، والأحلام الرّابضة دوما على التّخوم وما تعتم أن تتحوّل، في لحظات بعينها، إلى كوابيس، والهواجس، والسّفر عبر المسافات، خلف ذاكرة ما، أو بعض من ذكرى... كلّ ذلك يختلط عليك الآن ويتشوّش، يتحطّم على صخرة اللاّمعقول، ويغدو جزءا من منطق آخر، لا يعرف الاعتياديّة أو الانتظام، ويبحث لنفسه عن مكان في الظّلمة المعتمة، وبين الأشكال والألوان الأكثر تمرّدا...

الرّيح تفحّ فحيحا متواصلا، تداهمك، تهاجمك كما لو كنت عدوّا، تجتثّ الأشياء الأكثر هشاشة، وفي ذروة الانتشاء تغترّ بقوّتها فتعتقد أنّك من ضمن الأشياء الهشّة، تستجمع كلّ قواها، ترتدّ نحوك وهي تروم أن توسّع مداها... وفي طريقها تنتقم لنفسها فلا تترك شيئا: تسحب النّضد، تبلغ مدى معيّنا ثمّ تتوقّف، تسقط بعض الكؤوس،

وينسكب بعض الماء، وتشعر إذا خضّتك الرّيح أنّها توشك أن تقتلعك من مكانك... تمارس هواية من نوع جديد: التّجاهل، رواقيّة بلا حدود، وأنت تشعر بتلك الحرارة في عينيك، وكمّ هائل من الغبار وهو يتسرّب عبر خياشيمك إلى دواخلك...

يقولون هنا:

- الرّيح الصّوري، وموسمه قد حان؛ لا يشبه أيّة ريح أخرى، وعند حلوله تشعر أنّ كلّ شيء فيك ينقلب رأسا على عقب، وحتّى المشاعر تغدو زئبقيّة قابلة للانفجار في أيّة لحظة!!

أتطلّع إلى صديقي «ع»... أراه بعيدا، وربّما كنت أنا الّذي رحل بعيدا، كان ما يزال يتحدّث، إلاّ أنّي تهت وسط دوّامة الحديث، لا شكّ أنّه تكلّم كثيرا وقد أدركت ذلك من عدد الأعقاب في المنفضة... كان إذا تكلّم يسرف في التّدخين، وكان إذا دخّن يحلو له أن ينساب كما الماء، يشفّ وترقّ مشاعره فيحكي ويحكي، ويتطلّع إليّ من حين لآخر، يريد أن يرى أثر كلامه على ملامحي، وأسرح معه، أشرد إلى مجاهل أخرى، أرى كلّ شيء كما لم يكن من قبل، وأمعن في التّخوم فأكتشف أنّه بالإمكان اكتشاف عالم غير العالم، ووجود يسع النّاس والأشياء جميعا...

كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة، وكانت المدينة تستعدّ أن تنغلق على نفسها حين تحرّكنا صوب الرّصيف وغيّبتنا الظّلمة وسط ستائرها الكثيفة!!

-٤-

... أيّة لهفة؟ أيّ إحساس مسيطر بالهروب، رغم أن ليس هناك ما يدعو إلى العجلة؟... سيكون الصّيف، وتكون الحرارة، وتكون السّاعات الطّويلة، ورغبة جامحة في التّأسّي في خضمّ الصّمت

والسّكون البليدين...

كان المكان - المكان بأسره - كلّه ملكا لي، إلاّ أنّه لم تكن لديّ الرّغبة في اكتشافه؛ قد أكون سئمته، وقد أكون كرهته لكثرة ما تآلفت معه، وقد أكون أيضا نقمت عليه لأنّه سيظلّ دائما كالشّوكة في الحلق يذكّرني بمأساة عمرها أكثر من ثلاثة أشهر- تسعين يوما، ألفين ومائة وستّين ساعة، مائة وتسع وعشرين ألفا وستّمائة دقيقة بتمامها وكمالها...

لكن تلك حكاية أخرى! وللمأساة تفاصيلها، منها ما أشعر حياله بالخجل، ومنها ما أريد نسيانه، نسيان أحداث بعينها، نسيان الأشخاص الّذين تسبّبوا بهذه المأساة، وحتّى المشاعر الّتي تولّدت على امتداد تلك السّاعات والدّقائق!!

... الحرارة، مشبعة برطوبة قاسية، والرّطوبة ترين، دون رحمة، تجعل الجسد دبقا، تلتبس بتلافيف الدّماغ، فيصير الدّماغ رخوا، ومع الرّخاوة تأتي التّحولات، والتّشوّهات أيضا!... كنت أعي أنّي أتوجّه نحو الشّقّة، أنّي أتوخّى المسار الّذي كنت أسير فيه دائما، نهاية عام دراسيّ آخر، عام جديد ينضاف إلى العام الّذي سبقه، وقرار راسخ في البقاء، في تفادي ما يمكن أن يترتّب عن عودتي فيما إذا قرّرت ذلك، لوعة اللّقاء أو الغياب، دون استعداد نفسي، الخوف، بلى الخوف من المكان، وعليه، ربّما تغيّر كثيرا، إلى الدّرجة الّتي يمكن أن أنكره فيها، ما يمكن أن يقوله الأصدقاء عنّي، كلام كبير، ضجّة وعتاب، وربّما انتهى العتاب إلى لوم وتقريع، ومقاطعة... أعترف أنّي مقصّر، وأنّي طوال الفترة الماضية لم أتجشّم حتّى عناء الكتابة، وإرسال مكتوب أبعث فيه التّحايا والسّلامات، وأسال عن الحال والأخبار، وسيكون من حقّهم أن يغضبوا، أن يبدوا استياءهم، وأن أتحمّل نظراتهم القاسية دون احتجاج أو ردود فعل... هم الأصدقاء، قبل كلّ شيء وبعده، هم الّذين تركتهم ورائي، ولم أنسهم رغم أنّي لم أبرق إليهم أو أكاتبهم، كنت

دائما أعتقد - ولا أعرف لماذا - أنّ الكلام الكثير ينتقص من المحبّة، وأنّ المكاشفة الدّائمة يمكن أن تفسد القلب، وتلوّث المشاعر... خطأ؟!... ربّما! ولكن هذا ما حصل على كلّ حال.

تقودني قدماي... أتعثّر، ليس جرّاء التّعب والتّرهّل رغم أنّهما صارا عدوّين ملازمين، وإنّما نتيجة الضّغط النّفسيّ الّذي أخذ يتعاظم بداخلي منذ أن أخذ صدى أصوات محرّكات سيّارات التّاكسي الّتي أقلّت آخر الرّاحلين يتلاشى في ذهني شيئا فشيئا... توقّفت قليلا عند العتبة، ونظرت إلى الخلف، رفعت رأسي إلى الأعلى... كان نور الممرّ المفضي إلى الطّابق الأوّل مضاء، لم يحن المساء بعد وكان الوقت ما يزال مبكرا، الظّهيرة - رابعة النّهار!!... تأخّرت إلى الوراء وأطفأت النّور، كنت أريد أن ألقي نظرة أخيرة، لمحة نهائيّة على المملكة الصّغيرة الّتي أقفرت وصارت كلّها تحت تصرّفي... السّاحة المثقلة بالأتربة الّتي جلبتها معها رياح اللّيالي الماضية، شقّة المدير في الطّرف الآخر، ورفيف الأشجار المعمّرة وراءها تماما... كانت تلك الأشجار أشبه بلوحة، تذكّر النّاظر إليها بتلك الصّور المرسومة على البطاقات البريديّة، لا حركة، لا نأمة، والأغصان، الأوراق، كأنّ هناك من تعهّدها بقوانين وقواعد صارمة عن الانضباط والخضوع... من جيبي سحبت المفتاح، أدخلت المفتاح في الأكرة، صرّ... أدرته مرّتين، ودفعت الباب يملأني إحساس جديد لم أشعر به من قبل... كنت دائما أدرك أنّ هناك من يقاسمني شقّتي - أحد الأصدقاء من نفس البلد، على ضفّة المتوسّط، جمعتنا ذكريات مشتركة وتواطؤ ضمنيّ منشؤه رغبة ملحّة في الهروب والبحث عن هدوء مستحيل... كنت - حتّى وهو غير موجود بالشّقّة - أحسّ به، أراه ماثلا أمامي، يأتيني صوته من الصّالة، أو أسمع صرير باب غرفته الكبيرة، أو يتناهى إليّ رنين هاتفه المحمول، يخاطب على الضّفّة الأخرى أشخاصا حميمين... يتساءل عن سير الأشغال في بيته الجديد، يطمئنّ على الجميع، ويذكّر خطيبته، وهو يهمس فترقّ مشاعره وتترقرق نبرته،

أنّه على العهد، أنّه لن ينساها...

لأوّل مرّة، منذ أيلول الماضي، أفتح الباب دون تحفّظ. أفتحه بحريّة، وبشيء من الخوف لا أعرف مصدره، وأدخل. ومع الخطوات الأولى، ينتابني إحساس لم أشعر به من قبل: أنّي وحيد، ومستوحش... ومعزول تماما!!

أدفع الباب، أغلقه، أتقدّم إلى الأمام... في وقت ما، يهجس بداخلي صوت خفيّ، شيء ما يقول لي إنّ الباب ما يزال مفتوحا، أتراجع، أمسك بالمقبض المعدنيّ، أعيد المفتاح إلى الأكرة مرّة أخرى وأديره، أتأكّد أنّه مغلق...

لم تكن لديّ أيّة فكرة واضحة عمّا يمكن أن أفعله في اللّحظات الأولى، ممّا دفعني أن أستدعي أشياء بعينها وأن أجرّبها الواحدة تلو الأخرى منقادا إلى رغبة غامضة في الخلاص... كانت الشّقّة ما تزال تحت تأثير نظام ساهم في إرساء الجانب الأكبر منه زميلي الّذي يقاسمني الصّالة، وغرفتي الحمّام، والمطبخ، ويستأثر لنفسه بغرفة النّوم الكبيرة الّتي تفتح مباشرة على الرّواق الضّيّق الطّويل؛ وكنت أشعر في داخلي، في لحظات معيّنة، بالاحتجاج على تفاصيل كثيرة تتعلّق بذلك النّظام - الإصرار على تحطيم كلّ الحواجز، تعرية الشّقّة تماما وجعلها عرضة للنّظرات المتلصّصة، التّخلص من بعض السّتائر الّتي كنت أحرص على شدّها إلى النّوافذ الّتي تفضي إلى الباحة الخارجيّة...-، إلاّ أنّي كنت أجترّ غضبي دون أن أجرؤ على مواجهته. بعض التّغييرات الطّفيفة كنت أقوم بها في غيابه، أحاول أن أوفّر ولو جانبا بسيطا من الحماية، لا أصوات، لا ضجّة أو ضوضاء، وحتّى التّلفزيون، قبل أن أشعله، كنت أحكم إغلاق الأبواب والنّوافذ، حتّى لا يصدر من داخل الشّقّة ما يمكن أن يشي بوجود أشخاص أو حياة من أيّ نوع... وإذا كنت متحصّنا، تواربني الاستحكامات الّتي كنت أتفنّن في القيام بها، فإنّ ذلك لا يمنع - في أحايين كثيرة - بعض المنغّصات الّتي تأتي في شكل

مضايقات عابرة. ثمّ ما فتئت تلك المنغّصات الصّغيرة أن تحوّلت إلى هجومات شبه يوميّة يقوم بها أولئك الصّغار، الّذين كانت تضيق بهم الأمكنة والمساحات فينسحبون إلى الملجأ الأثير لديهم - المكان المفروض أنّه شرفة، والّذي يتّصل بالصّالة وغرفة زميلي الكبيرة ببابين، كانا ينتهيان في الأعلى بواجهتين زجاجيّتين؛ ولأنّ تينك الواجهتين لا تحجبان شيئا في الدّاخل، ولأنّ الصّالة كانت «فضاء استراتيجيّا» تضمّ، إضافة إلى جهاز التّلفزيون، عددا من الأرائك والكراسي، وأريكة طويلة لطالما اتّخذتها سريرا في الكثير من اللّيالي، ومكتبة خشبيّة - بقايا من زمن بعيد يعود إلى عشر سنوات إلى الوراء، تعبق بروائح شتّى، جهد أحد المدرّسين «السّريلنكيّين» أن يدفع إليها بكلّ ثقله الثّقافي والدّيني والاجتماعيّ، والوطنيّ أيضا: أناجيل صغيرة، مطويّات، أعداد شتّى من مجلاّت محلّيّة مكتوبة باللّغة الإنجليزيّة، مجلاّت كبيرة متناهية في الكبر، وأخرى صغيرة إلى الحدّ الّذي يمكّنك من طيّها ووضعها في جيبك، رسوم مطبوعة على أحدث طراز وبأدقّ التّقنيّات تمثّل بوذا في جلسته الخرافيّة، نتف من رسائل، جرائد كثيرة... ببساطة عالم بأسره، يذكّر من يراه أنّ صاحبه لم يتحوّل، لم ينتقل إلى غربة، أنّه مقيم على الرّغم ممّا توحي به المؤشّرات، وأيضا تلك الحكايات الّتي كانت تروى على ألسنة من عرفه...

***

[«نهال سنغ»، صار له أكثر من عشر سنوات بمدينة «صور»، مدرّس لغة إنجليزيّة... بعض المدرّسين الموجودين بالمركز يؤكّدون أنّه درّسهم... يبدو أصغر من سنّه الحقيقيّ بكثير، وقد توصّلت إلى ذلك الانطباع من صورته الّتي أخذت له مع بعض الأصدقاء، قميء الجسم، ذو شارب، يرتدي قميصا وبنطلون «جينز»، في السّنة الّتي غادر فيها على إثر القرار الّذي يقضي بإنهاء خدمة كلّ المدرّسين الّذين صار لهم عشر سنوات أو أكثر بالبلد، اصطحب زميلا له «سريلنكيّا» إلى

المنطقة الصّناعيّة وأوصى بإنجاز صندوق كبير الحجم حمل فيه كلّ أشيائه - عفوا، حمل فيه ما أمكنه حمله، وقد تمّ كلّ شيء في الشّرفة لأنّ الصّندوق كان من الكبر بحيث عجزوا عن إدخاله إلى الشّقة، كان يوما غير عاديّ... كان شبه احتفال ساهم فيه الجميع، المدرّسون العرب، أصدقاؤه، وغير العرب... كان نهال محبوبا...! كان «شيئا» من التّاريخ، ولأنّه كذلك سيظلّ في الذّاكرة، سيصبح جزءا من الموروث، ولن ينسى بسهولة!!»]

***

البرم... الضّيق المستبدّ، ليس بنفسي فحسب، وإنّما أيضا بأولئك «الشّياطين» الّذين لا أعرف كيف ولا متى ابتليت بهم على وجه التّحديد؛ كانوا هم سبب برمي وضيقي بالدّرجة الأولى، لا يتركون شيئا، مهما كان غير متوقّع إلاّ وفعلوه، حتّى مجيئهم كان غير متوقّع في أغلب الأحيان، دائما يأتون على غير انتظار، وحين أكون أبعد ما أكون عن التّفكير فيهم... تساءلت مرارا، وأنا أنتفض على الأريكة، ثمّ أثوب إلى نفسي فأتدارك ما يمكن أن يشي بوجودي بالشّقّة: «ليس الذّنب ذنبهم على كلّ حال!! الذّنب ذنب الكبار الّذين يريدون دائما أن يتخلّصوا من صغارهم حتّى يخلو لهم الجوّ في شققهم للقيام بـ «مهمّاتهم» الصّعبة والسّريّة!!»... إذ أفكّر في ذلك، إذ أتخيّل أولئك الكبار وهم يأكلون ويشربون، ثمّ وهم يضحكون من قلوبهم، ثمّ وهم ينسحبون أخيرا إلى تلك الغرف السّريّة الّتي عرفوا كيف يؤثّثونها ويحجبونها، ليس عن أنظار الآخرين، ولكن أيضا عن أنظار أبنائهم، وفي أوقات محدّدة كانوا يعرفون متى يختارونها، أصاب بهبوط نفسيّ، وأحسّ بانتكاسة لا شفاء منها... لماذا، من بين العمائر الثّلاث، لا تروق للصّغار إلاّ عمارتنا، ومن بين الشّقق لا تعجبهم إلاّ شقّتنا، أنا وزميلي، ومن بين الأماكن لا تحلو لهم إلاّ الشّرفة؟! هل كانوا يدركون بغريزتهم الطّفوليّة أنّ الصّالة

المكان المفضّل لديّ، وأنّه في الوقت الّذي اختاروه هم للهوهم أكون أنا في الصّالة، أتفرّج على التّلفزيون، أو أستمع إلى الموسيقى، وأنا أضع السّمّاعة على أذني حتّى لاتتناهى الأصوات إلى الخارج؟! وهل، لأنّهم كانوا يعرفون ذلك، يرومون إزعاجي والانتقام منّي بشكل ما؟!... كنت أتخيّل أشياء، كنت أطرح أسئلة في حالة الغضب، أحسّ بالقهر والانسحاق، أحلّق في الفضاء وأتشتّت، وأجدني أهوّم بعيدا، تتوارد عليّ الأجوبة والكلمات والمفردات دون إرادة منّي، وكنت أتوقّع أشياء دائما، وفي كلّ لحظة... في وقت ما أسمع ضربا شديدا على النّافذة، وقع حجارة مختلفة الأحجام مرفقة بصياح حادّ وضحكات معربدة ربّما كانت لا تتناسب مع السّنوات القليلة الّتي كان أولئك الصّغار يحملونها وراءهم... الجناية! الضّريبة المدفوعة سلفا! تتعلّم بسهولة وقد لا تنقل إلى الآخر شيئا ممّا تملك، يكون لزاما عليك أن تنسى دون شعور بالذّنب، حتّى نفسك، أن تقدّم بيديك، وعن طيب خاطر ضحاياك الّذين ليسوا - في الحقيقة - سوى أبنائك فلذة كبدك، في بلد لا يختلف فيه الكبار عن الصّغار، يصيح الصّغير هنا، يعربد، يقول كلاما كبيرا، ولأنّه تربّى خارج البيت، بعيدا عن أبويه، فقد انتقل إليه كلّ الوباء المنتشر كسموم الخماسين في الخارج... في وقت آخر، يخيّل إليّ أنّ الشّرفة قد تحوّلت إلى مسرح كبير، يضجّ بالحياة، ليست الحياة المعتادة، ولكن تلك الحياة الّتي لا تختلف كثيرا عن الفوضى؛ وفوضى الكبار غير مرغوبة وقد تسبّب الكثير من الأضرار، فما بالك بفوضى الصّغار، صغار أقرب إلى العدوانيّة، تعلّموا كيف يردّون عليك بفظاظة، وكيف يلقمونك حجرا إذا ضحكت في وجه أحد منهم!!... يعنّ لي أن أرى المشهد عن قرب، في الحقيقة كنت غير قادر على السّيطرة عليه، وما دام الأمر كذلك فلا أقلّ من أن أراقبه، أن أرى بعينيّ البلاء الّذي قيل عنه قديما «يأتي إلى حدّ عندك، ودون استئذان!!»... أخطو خطوات على أطراف أصابعي، إلى أن أبلغ النّافذة، أزيح طرف السّتارة

قليلا، لا يهولني المنظر بقدر ما يهولني العدد، أكثر من اثني عشر ولدا وبنتا، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثّالثة عشرة، لا تعرف متى يسكتون، يتكلّمون جميعا، وفي نفس الوقت، أحيانا كنت أتعمّد أن أمسك بطرف الخيط، أجهد أن أفهم ما يقولون، أحاول الإلمام ببعض ما يشغلهم، ولكنّ المحاولة كانت تفشل في كلّ مرّة... أتحيّن فرصة انتهائهم من لعبهم وانسحابهم، أتسلّل إلى المكان خفية، أشمله بنظرة سريعة، فأصاب بالرّعب، هل يمكن أن تتحوّل الشّرفة في ذلك الوقت القصير إلى ما يشبه المزبلة؟! هل يمكن أن تتحالف كلّ الأشياء ضدّي... حتّى الفوضى؟!!... أشياء أعرفها وأخرى لا أعرفها: حجارة، طوب، أشكال هندسيّة غريبة وبيوت فوضويّة، أعقاب زجاج محطّم، دمى منتوفة الشّعر، و... بقايا ضحكات مزعجة كنت أسمعها تتردّد في ذهني كأنّها رنين جرس أحسّه ينصبّ على أذنيّ انصبابا!!

... أوف! أوف!

لاتظنّ أنّك تسمع مطربا من أولئك المطربين الشّاميّين، الّذين أصبحوا ملء العين والبصر، ليس في الشّامّ فحسب، وإنّما في كلّ مكان من أرض العرب، وذلك لقدرتهم الخارقة على دغدغة القلوب وهزّ الأفئدة، سيّما إذا انسابت حناجرهم بتلك الألحان المرتجلة الّتي هي أشبه ما يكون بالحرير، أو الزّقزقة تأتيك ذات صباح شفّاف، متعفّر بمسحة ضبابيّة، من على شبّاك شرفتك في الطّابق الأوّل، أو من بين أغصان شجرة عملاقة، تطلقها عصافير صغيرة... صغيرة جدّا، في حجم راحة الكفّ، تتمنّى وأنت تسمعها لو أنّها دفدفت بأجنحتها الأثيريّة وجاءت تسعى حتّى تستقرّ في حضنك، تناغيها وتناغيك، وتبثّها شجون أربعة عشر قرنا من الوجد المكبوت والصّبابات الّتي لم تشبع بعد... الصّوت من الدّاخل، من باطن الباطن، غير مسموع غير أنّي أحسّه في كلّ ذرّة من ذرّات الهواء الّتي أتنفّسها، أشعر به يلفّني كما تلفّ الحيّة الرّقطاء ضحيّتها، تبدأ في مخاتلتها شيئا فشيئا، وهي تتقدّم

ببطء، تحاصرها حتّى تجرّدها من آخر محاولة في الخلاص، وفي اللّحظة المناسبة تنقضّ عليها، تهصرها وهي تنهال بأسنانها السّامة على الرّقبة، تبتعد عنها قليلا، تراقبها وهي تتعثّر في خطواتها، تترنّح كالسّكران، تسقط، دون أن تعلم لماذا ماتت أو من قتلها... أنا تلك الضّحيّة!! ليس تلك الضّحيّة تماما، ولكن شيئا يقرب منها، محاصر من داخلي أكثر من الأشياء المحيطة بي، معزول، مجرّد من كلّ الأسلحة، تحطّ عليّ مشاعر شتّى، لا رابط بينها، أليفة بقدر ما هي متوحّشة، خشنة وناعمة في نفس الوقت، ضاجّة إلى حدّ الموت، مغرية كما لو كانت تذكّر بلحظة غائمة، لحظة محبّبة من لحظات العشق والميلاد... اخترت، ولم يختر أيّ أحد بالنّيابة عنّي، ومن كلّ قلبي كنت أنتظر حالة الفراغ هذه، حين انتهاء كلّ شيء، حين خلوّ الفضاء، كي أتفرّغ للصّمت، وحتّى أتمكّن من إغماض عينيّ وأخذ نفس عميق - أخذه بحريّة وأنا أعبّ الهواء بفمي وخياشيمي إلى رئتيّ، ثمّ أتحرّر منه من جديد كي أبدا محاولة أخرى... عبّ وإطلاق، وعبّ وإطلاق مرّة أخرى، إلى أن تغدو اللّعبة مملّة، وتنتابني الرّغبة في تجربة شيء آخر؛ ولكن أيّ هواء؟! أيّ شيء هذا الّذي أريد أن أتنفّسه؟!... الحرارة القاهرة، الكثافة الهيولانيّة الّتي لا تشبه شيئا غير نفسها، ولا تملك إسما محدّدا ينعتها أو يحيل عليها، كما لو كانت مجرّد حالة، مجرّد وضع لما قبل الخلق، يفزع لأنّه غير مرئيّ، ويظلّ كذلك إلى أن يتأكّد أنّ الفزع قد انقلب إلى رعب، والرّعب قد صار رهبة مكتومة، والرّهبة قد اختصرت في تلك النّظرة اللاّإنسانيّة، نظرة قد امتزجت فيها الحياة بالموت، ثمّ انطفأت الحياة فجأة، فغدت النّظرة خلاصة للحظة النّزع الّتي تجلّ عن الوصف أو الكلام...

الشّمس في المكان كلّه، ضيف ثقيل غير مرغوب، وهو لم يكن مرغوبا في يوم من الأيّام؛ فضائحيّ إلى أبعد الحدود بقطع النّظر عن النّوايا، وهي ليست دائما بريئة، طفيليّ جرّه فضوله، وقاده بحثه الّذي لا يفتر إلى البدايات، إلى الكوى الغامرة، والشّرّاعات المفتوحة...لا شيء

غير مرئيّ، وكلّ شيء يحيل على نفسه بوضوح، بداية من أكوام الأتربة في المدخل، إلى المكنستين الهزيلتين اللّتين كانتا تستندان في تراخ إلى حائط الحمّام، واللّتين لاتملك إذا نظرت إليهما إلاّ أن تتفاجأ بالسّؤال يفرض عليك نفسه: كم عمرهما؟، وركام الأحذية الّتي تصطفّ في نظام غريب، أحذية تختلف من حيث الحجم والشّكل، ليست كلّها صالحة للاستعمال، منها ما اشتريته منذ سنوات، ومازلت محافظا عليه، ربّما كأثر لا غنى عنه يذكّر بالماضي، يحيل على تاريخ ما، حتّى ولو كان هذا التّاريخ تافها، ليس فيه ما يدعو إلى الافتخار لأنّه عار كلّه، مجرّد كومة أو أنقاض أهيلت عليها السّنون، في فوضى ودون نظام، ومنها ما اشتريته منذ وقت ليس ببعيد، في فورة حماس، حين ذهب الحرص وهفت النّفس إلى بعض التّغيير... (ما من غرابة، كان الأمر بسيطا جدّا، ولا يحتاج إلى كبير إيضاح: كلّ الأيّام سواء، يأتي يوم جديد حينما ينقضي اليوم الّذي قبله، ومن قال إنّه دائما هناك جديد تحت الشّمس يبدو أنّه كان شخصا خارج المكان والزّمان، كان بمعنى ما خارج التّاريخ، لم يعش التّجربة كما كان يجدر به أن يعيشها، لم تمتزج روحه بحرارة عمرها من عمر الأرض، تظلّ متوهّجة على امتداد السّنة، لا تكاد تخفّ حتّى تعود مرّة أخرى، وبأكثر حدّة، كأنّ لها مع أهل الأرض ثأرا لا يمّحى: لم يمت في اليوم ألف مرّة، وهو يرى بعينيه موته، يودّ لو ينقذ نفسه، يودّ لو يتعلّق بقشّة النّجاة، ولكن في وقت ما يهمد كلّ شيء فيه، ليست الأعضاء فقط وإنّما المشاعر أيضا، ويبلغ به القرف مبلغا يتمنّى فيه أن يلفظ الرّوح، وبسرعة: لم يشعر - في أحايين كثيرة - أنّه كلّما مرّ عليه عام، في أتون أقيانوسه الأرضيّ البعيد، تأكّد فقدانه لذاكرته، وتحوّل ماضيه العتيق إلى غمامات أو نقاط سود تغزو أفق رؤيته كلّما حدّ نظره فجأة ثمّ أغمض عينيه على آلاف الأحلام والهواجس والخيالات الّتي فقدت شكل الأحلام والهواجس والخيالات، ومنذ زمن بعيد، موغل في القدم: لم يصب

بالعطالة، الانتفاء، الضّياع والتّلاشي، التّشظّي على الحدود العصيّة، على الحوافّ، الشّفير المعلّق بين السّماء والأرض، وهو لا يعلم هل هو حقيقة على الأطراف، ربّما في زمن غير الزّمن، ومكان غير المكان، حيث المعرفة مجرّد وهم، كذبة صنعها العلماء ومختلقو التّرّهات وصدّقوها في لحظة من لحظات التّجلّي، وحيث العقل مجرّد أداة لتنظيم الفوضى، فإذا عمّ الهباء وانقلب العالم كلّه إلى رقعة لليباب عاد العقل من جديد إلى جنونه الجنينيّ ليبشّر بفلسفة الفزع والرّوع... حيرة الأسئلة! كيف تتماسّ الأشياء؟ وكيف تلغى الحدود؟ ومتى ينتهي الوعي ليعوّضه وعي جديد؟!! وكيف تنقلب المواقع وتتبادل المفاهيم وتغيّر الحقائق حقائق أخرى؟! هل يحصل كلّ ذلك من تلقاء نفسه أم أنّ الإنسان هو الّذي يتدخّل في اللّحظة المناسبة ليضفي لمسة إنسانيّة أخيرة على عناصر الكون والوجود؟!!... وأخيرا، ألا يحتمل أن يكون كلّ ذلك مجرّد إرهاص نفسيّ، ليس حقيقيّا بقدر ما هو متخيّل، انتحله الإنسان ليؤكّد عظمته الوهميّة وتفرّده في أعلى سلّم الهرم الحيوانيّ - أو ليس يطلقون على الإنسان صفة الحيوان ويتبعون ذلك بعشرات النّعوت: الحيوان المفكّر، الحيوان النّاطق، الحيوان الاجتماعيّ، الحيوان السياسيّ، إلخ؟... لم يعرف أو لم يحاول أن يعرف حينما جرّب كلّ الوسائل واختبر النّتائج بعد أن وازى المنطلقات بالمحصّلة النّهائيّة أنّ أيّ شيء هنا، مهما كان مبتذلا وتافها، من شأنه أن يضفي مسحة - لا يهمّ أن تكون حزينة أو أيّ شيء آخر - على حياة الرّتابة الّتي يعيشها، ولأنّني . شخصيّا - انتهيت إلى تلك القناعة فقد اخترت أن اشتري عددا من البنطلونات والقمصان والأحذية... للتّغيير، لأنّه دائما لا جديد تحت الشّمس!!)... كثيرا ما فقدت توازني، وأنا أسعى أن أعدّل خطواتي، أتعثّر، وفي كلّ مرّة أطرح التّحدي على نفسي، وآلو أن لا أنسى في محاولة لإثبات السّيطرة والقدرة على تأكيد الذّات، أجدني أضيع وسط المتاهة، تتذرّى الوعود وتسقط التّجليّات الكبيرة،

وبدل أن أثبت أراني غير قادر حتّى على لملمة ضعفي، فما بالك بكسب رهان صعب دون الفوز به خرط القتاد. في اللّحظة الأخيرة أستند إلى الدّولاب المفتوح، كان مفتوحا مذ عرفته، بقيّة أخرى من بقايا «نهال»، خلّف فيه أشياء، واضطررت أنا وزميلي، نتيجة تراكم مشترياتنا في كلّ مرّة، إلى مراكمة أشياء جديدة فيه: ألواح عديدة، ربّما مضت عليها سنوات وسنوات، لا أدري فيما كان يستعملها «نهال»، أسياخ ذات مقابض خشبيّة، سكاكين مطبخ، علب فارغة، وقناني خمر، فارغة هي الأخرى، نصحت زميلي حين أصرّ على التّخلّص منها أن نحتفظ بها كي لا يذهب خيال من يراها مرميّة في سلّة المهملات الجماعيّة في الباحة الخارجيّة بعيدا؛ قلت له:

- ربّما ظنّ من يراها أنّنا نحن من...

ولكنّه قاطعني في حزم قبل أن أكمل:

- فليظنّ ما يظنّ...

ثمّ صمت قليلا ريثما التقط نفسا عميقا:

- لا داعي للقلق ما دمنا واثقين من أنفسنا.

ولم أعقّب على كلامه لأنّي كنت، قبل كلّ شيء وبعده، أختبر ردّة فعله... لم أكن أهتمّ كثيرا لكلام النّاس، وهو يعلم ذلك جيّدا، ولكن كانت تلك فرصة نادرة لافتعال حديث، حتّى ولو كان ذلك الحديث مرتجلا وغير ذي جدوى...

... كان الدّولاب مستطيل الحجم، ذا مصراعين متعامدين، مطليّين باللّون البنّيّ؛ وكانت به لوحة تحكّم، بها أزرار لتغيير درجة حرارة الماء بغرفة الاستحمام، وشاء سوء الحظّ أن يحدث عطل بتلك الأزرار فظللنا نغتسل بالماء البارد على امتداد السّنة، سواء في الشّتاء أو الصّيف؛ وقد حاول زميلي مع كهربائيّ المركز، وجرّب أن يصطحب الميكانيكيّ الهنديّ إلى شقّتنا، ولكن ذهبت كلّ محاولاته أدراج الرّياح... كنّا في الحقيقة نقنع بالقليل في هذا البلد المعزول المتباعد، ونقنع

بالأقلّ في مدينة «صور» - ليست مدينة «صور» الّتي تروي الأسطورة الفينينقيّة أنّ بحّارا إسمه «قدموس» هو الّذي بناها، وعندما شيّدت المدينة تحوّلت إلى مركز هامّ من مراكز التّجارة في العصر القديم، شأنها شان بقيّة المدن الأخرى... «بيروت» و «صيدا» وغيرهما من المدن، وإنّما «صور» الأخرى، ربّما اقترن إسمها أكثر ما اقترن بإسم ذلك البحّار الّذي حاول «فاسكو دي قاما» مداراته. فلمّا عجز عن ذلك اقتاده بالقوّة، ذليلا يرسف في قيده، ليدلّه إلى الطّريق المؤدّية إلى «الهند»... «أحمد بن ماجد»، لم أقرأ عنه في الكتب، ولم أسمع حكايته من أحد مدرّسي التّاريخ، أو الشّيوخ الّذين قابلتهم هنا، وكان يحلو لهم - نظرا للفراغ وطول السّاعات وحياة التّبطّل - أن يفاخروا بالقليل المتبقّي من تاريخ عريق ليس فيه ما هو جدير بالمفاخرة، اللّهم إلاّ ما كان من بحار متلاطمة من الدّماء، والخيانات الّتي أجّجت نار الفتنة في مطلع الإسلام، وأدّت في النّهاية، بعد ثمانية قرون، إلى سقوط غرناطة ونهاية حلم غير مضمون هرّبه عبد الرّحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم من بيت من البيوت الدّمشقية العتيقة إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة، أو الأندلس او «أندلوسيا»، كما أصبح يروق للكثير من الأوروبيّين أو المستشرقين أن يسمّوها... «أحمد بن ماجد» انطبعت صورته مبكرا في ذاكرتي، وأنا ابن تسع أو عشر سنوات، مازلت طالبا في المدرسة الابتدائيّة، تستهويني المغامرات، ومن بين المغامرات كنت أرتاح إلى الأحداث الواقعيّة - أشياء التّاريخ، ولعلّي كنت - بمعنى ما - متميّزا، ليس على الصّفّ كلّه وفي كلّ الموادّ، وإنّما في مادّة التّاريخ بالذّات... أظلّ السّاعات الطّوال أمام جهاز التّلفزيون، تغريني برامج بعينها، وإذا كنت أنتظر شهر رمضان بفارغ الصّبر لأتابع المسلسل «الدّينيّ»، فإنّي في سائر الأيّام كنت أتحرّق شوقا إلى ما يبثّه التّلفزيون من مسلسلات تاريخيّة، وهكذا تمّت معرفتي بـ «أحمد بن ماجد»... الآن لا أذكر إسمه إلاّ واستحضرت في ذهني صورة الفنّان

الّذي قام بتجسيد دوره - «محمود سعيد»...!!

لا أدري لماذا أصبحت ميّالا إلى الاستطرادات، ما يكاد يقرّ عزمي على الحديث عن شيء بعينه حتّى أجدني أضيع، أضيع تماما: تجتذبني الأحداث، أحسّ بحاجة قاهرة إلى الارتداد إلى الوراء، أذكر أشياء ربّما لم تخطر ببالي أبدا. فإذا خطرت أشعر بنوع من الحيرة والاستغراب: هل أنا الّذي أوجّه قوى الباطن بداخلي؟! أم أنّها هي الّتي توجّهني؟! من يتحكّم بمن؟! ما مدى العلاقة الّتي تربط الإنسان بالوجود؟! ومن يحدّد مثل هذه العلاقة؟! فإذا ما تحدّدت هذه العلاقة، فإلى ما ستؤدّي واقعيّا؟!

أعرف أنّها أسئلة، وأكثر من ذلك أسئلة محيّرة، ستظلّ دائما في حاجة إلى أجوبة، ولكن بدلا من ذلك سأضطرّ إلى حسم المسألة بكلّ بساطة، وسأقول حتّى لا أضيع مرّة أخرى:

- نقطة إلى السّطر!!

***

... كراكيب وهلاهيل، من زمن افتراضيّ أوجد له العلماء ما يناسبه من الحيوانات المنقرضة والكائنات الآكلة الأعشاب الخضراء، واللّحوم الّتي تضرب ألوانها إلى شيء بين الأحمر والأبيض، تجبرني على إحصائها كلّما مررت بها، على النّظر إليها كتجسيد فوضويّ لذيذ لحياة العزوبة المزمنة الّتي يعاني منها أقلّ من واحد في المائة - هو أنا ذلك الواحد بعد أن تآمر الجميع عليّ، فتزوّج من تزوّج، وطلّق من طلّق ليتزوّج من جديد، وبعضهم تزوّج ثانية، سرّا، في واحد من أحلامه الكثيرة الّتي لا تتوقّف أبدا عن الدّوران حول محورها الأزليّ... كراتين، مفارش قديمة، عطنة الرّائحة، ذهبت ألوانها وحالت، وسائد رخوة، وأنصاف قناني بلاستيكيّة اعتقدت دائما أنّها ضروريّة سيّما إذا حان وقت تنظيف الشّقّة، وهو وقت . لعمري- عصيب، يتمّ الاستعداد

له بالمكانس العاديّة والمطّاطيّة، وخرق من الخيش، والمنظّفات على اختلاف أنواعها، من معطّر وشبه معطّر، وحادّ، ويستنزف طاقة أكثر من خمسة أشهر من إجازة مطوّلة، خالصة المرتّب، بين المكتب والشّقّة، والشّقّة والمقهى، وأحيانا من المقهى إلى مقهى آخر في السّوق التّجاري، على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا... لم يكن لنا - في الحقيقة - خيار فيما نفعله، إذ كان لنا «ناصر» بالمرصاد... كان «ناصر» المسؤول عن السّكن بالمركز، لا يطمئنّ، ولا يهدأ له بال إلاّ إذا ألقى نظرة فاحصة ومتأنيّة على الشّقّة بما فيها، الغرفتين والصّالة، وخاصّة المطبخ والحمّام، ما يكاد يدخل حتّى يهرع إلى باب «التّواليت» فيفتحه ثمّ ينطلق رأسا إلى المقعد فيرفع غطاءه ثمّ يدسّ أنفه وكأنّه يختبر الرّائحة الآتية من الأعماق الباطنة المتخثّرة في قاع بلا قرار... كان يقول إذا وجد خللا ما، إذا لم ترق له الرّائحة، مخاطبا صاحب الشّقّة، وهو يحاول أن يرسم على وجهه سيماء من يشعر بأهميّته كموظّف يدرك أنّ له، من السّنة الإداريّة، يومين كان يمارس فيهما مهامّه بامتياز كمسؤول عن «الحمّامات والتّواليتات»، كما كان يحلو لصديق من أصدقائنا أن يقول، يوما في بدايتها على إثر العودة من رحلة السّتّة آلاف ميل بعد الإجازة السّنويّة ويوما في نهايتها إذا حان موعد السّفر وكان من الضّروريّ زيارة الشّقق للتّأكّد من نظافتها حتّى يوقّع على وثيقة إخلاء الطّرف وهو هادئ البال مرتاح الضّمير... كان «ناصر» يصعّد نظراته في مخاطبه، وهو يمسك بورقة وقلم كانا ضروريّين لتسجيل بعض الملاحظات عن النّظافة:

- لماذا لا تشتري «تيزابا»...

وبعد أن يصمت مليّا وهو يدوّن بعض الأشياء على الورقة، يضع كفّه على كتف محدّثه بتحبّب، ويواصل قائلا:

- شوف، يا حبيبي، لازم تحطّ تيزاب وايد حتّى يكون كلّ شيء نظيفا!!

ونضطرّ إلى مسايرته، لا نريد مناقشته حتّى لا نقع معه في إشكالات نعرف أوّلها ولا نعرف آخرها، وحتّى يوقّع لنا على الوثيقة الّتي من دونها سيكون من العسير علينا الحصول على الجواز والبدل النقديّ لتذاكر السّفر!!

... وأشدّ دفّتي الدّولاب إلى بعض وأغلقهما، وما تزال آخر البقايا تتراءى لعينيّ كما لو كانت كابوسا يأبى إلاّ أن يرافقني إلى مستقرّي الأخير... عصيّ، ليف، وبعض القطع الخشبيّة الّتي انتشرت فوقها حقول من المسامير كنّا نستعملها لتقشير السّمك، لم نبذل في مقابلها ولو فلسا لأنّها كانت «منتوجا محليّا» كان زملاؤنا في ورشة النّجارة يزوّدوننا به كلّ بعد «حين ومين»... وتغيم الرّؤية فجأة، يمتدّ البصر إلى نهاية الممشى، حيث يقوم باب غرفة زميلي كالطّود، وبالرّغم من أنّه كان مواربا إلاّ أنّي لم أجرؤ في يوم من الأيّام على فتحه... لم يكن من عادتي اختراق المجالات الغير المسموح بها، كان الفضول آخر ما أفكّر فيه، وذلك منذ السّنة الأولى الّتي اخترنا فيها أن نسكن مع بعضنا، يثق أحدنا بالآخر، ولم نكن نلجأ إلى لعبة المفاتيح، حتّى عندما كنّا نضطرّ إلى السّفر خارج المدينة!!

الآن، أدرك جيّدا أنّه بعد قليل سأفتح الباب، وسأحكم شدّ السّتائر على النّافذة الوحيدة، وبعد ذلك سأقرّب الحشيّة منها بحيث تحجبها تماما، وسأدفع إليها بالمكتب كي لا تتحرّك من مكانها... ثمّ سأعمد إلى السّرير الخشبيّ فأجعله كدعامة للباب الخارجيّ، وفي الأخير، وكي لا يفوتني أن أضع اللّمسة الأخيرة على المشهد بأكمله، سأدفع الكومودينو بمحاذاة الحائط إلى أن يسند السّرير والباب كليهما... كنت أتحسّب لأيّ طارئ مباغت، كنت أخشى أن يحدث ما لم يكن في الحسبان، كأن يتسلّل أحدهم إلى الدّاخل، وأنا غير موجود، فلا يدع شيئا قابلا للأخذ إلاّ أخذه!!

أعود القهقرى... أسحب المفتاح وأخرج... أجذب الباب وأغلقه بإحكام وأنا أعلم أنّ الخطوة التّالية ستكون الصّالة... سأقلب النّظام، سأجرّب أن أمارس شيئا من الإثارة منذ اليوم الأوّل، ربّما كانت الوحدة قدرا، وربّما كانت الأيّام الثّقيلة تتربّص، في الزّوايا وعلى امتداد الدّروب الأكثر إعتاما، ولكن لن أخسر شيئا إذا حاولت أن أقيم - ولو جسرا هشّا - مع العالم الصّغير المحيط بي...

* الصّالة:

[لم يبق إلاّ أن أمنحها إسمها، وقد أسبغت عليها من روحي ما لايمكن لأحد أن يسبغه على عزيز أو شيء أثير لديه... كنت وأنا أدور داخلها كالخذروف، وأنا أزيد احتجابها احتجابا، وأنا أحاول أن ألملم عريها وأغطّي كلّ شبر فيها، ثمّ وأنا أصاب بحالة أقرب إلى الشّطح عندما انتهيت من بناء لبنات النّظام- نظامي الخاصّ، كأنّما أجهّز عروسا لعريسها ليلة الزّفاف... كلّ شيء بداخلها كان فتنة من نوع خاصّ، تتعزّز، تتمنّع، تقتل إذا نظرت وهي لا تعني ذلك، والنّقاب يكاد يحجب الوجه كلّه إلاّ العينين المريضتين الدّاعيتين، تحتضنني وإذا ما فعلت ذلك أحسست، في وقت ما، كأنّما أعود من جديد إلى وضعي الجنينيّ محفوفا بالغشاء المشيميّ الرّقيق، يأتيني الوجود موصولا بأموميّة الحياة، وتنسكب البدايات في قالب النّهايات، وتغدو الفواصل مجرّد وهم من أوهام الخليقة البائدة؛ ألأنّ الصّمت هو الوجه الأخر للصّمت الّذي هو الصّخب الأرضيّ؟! ألأنّ الأوضاع كلّها ما هي إلاّ اختصار لوضع وحدة طارئة تحوّلت مع الزّمن إلى أصل من الأصول المؤدّية إلى ذوب العشق والتّجلّي، تؤطّر له مقدّمات الخطف؟! ألأنّ الإنسان ليس في الحقيقة اشتقاقا من الأنس- كما يعتقد البعض- وإنّما بالأحرى توليد لطاقة النّسيان على الاختفاء وراء أقنعة استطاعت فجأة أن تدمّر حواجز الوجود والتّاريخ فحوّلت الأزمنة إلى أزمنة شخصيّة يوظّفها

الفرد ويتصرّف فيها وفق حاجته الماسّة إلى «الميتامورفوس»- التّحول وفق آليات «الميتاكرونوس»... ألأنّ القدريّة الّتي كبّلت العالم في مفاهيم عن المدنيّة وحضارة الألفة والاستئناس، وموّهت على القيم الباطنة، بل وقمعتها، ليست في نهاية المطاف إلاّ أكذوبة جديدة من بين أكاذيب كثيرة قام عليها وجود الإنسان حتّى يبقى ويحفظ عليه حياته من الذّوبان والاندثار؟!... ماذا يعنيني من كلّ هذه الأسئلة، وأنا ما نأيت، ما اخترت أن أتوارب وأتباعد إلاّ لكي أتجنّب هذه الأسئلة، وأخلد إلى نفسي، أتتبّع ذبالة نشيد كنت دائما أسمعه إذا همدت الأصوات وتهافت المكان قبل أن تنسدل عليه ستائر كثيفة وطبقات من ظلمة داجية!!...

الفاتنة، المرماح، الهفهافة، الضّاجّة، المغناج، اللّعوب، الكاعب، الخريدة، ذات اللّبّة الريّانة، ذات الخدّ الأسيل والقدّ الأثيل، الملكة المتوّجة على كلّ ممالك الأرض، الأميرة ذات الإمارة، العلامة الفارقة الّتي تحدّد مواعيد الأوبة، غداة انسلاخ المساءات، ودقّ النّفير وهو يعلن اقتراب ساعات النّشوة والعربدة اللّيليّة، تأتي محتجبة وراء بيارق اللّذائذ، على جناح براق خرافيّ يعرف كيف يولّد الرّغائب، ويحيي الهمود الباطن... آنئذ يتوتّر الجسد، تتمدّد الأعضاء وترتخي، وتتدفّق الأمواه الكثيرة الّتي تحاصرها الدّواخل وتسيل، تعبر الأعالي والأسافل، تتخطّى كلّ المتاريس المزروعة على امتداد الحدود، الرّابضة كقدر لعين وراء الخطوط الحمراء... المتحاربون، الأعداء والأصدقاء، تحسّهم بداخلك، وليست المعركة خارج وعيك، على أرض محايدة، بل هي هناك، في ذلك المكان الّذي مازلت لا تعرف عنه شيئا، وسط حلقة متداخلة من المشاعر والأحاسيس الغير المحدّدة، والرّغبات الملوّثة، الضّائعة بآلاف الرّوائح المحرّمة، لكنّها آسرة إلى درجة القهر، وأنت تستحضرها وتنتشي لانسكاب فورتها وارتطام أمواجها العارمة وضجيجها المدمّر... مينرفا احتفاء مجوسيّ، أقرب إلى نرفانا تتداخل

فيها نرجسيّة الذّات بأيروسيّة تشكّلت عبر آلاف السّنين، ولدت مع الإنسان الأوّل، الإنسان القديم، قبل أن يتحلّل من عقد دمغه بها انتماء قدريّ إلى كائنات عديدة صنّفت في خانة الرّئيسيّات، ويهتدي إلى أسلوب جديد من وسائل التّجريب، عبر اختفاء النّتوءات والأخاديد وانتهاء باستعمال اليدين... اليدان وهما تستقيمان وتستويان!!... اليدان وهما تنطلقان في رحلة بحث طويل عن الطّوطم، طوطم الطّواطم، الرّمز المحدّد لرغبة غير مسمّاة، تستثيرها قوى باطنة في مسالك اللاّوعي، والمسارب الخفيّة «للّوبيدو» المتمرّد!!... اليدان وهما تكتشفان العالم المجهول، تؤثّثان الوجود فتعطيان الأسماء تباعا للمسمّيات، دون أن تنسى أن تعطي محدّدا ما، أن تضع على الأشياء الكثيرة نقطة استفهام تقود حتما إلى المنابع السّريّة الّتي تنتهي عند أودية الكشف والحلول... ألف باء، أبجديّة شيء فوق الحبّ، وبعد الرّغبة واللّذّة، بدايات النّهايات- منطلقات أحاسيس ستبقى في حاجة إلى إعادة النّظر بمفردات المعاجم والدّوائر اللّغويّة والموسوعات... في كلّ ليلة، في نفس الموعد، وبين نفس الأشياء الّتي رتّبتها بنفسي، ومع يقين ما فتئ يتزايد بالطّمانينة واستسلام مطلق لإرادتي أجبرت «الكلّ» عليه بعد أن أغلقت الباب بالمفتاح ودعّمته بالسّرير الخشبيّ الّذي كان موجودا في الصّالة... في نفس التّوقيت، السّاعة والدّقيقة، السّابعة أو بعد السّابعة بقليل، على الأريكة الطّويلة، ورائي النّضد ذو القاعدة الخزفيّة، وفوق النّضد الأباجورة، وعويناتي وكتاب ما... اصطنعت لنفسي طقوسا وانضبطت بتلك الطّقوس، ولعلّ ما شجّعني على ذلك حرارة الطّقس الّتي كنت أحسّها في كلّ مكان... كنت أتخفّف من كلّ ملابسي، وأظلّ في بنطلون قصير، وكنت أجلب بعض الأشياء الّتي لا غنى لي عنها من غرفة نومي، اللّحاف والمخدّتين الوحيدتين، فإذا ما ألقيت نظرة عجلى على ما حولي، وراق لي الجوّ، تمدّدت بتكاسل، وما ألبث أن تمتدّ يداي إلى العوينات والكتاب... أضع

النّظّارات على عينيّ، وأفتح الكتاب... السّفر الدّائم، التّدويم، الغيبوبة اللّذيذة الّتي لا يفرضها المرض وتأتي وحدها، دون استئذان، كطيف من أطياف العصر القديم، تحطّ من الأعالي القصيّة للأولمب الزّيوسيّ... يبدأ السّمر، ومع السّمر تأتي الخواطر، ويروق كلّ شيء، تتساوى المتناقضات جميعها ولا تعود هناك حدود بين المرغوب والمرهوب، وبين المسموح والممنوع، وبين المحظورات على اختلاف أنواعها ومراتبها... كنت كمن يحاول جاهدا أن يهرب من قيد ما، أو كمن كان مقيّدا مسلوب الإرادة على امتداد أشهر بطولها فاختار أخيرا أن يتمرّد، أن ينتقم لحرّيته السّليبة... «الدّنيا هانية»- حبّ وحرب (أيّها الماشي، ليس هناك طريق. ماتشادو)... طريق القصيبة (وحزنت الطّريق كثيرا واكتأبت، وفي الأخير ماتت من المرارة. من التّراث الشّعبيّ لقبائل إفريقيا الوسطى)... وصايا العراء (عندما تتفتّح الوردة، يتفتّح عالم معها. ألريك)... عصفور المسالخ...أنشودة الإيّاب... شعريّة الأرق... بقايا امرأة... الدّنيا هانية... رغوة الأرصفة... ساعات من سيرة ذاتيّة لمدينة... شاردة- حسّان بورقية... «عالم بلا خرائط»- جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرّحمان منيف، هاجس آخر من هواجس ما قبل الحرب وبعدها، تساءلت كثيرا بعد أن قرأت الرّواية مرّة، وقبل أن أعيد قراءتها مرّة ثانية: «لماذا هذا العنوان بالذّات، عالم بلا خرائط، وليس عنوانا آخر؟!» فكّرت في ذلك طويلا، واستغرقني السّؤال أيّاما بلياليها؛ في البداية اعتقدت أنّها مجرّد عنونة لرواية، وكما فعل عشرات الرّوائيّين برواياتهم، أطلقوا عليها من العناوين ما سمحت به قرائحهم في لحظات التّجلّي فعل مثلهم جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرّحمان منيف، غير أنّي لم أطمئنّ إلى هذا التّفسير... بدت لي التّرجمة الجغرافيّة الّتي حاولت أن أسقطها كإجابة على السّؤال لا تفي بالغرض خصوصا وأنّ الأحداث لا تتجاوز في مجملها بعض القرى الجبليّة، وتتمحور أساسا حول مدينة، على الرّغم من إحالاتها

الواقعيّة، إلاّ أنّ الرّوائيّين يصرّان- ولا أعرف لماذا- أنّ الخيال اصطنعها في لحظة جموح حتّى تسع كلّ سفرهما وتهويماتهما... العالم من هذا المنظور صغير جدّا، يؤكّد «الخرائط» أكثر ممّا ينفيها، يرسمها بكلّ تقاطيعها، بكلّ تفاصيلها، بكلّ ألوانها الحائلة وغير الحائلة؛ ومع ذلك يظلّ عالم الرّواية بلا خرائط!! تظلّ خلفيّة ما وراء العنوان، وإذا كانت كلّ أدوات الجغرافيا غير قادرة على التّفسير، فإنّ «نجوى» تبقى هي العلّة والمعلول، تبقى هي التّفسير، وانطلاقا منها ومن خلالها تتحرّر كلّ المشاعر والأحاسيس من قيودها لتكون سببا في سقوط كلّ الأقنعة المحظورة... وبكلام قليل، تظلّ «نجوى» سببا في تمزيق كلّ الخرائط، المعادل الرّمزيّ لعبوديّة الإنسان، ليس فقط في الزّمان ولكن في المكان أيضا، تظلّ «نجوى» سببا في سقوط كلّ الخرائط!!... مداراة، لعبة خطرة غير مضمونة، أداورها ما استطعت، أتعسّف عليها وأنا أشدّ ما أكون شوقا إلى اعتناقها، أشدّ رغبة، صحيح كنت أؤجّلها، أتناساها إلى حين إلاّ أنّي كنت أعلم أنّي لن أخلف الموعد، أنّي أحترق في داخلي، أتحرّق إلى الموت الجميل؛ هل حقّا أنّ الموت جميل، أم أنّي الوحيد الّذي يريده وينتظره؟! لعلّه ليس الموت نفسه، لعلّه كان شيئا مختلفا وأنا أتجهّز له وكأنّي أتجهّز لحرب، أذكر أنّ أحد الأبطال الخرافيّين، الأبطال المغامرين، الّذين أحببتهم كثيرا، وكنت أحسّ أنّهم قريبين منّي إلى درجة الانسحاق- مصطفى سعيد، قال عنها في أحد المواقف الدّراميّة العظيمة أنّه كان يخوضها بكلّ التّرسانة الحربيّة القديمة، التّرسانة العربيّة الّتي لا يملك الشّعراء الجاهليّون والمخضرمون غيرها، كان يخوضها بالسّيف والرّمح والنّشّاب، و«جين مورس» تبتعد عنه رغم قربها منه في المكان، فاتنة إلى أقصى حدود الفتنة، في عريها الأنثويّ، وهو في حميّا عذابه، في أقصى درجات الانتشاء والرّغبة كان مستعدّا أن يفعل أيّ شيء من أجل امتلاكها، من أجل أن يذوب جسده في جسدها، ياه، ياه، الزّمن!!... لم يكن تأسّيا ما كنت أطلبه، لم يكن

شيئا آخر غير خدر، غير رحيل عبر أميال غير منظورة، لا تقاس بتقديرات النّظر والحدس، وتقيّد كأحد الثّوابت في أحد الأضابير والخانات وتعتمد كحقيقة تتوالد منها حقائق أخرى باعتماد قاعدة التّماثل، إنّها الأميال الخرافيّة يقطعها القلب في جريه المتواصل، في طيّه للمسافات، في انطلاقه صوب المجاهل الّتي لم تكتشف بعد، وسيكون من المستحيل على أيّ خيال إنسانيّ أن يهتدي إلى أسرارها اللّذيذة القاتلة... أرى كثبانا وسهولا، هيئات مربربة، وروابي تهتزّ فأسيل مسافرا إلى الحدود الأقيانوسيّة، أهفو إلى التّطلّع ويساورني القتل، وفي لحظات بعينها أنسى الثّارات الّتي خلّفتها الحروب القديمة، أتدنّس برغبة الاعتناق ومن هجعة السّكون أدفدف صوب الأعماق، أتلمّس طريقي، عبر الثّنايا الأكثر غموضا إلى الأودية الشّوكيّة، أتضرّج بدماء نشوة لها طعم الملح، تزرع فيّ من الجيشان والإثارة بقدر ما تبعث على التّقيّؤ والغثيان، وأغمض عينيّ على المشاهد جميعها، أعرف أنّ الكون بأسره قد تحوّل إلى بانوراما كاسحة، تتوارد الملامح، تتلو الفصول الفصول، ومن مجاهل ما، لا أدري أكانت تنطلق من داخل ذاتي أم تنبع من إطار خارجيّ غير معلوم، أرى الاحتفاليّة الكونيّة، وتهزّني الطّقوس: هل كانت نفس الطّقوس الّتي تتكرّر كلّ يوم؟ هل هي نفس النّشوة؟ هل هي نفس الأحاسيس الّتي كانت تولد كلّ ليلة؟!... لست أدري تحديدا، كانت الكلمات تسقط والمفردات، تتحطّم اللّغة المسكينة على حواجز الصّمت، يتدفّق المشهد تلو المشهد، وحينما أفيق أسعى أن أترجم، كنت أحسّ أن الّذي رأيته وأراه لا يمكن بحال أن يترجم إلى لغة إنسانيّة، ومع ذلك كنت أحاول، كنت أموت باللّيل وفي النّهار أرتدّ إلى هيئتي البائسة، أقرب ما أكون إلى فزّاعة أقاموها في منتصف حقل مهلهل لتخيف الطّيور الصّغيرة الجائعة... الأمل في عزاء ما، والعزاء لا يمكن أن يكون «نهاريّا»، لا يمكن إلاّ أن يكون «ليليّا»، وأنتظر اللّيل، أيّامي كلّها، على امتداد شهر بأكمله كانت

اختصارا لذلك اللّيل، كانت محورا ومدارا، وما بين المحور، وفي أتون المدار، كنت أتحوّل، كنت أرتدّ، أنكص، أصارع، أتداخل في الهيئات، وأتآكل من الدّاخل، أذوب كما الثّلج سلخ الشّتاء وحلول الرّبيع، تداعب أوتاري الباطنة همسة غنج، آهة من تلك الآهات الأسطوريّة الضّائعة بسرّ الحياة فأتلاشى، أتشظّى، يستحيل جسدي هباءات وذرّات، أنبعث في وضع حلوليّ، وأروم مقامات العشق فيأتيني الخطف، وتندغم الأسافل في الأعالي وتبلغني الأصوات كما لم أسمعها من قبل، متداخلة ولكنّها لذيذة، لها رنّة المزامير في الزّبور، وسحريّة وصايا رأيتها ذات مرّة في منامي وبثّت فيّ آلاف النّشوات وحين أفقت أضعت كلّ الخيوط المؤدّية إليها، ومع ذلك ظللت أطلبها لأنّها بقيت عصيّة على كشوفاتي... لم تكن تهمّ الأسماء كثيرا ما دامت الوجوه، ومادام الزّمن يذوب ويندمج في أزمنة جديدة، يتوحّد فيها كلّ شيء، تلك الأجساد وهي تتقارب، وهي تؤطّر للّحظة القادمة، حين تحتجب كلّ الرّؤى، ولا يعود هناك سوى المسافة القصيرة والنبض القاتل: حين تسود في وقت ما أثيريّة الرّقص على أنغام موسيقى تنبعث من الأجساد... تنفجر من الأعضاء قبل أن ترسلها تلك الآلات المخبّأة وراء حاجز ما... الكلمات، إثارة ما، حركة، التفاتة، مويجات صغيرة أشبه ما تكون بمويجات بحريّة، دعوة من طرف خفيّ، مداعبة وانطلاق، والأصوات تأتي تباعا، تتداخل الهيئات بدءا، وبعد لأي تغدو كلّها هيئة واحدة، اتّحاد الأصول، عودة الفروع إلى الغواية الأولى على المشارف الخطرة، انطلاق... فوضى جميلة لا تتوقّف... خبب مغر ما يفتأ أن يتحوّل إلى عدو وركض مدوّيين... اشتباك كان يشتدّ كلّما حانت ساعة الذّوبان... ثمّ يحلّ همود قاس إذا امتلأ المكان بتلك الرّائحة الّتي ترسلها تلك المادّة اللّزجة... المادّة المحبّبة... المادّة المنفّرة!!؟!!]

-٥-

أنا الرّاوي، أكتشف في النّهاية أنّي تحوّلت إلى ضحيّة!!

وإذا كنت من قبل أنا الّذي أتحكّم في خيوط اللّعبة الّتي كنت أحكم شدّها حول الشّخوص، وبمهارة عجيبة، وجانب كبير من هذه المهارة يعود إلى أنّي كنت أدير الأشياء عن بعد، أرتّب لمراحل المعركة، دونما أيّ شعور أو إحساس بالخطر، آخذ الشّخصيّات على حين غرّة، في أقصى درجات الانتشاء، في الوقت الّذي تعتقد فيه أنّها أصبحت تملك كلّ شيء، أنّها أصبحت ملكا متوّجا، متربّعا على عرشه... اللّعبة دائما مأمونة، بالنّسبة إليّ، وليس فيها أيّ احتمال لأيّ خطأ من أيّ نوع، لذلك كانت البدايات تنطلق سلسة، متناغمة مع بعضها البعض... لم أكن أقحم نفسي في الأتون، أتباعد قدر الإمكان، غير أنّي أظهر في اللّحظة المناسبة حين يكون المسار في حاجة إلى تصحيح، وحين أرى أنّه من الضروريّ أن يكون هناك من يضع النّقاط على الحروف- بعض من التّركة الّتي كان لزاما علينا أن نرثها، وقد قدّمها لنا النّقد الحديث على طبق من فضّة خالصة، بقطع النّظر عن مدى جدواها: الرّاوي العليم الّذي يرفض سلفا أن يكون غفلا كي لا يسري الماء من تحت قدميه وهو لا يعلم، وحينئذ سيصير مضربا- على كلّ فم ولسان- للغفلة والجهل والغباء، وبدل أن يكون هو المبدع الخلاّق تكون الشّخصيّات قد ضحكت عليه واستدرجته إلى الخازوق الّذي سيجلس عليه دون أن يعلم... قلت: إذا كنت أنا الّذي يتحكّم، ويصول ويجول، يكيّف كلّ شيء على ذوقه وحسب هواه، فإنّي حين قرّرت أن أقحم نفسي في الخضمّ، أي اخترت أن أكون واحدا من هذه الشّخوص، لا أتوارب عنهم، وإنّما أختلط بهم، أمتزج بهم حدّ التّخمة ارتدّ سحري عليّ، وصرت مكشوفا لهم، فأكّلوني بدل المقلب مقالب،

وبدل الخازوق وجدت نفسي جالسا على ألف خازوق!!

حاجة ماسّة إلى الإفصاح، رغبة في الإفضاء، لا يهمّ إلى من، ولا أريد أن أذكر أسماء أشخاص بعينهم، تأسيّا ببعض أصحاب الرّسائل القدامى الّذين كان يروقهم كثيرا أن يدبّجوا مقدّمات طويلة، وينطلقوا في حديث له أوّل وليس له آخر، لا أدري عن ماذا، فإذا ما انتهوا من عيون أدبهم وفرائد بنات أفكارهم، وحتّى يتأثّروا خطى السّلف ومن احترف حرفتهم ويتّخذوا الوسائل عند أصحاب المكانة والنّفوذ كتبوا على الصّفحة الأولى، وقبل البدء: إلى وليّ النّعمة- أبقاه الله وأدام عزّه-، فلتة الزّمان، من بيده زمام العدل وسوط البطش، أهدي هذا المؤلّف الضّخم وقد بذلت فيه قصارى المجهود، وسهرت عليه اللّيل، واستوفيت فيه ساعات النّهار... أو أولئك الّذين كتبوا، وحبّروا الصّفحات وسوّدوا المسوّدات، وكانوا يشعرون بغصّة الكتابة ووطأة العذاب، مخلصين لأدبهم الّذي هو عماد أمرهم ومستقام حالهم، فإذا راق لهم ما كتبوا ووجدوا فيه متعة ووجدا، ولم يصبروا على كتمان ما انتهوا إليه، آثروا أن يشركوا أصدقاء لهم وأخلاّء، تمكّن منهم هاجس الكلمة، واستبدّ بهم سحر المفردة وأفانين القول والخطاب، آثروا أن يشركوهم فيما كتبوا، حتّى يحمدوا بما كتبوا أوّلا، ثمّ ينتشر ذكرهم ثانيا، وتدوّي أسماؤهم وتطبق الآفاق وتسري مسرى النّار في الهشيم، وحتّى يحفّزهم ذلك على الكتابة من جديد ثالثا، فيكتبون ويكتبون إلى أن ينهدّ حيلهم وتجفّ أقلامهم... أمزح؟! ربّما كنت أمزح، غير أنّ هناك شيئا من الحقيقة المرّة فيما قلته!! المهمّ، لنترك كلّ ما قلته جانبا، ولأحاول أن أرتّب أفكاري من جديد...

سأعترف...!!

لم تكن بذهني خطّة واضحة، كما أنّ الأشياء في حينها لم تكن تنضبط بمنطق معيّن، حتّى أنّه لم يكن ممكنا أن أطلق على ما كنت أفكّر فيه مشروعا أو برنامجا للكتابة؛ ولذلك أسبابه طبعا.

لم أكن قد فكّرت بعد في السّفر إلى «هندستان»، ولم أكن قد انتدبت للعمل في هذا البلد الّذي أعمل فيه الآن، مدرّسا من بين مدرّسين آخرين ومدرّبين، لا يعرفون «متى يأتي مكتوبهم وينتهي مقسومهم»، بحسب المأثور الشّعبيّ... فقط كنت واقعا تحت تأثير فكرة مغرية، فكرة مستبدّة إلى حدّ التّسلّط ، وما كنت لأفكّر فيها لو لم تأت الأحداث تباعا وتتسارع وتيرة القلق والجموح والرّغبة في فكّ حصاركان دائما مقدّرا له أن يبدأ في نهاية حزيران وينتهي في الخامس عشر من أيلول، التّاريخ المقرّر لبداية سنة دراسيّة جديدة في ذلك البلد المتوسّطيّ الصّغير الّذي أنتمي إليه... ودائما يطلّ الخوف كلّما ابتدأت الهواجس، ويتضخّم الخوف ليصبح رعبا ورهبة حيال كلّ ما هو جديد... رهبة حيال المجهول الّذي لم يعرف بعد لأنّه- بكلّ بساطة- غير مضمون... التّباعد، الهوس من فقدان الأينيّة، تاريخ بأسره من حميميّة راكمتها سنوات طويلة من التّجارب والقرب والاستئناس توشك أن تضمحلّ، عند التّفكير في نهاية الحلول ومشقّة السّفر، يبدأ التّوجّس، ينفجر بالدّاخل تمزّق ما، صراع لا مفرّ منه، سيّما أنّه يستحيل النّكوص، الارتداد إلى الخلف وقد سوّي كلّ شيء، سلّمت الجوازات ولم يبق إلاّ ختم التّأشيرة، ثمّ هناك الالتزام حيال صديق، اتّفقنا أن نسافر معا، بمفردنا، لا شكّ أنّ التجربة فريدة، أقرب إلى المغامرة، ونحن نسافر لأوّل مرّة، إلى البرّ، أرض الكنانة...

لكلّ شيء سبب؛ ولكلّ سبب مسبّب، على حدّ قول العلماء؛ أو كما يقول الفلاسفة، لا بدّ لكلّ معلول من علّة، ولا بدّ لكلّ محمول من حامل، وللعوارض جواهر لا بدّ من إدراكها حتّى يكتمل الخلق وتدرك الحقائق!! وأنا... لماذا كنت أريد السّفر؟ هل كان ذلك مجرّد عناد؟ أم رغبة في التّغيير؟... أم شيئا يقترب كثيرا من التّجربة البفلوفيّة لإثبات الفعل المنعكس الشرطيّ: اعتاد الكلب صوت الجرس ثمّ يقدّم له الطّعام... فصار كلّما رنّ الجرس هبّ لتناول الطّعام؛ وفي وقت ما

دقّ الجرس ولم يقدّم الطّعام، ولكنّ الكلب استمرّ مع ذلك على نفس عادته القديمة!!...

لعلّ الأحاديث الكثيرة، والشّجون الّتي فاضت عقب تلك الأحاديث في مقهى السّكّة الحديد، والأماسي الّتي زادت تلك الشّجون ألقا عصيّا على التّفسير، واللّيل الّذي كان يأتي من الكوى المجهولة، والأغاني المهرّبة من زمن كان يعرف معنى الطّرب الأصيل؛ لعلّ كلّ ذلك مجتمعا زاد من الرّغبة، وتضاعفت الرّغبة فتأكّد القرار... العدوى، السّحر الّذي يعرف كيف يسري مسرى الدّم، ويلوّث كلّ شيء... كانت القاهرة «المعزّيّة» مجرّد حلم، شأنها شأن بقيّة الأحلام الأخرى، قرأنا عنها غير أنّنا لم نعرفها، فتح «جوهر الصّقليّ» البرّ المصريّ، ولأنّ المعزّ لدين الله الفاطميّ أراد أن يفعل ما لم يفعله آباؤه من قبل، أبو عبيد الله الفاطميّ وأبو القاسم بن عبيد الله والمنصور بن أبي القاسم، أدرك أن لا شيء أبقى للأثر وأدوم للذّكر من بناء الحصون والقلاع والمساجد فأمر ببناء «القاهرة المعزّيّة»...

وسافرنا!...

وكان الأمر لا يخلو من بعض المشقّة، أو حتّى أضع الأشياء في إطارها الصّحيح كانت المشقّة ربّما الشّيء الوحيد أو أكثر شيء بقي عالقا في ذهني من الرّحلة... استغرقنا يومين كاملين، وكان لا بدّ أن نقف لوقت طويل أمام البوّابات ريثما تتمّ إجراءات العبور؛ وعندما بلغنا الإسكندريّة كنت مجهدا جدّا، وكنت أحسّ أنّي في حاجة إلى ساعات وساعات من نوم متواصل، وأنّه بمجرّد أن نستقلّ سيّارة الأجرة الّتي ستقلّنا إلى القاهرة سأروح في سبات عميق... ماذا بقي من الإسكندريّة؟ ماذا تبقّى غير تلك الرّؤية الغبشيّة الّتي زادها اللّيل إعتاما وغموضا... كان اللّيل في كلّ مكان، والوجوه نفسها، الّتي كانت تمرّ بنا كانت هي الأخرى كأنّها امتداد لذلك اللّيل الدّاهم، ولحسن الحظّ أنّنا لم ننتظر طويلا... كان أحد أصحاب سيّارات الأجرة ينادي

بصوته المشروخ الّذي كان يمزّق سكون اللّيل عن زبائن محتملين ربّما كانوا يريدون التّوجّه إلى القاهرة... تقدّمنا منه ونقدناه الأجرة دون نقاش كبير... لم يكن همّنا المساومة، ولم نكن ميّالين إلى دخول في جدل لا جدوى منه، بقدر ما كنّا نتطلّع إلى تلك المقاعد الجلديّة في الدّاخل...

كم كانت القاهرة كبيرة ومخيفة لمن يدخلها أوّل مرّة! كم كانت كبيرة بالنّسبة إليّ، وأنا أتفاجأ بدخولها- كنت نائما عندما فتحت عينيّ فجأة، انبهرت بالأنوار، وحاصرتني المدينة وهي تجري بسرعة مذهلة مع السّيّارة الّتي كانت تدخل إلى أحد المستودعات... حاولت أن أسيطر على نفسي، وأنا أتفادى النّظر في وجه صديقي؛ ربّما داهمته نفس المشاعر الّتي داهمتني، وربّما أحسّ كما أحسست أنّ العالم الّذي يلوح أمامنا الآن هو أكبر من كلّ العوالم الّتي مررنا بها... أكبر من المدينة الصّغيرة الّتي شهدت ميلادنا وشقاواتنا، وأكبر من المدن الأخرى الّتي درسنا بها واعتدناها مع الأيّام فصارت مدنا أخرى لنا، نحتفظ بها في قلوبنا، حتّى عندما عدنا إلى مرابع صبانا... لا أدري ما الّذي دفع بصورة «طارق بن زياد» إلى ذهني في تلك السّاعة، ولا أدري لماذا كانت صورته، دونا عن باقي الصّور، الأكثر وضوحا وجلاء في مخيّلتي، تصوّرته في خوذته، وهو يمتشق سيفه ويواجه جنده ببسالة من لا يدرك نتائج الخطوة القادمة، ويقول جملته الشّهيرة الّتي دوّنها التّاريخ وحفظتها الأجيال جيلا بعد جيل:

- أين المفرّ! البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ السّيف...

كنّا في حاجة إلى شيء أكثر من السّيف!! كنّا في حاجة إلى الحذر، ونحن نأخذ حقائبنا من صندوق السّيّارة وننطلق عبر أوّل شارع صادفنا... كنت أنظر عن اليمين والشّمال، كنت أدقّق في العلامات الفارقة، في الطّرق المؤدّية وغير المؤدّية، أحاول أن أثبت الصّور

والأشياء والملامح... والبنايات أيضا، وهي تشمخ حاجبة كلّ شيء: المساحة والفضاء والسّماء الّتي لم أعرف بعد هل كانت زرقاء، كالسّماء الّتي خلّفناها وراءنا، أم بلون آخر ربّما زادته بعض السّحابات البيضاء الهائمة فتنة وجمالا... في البداية، شعرت بشوق دافق، دغدغني حلم الضّياع اللّذيذ وسط متاهة مدينة كهذه، لكن لم يكن ذلك الحلم واقعيّا ونحن نكاد نسقط من جرّاء التّعب والإرهاق...

قال صديقي، وفي الحال وافقته على رأيه:

- لماذا لا نأخذ تاكسي؟

أوقفنا تاكسي... قلت للسّائق ونحن ندخل:

- قصر النّيل... عمارة ٤.

المرّة الأولى، داخل حدود مكان لم نكتشفه بعد، لا بيت لنا فيه، ولا ذكريات كتلك الذّكريات العتيقة الّتي ظلّت وستظلّ تقاوم التّلاشي والنّسيان... له سحره دون شكّ، كأيّ اكتشاف جديد، يبعث على التّحدي بنفس القدر الّذي يبعث على المشاكسة...

لكل فضاء ما يميّزه، يحيل عليه بمعنى ما، شيء يظلّ لصيقا به، لا تذكره أو تتخيّله إلاّ تراءى أمامك ذلك الفضاء، متراميا فسيحا، كبيرا وشامخا... عند مدخل العمارة، كان الباب مغلقا، ولم يكن هناك بوّاب، ظللنا لبعض الوقت نفكّر فيما يمكن فعله، ولم نهتد إلى حلّ ملائم، سيّما أنّ المدينة ما تزال نائمة، ملتئمة على هواجسها وأحلامها... كان يمكن أن نسأل أيّ شخص، أن نستفسر، إلاّ أنّ الشّخص الوحيد الّذي رأيناه كان نائما بمؤخّرة «بيكاب» متلفّعا ببطّانيّة... آثرنا أن ننتظر قليلا، وتقدّمنا فجلسنا على حافّة آخر الدّرجات الّتي تقود إلى البوّابة. في تلك اللّحظة بالذّات، حينما امتدّ بصري فجأة إلى الأمام، رأيته يعدو بخفّة، تحت عدد من السّيّارات المركونة إلى رصيف العمارة ثمّ يختفي فجأة كأنّه الشّبح... ابن عرس!! حيوان صغير قميء، تودّ إذا رأيته لو أمكنك أن تمسكه بين يديك الاثنتين، تتمتّع بملمس فروه

النّاعم، وأنت تتأمّل انفراجة فمه وقائمتيه الرّقيقتن... فيما بعد، في زمن ما، بعد حوالي سنتين من ذلك التّاريخ، سأنتهي إلى شبه قناعة، أنّ الأماكن، كالأشخاص تماما، لا بدّ أن تحتفظ لنفسها بملكيّة شيء ما، لا بدّ أن تكون لها من السّمات ما يميّزها، فإذا كان الأشخاص يتميّزون عن بعضهم البعض بالملامح والقسمات حيث أنّ لكلّ واحد منهم أشياء خاصّة به لا يملكها غيره، فكذلك الأماكن، تحيا في الاختلاف، وتقاوم الزّمن، لا باعتبارها كائنات مجهولة الهويّة، عطل من كلّ جاذبيّة، ولكن باعتبارها تهاويل وزخارف تضيع في أتونها فتشعر بذلك الألق الّذي يغزو كلّ خليّة من خلاياك، تحسّ بالخدر والانتشاء، وتدرك أرقى درجات السّموّ، شيء غامض أشبه بلوثة الجنون أو ذوبان الإشراق... كان ذلك في أحد الفنادق- «ريجنت كونتننتال»-، في غرفة بالطّابق الثّالث، في مدينة «دلهي»... الصّباح الباكر، في اليوم التّالي على وصولنا، أنا وصديقين هنديّين تعرّفت إليهما بمدينة «صور»... في اليوم الأوّل من السّفر كنّا مرهقين جدّا، نحمل في جرابنا أكثر من ثلاث ساعات إلى مدينة «مسقط»، محشورين في مقعد السّيّارة الخلفيّ، أربعة أشخاص، في وضع مازلت إلى الآن أفكّر في الكلمة المناسبة الّتي يمكن أن تصفه، وثلاث ساعات أخرى بالطّائرة إلى مطار «إنديرا غاندي الدّوليّ»، وأكثر من ساعة بالتّاكسي إلى الفندق... التّعب والإجهاد، ولا عزاء في ذلك الصّباح الحارّ إلاّ النّوم... نمنا كثيرا، ولم نصح إلاّ حوالي السّاعة الثّانية عشرة!!

أمام الفندق كان هناك عدد من الأشجار، في الجهة المقابلة، داخل حيّز مسيّج، في وسطه باب، وإلى اليمين مظلّة حجريّة جلس تحتها هنديّان، وقد لاحظت أنّهما ينظران إليّ باستغراب، كنت أنا أيضا أنظر إليهما، بدوا لي مألوفين، بل أكثر من ذلك رأيت فيهما نسختين مكرّرتين- نسختين معادتين لآلاف الهنود الّذين كانت تعجّ بهم الشّوارع في نهايات الأسبوع- أيّام الجمع، بالسّوق التّجاري والمحلاّت والمقاهي

الكثيرة وهم يحتسون الشّاي، متعلّقة أبصارهم بشاشة التّلفزيون، في مدينة «صور العفيّة»، تعالج آذانهم صخب لغات عديدة مهرّبة من وراء المحيط... أنا كنت «شيئا غريبا»، وجها غير مألوف داخل المكان، «شيئا» ليس مهرّبا وإنّما اجتثّ اجتثاثا من بين أناس غير النّاس، ومن زمان غير الزّمان، بتلك الملابس، وتلك البشرة الفاضحة، والملامح الّتي لا شكّ أنّها تقول وتعلن أكثر من الكلمات والمفردات... لم أتوقّف طويلا، لم أرد أن أواصل لعبة اكتشاف الوجوه، إذ كنت أبحث، ربّما غريزيّا، عن أوّل اكتشاف، عن المدخل الحقيقيّ لتلك المدينة الّتي لم أتعرّف عليها بعد... لم أكن أتصوّر، في أيّة لحظة من اللّحظات، أن أرى ما رأيت، أو بالأحرى لم أتوقّع أن تكون «دلهي» قد اختارت لنفسها، من بين الكائنات الكثيرة الّتي تملأ الكون، أبشع الطّيور منظرا وأكثرها قذارة- هكذا كان رأيي في الغربان؛ ربّما كان هذا تجنّيا من طرفي، وربّما كان رأيا خاطئا لم أستند فيه إلى غير الغريزة والعاطفة، ولكن هذا ما كان... العدد مهول، لم أر مثله في حياتي قطّ، كانت تلك الغربان تطير من شجرة إلى شجرة، وفي بعض الأحيان تحطّ على الأرض أو على أحد الحيطان، لم يكن في مشيتها ذلك السّحر الخرافيّ الّذي يحاكي تيه الحمائم، أو زهو الطاووس، كانت عندما تمشي كأنّها تعرج، أو أصابها شلل لا شفاء منه، منذ عصور خالية ضاربة في القدم...

عادت بي الذّاكرة إلى الوراء، إلى سنوات خلت، سني الصّبا الأولى، في تلك المدينة الّتي كدت أنسى إسمها، وقد تركتها منذ ما يقرب من سنتين متتاليتين... كنّا ونحن صغار يروقنا أن نهرب إلى أكثر الأماكن أمنا، نفرّ إلى الكوى الأكثر حصانة، ولم يكن أكثر من الصّحراء أمنا وحرّيّة، هناك كان يطيب لنا اللّعب إلى ساعات متأخّرة من النّهار، لا ندع شيئا إلاّ جرّبناه ولا خطيئة من خطايا الصّغار إلاّ ارتكبناها... وكنّا حينما نتعب نتطلّع إلى البعيد، نسرّح أنظارنا في المدى، وكأنّنا نبحث عن شيء ضاع منّا منذ أمد، أو كأنّنا نريد أن نكتشف خلقا عصيّ

المنال نضيفه إلى أشياء الكون الأخرى... حينئذ، وعلى مبعدة، على أحد أسلاك أعمدة الكهرباء، الّتي كانت تنتمي إلى زمن له طعم التّوت والحنظل كليهما، كنّا نرى غرابين، ولأنّ الغربان كانت من الطّيور النّادرة في المدينة فقد كنّا ننسج حولها عشرات الحكايات، وكانت تلك الحكايات تشبهنا تماما، فيها الكثير من جموحنا وخيالنا الّذي لا يحدّ.

كان أحدنا يؤشّر بيديه، ويقول وهو ينتفض في مكانه من الفرح:

- انظروا هناك.

وكنّا ننظر جميعا صوب المكان الّذي أشّر ناحيته.

يقول آخر:

- إنّهما غرابان...

فيقاطعه ثالث، وهو يتّجه بكلّيته إلى الجماعة كلّها، ثمّ يقول:

- لا، إنّهما ليسا غرابين، ولكنّهما وليّين صالحين من أولياء الله، هكذا قالت والدتي، ووالدتي أخبرها الإمام بذلك حينما سألته عن غرابين رأتهما في مكان ما.

كان الحديث يتداخل إلى حدّ الفوضى، وكنّا نتكلّم في نفس الوقت، كان جميعنا يعرف الغرابين، بل لقد كنّا نعلم أنّ المدينة كلّها، بأناسها الكثيرين، بأطفالها ونسائها ورجالها وشيوخها، يعرفون ذينك الغرابين حقّ المعرفة، ربّما كانا الغرابين الوحيدين في النّاحية، ولأنّهما كذلك فقد تركا ذلك الانطباع الّذي سيطر على الجميع، أنّهما وليّان صالحان، بل لقد كنّا نعرف حتّى إسميهما، وهما إسمان لوليّين صالحين، كنّا نزورهما في العطل السّنويّة، فنولم في مزاريهما، ونأكل ونشرب، وقد نبيت اللّيلة هناك، وما بين هذا وذاك، يمتدّ السّمر، في حلقة الذّكر، على أنغام الدّفوف الكثيرة والنّبرات الّتي كانت تحمل شجى سنوات بعيدة.

يقول رابع، حين يحلّق الغرابان بعيدا، ويختفيان:

- لقد طار جدّي عثمان وجدّي سليمان!!

[سقى الله أطلال الأحبّة بالحمى...]

أحبّة الأيّام الخوالي، أذكرهم فتتقرّح جراح في القلب لم تكد تندمل، وتجتاحني مرارة أين منها مرارات سابقة كانت تأتي وتمضي دون أن تخلّف أثرا، تمضي كأنّها لم تكن، تجمعنا الأماسي ولا تفرّق بيننا اللّيالي والنّهارات الطّويلة لأنّنا كنّا دائما نعرف كيف يستحضر أحدنا الآخر في مخيّلات ابتلاها الله بالذّكرى، تتعذّب بها وتلتذّ بها في نفس الوقت، وكأنّما حكم عليها بمازوكيّة لا شفاء منها... وجهه ليس مألوفا فقط، وملامحه أكاد أتشرّبها ملمحا ملمحا، وكأنّها انبثقت على حين فجأة من فراغ الذّاكرة، واستقرّت في دخيلتي شيئا يقاوم الموت والنّسيان ويأبى إلاّ أن يكون خالدا، أبديّا، سرمديّا: مازلت أذكر كلماته، طريقة نطقها، نبرات صوته، وهو إذا اندفع في الكلام لا يتوقّف أبدا، يستغرق، وأحيانا يقاطع لأنّه عنّت له في لحظة ما فكرة أو رأي يخشى أن يضيع منه، يخشى أن ينساه في خضمّ الحديث، وهو إذ يفعل ذلك يفعله في كثير من أدب جمّ، يقول: اعذرني للمقاطعة، أنا آسف... يروقني كثيرا أن أسمعه، أحبّ حديثه الّذي يعرف كيف يصرّفه، فلا هو إلى الجدّ كلّه، ولا إلى الهزل كلّه، يعرف متى يزلق نكتة، في أوقات بعينها، أحيانا لا يتورّع عن إدخال بعض الألفاظ البذيئة في صلب الحديث، ونجد أنفسنا نضحك دون إرادة منّا؛ وكشأن كثير ممّن عرفتهم، حرمته الحياة، وابتلي بأقرب النّاس إليه، يعنّ له أن يحكي، يروي حكايات طويلة، يذكر جزئيّات، ويختم بطرح مشاكله... قال لنا ذات يوم، وكنّا ثلاثة، أنا وهو وصديق ثالث من أصدقائنا كنّا دائما نلتقي فنجلس في مقهى السّكّة الحديد، وقد كان يتقصّد أن يكون الحديث في تلك الدّائرة الضّيّقة كلّما أراد أن يفضي لنا ببعض ممّا يعاني في علاقته مع والده، الّذي كان يشعر حياله بكثير من الاضطهاد والقهر:

- تعبت... والله تعبت كثيرا، يا جماعة؛ إنّه- كان إذا أراد الحديث عن والده أشار إليه بضمير الغائب- لا يكفّ عن اتّهامي وكأنّي مجرم... يقول ويقول... لا يعرف المهادنة أبدا...

وبعد أن يتوقّف قليلا ليأخذ نفسا، ويتطلّع إلينا ليرى مدى اهتمامنا بما يرويه، يتابع:

- إنّي أشعر فعلا بالمهانة، والفضيحة أيضا، وهو لم يترك أحدا من جيراننا إلاّ وذكرني عنده بسوء كثير...

ثمّ، ودون انتظار، يتّجه إلى صديقنا الثّالث الّذي كان يعرف والده جيّدا، وقد كان من حين لآخر يزوره في منزله ثمّ يبيت اللّيل عنده:

- هل تراني فاسدا أنت؟... أنت تعرفني جيّدا، وتعرف الكثير عن علاقاتي...

كانت أسئلته بديهيّة في نظره، أو كما يقول أهل النّحو والبلاغة، كانت أسئلته أسئلة إنكاريّة في غنى عن أيّة إجابة، ولأنّ الأمر كذلك فقد كان يواصل وعيناه في أعيننا كما لو كان ينشد تعاطفنا معه ومؤازرتنا له:

- ليحمد الله أنّي لست من الجماعة إيّاهم، ولست من خلطاء السّوء، لم أسرق، ولم أجلب له من المتاعب ما قد يسبّب له قلقا أو عنتا...

ولكنّه يستدرك بعد قليل، إذ يرى ابتسامة صغيرة على شفتي صديقنا الثّالث ويلحظ تلك النّظرة التّآمريّة في عينيه:

- صحيح أنا أشرب، من حين لآخر، ولكنّي لا أسكر، وكلّ راتبي صرفته عليهم، لم أدّخر شيئا لنفسي لذلك لم أستطع أن أوفّر شيئا... فلماذا يتّهمني؟ لماذا يحمل عليّ وكأنّي لست ابنه، من لحمه ودمه؟...

ويعود بذاكرته إلى الوراء، إلى أحداث مضت، وقد ظنّ أنّ والده سيقلع عن عادته القديمة ويحقّق معه سلاما دائما بعد أن أصيب بانزلاق غضروفيّ في عموده الفقريّ وأجرى عمليّة جراحيّة لم يكن

ليجريها لولا أن تدخّل صديقنا، فسحب كلّ المال الّذي معه في البنك وزاد فاستدان من بعض معارفه:

- ذيل الكلب وضعوه في قصبة خمسين عاما، وعندما سحبوه عاد إلى اعوجاجه مرّة أخرى!!

... كان يعيش مع عائلته في نفس البيت، وكان بمقدوره أن يستأجر له بيتا أو شقّة، ولكنّه لم يفعل؛ ولعلّ ما منعه من ذلك، وبالدّرجة الأولى، والدته وأخواته البنات، صغرى أخواته أعرفها وقد درّستها، حتّى من قبل أن أتعرّف إليه، وعندما ذكر لي فيما بعد أنّها أخته تفاجأت، سيّما وأنّنا نمتّ إلى بعضنا بصلة قربى، رغم أنّها بعيدة، تجمعنا القبيلة الكبرى، وأشياء أخرى، إحساس ما بالظّلم، شعور بالحيف إزاء حياة لا تعرف كيف تعطي ولا كيف تمنح... كنت أزوره في بعض الأحيان، أدخل من بوّابة السّور الخارجيّ، شبه المواربة، وأقطع المسافة إلى نافذة غرفته الّتي كانت تفتح على الباحة وراء البيت، وما أن أطرق المصراع طرقات خفيفة وأنده عليه حتّى يهبّ إليّ... ندخل سويّة إلى عالمه الصّغير، ونغلق وراءنا الباب حتّى لا تأتينا الأصوات العديدة من الخارج وهي تخوض في شؤون الحياة اليوميّة الرّتيبة، ونجلس على حافّة سريره... مدرّس لغة عربيّة، تشرئبّ بأعناقها من بين بعض أرفف في خزانة خشبيّة بعض الكتب والصّحف والمجلاّت، والدّواوين الشّعريّة والرّوايات...

- لكم أودّ- كان يقول إذا فاض كأسه من الهمّ واليأس- أن أتوارى ولو لبعض الوقت من البيت؛ لقد صارت الحياة هنا خلاصة مأساة متكرّرة...

ويضيف بعد لأي، وقد أراد أن يغيّر مجرى الحديث تماما:

- أتعرف فيما أفكّر؟!

ولا أريد أن أحدس أو أتورّط في لعبة تقود إلى تخمينات لا تنتهي:

- لا.

يتأنّى قليلا قبل أن يجيب، وينظر إلى السّقف وكأنّه يستلهم منه الإجابة، أو يستعديه على جروحه الكثيرة لعلّه يسعفه في لحظة تجلّ بحلم أحلامه:

- امرأة ما!

أنتفض في مكاني، وكأنّي لم أسمعه، ثمّ أتّجه إليه بكلّيتي، وأساله مستغربا:

- ماذا قلت؟!

ترفّ على شفتيه ابتسامة أسيانة، يربّت على كتفي بحنان، وبدل أن يجيبني يردّ على سؤالي بسؤال جديد:

- هل عرفت معنى الجوع؟... هل جرّبت أن يطلب جسدك، فلا يظفر بغير الخواء؟ هل جرّبت أن تنام، وتتقلّب على جنبيك طوال اللّيل فلا النّوم يسعفك ولا الرّاحة توافيك؟!!... إنّه الجوع، يا صديقي! إنّه الجوع المدمّر القاتل!!

أذكر الآن أنّي كنت أسمعه يتحدّث عن بعض النّساء، ظننت في البداية أنّي لا أعرفهنّ، أو على الأقلّ لا أعرف إحداهنّ؛ واكتشفت بعد أن اتّصل بيننا الحديث أيّاما، أنّ خططا ومغامرات كانت تتمّ، ليس دائما بنجاح وبتوفيق، في إحدى الشّقق المؤجّرة بظاهر المدينة، وأنّه كان يذهب مع بعض الأصدقاء إلى هناك... «نرجس»، كان ذلك إسم الفتاة الّتي كانت تتردّد على الشّقّة بانتظام، بل إنّها تكاد تكون الوحيدة، ليست جميلة إلى الحدّ الّذي يجعل الجميع يفتتن بها، ولكنّها كانت تفي بالغرض على كلّ حال... كان وجودها، مجرّد وجودها، ثمّ ولوجها إلى الدّاخل، وبعد ذلك قيامها بواجبها الرّوتينيّ الّذي كانت تعرف كيف تقوم به، وبدربة من اعتادت «مهنتها» حتّى أتقنتها، في أيّام بعينها، حينما يشتدّ اللّغط والزّحام، وتنفق «سوق الرّجال»، كلّ ذلك كان من شأنه أن يسكت الجوع إلى حين، أن يجعل الجسد يستعيد عافيته واتّزانه... لم أرها، ولو مرّة واحدة، غير أنّي من خلال الحديث

عنها توصّلت إلى رسم صورة تقريبّية لها، ربّما في الثّامنة عشرة أو العشرين من عمرها، سوداء الشّعر طويلته، تلبس «بولوفرا» أحمر، وبنطلون «جينز»، وتضع على شفتيها أحمر فاقع اللّون... والشّيء الوحيد الّذي يحمل مسحة من الواقعيّة، شيء سيظلّ لصيقا بها في ذاكرتي إلى النّهاية، شفتاها، يقولون، لا أذكر من قال ذلك، على وجه التّحديد، إلاّ أنّه كلام يقال، وبصوت عال: جعلت المرأة للعناق والتّقبيل، ولأشياء أخرى...

كان يقول، ليس في غير قليل من الأسف:

- لذيذة لولا...

يطأطئ رأسه قليلا، ينقر بأصابعه على النّضد، يترك للصّمت أن يمتدّ بيننا لحظات... أقول لنفسي لعلّه كان ينتظر أن أقاطعه، ولنفس ذلك السّبب كنت ألتزم الصّمت، أحرن كتيس، وبعد أن يهزّ رأسه مرّة ثانية وينظر إليّ مليّا، يواصل:

- كنت أنتظر منك أن تسأل، أن تبدي رأيك: ألا تهتمّ أنت بالموضوع، ألا يهمّك الأمر...

وإذ يرى على شفتيّ ابتسامة ساخرة، يكتفي بها كجواب على سؤاله، ويمسك بالخيط من جديد:

- شفتاها أسوأ ما فيها، أشعر بالقرف كلّما نظرت إليهما، وحتّى لا تذهب كلّ المتعة، كنت أتفاداهما، لكنّها الع(...) الخبيثة كانت تعرف أنّي لا أحبّ شفتيها، أنّي أصاب بالغثيان كلّما نظرت إلى وجهها، كانت تريد تعذيبي فتقول بغنج: قبّلني، كنت أقبّلها مرغما، أريدها أن تسكت، ريثما ينتهي كلّ شيء...

في مرّة أخرى، حدّثني عن «بسيمة»...

«بسيمة» جنس آخر من النّساء، ربّما عرفتها قبل الجميع، إلاّ أنّ علاقتنا ظلّت في حدود معيّنة لم تتجاوزها، كانت تعمل بالمعهد الّذي كنت أدرّس فيه، شغّالة، ورغم أنّها تجاوزت تلك السّنّ الّتي تحلو فيها

النّساء في عيون الرّجال إلاّ أنّه يظلّ فيها شيء من تلك الأشياء الّتي لا يعرف كيف يعبّر عنها الإنسان، لم يغز الشّيب شعرها بعد، بل إنّي أكاد أجزم أن ليس في شعرها شعرة بيضاء واحدة، في سلوكها شيء من ابتذال وجرأة، وربّما ذلك ما جعلني أهتمّ بها، هل كنت قادرا على تحديد مشاعري تجاهها منذ الوهلة الأولى؟! هل وجدتها ربّما شهيّة شأن كثيرات عرفتهنّ، أم أنّها مجرّد نزوة عابرة، وتمرّ كغيمة صيف؟!... تخاطب الجميع دون تكلّف، وربّما كانت إذا اقتربت من بعض المدرّسين تتعمّد أن تجعل بنطالها القطنيّ الّذي كانت تلبسه أثناء العمل ينشمر عن ساقيها الريّانتين اللّتين تشبهان في امتلائهما كوز الذّرة الّذي تلتفّ اللّحاء حوله فيزيد ذلك من اشتهائه والرّغبة فيه... تضحك، تتقصّد أن تضحك بصوت عال، تصهل كالفرس الجموح، تريد للعدوى أن تنتقل إلى السّامع، تريد لضحكتها أن تنغل في الدّاخل، وتبعث الوهن وتقيّد تماما، حتّى لا مفرّ من قيودها ولا إفلات من سحرها الطّاغي: هل كانت جميلة؟ أم أنّي أتوهّم أشياء لا وجود لها في الواقع؟ هل كنت أتصوّر ذلك لأنّي كنت الوحيد الّذي ظلّ مبتعدا عنها، هل كنت أخشى غوايتها؟ أخشى الفضيحة فيما إذا سعت إلى توريطي؟... أعترف أنّ الأشياء كانت متداخلة في ذهني إلى حدّ الفوضى، وأنّه في الوقت الّذي كانت «بسيمة» تسعى إلى الاقتراب منّي، كنت أجهد بكلّ ما لديّ من قوّة أن أبتعد عنها... لكنّها ظلّت مع ذلك تلاحقني، قهقهاتها تتناهى إليّ من نوافذ الفصل، تخترق أذني اختراقا فأشعر للحظات أنّها طوّقتني وأنّي بتّ أسيرا لها، رغم بعدها...

حدست أنّ لها علاقات، بالطّبع علاقات مشبوهة، حتّى من قبل أن تنتشر الأخبار عنها، وعن سيرتها، في المعهد وخارجه، من أشخاص لا يهدأ لهم بال إلاّ إذا نجحوا في «معرفة العلّة وابنة العلّة»، والعجيب، وخلافا لما كنت أتوقّعه من نفسي، ما كان ذلك ليمنعني من الاسترسال في رسم الصّور، ووضع خطط ما، ليست بالضّرورة خططا من ذلك

النّوع الّذي كنّا نتحدّث عنه بلذّة في ذلك البيت الّذي كان يشبه الميدان بمخبئه الأرضيّ ومرافقه المتعدّدة ورحبته الفسيحة، والّذي أجّره صاحبه كمقهى لأحد أولئك الّذين أثروا حديثا، وإنّما مجرّد خاطر، يداعب دواخلي من حين لآخر، في لحظات الخلوّ، وأويقات المتعة المتناهية، حين يغدو الكون، كلّ الكون، مجرّد نقاط سوداء ما تفتأ أن تغيم في الذّاكرة ويحلّ محلّها وهم من الأوهام القديمة في الامتلاك وفكّ جميع المغاليق الّتي تؤدّي إلى مكان مجهول، رغم غموضه يظلّ آسرا فتّانا...

صورتان تتواردان بالتّناوب، لا تمحو الواحدة الأخرى، ولا تطغى الواحدة حتّى تحجب الأخرى تماما، ولا تتمكّن الواحدة من النّفس فتجعل الأخرى مثيرة للبؤس والقرف والاستياء؛ «بسيمة» بزيّها الّذي بقدر ما كان يثير الاستهجان عند الآخرين إلاّ أنّها كانت تصرّ على أن تلبسه كما لو كان قطعة فنّيّة من تلك الملابس الّتي لا تحظى بمثلها إلاّ أولئك الفاتنات الصّغيرات اللّواتي كثيرا ما كنّ يظهرن على أكثر من قناة تلفزيّة؛ كان ذلك زيّ العمل، وكنت خلافا لكلّ الآخرين أحبّ أن أراقبها من بعيد وهي تلبسه، أتأمّلها مليّا، وهي تتثنّى، عن قصد أو غير قصد، تميل في حركات فيها الكثير من دلال المحترفات اللّواتي قضين هزيعا من أعمارهن في بيوت مغلقة، من دونها أبواب وأبواب، تضوع بروائح ما قبل الحبّ وبعده، تنادي على زميلة لها فجأة، وتتبع ذلك بضحكة مريبة ممطوطة، ترفع ذؤابة قميصها الطّويل، تشدّه إليها فيرسم حدود جسدها الّذي ما يزال محافظا على جزء كبير من فتنته ورشاقته: النّهدان الكبيران، البطن الملساء الّتي تمتدّ على الجانبين، ثمّ تستدقّ عند الخصر، ويمتدّ الجسد من جديد في التفاف يشكّل ردفين قويّين ثقيلين، يتّصلان في انسجام عجيب مع فخذيها الطّريّين... الصّورة الأخرى، مغايرة تماما، صاحبتها لا تمتّ إلى تلك الأخرى اللاّمبالية، ولعلّي إذ أذكرها الآن أستعيد لذاذة برودة الشّتاء الحييّة،

وهي تتسرّب عبر الملابس إلى كوى الجسم الخبيئة ثمّ تراوغ الخلايا الغافية لتستقرّ أخيرا في مستودع الألغاز والأسرار... بمحض الصّدفة التقينا، وإذ رأيتها قرّرت أن أتعمّد تجاهلها إلاّ أنّها لم تترك لي مجالا للهروب... أمسكت بيدي فصافحتني، وحاولت أن أجذب كفّي غير أنّها أصرّت على الاحتفاظ بها في يدها، إلى تلك اللّحظة كان كلّ شيء عاديّا، لا حركات ولا إغراء... (عفوا! نسيت أن أقول إنّ «بسيمة» في حياتي كانت مثل القدر، ليس القدر بالمعنى السّلبيّ، ولكن قدرا آخر، لا يبعث على الرّهبة كما لا يبعث على الاطمئنان، يقيم مسافة ما، ترغب في التّخلص من أسرها، كما ترغب أيضا أن تتوارب في ثناياها... كان لها ولدان، ولد وبنت، وقد درّستهما كليهما، وكانت هي دائمة السّؤال عنهما، وذلك ما أقام علاقة من نوع خاصّ بيننا، كنت أتظاهر بالتّمنّع، وفي قراري أودّ لو يمتدّ الجسر إلى أقصى حدوده، شريطة أن أكون أنا من يملك «الأزرار» جميعها، و «الأوراق» أيضا... كانت «بسمة» - ابنتها- تشبهها إلى حدّ ما، إلاّ أنّ فيها فتوّة جامحة، لا تملك إذا امتدّ طرفك إليها إلاّ أن ترغب في احتجازها في دياميس ظلمتك إلى الأبد، ممتلئة، إلاّ أنّ امتلاءها كان محبّبا، بل كان أروع ما فيها، لا ينقصها غير تلك الملابس الإمبراطوريّة الّتي تعود إلى القرون الوسطى حتّى تغدو أميرة من أميرات البلاطات الملكيّة!!)... شعرها الكستنائيّ مشدود إلى الخلف بمشبك، يؤطّر وجهها القمحيّ المستدير، وهي ترتدي سترة جلديّة وبنطالا وحذاء عالي الكعب يرتفع إلى منتصف ساقيها، وتفوح منها رائحة مخدّرة، عطر ينتشر في حياء، ويغزو الأنف وما يعتم أن ينساح إلى الأعماق في انسيابيّة غريبة مدمّرة... ابتسمت، كانت ابتسامتها تحمل بقايا من تلك الضّحكة المتمرّدة، اقتربت أو هكذا أحسست، بدا لي أنّ عينها رفّت فجأة فيما يشبه الغمزة، وقد شجّعني على استنتاج ذلك أنّي أحسست كأنّ يدها قد ضغطت على كفّي، ربّما خطر لها شيء، ربّما كانت تريد أن تختبر صمودي، قالت:

- كيف حال بسمة في الدّراسة؟

تعمّدت أن يكون ردّي مقتضبا حتّى أختصر الحديث إلى أقصر مدى ممكن:

- لا بأس!

هل شعرت برغبتي في التّخلص منها؟ هل أرادت هي أن تفوّت هذه الفرصة، لتحاول من جديد مرّة أخرى؟

قالت:

- مع السّلامة.

فرددت:

- مع السّلامة.

ومضى كلّ منّا في طريقه.

... مع الوقت، وداخل الضّجيج المدوّي وبين ثنايا طبقات متكاثفة من الظّلمة والإعتام القاتمين، ولأنّ الخيال- إذا تمكّن الصّمت جارحا كاويا- يجمح إلى أقصى حدود الجموح متخطّيا كلّ الجسور والحدود والعقبات، ويتمرّد، يضرب في المتاهات الخرافيّة، تلك الّتي كانت مسرحا للحكايات اللّذيذة والقصص الضّالّة الّتي تلتذّ بضياعها بين الدّروب والنّواصي المغلقة، اعتبرت أنّ «بسيمة»- المرأة النّصف، الضّاغطة المرخية، الجاذبة الدّافعة، اللّذيذة إلى الحدّ الّذي تودّ فيه أن تهصرها بين ذراعيك حتّى تتحطّم عظامها، والمقرفة إلى الدّرجة الّتي تثير فيك الغثيان بعد أن تمتلكها عنوة وتشهدها بعد الحبّ تنسحب من بين يديك، ثمّ توليك ظهرها وتروح في سبات عميق يقطعه بين الفينة والأخرى شخيرها الّذي يستثيرك بقدر ما ينفّرك-... اعتبرت أنّها صارت من الممتلكات الشّخصيّة، سرّا من بين أسرار أخرى سأعرف كيف أخفيها عن عيون الآخرين المتلصّصة، ولكن اكتشفت بعد مرور الأيّام أنّي كنت مخطئا كثيرا، وما كنت أعتقد أنّه ملكيّة خاصّة أفاجأ أنّه أصبح مشاعا مشتركا، مبذولا لكلّ من يرغب، ويكون قادرا على

الدّفع...

عندما غيّرت المعهد والتحقت بمعهد آخر، غدا صديقي «رامي» الّذي شاءت ظروف الانتقالات الدّوريّة أن تأخذه إلى معهدي القديم الواسطة الّتي من خلالها بقيت على علم بما يحدث هناك، وإذا كنت منذ البدء حريصا أن أستدرجه دون أن يعلم كي يتحدّث عن «بسيمة» وأخريات كنت أعرفهنّ، وأعرف حكاياتهنّ، إلاّ أنّني بعد ذلك صرت ميّالا أن يكون الحديث مباشرا ومفضوحا إلى حدّ ما، حينما لمست ميله، ورغبته في نشر شباكه، وفردها في كافّة الاتّجاهات.

قال مرّة، في سياق حديث طويل عن المدرّسين والمفتّشين ومناهج التّدريس، ثمّ لا أعرف كيف انتقل إلى إيراد نكات فاضحة وسخريّات لاذعة عن بعض الأشخاص الّذين كنّا نعرفهم ونستاء منهم، وفجأة، وكان بصره يلوب هنا وهناك دون أن يركّز في شيء محدّد، نظر في عينيّ وقال:

- يظهر أنّ الثمرة أصبحت جاهزة للقطاف!

ولأنّي لم أدرك علاقة الثّمرة بما كنّا فيه من حديث، ولأنّي تفاجأت كثيرا لهذا التّحول الغريب، ولأنّي لمست شيئا من الهزل في نبرته لا يتّفق مع الجدّيّة الّتي كان يتحدّث بها منذ قليل، فقد سألته، وأنا أنظر في عينيه أيضا:

- عن أيّة ثمرة تتحدّث؟!

قذف الاسم في وجهي كالكرة، دون تمهيد:

- بسيمة!!

هل كان على علم بعلاقتي بها؟ هل أخبره أحد؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد جيشان لم يستطع التّعبير عنه بغير تلك الكلمة الأقرب إلى الصّرخة؟... أنا في المقابل لم أكن متأكّدا من الإسم، بالأحرى من صاحبته، هل تلك الّتي يقصدها «بسيمة» الّتي أعرفها أم «بسيمة» أخرى؟!... أردت أن أعرف، أن أخاتله لاستخراج ما في جعبته، فسألته:

- لم أسمعك جيّدا... ماذا قلت؟

ضحك ضحكة صغيرة، غيّر جلسته حتّى واجهني تماما، قال معرّضا:

- لم تعد تسمع؟ هل أصبت أخيرا بالصّمم؟!

لم يكن ينتظر جوابا، واصل:

- رأيتها هناك...

قاطعته وأنا لا أخفي حماستي ولهفتي لمعرفة كلّ شيء:

- هناك أين؟

صمت قليلا قبل أن يجيب، ويبدو أنّه لحظ اهتمامي فقرّر أن يتندّر لبعض الوقت:

- جيّد، بدأت تهتمّ الآن!... وهذا يعجبني...

رشف حسوة من كأس الشّاي بجانبه، وتطلّع حواليه كأنّه يخشى للحديث أن يتجاوز حلقتنا، وقال بنبرة فيها الكثير من الشّوق والتّوق:

- قابلتها في المعهد، وقد صار لي الآن أكثر من شهر وأنا أحاول أن أتوصّل معها إلى «اتّفاق»- وشدّد على كلمة «اتّفاق» بنبرة تآمريّة تحمل الكثير من المعاني والنّوايا الغير المعلنة...!

عند هذا الحدّ قرّرت أن أتأكّد، قرّرت أن أعرف فيما إذا كانت «بسيمة» هي نفسها «بسيمتي». قلت:

- هل تقصد(تباطأت قليلا!!)... الشّغّالة؟

انتفض في مكانه كالملسوع. بدا عليه الاستغراب والدّهشة. سأل ولم يكن سؤاله يخلو من بعض الحدّة:

- وكيف عرفت أنت أنّها شغّالة؟

أردت أن أبعد التّهمة عن نفسي، وأن أجعل تفكيره يحيد عن أيّة أفكار مسبقة، أو سوء نيّة، ربّما تكون قد خامرته عمّا يكون بيني وبينها، فقلت مدّعيا البراءة واللاّمبالاة:

- هل نسيت أنّي كنت أدرّس هناك، وأنّي أعرف كلّ واحد في المعهد.

بعد ذلك بأيّام، وفي نفس المكان، بالمقهى، بعد نهاية الدّوام، جلس على مقعده وكان يبدو على وجهه الهمّ والبؤس، قال بأسى لا يخفى:

- يبدو أنّه كتب علينا...

ولا أدري لماذا قلت، وقد جرى الكلام على لساني دون تفكير:

- كتب عليك الجوع، يا صديقي العزيز!!

لم يصدّق أذنيه حين سمع تلك الجملة، ونظر إليّ وكأنّه ينظر إلى ساحر من سحرة القرون الوسطى، وقال بمزيج من الدّهشة والخوف والنّشوة:

- هل تدري أنّ ذلك ما أردت قوله فعلا!

راقت لي اللّعبة وأردت أن أواصلها إلى النّهاية علّي أستطيع أن أخرجه من الجوّ الحزين الّذي يلفّه:

- ذلك حتّى تعرف أنّ كلامي لا ينزل الأرض أبدا...

وبدعابة، وحتّى أحيله على مرجعيّة هو يعرفها جيّدا كمدرّس لغة عربيّة على اطّلاع بفنّ الرّسائل، قلت:

- أنا شيطانك، وعليك أن تكون شاعرا من الآن، وأن تتجهّز لرحلتك الطّويلة بين أتون «التّوابع والزّوابع»...

قاطعني قائلا:

- دعنا من المزاح...

وبعد قليل:

- لقد طار العصفور قبل أن يدخل إلى القفص!!

قلت وأنا أعلم أنّه سيتكلّم حتّى دون الحاجة إلى سؤالي:

- ماذا تقصد؟

قال:

- أنا الغبيّ... كان يجب أن أنتظرها؛ لقد قالت لي إنّها ستذهب إلى «الحمّام»، وإنّه بإمكاني أن أصطحبها إلى الشّقّة...

سألته:

- ولماذا لم تفعل؟

نظر إليّ بحسرة وكأنّه يلومني لأنّي لم أعد قادرا أن أفهم عنه من النّظرة الأولى، من الكلمة الأولى أو من مجرّد إشارة، وقال بصوت متحشرج:

- وكيف أصطحبها وقد كانت معي نرجس بالشّقّة؟

قلت من جديد:

- هذا حسن، فلماذا الأسف والحزن؟!

لم يتطلّع إليّ هذه المرّة، نظر إلى الشّارع الإسفلتيّ شبه المقفر وقال فجاءني صوته وكأنّه يأتيني من قاع بئر بلا قرار:

- خدعتني السّاقطة، فلم يكن بيننا شيء، قالت إنّ عندها العادة...

وتوقّف لبعض الوقت وكأنّه يحسم موقفا ما، ثمّ واصل:

- أنا الغبيّ... كان لا بدّ أن أجرّب شيئا جديدا، وأن أنهش لحما جديدا، وأختبر رائحة لا شكّ أنّها تدوّخ سيّما وهي تخرج لتوّها من «الحمّام»...!!

***

... انتظرنا البوّاب حتّى أفاق من نومه وسألناه إن كانت توجد في العمارة شقق شاغرة، ورغم أنّه مايزال واقعا تحت تأثير النّعاس إلاّ أنّه كان لطيفا معنا، وبعد أن اختفى في الدّاخل لبعض الوقت رأيناه يأتي من جديد، وما أن اقترب حتّى قال لنا بأسف ظاهر إنّ كلّ الشّقق مشغولة؛ شعرنا بخيبة أمل للوهلة الأولى، ولعلّه لاحظ هو ذلك، ولا شكّ أنّه عرف أيضا أنّنا غرباء، أراد أن يختصر علينا الطّريق فقال إنّ في الشّارع الّذي يلي الشّارع الّذي نحن فيه توجد قهوة صاحبها يعرف أحد السّماسرة الّذين يمكنهم أن يخدمونا... كنّا نريد أن نختصر الوقت، وكان همّنا الحصول على شقّة مهما كانت التّكاليف؛

في البداية اعتقدت أنّه بإمكاني أن أساوم، وأن نكون نحن الّذين نحدّد شروطنا، ولكن بمضيّ السّاعات أسقطت كلّ ذلك من حسابي ولعنت من كلّ قلبي جميع النّصائح الّتي كان «رامي» يحرص أن يسجّلها في دفتر صغير، بعد جلسات عديدة قضيناها مع بعض أصدقائنا الّذين كانوا زاروا القاهرة مؤخّرا... حملنا متاعنا القليل وسرنا مسترشدين بتوجيهات البوّاب، الّذي ظلّ يراقبنا من بعيد حتّى اختفينا في منعطف الشّارع... كانت القهوة على مرمى حجر، واضحة، معلما قائما وسط رفيف من البنايات الّتي تحيطه من الجانبين، بدت لي القهوة الوحيدة في النّاحية، يتآكلها القدم، وهي صغيرة بالكاد تسع الأشياء داخلها، كان صاحبها رجلا في متوسّط عمره، أصلع، أقرب إلى الهزال في قميصه ذي الأكمام القصيرة وبنطاله الّذي انشمر عن كاحليه، وصرمايته... لم ينتبه إلينا، فقد كان منهمكا في نشر الرّمل في أرض المقهى ورشّه بالماء، ولا أدري لماذا ظننت أنّنا لو وقفنا إلى جانبه طوال الوقت لما أعارنا انتباهه، لذلك اقتربت منه بأدب وسلّمت عليه، ردّ التّحيّة في شبه فتور، وهو ما يزال منصرفا إلى عمله، قلت له إنّنا نريد شقّة للإيجار... رفع رأسه قليلا إلينا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة فاترة، وفي صمت اتّجه صوب الرّكن القصيّ للقهوة حيث كانت تقوم أكوام من الكراسي المهلهلة، وجلب لنا كرسيّين وضعهما على الجانب الآخر من الزّقاق، وقال بصوت اعتاد عليه مع أمثالنا من الزّبائن:

- ماذا تشربان؟

نظرت إلى «رامي» متسائلا، قال:

- شاي.

التفتّ إلى الرّجل صاحب المقهى، وقلت محاولا أن أقلّد صوته المحايد:

- وأنا أريد قهوة من فضلك.

تركنا الرّجل ومضى في حال سبيله، تاركا للصّمت الصّباحيّ أن

يلفّنا من جديد... امتدّ بصري إليه للحظات وهو يلج إلى الدّاخل، إلى المكان الّذي قلت لنفسي إنّ مثله لا يمكن أن يعوّل عليه صاحبه لوحده كمورد رزق، ولا شكّ أنّ له موارد أخرى، ربّما لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار في مترين، وهو قياسا إلى المقاهي- حتّى تلك الّتي في المدينة الصّغيرة الّتي ولدت فيها وترعرعت بذلك البلد الصّغير الجاثم على ضفاف المتوسّط، حتّى لا أذكر باقي المدن الكبيرة، تلك الّتي لا يحلو فيها العيش فقط، وإنّما يحسّ الواحد إذا ضاع في أتون إحداها أنّه يولد مرّة ثانية- لا يعتبر شيئا ذا بال بأشيائه القليلة وقائمته الّتي انتثر فوقها، وفي غير نظام، عدد من الأباريق الّتي ذهب طلاؤها والأكواب المختلفة الأحجام.. لم يجذبني المنظر لأكثر من دقائق، وفي وقت ما ثقلت رأسي وأحسست بتعب الرّحلة يحطّ عليّ دفعة واحدة، وأنّ رغبتي الوحيدة في تلك اللّحظة أن أنام، وفي ذلك المكان بالذّات... ثقل جفناي وغفوت، ولست أعلم مقدار الوقت الّذي قضيته في النّوم، إذ عندما أفقت أخيرا بعد أن شعرت بيد «رامي» تهزّني برفق من كتفي ذهب في ظنّي أنّ السّاعة ربّما جاوزت الثّامنة... عاد صاحب المقهى إلينا وهو يحمل صينيّة عليها كوب من الشّاي وفنجان من القهوة يتبعه صبيّ مازال لم يتخطّ الطفولة إلى الفتوّة بعد ينوء تحت نضد كاد لثقله يجرّه جرّا، وبعد أن قرّبه منّا وضع الرّجل الصّينيّة عليه وهو يقول:

- بعد قليل سيأتي «أبو خليل» وسنتّفق على كلّ شيء.

فهمت أنّ «أبا خليل» هو السّمسار الّذي حدّثنا عنه البوّاب، وقد خطر لي للتّوّ حين رأيت ملامح صاحب المقهى والتّغيّر الّذي طرأ عليه، سيّما ضحكته الّتي غدت ودودا وطريقته الهادئة في وضع الصّينيّة على النّضد كأنّه ساحر على وشك أن يخرج الشّريط الحريريّ الّذي وضعه في قبّعته أرنبا أو حمامة صغيرة ما تفتأ أن تطير قليلا ثمّ تحطّ على يده ذات القفّاز المخمليّ... خطر لي أنه ليس السّمسار وحده الّذي سيأخذ عمولة وإنّما هذا الرّجل أيضا الّذي ما شككت لحظة أنّه بعد أن

اطمأنّ إلى أداء عمله الصّباحيّ وجعل قهوته في أحسن صورة ممكنة لا بدّ أن يتفرّغ لنا تماما؛ جلس معنا وهو يراقب الصّبيّ يخرج المناضد من داخل القهوة ويرتّبها في الخارج، ثمّ وهو يسحب الكراسي ويركنها في نسق معيّن حول المناضد، وحين راق له الشّغل التفت إلينا بكلّيته، وقال وهو ينظر إليّ كأنّه حدس بغريزة التّاجر عنده أنّي أنا الّذي يحمل «المال كلّه» وأنّي أنا الّذي سأحاسب في النّهاية:

- يا مائة مرحب...

ورفع يده اليمنى وطبطب بها على صدره بطريقة توحي بسعادة وودّ زائدين، وبعد أن أجال بصرة مرّة ثانية في المناضد وترتيب الكراسي وشاهد أوائل الزّبائن يتوافدون على القهوة، ثمّ وهم يطلقون عليه تحيّة الصّباح فيردّ عليها، ثمّ وهو ينده على صبيّه ويأمره أن يجلب للباهوات مشروبهم- كان يذكر إسم الشّخص وما يريده كأنّه لكثرة ما اعتاد الوجوه الّتي كانت تؤمّ المكان أصبح على إلمام بطباع كلّ زبائنه وما يريدونه-، قال مطمئنا وموجسا خيفة أن تضيع منه الفرصة جزافا:

- لا تقلقوا، ما يلبث «أبو خليل» أن يأتي، لقد تعوّد أن يكون هنا في تمام التّاسعة...

وكي يشدّ اهتمامنا ويجعل القلق آخر ما نفكّر فيه انخرط في سيل من الأحاديث إذا حاولت أن تربط بينها صارت حكاية تروي حياته منذ أن كان شابّا بالصّعيد إلى أن قدم القاهرة كما قدمها مئات آخرون، وتزوّج و«خلّف عيالا»، وفتح هذه القهوة الّتي قال عنها إنّها «ما جابت همّها»... كنّا نسمع ولا نسمع، نتظاهر بالسّماع، ومن حين لآخر ننظر إلى بعضنا، أنا و«رامي»، وكانت نظراتنا المتآمرة تقول سنمنحه بعض الوقت فإذا لم يأت السّمسار سنبحث عن شخص آخر يمكن أن ينقذنا من الورطة الّتي نحن فيها، ولعلّ الرّجل لاحظ تلك النّظرات، ولمس بعينيه الذئبيّتين تلك المؤامرة الصّغيرة الّتي كنّا بصددها، فقال وهو يشير إلى رأس الشّارع:

- الحمد لله، جاء «أبو خليل»...

وقام لاستقباله.

«أبو خليل»، السّمسار المحترف، لا أعرف كيف ظهر ولا متى ظهر، ولا من أيّ مكان نبع، هكذا فجأة، كأنّه جنّيّ مصباح علاء الدّين؛ لم أرتح إلى المصادفة الّتي ربّما جعلته يهلّ علينا بطلعته في تلك اللّحظة بالذّات، وقلت لنفسي إنّ الأمر كلّه لا يخلو من بعض التّرتيب المسبق، وإنّ صاحب المقهى ربّما جعلنا ننتظر كلّ ذلك الوقت حتّى يعطي لنفسه فرصة المشاورة مع هذا السّمسار، وأن يحدّد في النّهاية كم سيأخذ منه، في نهاية المطاف سيأخذ منّا نحن!!... لم أتوقّف كثيرا عند تلك الخواطر والتّفاصيل وقرّرت أن أركّز كلّ همّي في المشهد أمامي والرّجل الّذي كان غريبا إلى حدّ ما، بشاربه الرّصاصيّ المعقوف، تنتهي ذوائبه إلى أعلى في زهو وتيه، وجلابيّته الطّويلة الّتي تلفّ جسده العظيم الممتلئ وقامته الّتي بدا لي أنّي لم أر أطول منها في حياتي، كأنّها الطّود، ذكّرتني حين اصطدمت بها ما كنت أقرأه في بعض القصص الخياليّ عن شخصيّات عصور دابرة!!... كان يلبس كذلك طاقيّة بيضاء وشالا مزركشا جعله يسترسل من عنقه وحتّى وسطه كأنّما يريد بذلك أن يمنح نفسه أقصى ما يستطيع من الأهميّة والرّاحة في نفس الوقت، وقد مدّ يده مصافحا الرّجل الّذي أفسح له الطّريق وقاده إلى النّضد الّذي كنت أنا و «رامي» متحلّقين حوله، وبعد أن اطمانّ إلى جلوسه على الكرسيّ الّذي جلبه الصّبيّ حالما رآه قادما من بعيد، قال مداعبا، وهو يرغب في تأجيل «الصّفقة» لبعض الوقت:

- الباهوات من زمان في انتظارك، يا «أبا خليل».

نظر إلينا «أبو خليل» كلينا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة نوعا ما، عزوتها إلى اكتشافه للّعبة الّتي أراد الرّجل صاحب المقهى أن يلعبها معه، أو خيبة أمله فيما كان ربّما فكّر فيه من قبل من أن يكون هذان اللّذان ينتظرانه، وأشار إليهما صاحبه، «معرفة

قديمة»؛ قال:

- تشرّفنا.

وبعد أن أعطى نفسه وقتا كافيا في تأمّلنا وتقدير ما نملكه من المال وأيّ الشّقق الّتي سيأخذنا إليها، قال وقد ارتاح تماما إلى هيئتنا وملامحنا الّتي كانت قطعا توحي بالضّياع وعدم الرّغبة في الدّخول في أيّ نقاش من شأنه أن يقود إلى «الأخذ والرّدّ» في مساومة طويلة لا تنتهي، قال:

- خيرا إن شاء الله.

تولّى صاحب المقهى الحديث بإسمنا فقال إنّنا غريبان وإنّنا نرغب في تأجير شقّة لبضعة أيّام... كان «أبو خليل» يستمع طوال الوقت وقد بدت على وجهه علائم الاهتمام، وما أن أنهى إليه الرّجل رغبتنا حتّى قال باختصار شديد ووثوق:

- هناك شقّة، في الميدان...

ونظر إلينا، تفحّصته جيّدا رغم أنّني كنت مثقلا بالنّوم، شيء ما في ملامحه، في وجهه، ربّما رفّة عينه اليمنى، أو انفراج شفتيه عن سنّيه الأماميّين الكبيرين اللّذين كانت تعلوهما صفرة خفيفة، جعلني متأكّدا أنّه يرغب في محاصرتنا، وما ذكره للشّقّة، دونا عن شقق أخرى ربّما كان مخوّلا في تأجيرها، إلاّ حيلة منه سيجعل بها الحديث يتّخذ مجرى واحدا، من جانبه، يستطيع من خلاله أن يفرض شروطه...

قلت متسائلا:

- في أيّ مكان بالميدان؟

ضحك ضحكة قصيرة فيها قدر من السّخرية، وكأنّه يتساءل ما شأن هذا الغريب بالميدان الّذي لا يعرف عنه شيئا؛ قال بعد أن تنحنح ليجلو صوته ممّا قد يكون علق به من حشرجة ربّما أدّت إلى سوء فهم بيننا:

- قصر النّيل.

قلت إنّنا كنّا هناك، وإنّنا قصدنا العمارة رقم ٤، ولكنّ جميع الشّقق مشغولة... نهض «أبو خليل» فنهضنا خلفه، وسار فأردنا أن نسير وراءه، غير أنّ صاحب المقهى اعترض سبيلنا، وقال بمواربة فهمت منها أنّه يريد أن نعطيه «شيئا». قال:

- حلّت البركة!

أدخلت يدي إلى جيبي فأخرجت المحفظة وفتحتها وظللت متردّدا لبعض الوقت لأنّني لم أكن متأكّدا من المبلغ الّذي يريد الرّجل أن يقبضه كثمن لأتعابه. ولكنّه، كشأنه في كلّ مرّة عندما يرغب في الأخذ بزمام الأمور، قال حتّى يضع حدّا لتردّدي:

- في مثل هذه الحالات أطلب عشرة جنيه، ولكن يعلم الله أنّي أحببتكم، وسأكتفي منكم بستّة فقط، إكراما لعيونكم!!

... وجدنا أنفسنا بعد دقائق معدودات ندخل مع «أبي خليل» من بوّابة عمارة بنفس الشّارع الّذي أقلّنا إليه التّاكسي منذ الصّباح الباكر. كان البهو الدّاخلي واسعا فسيحا، تطغى عليه مسحة من الكمود وتكتنفه ظلمة خفيفة لم تنجح الإنارة المنبعثة من بعض المصابيح الموزّعة هنا وهناك في جعله يتّخذ طابعا آخر غير الّذي كان عليه. امتدّ بصري لاإراديّا، وجالت عيناي في المكان في محاولة لاكتشافه. تفاجأت بالصّمت، والكثافة الطّاغية الّتي كانت تزداد وتزداد فتجعل القلب ينقبض وتبعث في النّفس شعورا غريبا من الصّعب تحديده سيّما إذا انضاف إلى المشهد كلّه وعي بأنّ المكان يمكن أن يتحوّل في أيّة لحظة إلى متاهة عجيبة من المنعطفات والتّعرّجات والأبواب الموصدة، وبعض الأصوات الخفيضة الّتي كانت تنطلق من أماكن عديدة، ودون سابق إنذار كأنّها تدعو إلى شيء ما أو تحذّر من شيء ما، قد يحدث بين الفينة والأخرى... إلى اليمين، وعلى بعد أمتار قليلة من البوّابة، مقعد طويل جلس عليه رجل فان، بدا لي من منظره أنّه بلغ السبعين أو الثّمانين، إلاّ أنّ نظراته كانت توحي بشيء مناقض تماما لسنّه، فعيناه لا تنيان

تتحرّكان كأنّهما بندول ساعة تتأمّلان الرّائح والقادم، كان يجلس إلى جانبه شخص آخر، وكانا يتحدّثان بصوت عال نسبيّا حينما دخلنا، وإلى اليسار بعض درجات قليلة تؤدّي إلى باب المصعد، ومقابل البوّابة، على مبعدة كبيرة، كان السّلم يتعرّج في شكل لولبيّ، وما عدا ذلك كان الفراغ والسّكون، وكان التّوجّس والرّهبة والخوف والرّعب؛ من شأن بعض الأشياء أن تدخل السّلوّ إلى القلب، من شأنها أن تجعل الإنسان يشعر بشيء من الطّمأنينة وهو يتقدّم بخطى ثابتة نحو هدف مرسوم ومحدّد، ومن شأن بعض الأشخاص، أشخاص معيّنين، بوجوههم الدّاعية وملامحهم السّمحة، واستعدادهم أن يخفّوا لاستقبالك دونما خطط مبيّتة أو سوء نيّة أو إحساس بالمؤامرة، من شأن كلّ ذلك أن يمهّد الطّريق لنوايا جديدة، أن يمحو بعض الأفكار المسبقة والخواطر والأوهام الّتي كانت منذ قليل مسيطرة، ويجعل «البساط أحمديّا»، فلا شكوك ولا حسابات، ولكن وأنا أرى ذلك الرّجل الّذي ما شككت لحظة أنّه البوّاب، وجليسه الّذي كان ينظر صوبنا كما لو كان ينظر إلى صيد طال انتظاره، وهو الآن قاب قوسين أو أدنى من السّقوط، وكذلك الجهمة الّتي حطّت على قلبي فجأة، ثمّ الصّمت الّذي لفّ صديقي «رامي» الّذي حاولت بطرق شتّى أن أنتزعه من العالم البعيد الّذي سافر إليه، ولكن دون جدوى، فقد بدأت أحسّ بالوحدة، وانضاف إلى الوحدة شعور بالخوف من أن يتمّ كلّ شيء بخلاف ما كنّا رسمناه قبل الرّحلة... نزلت يدي دون إرادة منّي إلى جيبي، وظلّت للحظات ترتاح على المحفظة الّتي كانت تحوي تلك الورقات من فئة (...)، فكّرت أنّ المبلغ ربّما لا يفي بالغرض، وأنّ المشاريع الصّغيرة الّتي انتهينا إلى وضعها في لهوجة، وفي لحظات متسرّعة من النّشوة الغير المبرّرة، كانت مبالغا فيها إلى حدّ كبير...!! فإذا قلنا مثلا، وهذا ما خطّطنا له منذ البداية، إنّنا سنمكث في القاهرة لمدّة ثمانية أيّام، وإنّنا خلال تلك الفترة سيكون علينا أن نفكّر بجنون، وأن نحلم إلى أبعد

مدى ممكن، رجوعا إلى أحاديث سابقة عن شوارع بعينها، لا يحلو فيها التّجوال إلاّ ليلا. وإذا تجوّلت فيها لا بدّ أن تستبدّ بك رغبة جامحة في أن تقصد بعض فنادقها الفاخرة، وإذا تناولت الغداء أو العشاء هناك، ولعبت برأسك روائح المكان والأشياء... والنّساء، وشربت كأسا أو اثنتين، غدوت أميرا من أمراء العصر الأمويّ أو العبّاسيّ، وساورتك أريحيّة، ولأنّ الإمارة لها شروطها وتنازلاتها الخاصّة، مالت نفسك أن تصرف بسخاء؛ وكما هي الحال دائما، إذا لاحظ صاحب الفندق منك ذلك دسّ عليك بعض النّساء الصّغيرات المحترفات فجئنك بعددهنّ وعديدهنّ، يمسن ويتثنّين، فيتحلّقن حولك، وفي لحظة من اللّحظات تضيع بين الأبعاد والمسافات، وترى نفسك في عالم غير العالم، تقوم بنيان في المتاه، وبعد الشّراب يخيّل إليك أنّ تلك البنيان قد استحالت إلى قصور، وتحيط بتلك القصور أسوار عالية، شاهقة، وعلى امتداد الباحات الفسيحة تشمخ الحدائق بأشجارها وأزهارها، ويأتي اللّيل فتنتظم حلقة السّمر، ويقدم المغنّون وأصحاب المزاهر والدّفوف، وتدخل إلى الخلوة الجواري، فارهات خفيفات، يفضن أنوثة وشبابا، فيصيبك الخدر، وأنت تنظر ولا ترى، تتناهى إليك الألحان والنّغمات، فتسكر، وتسكر، وتجد أنّ العالم قد بدأ يتقلّص ويتقلّص، تجده قد تحوّل إلى أثيريّة فيها قدر غير محدود من جنون الخيال وعربدته الصّارخة، وفيه من إسقاطات الذّات أغوار وأغوار لا تصحو إلاّ إذا سقطت أقنعة وقام مقامها شسوع تتمازج فيه الأشياء دونما رغبة في الصّراع أو المشاكسة... وإذا قلنا إنّه قد يطرق الباب، في أيّة ساعة من النّهار، فتجد أمامك ربّما واحدة أو اثنتين من أولئك النّساء اللّواتي يأتين دون استئذان، ويطرقن كلّ الشّقق، في أغلب الأحيان، دون استثناء، وفي أحيان أخرى، بناء على بعض المعلومات الّتي يتلقّينها من مجهولين عن القادمين الجدد، وبالتّواطؤ مع بوّابي العمارات الّذين كان لهم من «طيّبهن نصيب»، حينئذ لا تملك إلاّ أن تفسح لهنّ

الطّريق، وتقودهن إلى واحدة من الغرف الكثيرة في الشّقّة، ثمّ تغيب في وجودهن، وبين... أحضانهنّ!! ولا بدّ من تغيير ما، إذا كان معظم الوقت سنصرفه بين الأحياء العتيقة، والميادين، والمتاحف، والقلعة، والأهرام،... وحديقة حيوان الجيزة، فقد حسبنا حساب التّعب والإرهاق، وأشياء أخرى، ولذلك سنهتف إلى بعض أصحاب المطاعم فيأتونا بطعام سوف لن نضطرّ إلى دفع ثمنه وحسب، وإنّما سندفع مع الثّمن أتعاب الشّخص الّذي جلبه، وهكذا!!... شعرت أنّي أكاد أبكي من الدّاخل، ورثيت لنفسي، إذ فكّرت مرّة أخرى في تلك الورقات من فئة (...)؛ أولم نبالغ كثيرا خلال هذه الرّحلة؟! أولم نجازف؟!... هذا الشّعور- لا أدري - سيصبح هاجسا ملحّا لا فكاك منه، وسيصحبني إلى وقت متأخّر جدّا، لقد صار سلوكا مرضيّا، يستبدّ بي، ويحاصرني، فيسبّب لي كمّا هائلا من القرف والخيبة والألم، وأجدني غير قادر حتّى على التّفكير أو التّركيز، أغضب لأتفه الأسباب، أسبّ وألعن، أشيل في الدّاخل، وبعد أيّام أسقط مريضا، يصعد الألم إلى الرّأس ويتكثّف، يتجاوز الألم إلى العذاب، وأتناول الدّواء مؤمّلا أن أقطع الطّريق على الدّاء، كنت أخاف المرض سيّما آلام الرّأس، وربّما لأنّي كنت كذلك، كان المرض يتجسّد أمامي، طيفا معاندا متحدّيا، يتراءى لي بمنظره الكريه، وكأنّه يقول لي بكلّ وقاحة وفجاجة: استعدّ الآن فقد حان موعد المعاناة!! وأستعدّ، ويأتي المرض وأتحمّل حتّى لا يعود فيّ قدرة على التّحمّل... لن أنسى أنّي لم أختر، لم أختر شيئا في حياتي، وحتّى هذه الرّحلة كنت مدفوعا إليها دفعا؛ لقد استغلّ صديقي «رامي» افتتاني بفكرة الرّحيل، وظلّ أيّاما يداعب أعماقا مجهولة بداخلي، ويعزف على أوتار رقيقة كنت أحسّها تتراقص بإغراء، في رأسي، وبين تلافيف دماغي، فقال لي ذات يوم:

- ما رأيك لو نسافر؟!

سألته بدوري:

- إلى أين؟

قال مقترحا:

- مصر!

فسألته من جديد:

- وهل نسافر وحدنا؟

فقال:

- وماذا في ذلك؟... سيكون ممتعا أن نسافر بمفردنا، أنا وأنت فقط!!

وبعد قليل، وقد تداخلت في ذهنه أشياء كثيرة متناقضة جعلته مستثارا غير قادر على كبح مشاعره:

- هل تريد أن أكون صريحا معك؟... لقد سئمت كلّ شيء هنا، وأريد شيئا من التّغيير...

ثمّ نظر إليّ وغمز بعينه وواصل قائلا:

- يا عزيزي، ليس هناك ما هو أجمل من «الشّيء المصريّ».

سافرت إلى مجاهل، وأمعنت في السّفر، وقادتني أفكاري إلى مناطق محرّمة محظورة، نسيت المكان بما فيه ومن فيه، وجهدت أن أتخلّص من حالة الخوف والقلق بالزّوغان، فرأيت، في ذلك الظّرف الوجيز الّذي استغرقه هروبي، ما لم تره الإنسانيّة كلّها طيلة قرون وقرون، ولأنّي كنت وحيدا، فقد احتجبت كلّ العوائق الّتي نمت بداخلي وتراكمت، وتحطّمت قيود وسمعت صوت ارتطام سلاسل ودرق ودروع وهي تتساقط في فوضى عارمة... ضعت، تلاشيت، وما زاد في ضياعي وتلاشيّ أنّي حين انتبهت من حالة الشّرود الّتي سيطرت عليّ، وأفقت تماما، وجدت المكان خلافا لما كان عليه منذ دخولنا إليه، والأشخاص الّذين كانوا معنا، وترسّخت ملامحهم في ذاكرتي وانطبعت وجوههم في مخيّلتي، زاد عددهم، وحين أنعمت النّظر فيهم، تفاجأت لرؤية امرأة كانت تجلس إلى جانب البوّاب، وقد كانت تتحدّث وهي تبتسم

ابتسامات موحية، وتضحك ضحكات صغيرة بين الحين والآخر؛ كانت توزّع نظراتها بين السّمسار «أبي خليل» وبيننا، أنا و «رامي»، وكانت مستثارة إلى حدّ كبير وهي تتكلّم... بدا لي الحديث متشعّبا وطويلا، لم أفهم منه شيئا، ولعلّي لم أفهم لأنّي لم أكن أتابع الحديث من البداية...

كان البهو الدّاخلي يسبح في برك كبيرة من النّور كأنّه لم يعرف الظّلمة من قبل، ولا ذلك الكمود وتلك القتامة الّتي كانت تتسرّب من كلّ الزّوايا الظّاهرة والخفيّة؛ والعزلة، الوحدة الّتي ذهب في اعتقادي أنّها الطّابع الّذي يسم هذا المتاه ليس في الحقيقة إلاّ تمويها ما يعتم أن يتحوّل إلى مشهد بانوراميّ للرّائحين والغادين، أناس لا تعرف ماذا يفعلون أو لماذا جاؤوا، سيّما إذا تأمّلتهم وحاولت أن تحزر طبيعة الأشياء الّتي يفعلونها أو جاؤوا من أجلها، ففشلت، وبدل أن تنتهي إلى نتيجة معقولة ازددت اضطرابا وتشوّشا؛ رجال ونساء، أطفال صغار... رجال بجلابيبهم، بعضهم يعتمر طاقية، ونساء ملفوفات في ملاءاتهنّ اللّفّ، وأخريات يبدون- للوهلة الأولى بألوان ملابسهنّ السّاطعة الّتي لا تملك حيالها إلاّ أن تتأمّل وتحلم، وزينتهنّ البادية في وجوههنّ وقد غدت مسرحا رائقا لأنواع متنوّعة من البودرة و«الرّوج» ومستحضرات أخرى- صورة مغايرة لجمال من نوع آخر، يحثّ ويستثير... كنت أنظر في جميع الاتّجاهات إلاّ أن أركّز في ذلك المشهد الّذي لا بدّ أنّه كان يخوض في «مفاوضات» لا بدّ أنّها كانت صعبة ومتشعّبة، وكنت أبحث عن شيء ما، عن تعزية، بعد أن فرّ النّوم من عينيّ، وتركني النّعاس لرحلة قد تطول في هذا الخضمّ، الّذي لا أعرف متى ابتدأ، ولا في أيّ وقت ينتهي...

شاهدت المرأة تنهض من مكانها، وتبعها «أبو خليل»، ونهض البوّاب أيضا فتقدّمهما إلى الدّرجات الّتي تقود إلى المصعد، ومضينا نحن خلف الجميع...

خيّل إليّ، أثناء الحديث، أنّ «أبا خليل» حين كان يخاطب تلك

المرأة كان يناديها قائلا «يا ستّ روحيّة»... امرأة محيّرة، ليس من السّهل اكتشافها من النّظرة الأولى، ولا من السّهل اختراقها أيضا، قدّرت حين اصطدمت بوجودها إلى جانب البوّاب، وهي الّتي تدير الحديث في أغلب الأحيان، أنّها قد تكون هي صاحبة العمارة، كان ذلك مجرّد تخمين، فهي ليست من النّوع الّذي يمكن أن تصنّفه حالما تراه، فتقول مثلا «إنّها شغّالة»، أو هي من أؤلئك النّساء المحترفات اللّواتي يعرفن كيف ومتى «يقدّمن خدماتهنّ»، أو هي زوجة البوّاب أو قريبته، أو امرأة تريد أن تؤجّر بيتا...

مستديرة الوجه، كبيرة العينين، ضاحكتهما، بشرتها تغلب عليها سمرة خفيفة رائقة، رغم تقدّمها في السّنّ، قلت لنفسي إنّها قد تكون تجاوزت الأربعين ببضع سنوات، ورغم ذلك ما تزال على شيء كبير من جمال؛ كان شعرها ملفوفا في شال أزرق يؤطّر وجهها كلّه، وينحدر على منكبيها الفسيحين إلى ما تحت صدرها، وكانت تلبس فستانا أزرق أيضا، إلاّ أنّه شديد الزّرقة...

فتح البوّاب باب المصعد، وأفسح الطّريق فصعدنا كلّنا، ثمّ دخل هو بعدنا وأغلق الباب من جديد وضغط على زرّ في الدّاخل، رأيت الرّقم ٣ بوضوح، ولمّا تحرّك المصعد، بدأت أرسم في ذهني صورة للشّقّة الّتي سنؤجّرها لمدّة ثمانية أيّام... تخيّلتها فسيحة، كبيرة، مدخل أو ممرّ، وربّما صالة، وغرفة أو اثنتان، وحمّام ومطبخ، و... جهاز تلفزيون، قلت لنفسي: لا بدّ أن يكون هناك تلفزيون، التّلفزيون ضروريّ، ضروريّ جدّا!!...

أدخلت «السّتّ روحيّة» المفتاح في الأكرة وفتحت الشّقّة، ثمّ أشارت إلينا بالدّخول فدخلنا، أنا و«رامي»، ثمّ البوّاب و«أبو خليل»... لم تكن الشّقّة كما تصوّرتها تماما، ولكن فيها شيئا من تلك الصّورة المتخيّلة... باب كبير تتوسّطه عين سحريّة، يفتح على مدخل متوسّط الحجم قامت في وسطه منضدة مخروطيّة الشّكل حولها عدد من

المقاعد الخشبيّة الّتي كسيت قواعدها ومساندها بالقطيفة، وعلى جانبيها، عن اليمين وعن الشّمال، دولابان قد وضع على أحدهما جهاز تلفون... اجتزنا المدخل، وانعطفنا إلى اليمين في ممرّ طويل نسبيّا؛ وفتحت «السّتّ روحيّة» بابا إلى اليسار، وقالت بنبرة أرادت أن تحمّلها قدرا كبيرا من الإغراء:

- تفضّلوا.

الصّالة... فرشت أرضيّتها بالسّجّاد، وقامت حيطانها في شموخ، وارتكنت إلى جدرانها العالية القديمة أرائك كان يبدو عليها شيء من العتاقة والبلى؛ في أقصى الزّاوية اليمنى، كان هناك نضد خشبيّ، مرتفع القوائم، عليه جهاز تلفزيون، وإلى جانبه كانت هناك ستائر من الموسلين الأبيض قد انسدلت في تكاسل، وهي تهسّ من حين لآخر جرّاء نسمات رقاق كانت تهبّ في الخارج...

جلست «السّتّ روحيّة» ودعتنا إلى الجلوس فجلسنا... ألقت علينا نظرة فاحصة، وبعد قليل قالت:

- شوفوا، يا باهوت...

وتوقّفت للحظات رأيتها خلالها تتبادل نظرات متواطئة مع السّمسار الّذي نظر إليها بدوره، وملّس على شاربيه المعقوفين ثمّ ضحك ضحكة فيها الكثير من الإيحاء.

ربّما لم تعجب المرأة بتلك البداية الّتي أرادتها لحديثها، لأنّي سمعتها تقول بعد قليل:

- صلّوا على النّبيّ، يا جماعة.

فردّدنا وراءها، جميعنا، وفي نفس الوقت بطريقة ميكانيكيّة، وقد بدأت أملّ كلّ تلك اللّعبة، وكان أقصى ما أتمنّاه أن ينتهي كلّ شيء بسرعة، وأن أتوجّه إلى أقرب غرفة وأنام إلى العصر...

.اللّهم صلّ على النّبيّ.

تابعت «السّتّ روحيّة»:

- الشّقّة غرفتين وصالة وحمّام ومطبخ...
ثمّ وكأنّها نسيت شيئا فاستدركته:
- لكن لم تقولوا لي كم يوم ستظلّون بالشّقّة.
وتطلّعت إلينا. قلت بشيء من الفتور واللاّمبالاة:
- ثمانية أيّام...
فقاطعتني وقد بغتت. لعلّها كانت تؤمّل أن تطول إقامتنا، ولكن حتّى تمسك بطرف الخيط من جديد، ولا يبدو منها ما قد يشير إلى استيائها أو امتعاضها، قالت متودّدة:
- على خيرة الله إذن...
وصمتت قليلا، ولتضع خاتمة مناسبة لكلّ تلك المقدّمة الّتي ابتدأت في البهو وانتهت هنا، في الشّقّة، قالت ببطء، وكأنّها تريد لنا أن نتشرّب كلّ حرف من كلماتها:
- ثمانية أيّام... كلّ يوم بثمانين جنيه...
كان السّمسار كأنّه ينتظر تلك اللّحظة بالذّات ليتدخّل، فقال:
- يعني، اللّهم صلّ على النّبيّ، ثمانية أيّام بستّمائة وأربعين جنيه...!!
في الحال أجريت عمليّة حسابيّة بدت لي معقّدة وشائكة، ولمّا استقرّ المبلغ في النّهاية في ذهني، تطلّعت إلى «رامي» بجانبي، ثمّ نظرت إلى «السّتّ روحيّة» لاإراديّا قائلا:
- هذا كثير جدّا!!
فقالت كي تقطع عليّ الطّريق أوّلا، ثمّ كي تصرفني عن أيّة فكرة ربّما توحي إليّ بخطوة رعناء ليست في الحسبان ثانيا:
- المبلغ ليس كثير ولا حاجة، والعمارات الأخرى أسعارها نار، خاصّة في الميدان... واسأل «أبو خليل» إذا أحببت.
ورفعت رأسها ما أن أنهت كلامها إلى السّمسار الّذي كان مستعدّا لتلقّي نظراتها الّتي لا شكّ أنّها أرادت أن تكسب بها تأييدا وتعاطفا،

وفوق ذلك كلّه تريد أن تنتزع منه دعما أكيدا، لأنّه إذا ضاع «الصّيد» ستضيع عليه هو العمولة. أمّا إذا كان متعاونا فإنّه بقدر تعاونه ستكون مكافأته مجزية... لم يكذّب «أبو خليل» خبرا، قال وهو يقترب وكأنّه يروم بذلك أن يؤثّر علينا بكلامه وهيكله العظيم أيضا:

- السّتّ معها حقّ، يا جماعة...

التفتّ إلى «رامي» أستشيره، إلاّ أنّي وجدته غير ميّال إلى الحديث أوالنّقاش، كان هو الآخر متعبا ومجهدا، وكانت ملامحه تشي برغبة قاهرة في النّوم... أخرجت المحفظة من جيبي، دون أن أنتبه إلى السّمسار والبوّاب وقد جحظت عيناهما أمام منظر النّقود، وعددت المبلغ المطلوب، بالتّمام والكمال- ستّمائة وأربعين جنيها مصريّا، ثمّ قلت مخاطبا «السّتّ روحيّة» الّتي مدّت يدها لأخذ المبلغ:

- اتّفقنا إذن...

كنت أحسب أنّ الأمر انتهى عند ذلك الحدّ، إلاّ أنّ السّمسار اقترب منّي وهو يفرك يديه... رسم على شفتيه ابتسامة فأحسست أنّي قد انهرت تماما، وأنّ بقيّة الصّمود والتّحدّي الّتي كنت محتفظا بها إلى ذلك الحين قد غدت قبض الرّيح؛ ولا شكّ أنّه قد لاحظ ذلك على وجهي وملامحي، ولم يفته ارتخاء شفتيّ على ضحكة بلهاء غبيّة، فأراد أن «يضرب الحديد وهو ساخن»... قال:

- أرجو أنّك لم تنس عمولتي!

سألته مدّعيا التّجاهل وعدم المعرفة:

- أيّة عمولة؟

انقلبت ابتسامته إلى تكشيرة فاستنتجت أنّه قرّر أن يخوض الحرب إلى النّهاية ولن يتنازل عن شيء يعتبره حقّه... سألني بدوره بنبرة تشي بشيء من الخشونة:

- ألم تؤجّر الشّقّة؟!

قلت بفتور وأنا أتفادى النّظر في عينيه:

- بلى.

قال:

- ما دمت قد أجّرت الشّقّة، وما دمت أنا الّذي توسّطت في ذلك، فلا بدّ أن تعطيني عمولتي!!

قرّرت أن أتشبّث بآخر فرصة في الخلاص، نظرت إلى «السّتّ روحيّة» الّتي كانت تعدّ المبلغ بصوت عال، أدركت أنّها ليست مستعدّة لإنقاذي أو مساعدتي، قلت لـ «أبي خليل» محاولا توريط «السّتّ روحيّة»:

-عمولتك تأخذها من السّتّ روحيّة!!

فوجئت «السّتّ روحيّة»، عرفت أنّها أخذت على حين غرّة، فتدخّلت لتضع حدّا للمناقشة... قالت:

- في مثل هذه الحالات، يأخذ السّمسار عمولته من المؤجّر والمستأجر...

قاطعتها مستسلما:

- حسنا...

ورفعت رأسي إلى «أبي خليل» قائلا:

- كم عمولتك؟

قال بحدّة:

- خمسون جنيها!

انتفضت في مكاني كالملسوع، وقلت بحدّة أيضا:

- ولكن هذا كثير جدّا.

اقترب منّي أكثر من ذي قبل، ربّما خامرته خواطر عديدة: ترى ماذا يقول عنّي الآن؟ هل فكّر وهو يقترب أن يسحقني؟ هل ندم أنّه دلّني على الشّقّة؟ هل كان حانقا؟

قال:

- خمسون جنيها، ولن أقبل أقلّ من ذلك!

قلت لنفسي: وما نفع الاحتجاج الآن؟!... هل أستردّ النّقود من «السّتّ روحيّة» ونبدأ رحلة البحث من جديد؟!... هل أغيّر رأيي، فقط نكاية في هؤلاء الّذين يريدون أن «يمتصّوا دماءنا»...؟! لكن، هل مازال لدينا من القوّة ما يكفي؟ هل نستطيع التّغلّب على تعب أيّام وأيّام من السّفر؟!

قرّ رأيي على التّسليم، وفتحت المحفظة مرّة ثانية ونفحت السّمسار عمولته، لكن ما كدت أفعل ذلك حتّى تقدّم البوّاب أيضا وهو يقول بمسكنة:

- وماذا عنّي أنا أيضا؟

أحسست أنّ الغضب بدأ يصعد إلى رأسي، وأنّي قد أرتكب حماقة، قلت بصوت أردته أن يكون هادئا جدّا:

- وماذا فعلت أنت؟

كانت نبرتي فيها الكثير من السّخرية، وفيها مرارة، وغضب وقهر، ولكن يبدو أنّ البوّاب لم ينتبه إلى ذلك كلّه، أو أنّه انتبه غير أنّه أراد أن يتظاهر بالتّجاهل وعدم المبالاة، قال بكلّ بساطة، لا يحسنها إلاّ البوّابون أمثاله، الّذين لا شكّ أنّه مرّ عليهم الكثيرون مثلي ومثل صديقي «رامي»:

- أنا البوّاب!!

لم أتمالك نفسي من الضّحك...

- وماذا في ذلك؟

قال وهو يفرك كفّيه:

- في ذلك الكثير...

ثمّ بعد قليل وهو ينظر إلى «السّتّ روحيّة» الّتي كانت تراقب المشهد بكلّ اهتمام:

- وإذا أردت أن تعرف، اسأل «السّتّ روحيّة»!!

قالت «السّتّ روحيّة»:

- لن تخسر شيئا إذا أعطيته شيئا...

وغمزت بعينها قبل أن تواصل:

- سيكون مفيدا جدّا لكم في الأيّام القادمة!

أدخلت يدي إلى المحفظة، وأخرجت ورقة نقديّة من فئة الخمسة جنيهات وأعطيتها إيّاه دون أن أنظر إليه، ولكن سمعت صوته يتناهى إلى أذني مشرشرا كأسنان المنشار على الخشب:

- هذا فقط!!

قلت له وقد صمّمت على مجابهته بكلّ قوّة حتّى إذا لزم الأمر أن أتنازل عن الشّقّة وأبدأ البحث أنا و«رامي» من البداية:

- أعتقد أنّ المبلغ كاف ويزيد...

أراد البوّاب أن يقاطعني إلاّ أنّ «السّتّ روحيّة» أسكتته بإشارة من يدها قائلة:

- خلصنا، يا «عمّ محمّد»...

ووقفت دلالة الانتهاء من مهمّتها، ثمّ اتّجهت بكلّ جسمها إلينا وهي تقول بإغراء شديد:

- لا شكّ أنّكما متعبان... سأترككما الآن لتناما قليلا، وسآتي في المساء لأرى إن كان ينقصكما شيء...

اتّجهت صوب باب الصّالة فتبعها السّمسار والبوّاب، ووصلنا صوتها وانيا من الممرّ:

- مع السّلامة.

- ٦ -

«يا إلهي!... يا إلهي! ما هذا العطش الّذي يقطّع أمعائي كأنّه السّكاكين؟... ما هذا الهبوط الّذي يباغتني، ويحطّ عليّ فيقيّدني،

وأحسّ تحت ثقله كأنّ أسياخا محمّاة تنغرس في جسمي؟!... لا أثر لمعالم كنت أراها من قبل، تحدّد المسارات وتحيل على الطّرق المؤدّية، تدلّ على المسالك الّتي تقود إلى أماكن بعينها... كوى انحفرت صورها في الذّاكرة فغدت مثل العلامات الأولى... أصبحت البدايات الّتي لاغنى عنها ولا معدى... أيعقل أن يكون كلّ ذلك وهما؟ وأن أكون طيلة كلّ هذه السّنوات أربّي أشياء غير حقيقيّة بداخلي؟!... آه، أيّ مكان هذا المكان الّذي أراه، بل أيّة أمكنة تتراءى لي الآن؟ كأنّي وسط متاه، صحراء بلا حدود، كلّما أوغلت فيها، صرت قاب قوسين أو أدنى من الضّياع!! يا إلهي! يا إلهي! أين الماء؟... أين تكون الحياة وسط هذه الأشلاء الّتي لا تنضبط بالجهات، بل إنّها تلغي هذه الجهات، تتمرّد عليها في لحظة من لحظات الانتشاء الغامرة، حيث لا حقائق على الإطلاق، وحيث الوجود الإنسانيّ نفسه رجراج، تماما مثل الزّئبق!!...

جسدي، كياني كلّه، أحسّه كأنّه كائن منفصل عنّي، لا أملك السّيطرة عليه، وحتّى لو حاولت ذلك سيكون من المستحيل عليّ أن أستعيد توازني السّابق، ساقاي كأنّهما ساقا شخص آخر، يداي، تتحرّكان دون إرادة منّي، دماغي الّذي في رأسي كأنّه دماغ لكائن آخر، يتلقّى منّي الإشارات، غير أنّه لا يستجيب، كان رأسي يثقل إلى حدّ الانفجار، وفي أوقات بعينها يخيّل إليّ أنّي أسمع أصواتا معربدة تأتي من كلّ مكان، من أعماقي المجهولة، تكبّلني، فأرتدّ إلى الخلف، تراودني رغبة في الانتحار؛ لكن أيّ انتحار يمكن أن يخلّصني من هذه المأساة، من هذا العطش الّذي كنت أراه يتجسّد أمامي، من حين لآخر، كأنّه عملاق من العمالقة الّذين كانت تتحدّث عنهم الأساطير القديمة؟!... [هل كنت «عوليسا» جديدا في رحلة عودته إلى موطنه؟ وهل كان عليّ أن أواجه «السّيكلوب» المخيف؟!]...

أشعث الشّعر، حافي القدمين، لاط في الزّاوية القصوى من المطبخ، ماذا كان الفصل؟ وكم كانت السّاعة، يا ترى؟... نظرة الرّعب،

أجل نظرة الرّعب، تلك النّظرة الّتي لن أنساها ما حييت، ذلك الضّياع الّذي كنت أراه، لا يفصله عن التّجسد سوى ثوان قليلة، هي كلّ الوقت الّذي يستغرقه الجبل الخرافيّ كي يتمخّض عن الفأر الّذي لا يعلم أحد متى ولا كيف انبعث إلى الحياة... أوه!أوه! من كان ذلك الشّخص، يا ترى؟ هل كنت أنا، أم شخصا آخر، ربّما تبيّنت فيه صورة لشخص آخر، عرفته... هل عرفته فعلا، أم أنّ خيالي يصوّر لي الأشياء الآن على خلاف ما هي عليه في الواقع؟... في زمن ما، في عصر من العصور السّحيقة الّتي شهدت انتحار العنقاء، وعادت مرّة أخرى لتشهد انبعاثها من جديد، رمزا لقيامة ستظلّ شاهدا جدّيا على لاجدوى العدميّة، كانت حيوانات صغيرة، صغيرة جدّا، في حجم الكفّ، تأتي دون خوف، فتأكل الحبّ الّذي وضعه شخص ما على كفّه، أو فتات الخبز الطّازج، وزخّات المطر، الحبيبات الّتي كانت تتساقط بين الفينة والأخرى، فتملأ الكون بأسره، هناك كانت ترقّ الأحاسيس، تغدو المشاعر شفيفة إلى أقصى الحدود، ننسى، تمّحي من الذّاكرة صور بعينها، لتعوّضها صور أخرى أكثر تسامحا؛ في زمن الولادات المتعسّرة، حيث يولد العظماء، وينقذف القادة الرّائعون إلى الوجود، ويكبر الفلاسفة ويحلّق العلماء بعيدا، بعيدا، في فضاء العالم الرّحب، انسربت من التّيه هيئة هيولانيّة بلا شكل، كانت تكبر كلّما اقتربت من الأرض... لا شكل، لا لون، لا رائحة!! فقط مجرّد أصوات غير إنسانيّة، مزيج من ضحك هستيريّ، وبكاء ونشيج... وصراخ، آه كم كان كاويا ذلك الصّراخ! كم كان مرعبا، وأنا أنظر من حولي، أريد أن أركّز في المشهد المبذول أمامي، أحاول أن أتأكّد من أنّ الّذي أراه ليس وهما آخر من الأوهام الكثيرة الّتي تفاقمت وتضخّمت بداخلي إلى درجة القرف... ربّما كان الصّراخ منبعثا من داخلي! ربّما الضّحك والنّشيج والرّعب، والهيئة، هل هي هيئة شخص غيري؛ لا، لا، تذكّرت الآن!! كنت أرى خالي، أراه، بشحمه ولحمه، مشعّث الشّعر، حافي القدمين، وضحكت

كثيرا، ضحكت من كلّ قلبي في ذلك المساء، ثمّ بكيت، ضحكت وبكيت في نفس الوقت، وقلت في نفسي بشيء من السّخرية المرّة:

- آه، يا إلهي! هل كان خالي رجلا عظيما لأنّه كان مشعّث الشّعر وحافي القدمين؟!!

... وكما تتواتر المشاهد، ينتهي مشهد، يتلاشى، ليحلّ محلّه مشهد آخر، على الرّكح، المكان المؤطّر بمؤثّرات وديكورات، وإضاءة، وعشرات الألوان الّتي تتفاوت، وفق الحالات، من الخفوت والكمود، إلى الإنارة الفاضحة. كنت أرى الصّور أمامي، لكن ما أسرع ما كانت تمرّ تلك الصّور! ما أسرع ما كانت تختفي، في لمح البصر، لا تلبث إلاّ ثواني، أو أجزاءا من الثّانية، وكأنّها في صراع مدمّر مع الزّمن الزّئبقيّ!! لا، ليس حلما، وليس كابوسا؛ إنّه ليس شيئا على الإطلاق، ربّما مجرّد حالة من الحالات، دمار، ورغبة قاتلة في... آه، رغبة في ماذا؟ حلقي يجفّ، عيناي تغيمان وسط المرامي والأبعاد. المسافات تتوالد من مسافات أخرى، والذّاكرة: خواء يولّد خواء، والخواء الجديد يولّد خواء آخر، وهكذا، لعبة لا تنتهي البتّة، وأجري، أو أتصوّر أنّي أجري، ربّما كانت قدماي تتحرّكان في نفس المكان، إذ لم أنظر إلى تحت، وإنّما كان بصري معلّقا في المدى، الشّسوع، كأنّي كنت أرى أشياء بعينها، الماء، أو هو السّراب، الّذي قيل عنه قديما: يحسبه الظّمآن ماء!!... أين العمار؟! الخضرة الّتي رأيتها ذات يوم وأنا صغير فتعلّقت بها عيناي الصّغيرتان، واعتقدت آنذاك - ولست أدري لماذا- أنّ العالم تحرّكه قوّة خضراء، وأنّ هذه القوّة هي المبدأ والمنتهى، وأنّ الله ربّما يكون خلق هذا الكون كلّه وفقا لنموذج أصيل تؤطّره الخضرة من جميع جوانبه!!... أين الدّار، دارنا منذ ما يقرب من ألف سنة، في محلّة من المحلاّت الكثيرة، في درب من الدّروب، المتفرّعة من أحد الشّوارع الفسيحة الواسعة، في مدينة الرّصافة، حيث الدّجلة يرفد الفرات، وينجدل النّهران، في عناق محموم إلى المجاهل الأكثر إلغازا، في أصل حضارة عمرها من

عمر الزّهور البريّة والطّحالب ذات الرّائحة الرّبيعيّة العابقة؟!... أين الرّنين الآتي، لا أعرف من أين، ولكنّي كلّما سمعته أحسست بالرّجفة تندسّ أشبه ما يكون بقشعريرة ما بين مسامّي، وتسري مع الشّرايين في دمي، اللّحن، العزف الصّاخب الصّارخ، ينتشر في الجنبات، وعبر الزّوايا، في قصور لا تنام البتّة، تظلّ صاحية إلى الصّبح، تصل ليلها بنهارها في نشيد كونيّ، عتابا وميجانا، وقدود، أين منها الصّخب الّذي يتآكلني الآن، في المتاه، ضائع، مشرّد، صعلوك تائه، يبحث عن العزاء، في أرض غير الأرض: يا إلهي!! الماء، قطرة ماء، قطرة ماء... قطرة... ماء!!

تطفو صورة خالي من جديد، أراه يتقدّم في إباء، بين جنديّين يلبسان الزّيّ العسكريّ، كأنّما يقودانه إلى سجن، لم أر السّجن، ولكنّي رأيت الحيطان العالية الصّمّاء، وهو يضحك، كانت ابتسامة محيّرة مرتسمة على شفتيه اللّتين حال لونهما من التّمباك، يداه مقيّدتان، وشعره ما يزال أشعث، وقدماه لم تكونا عاريتين، وإنّما لفّهما في خرق من الخيش، انطمست ملامح وجهه، انطمست كلّ العلامات الفارقة ما عدا الصّوت، كان صوته واضحا: عندما مرّبي انتزع يديه المقيّدتين من قبضة الجنديّين وصفعني بعنف على قفاي حتّى كدت أسقط- من أثر الضّربة- منطرحا على الأرض، لم أغضب، تداركت أمري فنهضت بسرعة وجريت وراءه، تعلّقت بتلابيبه رغم محاولة الجنديّين إبعادي، وصرخت بصوت عال، وبنبرات خلت أنّ صداها قد تردّد في كلّ مكان:

- لماذا ضربتني، يا خال؟!

ثمّ تعلّقت به أكثر، كأنّي كنت أخشى أن يتلاشى أو يذوب:

- أنا لم أفعل لك شيئا!!

ولكنّه ضحك، أطلق ضحكة هستيريّة، والتفت إليّ وقذف في وجهي بعنف حمّله كلّ غضبه وقهره وضعفه:

- أنا لست نادما لأنّي ضربتك، ولو حاولت أن تقترب أكثر لحطّمت جمجمتك الصّغيرة القذرة، يا ابن أختي!!

وعلت ضحكته، تحوّلت إلى قهقهة تردّد صداها في أشلاء اليباب المحيط، وقال بقرف:

- أعطني مالا أعطك شعرا أشعث وقدمين حافيّتين!!

المجنون!؟!... فجأة، وعلى غير انتظار، نطّ أمام عينيّ، وكذلك الجنديّان اللّذان كانا برفقته، انقلبوا جميعا إلى حيوانات شرسة، كانت تهرّ في وجهي، أيقنت أنّه لا فائدة من المهادنة في تلك اللّحظة، وأنّ أنجع وسيلة هي الهروب، لكن حينما كنت أستدير تسمّر جسدي في مكانه، ورأيت قدميّ تغيضان في بحر لا متناه من الرّمال المتحرّكة، صرخت، أو هكذا اعتقدت، إلاّ أنّ صوتي كان هباء، لا أثر ولا صدى على الإطلاق، كأنّي ولدت بلا صوت، أخرس، لا يحسن غير إشارات وإيماءات محطّمة بلا معنى... رأيت تلك الحيوانات الّتي كانت منذ قليل آدميّة تتقدّم ببطء، تستعدّ للانقضاض وقد تأكّدت من العجز الّذي كان يكبّلني، فتحت فمي ثانية وأردت أن أستغيث، فانقذف، لا أدري من أين، برميل أسود، كانت النّار تنبعث من فوّهته، وتراءى لي خالي مع ذينك الجنديّين وقد تحوّلوا جميعا، هذه المرّة، إلى كلاب مدرّبة، بالحسّ، على الفتك...!! كانت تلك الكلاب تدحرج البرميل الأسود باتّجاهي، وكنت أميل يمينا وشمالا، في نفس الوقت الّذي كنت فيه أغرق وأغرق، والرّمال ما تنفكّ عنّي، كأنّها أرادت لي خلاصا من البرميل لتقودني إلى هلاك محقّق، في بطن رمال لا تعرف الشّفقة أو الرّحمة... وأطلقت صوتا... سمعته، هذه المرّة، وكان واضحا جليّا في أذنيّ، لم يكن صوتا عاديّا، كان انفجارا، أو هستيريا، أو شيئا كنت عاجزا عن تسميته...

تذرّى المشهد، احتجب من أمامي، كما لو كان بفعل ساحر، ورأيت السّراب الّذي كان سرابا، ذلك السّديم، الغبش الأبيض، وقد استحال شيئا فشيئا إلى وادي بين جبلين عظيمين، على مفترق طرق، وقد قامت في جنباته الواحات، وبين الواحات، وفي وسطها

بحيرات صغيرة من الماء تشكّلت في زمن منسيّ، من المطر الحليبيّ... لم أصدّق عينيّ، لم أصدّق أنّي نجوت من الكلاب والبرميل بتلك السّرعة الجهنّميّة العجيبة، كما لم أصدّق كذلك أنّي تخلّصت من خالي الموتور، وقد كنت إلى آخر لحظة ضدّ أن نبيع الفيلّلا الّتي بناها جدّي بدمه وعرقه من أجل سداد السّندات الّتي عليه، لعلّه يستطيع أن ينجو من السّجن الّذي كان يؤخّر دخوله مرّة بعد أخرى، بتلك المبالغ الصّغيرة الّتي كان يعطيها المحامون للقضاة كرشوة تدفعهم إلى التّسويف وتأجيل الحكم النّهائيّ مرّة بعد مرّة... آه، يا إلهي! يا ربّ السّماء، عرفت الآن لماذا كان خالي يريد أن يحطّم عظامي!! لم يكن غضبه من فراغ، من لاشيء، كان يرغب أن يقول لي بصراحة عدائيّة إنّه لا يحبّني، وإنّه... وإنّه... أوه، الطّنين!! ينتقل من الأذن اليمنى إلى اليسرى، سؤال لم أتبيّنه للوهلة الأولى، طنين وجفاف في الحلق، وفي البعيد، بين المرامي والابعاد القصيّة، الواحات والبحيرات، وأكوام من الموتى والعظام، والقيود والسّلاسل، والجماجم الّتي تتكلّم، وهي تتضاحك، تتراقص، بعضها له جمّة، والبعض الآخر فقط بعض شعيرات انتثرت هنا وهناك... والرّجل، الرّجل، كان يحمل كتابا، كان يقرأ وكأنّ المنظر لا يثير انتباهه، أم أنّه هو الّذي كان يخرج تلك الأشياء من رأسه ويضعها في الكتاب، وفي لحظة من لحظات التّجلّي، يطلقها في الوادي كي يستمتع بمنظرها...!! هل اقتربت منه، هل سألته؟! يخيّل إليّ أنّي وجدت نفسي، هكذا بجانبه، أو أنّ قوّة ما قادتني إليه، لم يرفع رأسه، انفرجت شفتاه وسمعته يقول بنفس فلسفيّ، ونبرات جدّيّة، وصوت مؤثّر: وحشرت الكائنات في المطهر لتسأل... بغتة رفع رأسه، رآني، فانطبعت على شفتيه ابتسامة هي مزيج من الحيرة والبغتة والرّغبة في السّيطرة على الموقف: - أنت كائن آخر؛ أنت روح أخرى جاءت إلى المطهر لتحاسب؛ أليس كذلك؟! نظرت إليه بدوري، مأخوذا بصوته، وهيئته وكلّ شيء فيه، ووجدت نفسي أسأله بدل أن أردّ على

سؤاله، قلت: - من أنت أيّها الرّجل الطّيب؟! ضحك ملء فيه، ومدّ لي يدا مجدورة، كأنّه قد خرج لتوّه من مرض عضال فتك بقرى ومدن من عصور دابرة، وقال كأنّه يسخر، أو يوضّح، أو يضع نقاطا تالفة على حروف مهترئة: - أنا لست رجلا طيّبا، بل أنا «دانتي أليغيري»، وما تراه الآن أمامك، الكوميديا الّتي جعلتها أنا إلهيّة، لأنّه لا يمكن للكوميديا إلاّ أن تكون إلهيّة!! ونظرت إليه وهو يختفي، كالطّيف أو الخيال، ويأخذ كتابه وصنائعه الّتي ملأ بها الكتاب، ويحلّق في الأجواز الغير المنظورة!!...

أتلبّس بالأشياء وتتلبّسني، وحدة خلق من عناصر شتّى يحكمها التّناقض المتناغم، لا أحسّ أنّي أشكّل خللا وأنّ العالم يمكن أن يتقوّض لأنّي أنا أريد ذلك، ولا تنطبق السّماء على الأرض، ولا يموت الأشقياء ولا يحيا من هو ليس أهلا للحياة، ولا ينبت الفطر السّامّ على الأديم، ولا... يموت خالي [من القهر]، فقط لأنّي أرغب - مجرّد رغبة هي إلى النّزوة أقرب- أن أستمتع «بالخراب الجميل»!! من قال إنّ الخراب جميل؟! وإنّ الجمال يمكن أن يتبادل مع الخراب مواقع... النّجوم، والنّيازك، والكواكب الهامدة الّتي قال لي الطّيف الّذي كان غالبا ما يزورني في أوقات بعينها إنّها مسكينة جدّا، وإنّها تصنع المشاعر والأحاسيس وتجعلها رقيقة مثل طيور السّنونو، هذه الطّيور الصّغيرة في حجم راحة الكفّ، طيور كنت أخطئها دوما رغم أنّه لم يكن يمرّ يوم من الأيّام الكبيسة إلاّ وكنت أراقبها تحطّ على أهدابي، وفي لمح البصر تلج أغوار عينيّ وتختفي داخل محيطات وجزر ومتاهات وأقيانوسات ومجاهل... شيء، أو صحيفة، أو طومار في داخله صحيفة، ألقت به أياد كثيرة، أياد ليست آدميّة، ولأنّها ليست آدميّة فقد جهدت أن أتبيّنها وهي تنبع من أبواب السّماء الّتي انفتحت كما لو كانت طاقة من جحيم، بدت لي أشبه بتلك الأيدي البحريّة، في جرار لا تشبه شيئا كما تشبه الخمّ الّذي كان يرتكن إلى جدار بيتنا القديم الآيل للسّقوط، أياد أخطبوطيّة

تمتدّ إليّ دون هوادة، أتخمتها الحيتان والطّحالب والقواقع فأصابها جنون البحث عن لحم إنسانيّ... لحم طريّ رخو يصلح للمصمصة بعد المأدبة الفاخرة!!... والصّحيفة تصغر وتكبر، تصغر حتّى تصير في حجم حبّة الحمّص وتكبر حتّى تصير بحجم عفريت المغارة أو خادم المصباح: شبّيك لبّيك!! لكن لا أماني ولا رغبات، والعطش، العطش المدمّر القاتل يهري أمعائي، يسحق عظامي؛ آه، خترفة، جنون قليل يزداد حجما، يتضخّم مثل البالون، يتميّع، يرتخي، وينشدّ في لحظات معيّنة، يكبر ويكبر، في طريقه إليّ، يحتكّ بي، ولا أستطيع الفكاك منه، يهصرني حتّى ليكاد يهرسني تحته، أسمع صوتا!؟! ترنيمة من زمن ما سمعتها ذات يوم، لكن أين؟! هل هو البيت ذاته، والقافية، والرّويّ، كان أصدقائي كلّهم يقولون: ليس هذا من الشّعر في شيء، هراء، وفي أقصى الحالات هو نظم، ليس إلاّ: [كأنّنا والماء من حولنا**قوم جلوس حولهم ماء]...

تسقط الصّحيفة!! تتسرّب الكلمات منها وهي تصطفق بحروفها الكثيرة، تنشد حرّيّة ما، تكره اللّحمة والسّبك والوحدة والنّسيج والنّظام، البنية والبنى، وإذا انزلقت، حرّفت الأسماء قليلا، صارت لغوا، وما كان، في لحظة ما، «بنية» استحال إلى «بنيّة»، وما كان «نسيجا» ما يعتم أن يتحوّل إلى «نشيج»؛ وتضع أذنيك على باب المقصورة، لا تسمع في البداية شيئا، تحاصرك الظّلمة من كلّ مكان، وفي وقت ما، تأتي الأسماء والأشياء، والنّغم الرّابض خلف الباب: [جادك الغيث إذا الغيث همى**يا زمان الوصل بالأندلس// لم يكن وصلك إلاّ حلما** في الكرى أو خلسة المختلس]... الخدر المدوّخ، يا الله، ما أروعه! وما أروع أن نموت ونحن نترنّح من أثر الرّائحة!! والمزاهر والعيدان، المثاني والمثالث، والمقتولة تتحوّل إلى قاتلة، ومن قتل يتجسّد حيّا ليقتل ويقتل، ثمّ يقتل ويقتل، ويتصوّر أنّه يبعث الصّور كما تبعث الأرواح من البرزخ، يرسم الشّعر والجبين والأهداب الطّويلة

والوجه والملامح والكتفين الخرافيّين والصّدر النّاهد، المرماح في فتنة الحلم القصيّ الّذي يأتي على حين غفلة ليسلب النّوم من العيون الغير المسهّدة... يرسم البطن الضّامر والخصر النّاحل والأرداف والفخذين، وما بين فخذ وآخر ينساح العالم على أبعاده ومراميه، وترفد الأنهار البحار، وترتق الجزائر الجزائر في صلب لحن كونيّ لا ينضبط بغير «نوتة» الوجود الآخر!! ياه، يالي من ضائع ومضيّع، يقتفي الأثر، لأيّام وليالي، لأشهر بطولها، ليكتشف في النّهاية أنّ الأثر الّذي كان يتعقّبه يصبح هو المتعقّب الّذي لا يملّ، يترجم موسيقى الصّخب إلى هينمات عذاب عن... الماء والعطش!! وسألته، وهو يقود السّيّارة بسرعة جنونيّة، أن يتوقّف قليلا، بدت لي واجهة المحلّ الّذي مررنا به كما لو كانت مصفوفة بآلاف مؤلّفة من قوارير الماء المعدنيّ؛ تظاهر بعدم سماعي وغمغم بكلمات لم أفهم منها شيئا، في الحقيقة أنا لم أفهمه في يوم من الأيّام رغم أنّي حاولت ذلك عشرات المرّات، على امتداد سبعة وعشرين يوما، في المدينة الكبيرة، والبيت، وفي الشّارع ذي الالتواءات والانحناءات الّتي كانت تشبه في مجملها لوحة تشكيليّة رديئة!!

نزلت نار فأحرقت الصّحيفة تماما، وشممت رائحة الاحتراق، وتضافرت فجأة الحروف والكلمات فانتظمت من سداها عشرات المشاعر والأحاسيس الرّقيقة: اخترقني صوت ما، وأنا أبحث عن شيء في أرض أتت عليها المستنقعات:

- هل رأيت نجما يموت؟!

كان السّؤال غريبا، أو هكذا بدا لي... رفعت رأسي ببطء مستعدّا للمفاجأة الّتي يمكن أن تكون في انتظاري، لم أجد شيئا؛ قلت:

- من الّذي يتكلّم؟

جاءني الصّوت مرّة أخرى:

- أنا؟

سألت بفتور، هذه المرّة:

- ومن أنت؟!

فقال وهو يضحك، وكانت ضحكته تخبو شيئا فشيئا كأنّها تحتضر:

- أنا النّجم الّذي مات بداخلك!!

ابتسمت، لكنّي خفت فأخفيت الابتسامة وراء شفتيّ، وقلت وأنا أخرج الكلمات حرفا حرفا:

- أنا لا أحمل نجوما بداخلي!!

وبعد قليل:

- أنا لا أعرف نجوما تموت!!

قال، وكنت أراه يتكوّر ويصير في هيئة النّجم:

- أنت جاهل!

وصرخ في وجهي بعنف:

- متى تعلم أنّ الأحاسيس مثل النّجوم الصّغيرة، فإذا ماتت الأحاسيس ماتت تلك النّجوم؟!! وأنت اليوم، أيّها الضّائع، قد انطفأت نجومك جميعا، وماتت أحاسيسك!!

ثمّ أضاف وهو يحلّق بعيدا، في المدى الغير منظور:

- وداعا! وداعا!

... في عالم الاحتمالات، بين الممكنات، ما أنا نفسي إلاّ احتمال آخر، وجود غير موثوق البتّة، من الممكن أن يختفي، أن يتشظّى ويتذرّى في أيّة لحظة، أتلمّس جسدي عضوا عضوا، أتأكّد من أشياء وأشياء ظننت أنّها لي، وأنّها كانت تنضاف إليّ في كلّ مرحلة من مراحل حياتي، ومع ذلك يظلّ الاطمئنان بعيدا، وتظلّ الحيرة واديا بين جبلين أخضرين، في المدى المتنائي، أندفع باتّجاهه، تحت وطأة العطش، لأوّل مرّة كنت أرى المسافات تنطوي طيّا، تقرّبني من الهدف الّذي كنت أراه يتكشّف بكلّ وضوح، أبيض ناصعا في بياض الثّلج ذات يوم شتائيّ من أيّام كانون الأوّل الباردة... خضرة عارمة، والنّخيل في كلّ مكان، قلت

لنفسي أليس من الأجدر أن أشرب، وأن أطفئ غلّتي، وتعجّبت لأنّي أحسست فجأة بالهمود، ولم أكن متشجّعا لأيّ شيء، كنت أنظر إلى الماء وكأنّي أنظر إلى مستنقعات كوّنتها مياه الأمطار الّتي كانت تختلط بالتّراب والطّين... اقتربت من بحيرة لون صفحتها بلون اللّجين، اقتربت منها بدافع الفضول، أردت أن أضع كفّي على الأديم الأبيض الرّائق، قلت يا الله! فانقلبت المياه بغتة إلى برك من الحيّات، تفتح أفواهها متحفّزة للهجوم عليّ، ارتددت لاإراديّا إلى الوراء، فعادت المياه كما كانت؛ تقدّمت، انحنيت بجذعي وقرّبت شفتيّ من الماء، وقلت يا الله!!... ما كادت شفتاي تلمسان الأديم حتّى انتفضت من الأعماق الغافية آلاف الحيّات، كانت تتشبّث بشفتيّ، وأعضائي كلّها، وجسدي كلّه، وتنغل في أعماقي، تتلبّس بدمي، وبأمعائي، وأسمعها وهي تغنّي، وتعربد؛ لا أدري لماذا عنّ لي أن أنظر إلى صورتي في الماء، كنت أعتقد أنّي أموت ببطء، وأنّ لحمي لا شكّ قد ازرقّ بفعل السّمّ، والأنياب القاتلة الّتي انغرست في كلّ شبر منّي، ولكن ما أن اصطدمت عيناي بصفحة البحيرة حتّى رأيت... عجبا!! الشّعر الأجعد وقد بات أصفر مسترسلا، ناعما كما لو كان شعر أنثى، والعينان الزّرقاوان، امتداد لامتناه من سفر موصول، وطوبولوجيا الجسد تطلق شكلا وهيئة قديمين، تمتزج فيها أنوثة وذكورة خلاّقة، صرخت، وبدا لي أنّ شخصا آخر يتكلّم بدلا عنّي: «أنا تريسياس، وقد تنبّأت بكلّ شيء!!»... ورأيت أناسا كثيرين يخرجون من الماء، تفصلني عنهم سنوات وسنوات، الثّياب والأحذية والملامح، وتلك الأشياء الّتي كانوا يضعونها على رؤوسهم، واللّغة المقعّدة، والأدب الجمّ وهم ينحنون بقاماتهم الفارعة أمامي، ويقولون: - السّلام على مولانا، سلطان البرّين وخاقان البحرين؟!... ضحكت، ضحكت، ضحكت، قلت: - أنا عطشان، أريد ماء!!... رأيتهم ينظرون إليّ متعجّبين مندهشين، كأنّهم لا يعرفون الماء؛ وتقدّم منّي أحدهم وكان يبدو عليه أنّه مقدّمهم وقال لي وهو ما يزال منحنيا: - العفو، يا مولاي؛ هلاّ أخبرتنا ما الماء؟!... ضحكت مرّة أخرى، وأخرجت

من جيبي كوبا به ماء، وقلت في المرّة الأولى: - هذا هو الماء!، وفي المرّة الثّانية، قلت: - والماء الّذي عندي أبيض!، وفي المرّة الثّالثة، قلت: - وإذا قرّبت رأسك من الكأس تحوّل الماء في الحال إلى حيّة!!، وأومات إليه بالاقتراب فاقترب، وأمرته أن يقرّب رأسه فقرّبه، وما هي إلاّ طرفة عين حتّى انقضّت عليه حيّة من باطن الماء وابتلعته كلّه، ابتلعته بملامحه وأدبه وثيابه وحذائه والعمامة الكبيرة على رأسه؛ كانوا يأتون الواحد تلو الآخر وينحنون، وفي كلّ مرّة تبتلع أحدهم الحيّة... حين لم يبق غيري، أطلقت ضحكة سوداء، قهقهت فخرجت القهقهة مشوّهة، لها ألف عين وأنياب عملاق هرم، وأخرجت من عبّي كأسا بها ماء وأدنيت وجهي فابتلعتني حيّة كبيرة لها رأس إنسان وهيكل أسد؛ رأيت مدينة على مقربة، أسوارها عالية متناهية العلوّ، وبابها عظيم لا شكّ أنّه استنفد صنوبرة بأكملها، أردت أن أدخل فاعترضت الحيّة سبيلي، وقالت: - لن تدخل... قاطعتها قائلا: - لماذا؟ أنا عطشان، وأريد أن أشرب!!... قالت: - لن تدخل حتّى تجيب على السّؤال الّذي سأطرحه عليك، وإذا فشلت في الإجابة حوّلتك إلى صخرة!! قلت معتدّا بذكائي وغروري: - اسأليني عن أيّ شيء، فأنا حجّة! ضحكت، قالت ساخرة: - سنرى... وبعد قليل أضافت وهي تحدّ فيّ بصرها: - ......؟! لم أسمع شيئا غير أنّي ألفيت نفسي أقول، وبكلّ اعتداد ووثوق: - أنا!!... وما حدث بعد ذلك لم أكن متأكّدا منه تمام التّأكّد، ولكنّي أحسست كأنّ كياني كلّه بدأ يتحوّل شيئا فشيئا، وأنّ أعضائي كانت تتصلّب عضوا عضوا: الرّأس والوجه والكتفان واليدان والبطن والفخذان والرّجلان والقدمان...!! ونبع من داخلي صوت لاإنساني متحشرج، كان صوتا مخنوقا بالكاد يتسرّب من لهاتي مخترقا التّرسّبات الصّخريّة الّتي كانت تسيّجني، من رأسي حتّى أخمص قدميّ:

- لا... لا... لا...!!»

***

كنت مستيقظا، أتقلّب في الفراش، مغمض العينين، منبطحا على بطني، مولّيا وجهي إلى الدّولاب على يميني؛ وكنت أسعى أن أركّز في الأصوات المختلطة الآتية من الخارج، في شكل تموّجات صغيرة تقذف بها بعض النّسمات المشاكسة، فتتسرّب عبر انفراجة النّافذة الكبيرة ذات المصراعين العظيمين، مخترقة السّتارة البيضاء الطّويلة الّتي كانت ذوائبها ترتاح بتكاسل على أرض الغرفة...

عندما دخلت إلى الغرفة في الصّباح، أمسكت بمقبض الباب وحاولت أن أغلقه، إلاّ أنّه حين بلغ حدّا معيّنا تصلّب وصار قاسيا، حينئذ غيّرت رأيي وتركته على حاله، موقنا أنّه بإمكاني أن أسمع أيّ شيء يدور في الشّقّة من خلال الفتحة الصّغيرة الّتي بالكاد تسمح لعينين طارئتين بالتّطلع إلى الأشياء في الدّاخل... رغم الكوابيس والأحلام المزعجة لم أضيّع إحساسي بالزّمن، فقد كنت على يقين أنّ السّاعة ربّما جاوزت الرّابعة عصرا، وأنّي نمت أكثر من سبع ساعات متواليات...

ربّما الإرهاق، أو التّعب الّذي كان يسمّرني إلى الفراش الدّافئ، ما كان يمنعني من النّهوض، ولكنّي أيضا كنت أتحسّب من الأصوات الّتي كانت تصلني متداخلة من الصّالة، تتخلّلها بين الحين والآخر ضحكات أنثويّة، قدّرت أنّ «روحيّة» جاءت إلى الشّقّة، وأنّها وفت بوعدها الّذي قطعته في الصّباح، لكن سمعت أصواتا أخرى بدا لي أنّي أسمعها لأوّل مرّة، امرأة ورجل، أو أكثر من ذلك؛ تساءلت، بيني وبين نفسي: « أيعقل أن يزورنا أحد في هذا الوقت المتأخّر؟»... وعادت بي الذّاكرة إلى مكان غير المكان، في تلك المدينة الّتي لا شكّ أنّها صارت بعيدة جدّا الآن، تفصلني عنها «نجاد ووهاد»- على حدّ قول أهل السّيروالقصص: هناك كنت أنا الّذي أحدّد علاقاتي وفق مزاجي ومقاييسي الخاصّة، وإذا لم تكن لي رغبة في أيّ شخص من الأشخاص الّذين يضطربون حولي لم أعدم الوسيلة لإقصائهم من طريقي!!... المكان غير المكان،

والنّاس أيضا، في هذه المدينة الكبيرة الّتي أجدني مفتونا في الوقت نفسه بعتاقتها وأتحسّب من مفاجآتها الغير المنتظرة...

أصررت على العناد!

قرّرت أن أظلّ في مكاني لا أبرحه حتّى يعاود الشّقّة سكونها الأوّل، وانقلبت على ظهري وفتحت عيني نصف فتحة، وسحبت ذراعيّ، ثمّ شبكت أصابع يدي اليمنى بأصابع اليسرى ووضعتهما تحت رأسي وأنا أتأمّل ما حولي في غباء، ودون هدف محدّد: سمعت الباب يصرّ، ووقع أقدام تتسلّل إلى الدّاخل في خفّة القطّ، عاودني التّحفّز، وأحسست بأعصابي تنشدّ من جديد... أغمضت عينيّ مرّة أخرى، وبسرعة انقلبت على بطني، في وضعي الأوّل، متظاهرا بالنّوم...

رغم استثارتي وتقلّب المزاج الّذي لفّني على حين فجأة، كان كلّ تركيزي منصرفا إلى الأقدام الّتي اقتحمت الغرفة دون استئذان، استبعدت أن يكون القادم أيّ شخص، ورجّحت أن يكون «رامي»!!...

اقتربت الخطى أكثر، شعرت بها تلج الغرفة وتتّجه صوب السّرير، ثمّ تتوقّف قليلا، وتسلك الطّريق على امتداد الحشيّة حتّى غدت بجانبي تماما: امتدّت إليّ يد بتؤدة، بالكاد مسّت كتفي، تجاهلتها، ثمّ عادت اليد مرّة أخرى تهزّني أكثر من المرّة السّابقة، تقلّبت في الفراش، أردتها أن تكون حركة عفويّة، انكفأت على نفسي، قرّبت ركبتيّ من صدري، ورحت أصدر في البداية شخيرا متقطّعا، ثمّ اتّصل الشّخير بعد ذلك ممضّا مزعجا...

كان «رامي»، وقد سمعته يقول وكأنّه فطن أنّ الأمر كلّه لا يعدو أن يكون مجرّد لعبة ليس إلاّ:

- أعرف أنّك صاح، فلا تزعجني: الجماعة في انتظارنا!!

قلت متفاجئا، وبصوت ما تزال به آثار النّوم:

- أيّة جماعة؟!

لم يرض أن يجيبني، ولكن ارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات

دلالات، وقال وهو يغادر الغرفة:

- تعال إلى الصّالة وستعرف الأمر بنفسك!!

قمت متثاقلا، وسرت نحو نضد وطيء كان مركونا إلى جانب الدّولاب الكبير، وضعت عليه، في الصّباح، حقيبة اليد الّتي كانت فيها ملابسي وبعض اللّوازم الأخرى... فتحت الحقيبة وأخرجت منها المنشفة، وفرشاة الأسنان، وقطعة الصّابون المعطّرة، ثمّ فتحت الباب وانطلقت نحو الحمّام... كانت الأصوات ما تزال تصلني من الصّالة، فتوقّفت للحظات في الممرّ، وحاولت أن أحدس من من الأشخاص يكون قد جاءنا في هذا المساء المتأخّر... استبعدت من ذهني «أبا خليل»، إلاّ أنّي كنت أعتقد أنّ البوّاب قد صعد إلى الشّقّة مع «السّتّ روحيّة» لسبب أو لآخر... دخلت إلى الحمّام، وتقدّمت من الحوض الصّغير القائم إلى يمين الباب، وفتحت الصّنبور، تركت الماء يغمر رأسي حتّى سرى الخدر إلى دماغي، ثمّ أخذت قطعة الصّابون ودعكتها بين يديّ، وبعد ذلك مسحت برغوتها وجهي كلّه، تسرّب الألم إلى عينيّ رغم أنّي أغمضتهما، وفي الحال وضعت كفّي تحت الصّنبور مرّة أخرى وغسلت وجهي ثمّ مسحته بالمنشفة... نظرت إلى نفسي في المرآة البيضاء الصّقيلة أمامي، بدا لي الشّخص الّذي رأيته على صفحتها ينظر إليّ في حياد، كانت عيناه متورّمتين إلى حدّ ما، وكانت شفتاه مزمومتين، كأنّه على استعداد للهراش، اغتصبت ابتسامة مبتسرة وأنا آخذ فرشاة الأسنان وأسكب عليها المعجون بهدوء، لكنّي رأيته وأنا أفعل ذلك يتأمّلني بسخريّة كما لو كان يتحدّاني، أو كما لو كان بيني وبينه ثأر قديم... قلت لنفسي: ليس هذا وقتا للنّزاع الآن! وهززت رأسي بنزق ولوّحت بكفّي، كنت أريد أن أرمي بكلّ شيء وراء ظهري، وأن أستعدّ للمشهد الّذي ينتظرني بالصّالة...

كانت «السّتّ روحيّة» تجلس على نفس الأريكة الّتي جلست عليها في الصّباح، وإلى جانبها، جلس رجل لم أعرفه، وامرأة أيضا، وفي الجهة

المقابلة، جلس «رامي»، وهو يضحك... كان منسجما تماما، وما أن رآني، حتّى أشار إلى الرّجل قائلا:

- عمّ أحمد.

ثمّ إلى المرأة:

- السّتّ زينب.

اقتربت فسلّمت على الجميع، ثمّ عدت القهقرى فاتّخذت مجلسي في النّاحية الأخرى إلى جانب «رامي»... كنت طوال الوقت أنظر إلى «السّتّ روحيّة» وهي تتكلّم، كنت أحاول، سيّما في اللّحظات الأولى، أن أتغلّب على الخجل الّذي اعتراني في حضور الزّوّار الجدد، ولم أجد وسيلة خيرا من التّظاهر بالاستماع إلى الحكاية الّتي كانت ترويها «السّتّ روحيّة»، والّتي يبدو أنّها بدأتها منذ ساعات قبل مجيئي... من حين لآخر كنت أسترق النّظر إلى الرّجل والمرأة... كان الرّجل أشيب الشّعر، نحيلا، يرتدي قميصا أبيض قديما، وسروالا قصيرا يصل إلى ركبتيه، وكانت تبدو على ملامحه، في ذلك المساء الّذي كان يقتحم الصّالة في أناة وصبر دائبين، آثار طيبة ليس من السّهل ملاحظتها للوهلة الأولى، وبقايا حزن تليد، في تلك الأخاديد الّتي تركتها الأيّام على جبينه المغضّن وخدّيه الخاسفين... وكانت المرأة رائقة الملامح رغم تقدّمها في السّنّ، تضع على رأسها منديلا طويلا قد نفرت من خلاله بعض خصلات من الشّعر الّذي اختلط بياضه بلونه الضّارب إلى الصّفرة، وكانت قصيرة يغلب عليها الامتلاء، وقد لاحظت أنّها كانت تبتسم ولا تتكلّم، في حين كان الرّجل يعلّق بكلمة من هنا وكلمة من هناك كلّما توقّفت «السّتّ روحيّة» عن الكلام...

بدا لي أنّ «رامي» كان يعير «السّتّ روحيّة» اهتماما زائدا، ورغم أنّي لمست محاولاته اللّبقة في مجاملة الجميع، إلاّ أنّ نظراته وتطلّعه إلى المرأة الّتي كانت تتحدّث أوحى إليّ، ولا أدري لماذا تحديدا، أنّ العلاقة بينهما من الممكن أن تتطوّر وتتّخذ شكلا آخر، لا يمكن تصوّره أو

الحدس بنتائجه... ارتحت إلى الاستنتاج الّذي توصّلت إليه، بل لا أنكر أنّي أحسست بشيء من الغبطة والكثير من الارتياح عندما أنهت إلينا «السّتّ روحيّة» بكثير من الاحتفاليّة أنّها ستكون رفيقتنا طيلة الأيّام الثّمانية الّتي سنقضيها في الشّقّة!!

قالت وهي تريد أن تضع كلّ شيء في مكانه حتّى يكون واضحا ومفهوما:

- عمّ أحمد سيكون معكم دائما، مرّتين في اليوم، في الصّباح السّاعة التّاسعة...

وبعد قليل وهي تلتفت إلينا، أو بالأحرى التفتت إلى «رامي»، ثمّ التفتت إليّ من باب المجاملة:

- وفي المساء، ما بين السّاعة أربعة إلى السّاعة الخامسة...

ثمّ أضافت بعد فترة صمت:

- عمّ أحمد سيكون مفيدا جدّا لكم، إذا رغبتم يمكن أن يجلب لكم ما تريدون، من المحلاّت تحت، كما يمكن أن يقوم بأيّ شيء تأمرونه به داخل الشّقّة... يمكن أن يطبخ، وأن يجهّز لكم الطّعام إذا كنتم في الخارج...

ولمّا تأكّدت أنّنا استوعبنا كلّ ما قالته، وأنّنا بالتّالي يمكن أن نحدّد علاقتنا بـ«عم أحمد» وفق ما أنهته إلينا، اقتنعت أنّه حان دور «السّتّ زينب»، فقالت:

- السّتّ زينب هي الأخرى ستكون معكم، مهمّتها تنظيف الشّقّة وترتيب الأغراض؛ وإذا كانت لديكم ملابس في حاجة إلى غسيل أو كيّ يمكنها أن تقوم بذلك...

وأطلقت ضحكة قصيرة فانفرجت شفتاها عن أسنان نضيدة بيضاء ناصعة، وقالت:

- أمّا أنا فيمكن أن تندهوا لي كلّما احتجتموني!

قالت الجملة الأخيرة بطريقة لم أفهمها، وممّا زاد في عدم فهمي

أنّها ربّما أرادت لتلك الجملة أن يكون لها وقع خاصّ... كنت أنتظر منها أن تلمّح، أو تشير إلى ما يمكن أن يشي بمقصدها، غير أنّها تركت كلّ شيء معلّقا؛ قلت لنفسي ربّما هي تشعر بشيء من الحرج لوجود الرّجل والمرأة، ولا شكّ أنّها ستنتظر اللّحظة المناسبة، في الأيّام القادمة، لتكشف عمّا خفي من نواياها المضمرة.

في البداية تصوّرت - وكان ذلك مجرّد تخمين من جانبي- أنّ كلّ ذلك الإدلال من جانب «السّتّ روحيّة»، أخذها مبادرة الكلام في كلّ مرّة، وقبل الجميع، عفويّتها وهي تتحدّث أو وهي تضحك، وحتّى وهي تورد النّكات النّكتة تلو الأخرى... تصوّرت أنّ كلّ ذلك لا بدّ أن يكون جرّاء إحساسها أو شعورها بأهميّة مركزها بالعمارة، وتخيّلت، في لحظة من اللّحظات، أنّها هي صاحبة العمارة، وقد هممت منذ الصّباح، منذ أن التقيناها، أن أسألها ذلك السّؤال الّذي كان يلحّ عليّ دون هوادة، ولكنّي كنت ما أن أفتح شفتيّ حتّى يتملّكني التّردّد ويرتج عليّ... هذه المرّة كنت مصمّما على طرح السّؤال عليها، وقد استغلّيت فرصة قيام «عم أحمد» و«السّتّ زينب» استعدادا للمغادرة، وما أن غيّبهما الباب، وسمعت وقع أقدامهما، في الممرّ، ثمّ في المدخل، حتّى قلت وأنا أكاد ألتصق بكتف «السّتّ روحيّة»:

- لا مؤاخذة، يا ستّ روحيّة؛ هل يمكن أن أسالك سؤالا؟!

فالتفتت إليّ وقد أحسست أنّ وجهها كلّه قد استحال إلى ابتسامة بلا حدود:

- اسأل، يا خوي، أنا تحت أمرك!

فتنحنحت لأجلو صوتي ولأتغلّب على الحرج في نفس الوقت:

- هل أنت صاحبة العمارة؟

حملقت فيّ كأنّما انشقّ بطن الأرض فجأة وظهر أمامها مارد أشعر يروم افتراسها، وعندما أفاقت من أثر الصّدمة، طرقع حلقها بضحكة مجلجلة، وقالت بمرح فائق:

- يا ريت، يا خوي...

ثمّ، وبكلّ بساطة:

- يا سيدي، أنا شغّالة، مثلي مثل زينب...

أحسست أنّ ألف قناع قد سقط دفعة واحدة، وأنّ «السّتّ روحيّة» الّتي استقبلتنا، والّتي زارتنا في الشّقّة، قد أصبحت «روحيّة»، «روحيّة» فحسب، ولم أصب بخيبة أمل جرّاء ذلك، بل على العكس شعرت في قراري بسعادة غامرة لا أعرف مصدرها!!

***

في اليوم التّالي، كان الجميع مدعوّين... «عم أحمد»، و«زينب» و «روحيّة»، وشخصان آخران اكتشفنا فجأة أنّهما من نفس البلد-بلدنا؛ كانت «روحيّة» من أخبرنا بذلك عندما أخذنا الحديث وتطرّقنا إلى سكّان العمارة فكانت تذكرهم واحدا واحدا، وبالإسم أيضا... وقد أخذت أنا و«رامي» الأمر ببساطة متناهية، حتّى لا أقول بفتور؛ [أشخاص هم مجرّد وجوه وملامح، هيئات وأسماء، ونبرات مختلفة: ماذا يهمّ لو كانوا من نفس البلد؟! بل ماذا يهمّ، في نهاية المطاف، إن كانوا من نفس المدينة أو الحيّ؟! سيفترق كلّهم عند نقطة ما، وسيمضي كلّ واحد منهم بمفرده، يحمل همّا وربّما آمالا لن تصدق أبدا!]؛ أردت أن أقول كلّ ذلك لـ «روحيّة»، إلاّ أنّها لم تمهلني، ونهضت من حينها إلى شقّة بجوار شقّتنا، وما هي إلاّ لحظات حتّى وجدنا أمامنا شخصين سلّما علينا ودعوناهما إلى الجلوس فجلسا، تحدّثنا قليلا، وشربنا القهوة ودخّنا، وحوالي السّاعة الحادية عشرة صباحا، استأذنا، ولكن صديقي «رامي» نظر إليّ فجأة، وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس: «ما رأيك لو نستغلّ هذه الفرصة وندعو الجميع إلى الغداء؟!»... وافقت رغم أنّي لم أكن متحمّسا للفكرة كثيرا، ووضعت في اعتباري كثيرا من الأشياء الّتي كان «رامي» غافلا عنها... نظرت إليه بدوري، بحنان،

وتأمّلت ملامحه، نفس العذوبة القديمة، وذلك الكمّ الهائل من البراءة الّتي كانت تترجم عن نفسها بأقلّ الكلمات، والجذع وهو يميل قليلا إلى الأمام، فترتسم لعينيّ تلك الصّور عن أشخاص قرأت عنهم، قادة وشعراء، وأشخاص آخرين مهمّين، في أوقات بعينها حين يستبدّ الفكر، وتتمكّن اللّجاجة مع قرب الحلول، حيث تأتي الأفكار العظيمة، والخطط، وتولد القصائد، ويمتزج الوحي بالإلهام في عناق محموم، ويكون الكشف والإشراق؛ وضعت يدي على كتفه في تحبّب، وقلت:

- لا بأس من الدّعوة، ولكن فلتستعدّ...

ولم يمهلني حتّى أكمل الجملة، فقاطعني:

- وماذا تقصد؟

طفت على شفتيّ، ودون إرادة منّي، ابتسامة فيها رثاء وسخريّة، مردّها إلى جهله بمثل هذه الأمور، وقلت كأنّي لم أسمع سؤاله:

- عليك أن تكون جاهزا من الغد، في الصّباح؛ سيكون علينا أن نشتري الكثير من الأشياء، وأن نحضّر كلّ شيء...

قاطعني مرّة أخرى:

- قالت لي روحيّة إنّها على استعداد أن تشرف على الغداء... ستكون موجودة هي وزينب، وستتعاون الاثنتان...

وصفن، فامتدّت يده إلى جبهته، وحكّ جبينه، ثمّ سألني بتثاقل:

- ولكن، هل لديك فكرة عمّا يمكننا أن نشتريه؟!

فضحكت، وقلت:

- لاتقلق من هذه النّاحية...

كنت أريد أن أمنح نفسي فرصة لترتيب الأفكار في ذهني، وقلت بعد لأي:

- اللّحم... ضروريّ، وسنترك لهما أن تطبخا ما تشاءان، وسنشتري كبابا أيضا، وكذلك السّمك، والسّلاطات، ويمكن كذلك أن نشتري موزا وعنبا وبطّيخا...

تطلّع إليّ بنظرات مرتابة، وحدّ فيّ بصره كأنّه يعاتبني، وبعد لحظات قال وهو يتقدّم منّي، ويضع يده على كتفي كأنّما يذكّرني بشيء هامّ كنت نسيته، وقال برخاوة:

- نسيت الأهمّ...

وغمز بعينه، فلم أتركه يكمل وقلت بدوري:

- لا تقلق سنشتري ما تريد، وإذا أحببت أيضا انتقينا شيئا من المكسّرات... كمزمزة...

ثمّ تذكّرت، فقلت متسائلا:

- لكن، ماذا عن الآخرين؟ أقصد...

ولكنّه سرعان ما تدخّل قائلا:

- لقد كنت قلقا بدوري، وطرحت الأمر على روحيّة، قالت: لا مانع...

ثمّ أضافت:

- وجماعتكم أيضا يشربون، فلا تقلقوا من هذه النّاحية!!

... لم يكن لدينا الكثير لنفعله، ولم نكن قد اتّفقنا بعد على برنامج محدّد لتنظيم وقتنا رغم أنّ هناك أشياء كثيرة تدور في ذهنينا... الهرم، القلعة، والمتحف الوطنيّ، وجبل المقطّم، والمقاهي المبثوثة هنا وهناك، وعتاقة الأحياء، أبو العلا، شارع محمّد عليّ، ومقام السّيّدة زينب، وخان الخليليّ، رائحة الزّمن الّذي ولّى، بين المسارب المسقوفة، الملتوية، أزقّة ضيّقة تفضي إلى أخرى أكثر ضيقا، ونبرات من لغات شتّى، تغمرك فلا تملك إلاّ أن تستسلم، تسير مسرنما إلى الأماكن الخفيّة، تعبر الشّوارع، تنقل نظراتك على الجوانب القصيّة، رائحة العود، والبخور، والخدر الحيّ الّذي يلفّك دون استئذان فتنتشي، وترحل بك الذّاكرة عبر الزّوايا المعتمة والمقاصير وتتطلّع بانشداه إلى القصور ذات الأسوار العالية، وتأتي من كلّ جهات الدّنيا السّتّ الأنغام والألحان مرجّعة على ضربات الدّفوف والمزاهر والعيدان...!!

المقام الحسينيّ، وغير بعيد، البنايات الحديثة، الامتداد الطّبيعيّ لجامع الأزهر، آلاف الأقدام، وجوه تنتمي إلى نفس الحيّز، وتؤخذ بالملامح، كثافة القسمات الّتي تحاول أن تسجّلها في ذهنك فتنجح حينا وتفشل في الكثير من الأحيان، لكنّ الحرص على جعل المكان أليفا، الرّغبة في أن تضمّ كلّ شيء إليك، العلامات الفارقة وسط هذا المتاه العجيب، والآثار الّتي تتركها الخطى، من زقاق إلى زقاق، ومن حيّ إلى حيّ، ومن ناصية إلى ناصية، ومن كوبري إلى كوبري، كلّ ذلك يجعلك ميّالا إلى ممارسة رياضة المشي، دون التّفكير في استقلال سيّارات الأجرة، أو الحافلات العموميّة، أو تلك «الميكروباصات الصّغيرة» المفتوحة الأبواب دائما، ومن فتحتها يأتيك الصّوت الأبديّ مناديا، العنق مشرئبّ إلى أمام واليدان على الحوافّ والصّوت يلعلع دون توقّف: عتبة... عتبة... عتبة... الأشياء الصّغيرة الأخرى، السّحر، التّوق الّذي لا يغالب، وفرحة بلا حدود، وأنت تتأنّى، ترى الأشياء بدقّة، وكأنّك تتشرّبها حتّى لا تهرب منك، تبحث عن الأسرار الّتي لا يهتمّ النّاس بها عادة في خضمّ الحياة، تستغرقهم المشاغل بين طلبات البيت، ومستلزمات العيال، وإلحاح الزّوجات على أشياء بعينها، وحمدت الله كثيرا أنّك خليّ، لا زوجة، لا أطفال، لا مشاكل، تقودك قدماك، وتبتعد عن الجادّة عامدا، ربّما في ناصية ما ينتظرك شيء غير متوقّع، ربّما سرّ من الأسرار التّليدة، لغز مهرّب من ألف عام، عبر تلافيف الذّاكرة، وضاقت به الحياة على رحابتها فاختار النّأي والبعد، كذا جامع «السّلطان قايتباي»... وأمام البوّابة المفتوحة، والبناء الشّامخ الّذي رغم قدمه وفجاجته، واهترائه أيضا، والدّرجات القليلة الّتي تقود إلى الفناء الدّاخليّ، نسيت نفسك... تملّكتك رغبة في البكاء، أخذك الحنين بعيدا إلى الأصول، إلى البدايات، المنابع الأولى، حيث لم يكن الخطو الطّفليّ إلاّ تجربة غير مضمونة لاحتراف المشي!! كان الإسم مغريا، مغريا جدّا: «قايتباي»، رغم ما كنت قرأته في أحد الكتب

عن هذا السّلطان، من سلاطين المماليك البرجيّين، هو وسلطان آخر، «برسباي»، أحدهما ألمّت به العلّة الّتي كانت فيها وفاته، فاستدعى طبيبه الخاصّ واشترط عليه شروطا، قال له: إن لم تشفني أعدمتك، وحاول الطّبيب، جرّب كلّ طبّه، مدفوعا برغبته الكافرة في الحياة، ولكن «جاء السّيف الّذي سبق العذل»، ومات السّلطان، ولكن وهو يلفظ الرّوح أبى إلاّ أن يرى رأس طبيبه تفصل عن جسده... [أنا وبعدي الطّوفان!!]؛ والثّاني كان مهووسا بالذّهب، ولم يترك كيميائيّا من كيميائيّي عصره إلاّ استدعاه إلى قصره، وبذل له الرّفد، وأجزل له العطايا... استدعى أحد الكيميائيّين يوما وقال له: إنّي أمهلك شهورا، فإذا عجزت أن تحوّل النّحاس إلى ذهب، قصفت رقبتك، واعتزل الكيميائيّ في معمله، هجر النّاس، ترك زوجته وأطفاله، وحاول مرارا، غير أنّه لم يكن قادرا على دفع قدره الّذي حدّده له سلطانه!!... تداعيات الذّاكرة، الحكايا، وأنت تقف على مبعدة منها، تنظر إليها من الوراء، توليها ظهرك، لا تحسّ حيالها بالغضب، أو النّقمة على الأشخاص الّذين تسبّبوا في مأساة ما، تقول في نفسك: ما وقع وقع، ولن تقوم حاكما على كلّ النّاس!! وفي لمح البصر، تجتاز الدّرجات إلى البهو الدّاخلي، حرارة الشّمس لافحة، قويّة، تتسرّب عبر المشمّع الّذي انتشر على طول السّقف، تنكسر الحرارة قليلا حينما تصطدم بالأرضيّة المبلّطة، تنحرف إلى اليسار، تنزل درجات أخرى تفضي إلى تلك البيوت الصّغيرة، الحمّامات الحجريّة ذات الأبواب الوطيئة، وإلى جانبها الصّنابير، تتقدّم من الحوض، تفتح الصّنبور وتغسل وجهك وأنت ترى النّاس من حولك، شتاتا من النّاس، فكّرت أنّ أغلبهم ليس لهم مأوى، وأنّ الجامع صار هو مأواهم، وبدا لك السّلطان شخصا آخر، ليس ذلك الّذي قرأت عنه، ولكن سيّدا مهيبا، جليلا، يتقدّم النّاس إلى الصّلاة فيؤمّهم ثمّ يجلس إليهم فيستمع إلى شكاواهم الّتي لا تنتهي، وينتصف للمظلوم من الظّالم، ويقيم العدل داخل حدود هذه

المملكة الخرافيّة!!... لعلّنا- أنا و«رامي»- لم نكن في حاجة إلى برنامج، كما لم نكن في حاجة إلى تخطيط لكلّ خطواتنا، ولكن يكفي أن نترك للأيّام أن تأخذنا حيث شاءت!!... لا قيمة للأسئلة، بل حتّى الكلام قد يتحوّل في أيّة لحظة إلى قنبلة موقوتة من شأنها أن تفسد اللّذة والمتعة، الخطوات تتوالى، تعضد الخطوة الخطوة، والفضاء امتداد، ومع كلّ التفاتة تتوالد الشّوارع من الشّوارع، وتؤدّي العطفات إلى النّواصي وتفضي النّواصي إلى رحاب، فتغمر أذنيك الضّحكات الملعلعة، وأصوات الباعة، وصياح الصّبية، وهمسات تلفّك في ثناياها إلى حدّ الرّوع والانتشاء، وتحاول أن تستثبتها مرّة أخرى في مخيّلتك، لكن تشعر بالحيرة، وتختلط عليك الأشياء في غمرة الارتباك: تتساءل هل ما سمعته كان حقيقيّا أم كان مجرّد وهم من أوهام الذّاكرة الكثيرة... تلمّ بالمشهد كلّه، تحرص أن لا يفوتك منه شيء، غير أنّ عينيك اللّجوجين، الفاحصتين، الثّاقبتين، كانتا تلوبان وراء شيء آخر، تنشالان مسحورتين وراء الملاءات، العباءات السّوداء، وتلك المناديل الشّفيفة المخرّمة، الّتي كانت تدعو باستمرار، وهي في محاولتها الاخفاء والتّكتّم على المفاتن المغلقة تغري، تحطّم، تدمّر، دون رحمة!!... تشعر، الآن، أنّك حرّ، لا تخشى العيون المحدقة بك الّتي كثيرا ما اقتحمت عليك وحدتك، راغبة في تعريتك، تحسب عليك حتّى الأنفاس، وهي بقدر ما تسرف في إزعاجك تشبع فضولا وتروي ظمأ وعطشا!!

تحتفظ دائما بأسرارك، أشيائك الخاصّة الحميمة، تخاف عليها من هبوب النّسيم العابر، والأنوف المدرّبة على تأثّر الرّوائح الغريبة، وأسرارك من النّوع الغريب، كان آخر شيء تفكّر فيه أن تبوح، أن يغفل لسانك، أن يندلق حلقك بما لاتريد، والنّساء- بالنّسبة إليك- كالأفيون، كالحشيشة المحرّمة الّتي يزرعها المزارعون في أماكن بعيدة جدّا، بمنأى عن أعين رجال الدّرك والمتطفّلين، كالخمر المعتّقة، في سراديب مظلمة، يخاف عليها صاحبها من حمأة الشّمس ووهنها،

يتلذّذ وهو يشربها، وينتشي وهي تسري في شرايينه، فتأتيه الدّنيا الخضرة النّضرة على قدمين مرمريّتين، وتهيب به أن يخلع العذار ويعتنق الجنون الجميل الّذي لا يسنح إلاّ لماما... وتسأل مرارا، في لجاجة، ولا يخلو الأمر أحيانا من تذمّر لا شفاء منه: «هل أنا مجنون؟... أم ما أعانيه مجرّد التياث فيه كثير من الغلمة؟... هل هو الحبّ الّذي لا مقابل له فيما عرفت من قصص الحبّ الكثيرة والكبيرة، حبّ ليس من العفّة، كما ليس من الإباحة المعروفة عند أغلب الشّعراء الّذين لهثوا وراء المرأة حتّى تقطّعت بهم السّبل، وعادوا كما ذهبوا، بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها؟!!»

«كارامازوف» الأب، الثّعلب العجوز، المغامر المحترف، القادم من تخوم لذّة مستحيلة، حتّى على الأبناء الأقلّ منه سنّا- كان يفترض في «إليوشا» الصّغير، و«إيفان»، و«دمتري» أن يكونوا هم نار الصّبابات اللاّفحة، لا الوالد الفاني الّذي أتخمته السّنون، ورغم ذلك ظلّ محافظا على السّرّ الأزليّ، ظلّ يعبّ من «الحبّ الملوّث»- أجل «الحبّ الملوّث»، وهو ترجمة أخرى للحبّ، ليست أقلّ شأنا من «الحبّ الاخر»: اللّوعة المفرطة، آثار العشق القاتل، الامتناع عن الأكل والشّرب، وإطالة السّهر...!! هراء! كلّ ذلك كان هراء بالنّسبة إلى الرّجل الّذي «أحبّ» جميع النّساء: لم يكن يميّز بينهنّ، لأنّه كان يرى في كلّ واحدة عالما آسرا، تحدّه المرامي والتّخوم، ويحلو فيه الضّياع... كنت أحسّ أنّه قريب منّي، ذلك الرّجل! العجوز! يقتحمني دون استئذان، ويوشوش في أذني أشياء معيّنة فأجدني أنقلب كائنا آخر، له قدرة لا تحدّ على التّدمير والتّحطيم، أوه!

تعلّمت منه الكثير، وهو الكائن الّذي أطلّ برأسه من بين الصّفحات، أراه حقيقيّا، المتخيّل الرّوائيّ الّذي أبدعه «دوستويفسكي»، يثير دائما، في القارئ، شيئا من القرف وعدم التّعاطف، ومع ذلك أشعر حياله بشيء من الافتتان، يسكنني، يلحّ عليّ

في أوقات بعينها، فأستسلم له. أمدّ إليه يدي فيأخذني عبر دروب غير مطروقة، وأرى بأمّ عينيّ عالمه السّاحر. أرى الكون الّذي طالما تكتّمت عليه، وأغلقت عليه، في داخلي، بمراتيج ثقيلة: «لا فرق بين امرأة وأخرى!». كنت أسمعه يقول: يتأنّى في كلامه. كان يريد لكلّ كلمة أن تأخذ موقعها الثّابت في القلب. يريدها أن تستقرّ هناك ولا تفارقه أبدا. كنت أجد فيه فيلسوفا بالفطرة. لم يدرس الفلسفة. ولكن تتجسّد فيه كلّ فتنة العصر الإغريقيّ وفلاسفته الّذين قدّسوا اللّذة الّتي كانت طريقا مفتوحا إلى سعادة بلا حدود. «أبيقوريّة» ترتقي إلى صوفيّة حلوليّة تنعدم فيها الفواصل بين الأشياء والأسماء. وتغدو قيمة في ذاتها، بعيدا عن «القيميّة الأخلاقيّة»!! هل كنت أكذب على نفسي؟! هل كنت أداريها؟! هل كنت أحاول أن أبرّر ما يمكن أن يسمّيه البعض «عدم القدرة على السّيطرة على الغرائز». أو «الغلمة المفرطة». أو «الالتياث الجنسيّ». أو... أو...؟!! لم تكن الأسئلة ما يهمّني. ولم أكن معنيّا بها. الصّوت. الصّوت وحده. ذات الصّوت الّذي كان يجهد أن يسكت جميع الأصوات الأخرى في أعماقي ليعزف سمفونيّة اللّحن والكلمة. ويقوم بعد ذلك مقام «المايسترو» الّذي ما يعتم أن تأخذه لوثة الخطف... «كلّ امرأة عالم بأسره!!». يضحك فيفترّ فمه عن أسنان صغيرة متآكلة صفراء. ويجرع من كأس «الفودكا» الموضوعة أمامه: «ليس هناك قبح على الإطلاق... والمرأة تظلّ امرأة. تثير فيك الفتنة. وتشعرك بالخدر. ما دامت تمتلك القدرة على الإغراء»...

أحيانا يختفي من أمامي. أجهد أن أستحضر صورته كما رسمها «دوستويفسكي». لكن عبثا. كأنّ الأرض انشقّت وابتلعته. أبحث مرّة ثانية عن الكتاب. أذهب متثاقلا إلى الرّفّ الحجريّ. وأضع إصبعي على حوافّ الكتب. مارّا على العناوين في حركة مضطربة حتّى أصطدم فجأة بـ «الإخوة كارامازوف»... أعود إلى السّرير. فأضيء الأباجورة ثمّ أطفئ النّور. وألبس عويناتي. وأشرد ساعات وساعات مع العجوز

الغائب... يتذمّر، يشكو لي، يقول لي أشياء وأشياء، ثمّ أنظر إلى طرف بعيد، في العتمة، في الزّوايا المظلمة من البيت، فتأتيني الضّحكات المكتومة، وأسمع أصوات قبلات متأجّجة، أتحفّز، أشعر بالاستثارة، وأتقدّم رويدا رويدا، متأثّرا خطى الرّجل الّذي كان يبدو عليه أنّه يريد أن يتخلّص منّي... ينجح في المراوغة، وأصمّم مع ذلك على التّحدّي، متسلّحا بأعتى أسلحتي وأصلبها على الإطلاق: الصّبر، الصّبر، ومزيد من الصّبر، وهل كانت حياتي في الحقيقة إلاّ سلسلة لا تنتهي من الإصرار على اعتناق مازوكيّة وجدتها مع الأيّام تلج بي دهاليز الألم الّذي تضخّم وتفاقم حتّى صار رديفا للصّبر عندي؟!... إلى أين يأخذني؟ أيّ المسارب يمكن لعجوز مثله أن يتّخذها للذّته ومجونه؟ وماذا يمكن له أن يفعل مع فتيات ربّما فيهنّ من تصغره في السّنّ والملاوعة؟... قال لي إنّهنّ يأتينه الواحدة تلو الأخرى، بناء على رغبته، يطلبهنّ فيلبّين، ولا يأخذن منه شيئا، ويغادرنه وعلى شفاههنّ تلك الابتسامات الخبيئة الّتي سرعان ما تكتشف فيها دلالات لا يمكن أن تخطئها العين، وتعرف أنّ أولئك الصّغيرات المدلاّت قد حصلن على ما كنّ يرغبن فيه من النّشوة والامتلاء؛ أسمع، أقنع نفسي بمدى صحّة ما كان يحدّثني عنه، ثمّ ينبع صوت ما، يساورني الشّكّ في صحّة كلّ شيء، وأجابهه بالسّؤال الحرج: وكيف فعلت ذلك؟... كنت أنتظر منه دائما أن يحسّ بالارتباك، أن يخجل، أو يمتنع عن الإجابة متمسّكا بحقّه في الاحتفاظ برأيه، ولكنّه كان يخيّب أملي في كلّ مرّة، يضحك، تتحوّل ضحكاته مع الوقت إلى قهقهات عالية، يتحدّاني: وماذا تعرف أنت عن المرأة؟! وأعترف له أنّي لا أعرف شيئا، فيستغلّ ضعفي، ويواصل حديثه، وأجدني مضطرّا إلى تصديقه لأنّي لم أكن أملك تجربة كتجربته، أو ما يمكن أن يقوم برهانا على تكذيب ما يدّعيه...!!

البيت الكبير، الممرّات الّتي تقود إلى الغرف الصّغيرة المظلمة، الضّوء الباهت الّذي يتسرّب من أماكن يصعب على العين اكتشافها

للوهلة الأولى، والبرد، صوت المطر في الخارج، وتساقط الثّلج، الأبيض، الحريريّ الملمس، يبعث كلّ ذلك فيك رغبة ملحّة، يجعلك تطلب الدفء، لحظات الكنّ، وتتبادر إلى ذهنك الأطياف والخيالات، تقول، في سرّك، إنّه لا يوجد أروع ولا أحلى من البحث عن جسد نافر في تلك الظّلمة، تفكّر في الالتئام وأنت المتشظّي، المستوحش كقوقعة، المتهالك كجثّة مرميّة في عرض البحر، حتّى الحيتان الكبيرة الهلاميّة تستنكفت من أكلها لنتانتها!!

عند حدّ معيّن، تضيّع الأثر، ويغدو المكان بأسره أشبه بالمتاهة، وترفض أن تعترف بالهزيمة بعد كلّ تلك الملاحقة، تستنفر موهبة الشّمّ، وتركّز كلّ حواسّك فيها، تغمض عينيك، وتخطو الخطوة الأولى، ليس هناك شيء مضمون، واللّعبة بأكملها قد تقود إلى الهاوية، إلى الشّفير الّذي لا يمكنك تفاديه، رائحة القميص، الخمر القويّة، وتلك الرّائحة الّتي صرت تعرفها أكثر ممّا تعرف نفسك... وماذا أيضا؟ ربّما هناك أشياء أخرى قد تشي به أكثر من غيرها، مجرّد صوت قد يفصح عنه، صرير ظلفة الباب القريبة، أو حركة خفيفة بجانب مصراع النّافذة، أو آهة ما، تنبعث في لحظة ألم ممزوجة بلذّة كاوية، أو وقع خطى؛ أين أنت، أيّها الثّعلب العجوز، يا «كارامازوف»؟! أين أنت، أيّها الآثم الّذي تحسن غواية الإثم؟!

- تعال!

أتلفّت من حولي، أعود القهقرى، أنقلب على عقبيّ، أتعقّب المشهد المعتم بكلّ الحواسّ الّتي أملكها ولا أمتلكها، أوازي بين المسافات، أخمّن، أضع افتراضات، أقول لنفسي ربّما كان في الغرفة الّتي على يميني، أو في بيت الاستحمام، يتخلّص من آخر بقايا عشق خلّفه وراءه في مكان ما، أو يخمخم في المطبخ، أو ربّما اعترته، ساعة صفاء، مسحة رومنسيّة ألقت به إلى الفضاء العابق برائحة المطر والجليد!!... تخيّلته يرقص، بلى؛ يرقص ويغنّي، فينسى أنّه بلغ من

العمر عتيّا، وأنّه قد يقضي في أيّة لحظة، ربّما على صدر فتاة، في عمر أصغر حفيداته اللّواتي لم يرزقهنّ!!... وتخيّلته يبكي، وفي الحال تبادرت إلى ذهني جملة قرأتها مرّة ونسيت من قالها: حين يبكي الرّجال!! ووجدت نفسي إذ انطبعت صورة الشّيخ العجوز في ذهني أقول وأنا أبتسم ابتسامة فيها نشوة ومرارة، نشوة الأمل في إمكانيّة أن أجده، ومرارة فقده: حين يبكي العجوز!!

أحببت «كارامازوف»!!

أحببته، لأنّي كنت أجد فيه كلّ الأشياء الّتي لا أجدها عندي، سيّما صراحته الّتي تصل إلى حدود الوقاحة، لا يؤمن بالفواصل والحدود، ويمقت المسكوت عنه، يتحدّث في كلّ شيء، وعن أيّ شيء، ويعشق «المرأة»... بفجور وسفور!!

كنت أنا و «رامي» نتحدّث كثيرا، ورغم أنّنا كنّا نخوض في كلّ المواضيع، إلاّ أنّي لم أذكر له شيئا عن «كارامازوف»؛ وكان «رامي» يبعث فيّ، ونحن نتحدّث، إحساسا بـ «المثليّة»، بالتّماهي والتّقمص، أرى فيه «شيخي العاشق»، وتنفرج أساريري، تسيل ملامحي دفعة واحدة، وأضحك نصف ضحكة، ولا أخبره عن السّبب، ويلحّ عليّ، يحاول محاصرتي، يقول: ألسنا أصدقاء؟ فأجيبه: بلى!؛ ويسألني مرّة أخرى: فلماذا تحاول أن تخفي عنّي بعض الأسرار؟!... فأصمت ولا أجيب، ولكن أرسم من جديد تلك الابتسامة الغامضة على شفتيّ، وقد التبست بكمّ هائل من المرارة!!

أخاف، من كلّ شيء، ومن كلّ الأشخاص، وليست السّنوات الّتي قرّرت فيها أن أجابه العالم من حولي تكفي لجعلي أثق بمن حولي كلّ الثّقة، رغم المحاولات، ورغم الجلسات الحميمة المتكرّرة في المقهى، هناك، عند السّكة الحديد، في المدينة المحتجبة بظلالها الكثيفة: لا أخفي أنّي أحببت «رامي»، وأنّي أثق به، اليوم، كما كنت أثق فيه دائما، وبمجرّد مرور فترة قصيرة من تعارفنا، وكان تعارفنا أقرب إلى ذلك

الحبّ العصيّ، الّذي لا يفصح عن نفسه، وهو حبّ كبير، لامحالة، لأنّه يترجم عن نفسه بالنّظرات أكثر من الكلمات الّتي جفتها المعاني والدّلالات منذ زمن بعيد!!... كانت هناك مشكلة ما، والمشكلة مشكلتي، وليست مشكلته، أنا الّذي أخاف من الإفصاح، أو الفضيحة، كما كانت تصوّرها لي رغبتي في التّخفّي عن الأعين والضّوابط الهائلة الّتي لا ترحم، والّتي شدّها «الأنا الأعلى» إلى أقصى الجمجمة، وربطها بألف قيد وقيد!!

... ذات مساء يوم بعيد، أذكر أنّ شيئا أكثر من الدّفء كان يلفّ المدينة الّتي احتجبت عنها الشّمس منذ ساعة أو يزيد، لسعة برد في عزّ الصّيف، وكنّا في المقهى، نتجاذب أطراف الحديث، ونحن نستمع إلى الموسيقى تأتي من أقصى البهو الدّاخليّ... أوما إليّ «رامي»، وحين التفتّ إليه، عرض عليّ أن نتساير قليلا... كنت أحسّ بالملل، وبشعور غير مريح، هاجس ما فتئ يتضخّم بداخلي، منذرا بالانفجار: رأيت العالم تحت قدميّ عندما طأطأت رأسي ونظرت إلى البلاط، وكان شاغرا، لا أثر فيه لحياة على الإطلاق، أصابني إحباط، ودهمني خوف ممزوج بحسرة وغير قليل من الاكتئاب... انتشرت روائح دخان، وانهدّت الجبال، وانشقّت الأرض فابتلعت آلاف الجثث الّتي كان البحر يلقي بها إلى اليابسة... تكوّنت سحب بعيدة في المدى، وأومض البرق من ناحية الشّرق، وسمعت الرّعد كأنّه الزّلزال، ينذر بالكارثة والمأساة... خشيت الأسوأ، وقامت أمام عينيّ غمامة سوداء، فخفت أن أصاب بالعمى، سحبت الكرسيّ إلى الوراء، وأشرت إلى «رامي» فقام بدوره، وسرنا معا شطرا من الطّريق، صامتين...

الشّوارع مقفرة، وخيوط من الضّوء الشّحيح تنتشر في أرجاء المكان الشّبه الخالي، أصوات النّهار اختفت كأنّها لم تكن، ما عدا بعض النّداءات الّتي تنبعث بين الحين والآخر من أحد الدّكاكين في طرف السّوق، أو آثار ضحكة وانية تأتي محمولة على كفّ الصّدى من

أحد المنازل المحاذية للجادّة الّتي تقود إلى قلب المدينة... رأيت «رامي» يمدّ طرفه بعيدا، إلى الجهة اليسرى، نظرت لاإراديّا حيث ينظر، ولم أتفاجأ كثيرا، كان المنظر الماثل أمامنا منظرا اعتياديّا لكثرة ما طالعنا... التفت إليّ كأنّه يريد أن يقول شيئا، ثمّ طأطأ رأسه ورفعه مرّة ثانية، وواصل سيره، لم أشأ أن أزعجه رغم أنّه كان لديّ الكثير من الأسئلة الّتي كانت تفرّخ في رأسي دون هوادة والّتي كنت أودّ أن أطرحها عليه... قلت لنفسي لا بدّ أنّه سيتكلّم، وإلاّ لما اقترح عليّ أن أصحبه، «رامي» دائما هكذا، منذ أن عرفته، يحتفظ ببعض أسراره، مثلي، يداريها في أعماقه، إلاّ أنّه لا يصمد حيالها طويلا، ينتظر، يتعذّب، ثمّ لا يلبث أن يبحث عن شخص مؤتمن، يتحدّث إليه، يبثّه لواعجه، أحزانه الكثيرة، وطرفا من حكاياته الّتي كانت تتّخذ خصوصيّة ما، سيّما إذا تعمّد أن يدسّ بين أتونها نكتة أو طرفة، سرعان ما تسري إلى القلب، فتنسيك الحديث الأوّل، وبدل أن تبكي، تجد نفسك تضحك، وبدل أن تجعلك الهموم تذكر همومك القديمة، تبحث عن العزاء، ولو كان ذلك العزاء ملوّثا بدماء حالت ألوانها واستحالت حمرتها القانية إلى بياض باهت لا يغني شيئا...

- لا شكّ أنّك عرفت الكثير من النّساء؟!

توقّفت عن السّير، وتفاديت أن أنظر في عينيه، ولكنّي قلت، بصوت حرصت أن يكون هادئا:

- ليس أكثر ممّا تظنّ!!

لم يقل شيئا، لم يعلّق، وخطا إلى الأمام، فاضطررت أن أتبعه، وقد تعمّدت هذه المرّة أن أصمت، رغم أنّي كنت أنتظر أن يتكلّم، فتنحلّ عقدة لساني فأتكلّم أنا أيضا؛ كنت بمعنى ما أريد أن يتّخذ المبادرة، كنت بحاجة إليه، وعلى عكس مرّات سابقة، كان لديّ كلام كثير لشدّة ما أثقلني كنت أتعجّل أن ألفظه كما تلفظ الحبّة النّواة...

- أما أنا، فقد عرفت كثيرات...

وقطع كلامه فجأة كأنّه ندم، ثمّ حين لم يجد مناصا من المواصلة، قال، وفي صوته شيء من المرارة لا يكاد يبين:

- منذ فترة- (واستدار مشيرا إلى الوراء، إلى رحبة أمام أحد المنازل، حيث كانت إحدى الفتيات تمسك بيدها مكنسة وهي لا تني تنتقل من مكان إلى آخر فينعقد فوق رأسها خيط رفيع من الغبار يجعلها تبدو كأنّها ساحرة من ساحرات القرون الوسطى)- وأنا أحاول...

كان واضحا أنّه يريد أن يغيّر مجرى الحديث، ولم أشأ أن أتدخّل، قلت لأدعه يكمل:

- كلّما رأيت امرأة أو فتاة، لم أنس أنّي كنت على وشك أن أتزوّج... وكلّما تذكّرت ما حصل لي نقمت على جنس النّساء، وودت لو حوّلتهن جميعهنّ إلى...

لعلّي حدست الكلمة، الصّرخة، لمحتها تكتب بمداد النّقمة واليأس على ملامحه الّتي لم يكن يظهر منها في ذلك اللّيل إلاّ حلكة شفيفة هي إلى اللّون الرّمادي أميل، «بغايا»...

- تعرّفت إليها في المعهد، وكانت وادعة بشكل مثير، هادئة، وربّما ذلك بالذّات ما أغراني بالحديث إليها، سألتها إن كانت مرتبطة فأكّدت لي أنّها ليست مستعجلة، وقضينا أيّاما مع بعضنا، حدّثتها عن نفسي، عن عائلتي، عن كلّ شيء تقريبا، إلى حدّ تلك اللّحظة، كنت أقول لنفسي إنّها لن تذهب بعيدا، وعاجلا أو آجلا، ستكون نهاية عزوبتها على يديّ؛ للأسف، لم ألحظ، حينذاك، أنّي عندما كنت أتحدّث إليها كانت هي تلتزم صمتا أخرس، كما لو كانت صخرة صمّاء، والأشياء الّتي عرفتها عنها، لم تروها لي، وإنّما توصّلت إلى معرفتها حينما ذهبت مع العائلة لخطبتها، ما يحزّ في نفسي الآن...

شابت نبرة صوته مسحة من الحزن، وكاد يتوقّف، ترقرقت الكلمات وخيّل إليّ أنّي أسمع نشيجا خافتا ينطلق من مكان ما، غصّة في الحلق، شيء مثل الصّخرة انحطّ من عل فسدّ مجرى الشّرايين،

انحبس الهواء، وتلوّثت المشاعر بعفونة مقيتة... تابع:

- ما يحزّ في نفسي أنّي افتقدت والدها كثيرا حين تركتها، كان نوعا آخر من الرّجال، أحبّني كما لو كنت إبنه؛ لكنّ النّغل أخاها هو من ألبّها ضدّي، كان يسخر، يريد أن يزوّجها شخصا آخر متذرّعا بأشياء لا يقبلها العقل، تصوّر أنّه كان يقول لها كيف تتزوّجين رجلا لا يشرب! ويضيف هازئا حتّى يزهّدها فيّ تماما، نحن عائلة اشتراكيّين، وصهرنا لا بدّ أن يكون مثلنا...

عند هذا الحدّ، تذكّرت شيئا فضحكت رغما عنّي، كنت حزينا لحزنه، وآلمني أنّ الأشقياء يزدادون شقاء، وكان «رامي» منهم، ولمّا كنت صديقا لـ «رامي»، فقد اعتبرت نفسي شقيّا أيضا، ورثيت له ولنفسي... سألني:

- ما الّذي أضحكك؟

رددت، وقد بدأت الضّحكة تخبو كما يخبو بصيص من النّور ينبعث من شمعة أشفت على الاحتراق:

- شيء في البال؟

- هلاّ تفضّلت فأخبرتني ما هو؟

قلت:

- لاشكّ أنّك سمعت بتلك الجملة المأثورة: الرّعيّة على دين الملك!!

ثار فجأة، وعربد، إلى درجة أنّي استغربت وانتابتني حيرة فقدت تحت وطأتها أيّ قدرة على ردّ الفعل أو الكلام، نادرا ما كان يغضب، وقليلة هي الأشياء الّتي كانت تفقده صوابه وتجعله يفقد رباطة جأشه وبرودة أعصابه... صرخ:

- خسئوا!! الأوباش، أين هم من الملوك!!...

ثمّ:

- لا يمكن أن أنسى أنّها أهانتني... عرّتني، جعلتني أحسّ كأنّ ماء

باردا ينصبّ قطرة قطرة على جلدي، فيحوّلني إلى قوقعة، دمّرتني وتربّعت على الخراب الّذي هو جسدي... آه، آه!!

كان المشهد، في مجمله، في ذلك المساء، كما لو كان مشدودا إلى حافّتي أرجوحة، يميل تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، والحركة اعتباطيّة إلى أقصى الحدود، لا تحكمها ضوابط محدّدة، ولكن مجرّد نزق صبيانيّ، يبحث عن الامتلاء خارج قواعد العقل والمنطق... وكان «رامي» صبيّا، أو ربّما تحوّل، عن غير قصد منه، إلى صبيّ، غدا نزقا شكسا لأنّ أحدا جاء فافتكّ منه شيئا كان يعتبره عزيزا على نفسه... وحيال ذلك كلّه، لم أكن أملك أن أفعل أيّ شيء، إلاّ أن أنتظر، رغم شوقي إلى معرفة الحكاية كلّها، تآلفت مع الوضع الجديد، وكنت أحدس، إلى حدّ بعيد، متى سيتوقّف عن الكلام، ومتى سيواصل من جديد، اعتدت كلمات بعينها، كيف تقال، ولماذا تقال، ولماذا تلك الكلمات بالذّات وليست كلمات أخرى!! الجرح المنكوء، يزداد عمقا، ويستدعي جراحا أخرى، لا تقلّ عنه ألما، سيّما أنّه اضطرّ إلى الاستدانة والاقتراض، وباع بعض أشيائه الخاصّة حتّى يتمّ الخطوبة، وفي النهاية يفاجأ أنّ خطيبته قد تركته دون إعلام مسبق لتتزوّج شخصا آخر يدرّس بنفس المعهد الّذي كان هو يدرّس فيه... أيّة مهزلة!!

- كأنّي كنت أحدس النّهاية... نظراتها المترفّعة إلى كلّ شيء، إحساسها بالتّفوق، لا أدري على ماذا...

كان يتكلّم دون أن ينظر إليّ كأنّه يخاطب شخصا آخر في عالم آخر، وكان صوته بعيدا، يتشرشر أحيانا فيغدو حادّا كاويا، ويخفت أحيانا أخرى فأحسّه كالرّجع يأتي من جميع الأمكنة أو اللاّمكان...

- على كلّ حال، أنا أشعر أنّ الذّنب كان ذنبي، أنا الّذي عوّدتها على تصرّفاتها تلك، لم أكن أعلم أنّ فتح باب الحوار، والاستعداد لتقبّل رأيها كأيّة آدميّة متحضّرة يمكن أن ينقلب في أيّة لحظة إلى قنبلة موقوتة من شأنها أن تدمّرني وتقضي عليّ...

وخيّل إليّ كأنّي أسمع ضحكة صغيرة أو ما يشبه الضّحكة، وشعرت لذلك ببعض الرّاحة، وأنّ الشّدّ الّذي كان مسيطرا على امتداد الفترة الّتي غادرنا فيها المقهى قد آن له أن يتلاشى، مفسحا المجال لبعض الأمل والسّلوّ... وتدخّلت قائلا، في محاولة لأن أخرجه من جوّ المأساة الّذي كان مواربا فيه:

- ومع ذلك، يا صديقي، فالحياة لم تنته بعد، والقافلة تسير...

قاطعني ساخرا:

- وما الفائدة أن تسير القافلة دون حاديها!!

لم أرد أن أفوّت الفرصة، وكنت متأكّدا أنّي إذا نجحت في جعله يسايرني فمعنى ذلك أنّه سينسى الحزن، وأنّه كان على وشك أن يتزوّج، وسينسى تلك الفتاة وأخاها «النّغل» الّذي ألقى به القدر في طريق سعادته... قلت بدعابة:

- إذا كانت المشكلة في الحادي، بحثنا عن شخص يمكنه أن يقودنا إلى نهاية التّيه بسلام!!

وجدنا أنفسنا نلج بوّابة كبيرة، ونقترب من بهو أحد المقاهي، واستقبلتنا أصوات متداخلة مشوّشة تأتي من الدّاخل مختلطة بروائح شتّى، بنّ محروق، تمباك، وشذى يعبق من أطباق صغيرة مليئة بالياسمين يحملها أطفال مازالوا في ميعة الصّبا ينادون عليها بنعوت مغرية وكلمات طنّانة حتّى يرغّبوا الزّبائن المنتشرين على المناضد حول كؤوس الشّاي والقهوة والأراكيل في شرائها... ألقيت نظرة شاملة على المكان الصّاخب، ولبت بناظريّ في الزّوايا، كنت أبحث دائما عن الفراغ، الشّغور، الخواء، ومن جانب البهو الأيمن، كان سكون، تباعد وهدوء، كان يكفي «رامي» أن أشير إليه، أن يتأمّل خطوي، حركاتي وأنا أمشي حتّى يدرك مقصدي؛ اتّجهنا إلى أحد النّضد وجلسنا، وما عتم أن جاء النّادل فطلبنا كأسا من الشّاي وفنجانا من القهوة- على قدر ولعي بالقهوة، كان «رامي» لا يعدل بالشّاي شيئا، وعلى قدر اشتياقي

إلى رائحة السّجائروهي تلثم بين الشّفتين، ثمّ والدّخان ينعقد بعد ذلك فوق الرّأس في حلقات آسرة مغرية، كان «رامي» يمقت السّجائر كما لو كانت طاعونا...

جاء النّادل بعد حين يحمل صينيّة عليها فناجين وأكواب، وضعها فوق النّضد ثمّ غادرنا إلى الدّاخل... لم يمض وقت طويل حتّى انبعث في أرجاء المكان صوت موسيقى، هفيف يحاكي النّسيم رقّة، مداعبة «البيانو» وهو يوقّع أوائل «أرك عصيّ الدّمع شيمتك الصّبر...»، سرحنا مع الموسيقى لبعض الوقت، ورشفنا من الفناجين أولى الحسوات، وحملنا الشّرود، ربّما إلى مناطق قصيّة محايدة، كنت أشعر أنّي في وادي وهو في وادي آخر، وأنّ الوقت الّذي يمكن أن نلتقي فيه مع بعض مازال طيّ الغيب، ومع أنّه وارد إلاّ أنّه لم يحن بعد...

- يا حادي العيس عرّج كي نودّعهم...

ورمقني كأنّه يمتحنني أو كأنّه يريد أن يعيد الأشياء سيرتها الأولى، وأن يربط مفتتح الحديث الجديد بنهايات الحديث القديم، فقلت منهيا الشّطر الثّاني من البيت:

- يا حادي العيس في ترحالك الأجل.

ما كدت أنتهي حتّى سألني:

- إذن تظنّ أنّ إمكانيّة العثور على الحادي في هذا المتاه ممكنة!!

قلت مؤكّدا:

- بلى.

قال:

- أمّا أنا فلست متفائلا إلى هذا الحدّ...

ورفّت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى، وتحرّك في مكانه منحنيا على النّضد واضعا مرفقيه على القاعدة؛ قال:

- الحادي الوحيد الّذي يمكنه أن يخلّصنا من الشّتات الّذي نحن فيه هو المرأة، يا عزيزي!!

لم أتمالك نفسي من الضّحك، وعدّلت جلستي حتّى واجهته وقلت بشيء من الغموض الّذي تعمّدته حتّى أسبر نيّته:

- ربّما تقصد المرأة الزّوجة، الّتي ما أن تصبح ملك يمينك حتّى تملّها فتترهّل، وتعتاد المطبخ فيفقدها المطبخ ذوقها، وما أن يمرّ عليك عام أو عامان حتّى تكتشف أنّك كنت تعاشر...

سرعان ما قاطعني، كنت بصدد أن أقول: تعاشر مسخا، إلاّ أنّه لم يمنحني الفرصة، وحتّى لا أسيء فهم مقصده قال موضّحا:

- لقد ذهبت بعيدا هذه المرّة! أنا لا أطلب زوجة بعد الّذي حصل، وقد تمرّ سنوات وسنوات حتّى أفكّر في الزّواج من جديد- (كان «رامي» في نفس سنّي تقريبا أو يكبرني قليلا)...

واصل بعد قليل:

- ربّما حزرت الآن المرأة الّتي أعنيها!

وفي الحال عادت بي الذّاكرة إلى تلك الرّحبة، وتلك الفتاة الّتي كانت تكنس، ولا أدري لماذا تخيّلت أنّها لم تكن تكنس بقدر ما كانت تستعرض مفاتنها، في ذلك القميص الضّيّق القصير الأكمام، وشعرها الأشقر المسترسل، وتلك الجوارب الّتي انحسرت عن ساقيها مؤطّرة ردفيها ومفتتح فخذين ريّانين داعيين... تركت لنفسي أن ألمّ بأطراف المشهد كلّه، وقلت بعد حين، وأنا ما أزال تحت تأثير إحساس بنشوة راحلة:

- لن تعدم النّساء إذا أردت...

قال، وعربدت في حلقه أصوات مترقرقة:

- سيّما النّساء الصّغيرات!!

قلت مدّعيا الحياد:

- كصاحبتنا.

وأشرت إليه إشارات محدّدة إلى تلك الفتاة الّتي رأيناها، بحيث لا يمكن أن يخطئ مقصدي، فقال:

- أرى أنّ ذاكرتك أصبحت تشتغل بشكل جيّد...
وانتظر قليلا ريثما شفط من كأس الشّاي بصوت مسموع، وقال:
- لكن للأسف، ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه...
سألت، وقد بلغ الاهتمام عندي أقصى درجاته:
- وما المانع؟!!
أخذ كأس الشّاي بين يديه، وبقي ممسكا بها في منتصف المسافة بين فمه والصينيّة، ولم يتفوّه بكلمة واحدة، ولكن عندما تطلّعت إليه كانت نظراته غائمة، والشّرود يغلّف ملامحه كلّها، كان من الصّعب عليّ في تلك اللّحظة أن أكتشف الهواجس الّتي كانت تداعب خياله، أو أحزر الأفكار الّتي حطّت عليه فجأة، فجعلته يضيع دفعة واحدة إلى ممالك بلا أسماء ومتاهات ليس للمخوّض في ثناياها من عودة... رفع الكأس أخيرا إلى مستوى شفتيه، وحسا منها في صمت، وطال الصّمت بيننا مليّا حتّى ظننت أنّه لن يتكلّم ثانية، ولكنّه تململ في مكانه، وقال فافترّ فمه عن أسنان صغيرة نضيدة، وطلع صوته حنونا رائقا تكتنف جوانبه لمسات ذكرى نائية:
- لنقل إنّ الرّذيلة تحتاج في أغلب الأحيان إلى مبرّر... أو بمعنى أصحّ، حتّى تكسب الرّذيلة شرعيّتها في عالم يدينها- نفاقا- في الظّاهر، وهو أحرص ما يكون على حمايتها في الخفاء، تسعى الرّذيلة إلى إيجاد غطاء لنفسها...
تدخّلت عند ذلك الحدّ، وقد هالتني تلك المقدّمة الّتي لا تتناسب مع الموضوع الّذي يفترض أنّه أبعد ما يكون عن النّفس الفلسفيّ الّذي انخرط فيه. قلت:
- أرى أنّك أصبحت فيلسوفا الآن، يا عزيزي.
ربّما أراد أن يتجاهل كلامي، لكن عنّ له في آخر لحظة أن يدسّ نكتة أقرب إلى الدّعابة بين طيّات الحديث حتّى لا يتحوّل كلّه إلى جدّ ونكد، تنحنح، وهو يضع أصابع يده المعقودة على فمه كأنّما يروم أن

يجلو صوته، وقال بسخريّة أقرب إلى الابتذال:

- وماذا في ذلك! من الأجدى للمختلّين أمثالنا أن يتخيّروا أيّاما معيّنة من السّنة يتقمّصون فيها أدوار الفلاسفة، لأنّك إذا تأمّلت جيّدا وجدت أنّ الفلاسفة في الحقيقة لا يختلفون عنّا كثيرا سيّما إذا نسوا أنّهم فلاسفة، وأنّ الفلسفة ليست في أهون مفاهيمها إلاّ البحث ليس عن الحقيقة كما يزعمون، ولكن عن العاهرة الّتي تخبّىء تلك الحقيقة بين نهديها، و... «هناك» حيث تعلم ويعلم الجميع!!

ثمّ وهو يعود إلى رأس الخيط الّذي أفلته أكثر من مرّة:

- أتدري ماذا قالت الأمّ المصون حين فاتحناها في شأن إبنتها؟!

حين لاحظت أنّه كان ينتظر ردّا قلت بعدم اكتراث:

- منكم نعرف الخبر اليقين!!

قال وهو يروزني ليرى مدى تهيّئي لاستقبال ما يريد أن يقوله:

- قالت انتظروا حتّى نبحث لها عن زوج أوّلا، ثمّ نتناقش في المفيد...

كان كأس الشّاي قد أشرف على الانتهاء، شفط آخر حسوة، وقام مستعدّا للمغادرة فقمت بدوري، وسمعته يقول كالهامس:

- وهكذا ضاع الصّيد وخاب المسعى؛ لكنّ شأن الأحياء أن يلتقوا دائما، فإن لم يكن اليوم، وفي بيت تلك الأمّ الحريصة على مستقبل إبنتها، ففي يوم آخر، وفي أيّ مكان يمكن أن تصطاد فيه النّساء...!!

حضرني في تلك اللّحظة قول قرأته لأحد المؤرّخين، فلم أجد أبلغ منه، وجدت نفسي أقول دون وعي، وأنا أخطو إلى الأمام حتّى ألحق به:

- نسأل الله حسن العاقبة!!

***

(...) السّاعة الّتي أعتقد أنّها في مكان ما من الشّقّة، لا تشبه في شيء السّاعة الأخرى، ساعتي، أو كما يطلق عليها بعض المغرمين بالقوالب الجاهزة، «السّاعة الدّاخليّة»؛ الأولى تتكّ عقاربها رتيبة، مملّة، ومزعجة أيضا، حيث يكون عليها أن تطنّ بعنف بعد مرور كلّ ساعة، وكلّما ازدادت السّاعات، تزايد الإزعاج أيضا، ستحلّ السّاعة الرّابعة، وستتسارع ضربات البندول، وستتالى أربع دقّات، وسيدور العقرب الكبير في مدار السّاعة الخامسة، وكذلك ستمرّ كسابقتها، وستنسى إلى حين، تشغل نفسك بأشياء أخرى غير السّاعة، وحينما تعود إلى عالم الشّقّة بعد تهويماتك وشروداتك ستجد أنّ السّاعات قد مرّت دون أن تحسّ بها، تعود من رحلة القلق إلى القلق، وتحاول أن تسلّي نفسك بأيّ شيء، وبين الفينة والأخرى تنتظر أن يدقّ جرس الباب الخارجيّ، أو يرنّ التّلفون، ولكن دون جدوى، تمتدّ يدك إلى الفراغ، فتتعثّر دون قصد بالحقيبة «السّمسونايت» الّتي اشتراها «رامي» منذ أيّام، وتفتحها فتزوغ عيناك بين العناوين العديدة، تستعيد في الذّاكرة غلافا، وصورا، وحروفا صغيرة جدّا، وأماسي صيفيّة، على سريرك في طرف السّور البعيد، كما تذكر الحرارة القاتلة، في أواسط أغسطس، ألما فاجعا لوطأته تشعر كأنّما تمتصّه مسّامك قسرا، بلا خيار: القاهرة، الآن، وفي كلّ وقت، كبيرة، بل متاهة يحلو فيها الضّياع، بكلّ المقاييس المتعارف عليها، ولكنّ مدينتي الّتي أهرّبها معي، أحفظها في سويداء القلب، صحيح أنّها ليست كبيرة بما فيه الكفاية، ولكن استطاعت أن تستوعب القاهرة، حواريها، الأصداء المنبعثة من بين نواصيها، والمقاهي العابقة برائحة التّاريخ، وقصص الحبّ الّتي لا تعرف متى تنفجر فتجرّ في طريقها كلّ شيء، استطاعت أن تهرّب الأصوات والأماني الرّاكدة في الأعماق المظلمة، وحلما بالسّيطرة على البلاد والعباد...!! «الزّيني بركات»، ليس هو فقط، كلّ الّذين قرأت عنهم، كلّ الّذين عاشرتهم في دهاليز الذّاكرة، كانت ترتسم لهم صور

لديّ، والحقيقة أنّ تلك الصّور كانت تأتي وحدها، تتثنّى، في إغراء، وتنطرح مثل الحيّة الفتيّة، تتلوّى، وأحسّها تلتفّ على الحروف وتسري مع الكلمات، ربّما لست مثل غيري، وربّما كنت محروما من أشياء كثيرة تميّز غيري، لكن كنت أقول أنّ ذلك لا يهمّ، ما دامت المدية الّتي في رأسي تعمل دون هوادة، ومادام هناك إمكان الهروب في أيّة لحظة، من الواقع الملوّث بألف حكاية وحكاية مبتذلة إلى مبتدأ التّاريخ، أصل الحياة، عند مفترق طرق، تشعر في البداية بروع وخوف حيالها، ولكن ما أن تخطو الخطوة الأولى حتّى يغدو كلّ شيء غاية في الوضوح، بداية من المسار، وجغرافيّة المكان، إلى النّهايات، والأفكار العظيمة، الأحلام، الأوهام، الّتي أصبحت في يوم ما، إنجازا من ألف إنجاز كان الإنسان ينظر إليه على أنّه ضرب من هلوسة العقل!!... كثيرا ما فكّرت في الضّياع، الانغماس في تجربة قصوى، فكّرت في النّسيان، وإمكانيّة أن أجد حروفا جديدة، حروفا لم يقلها الآخرون، حلمت أنّني أؤسّس لكون آخر خارج حدود الزّمان والمكان، واتّخذت صنائع، لها حركة الدّمى المتحرّكة على المسرح الخشبيّ، لكن لها أيضا أصالة الإحساس بوجوب بعث آخر من بين أكناف الملل الّذي يلفّ الكون والنّاس، ثمّ أضحك من نفسي، ويتلبّسني شعور بالهوان والعجز، من أنا، وبأيّ حقّ أفكّر في الأشياء الّتي فكّرت فيها، أيّ بعث وأيّة أصالة؟! وأيّ إنسان جدير بأن يحيا، خلافا لما يعيشه الآخرون؟! لكن لا أصمد طويلا، تتوارد بنات الأفكار، فتمحو الهواجس السّابقة، وأجد أنّ نفس الأحلام تداعبني، تغريني بمتعة التّجربة، محاولة التّشكيل من العدم الّذي كان منه كلّ شيء، أهرب إلى الحروف والكلمات، أجعل منها منطلقا لصياغة أخرى، لهيئة غير الهيئة، لأمل غير الأمل، وأحلام غير الأحلام!!... وكما تلوذ البنت الغريرة بألصق الأشياء إليها وأقربها منها، دميتها، ألوذ أنا بعشرات الرّوايات الّتي كنت انتقيتها بعناية شديدة، من مكتبات أعرفها وأخرى لا أعرفها، بعضها عتيق موغل في العتاقة وبعضها الآخر

أضاف إلى أسماء العناوين الجذّابة جاذبيّة الفترينات الزّجاجيّة، تتوزّع على امتدادها الكتب في لمسة فنّيّة لا تخطئها العين... وكما تنشد تلك البنت الألآف والأنس عند دميتها كنت أنشد راحة عصيّة، أتعثّر عند العتبات والمداخل، وأوشك على السّقوط في كلّ مرّة، كنت أتوخّى طرقا غير الجادّة المحدّدة بآلاف الحواجز المنصوبة بعناية على حوافّ المسالك، وشيئا فشيئا تستقيم السّبل وتهزم جرأتي الّتي كانت تقرب من التّهور العوائق جميعها، وما ألبث أن ألمس في داخلي قوى مجهولة، فينقلب كياني كلّه، أنسى للحظات أنّي الإنسان الّذي كنته منذ المنشأ، أنسى الضّعف الّذي فطرت عليه، والإرهاق الّذي توارثناه في العائلة، منذ جدّي الأوّل، إلى الأبناء الّذين كنت أفكّر في إنجابهم دائما، ذات يوم، عندما يحين الوقت كي أتزوّج!! متفائل!؟!...

منذ البدء، كنت أعرف أنّ ثمانية أيّام لا تكفي، وأنّ نشوة بهذا العمر من غير الممكن أن تعمّر طويلا في الذّاكرة؛ والأصعب من كلّ هذا العجز عن خلق حميميّة ما مع المكان، عدم القدرة على خرق اعتياديّة الحياة في تفاصيلها الجزئيّة إلى حسّ عميق بما وراء الأشياء، اكتشاف المعاني الكبيرة الّتي تختفي، دائما، تبهر العين فتحجب الرّؤية، كأشعّة الشّمس تنصبّ على العينين، فتنسينا- وسط الإحساس بالألم المفاجئ- رغبة غامرة في ممارسة الوجود... هذا ما ولّد لديّ مشاكسة ضارية في مواجهة الزّمن، وضاعف من تسارع ضربات السّاعة الأخرى، الّتي كان من السّهل عليّ أن ألمس دقّاتها في داخلي، حتّى لكأنّي أشعر بها تمتزج مع دقّات قلبي!! كان من عادتي أن لا أصحو مبكرا، وأن أطيل فترة نومي إلى ما بعد الضّحى، سيّما أيّام العطل، أو في نهايات الأسبوع، أتعلّل أن لا شيء يمكن أن يشغلني على الإطلاق، فلا مسؤوليّات ولا التزامات من أيّ نوع، ولعلّي قبل أن أصحو كنت أطرح عشرات الأسئلة على نفسي، أستشرف رتابة اليوم، ورتابة الأحداث الّتي تتكرّر، والقلق يدبّ وئيدا، فينشب أظفاره في الدّماغ، وتتوارد الخواطر والأفكار، وتبدأ الرّحلة

الّتي لا تنتهي، من التّشتت إلى الضّياع، ومن الشّرود إلى التّلاشي، كنت أجذب الغطاء إليّ، وأدفن رأسي في المخدّة، وأغمض عينيّ، ممنّيا نفسي بالعودة إلى النّوم، وما أسرع ما كنت أغرق فيه من جديد، انسدال السّتائر، والباب المغلق، والهدوء، والظّلمة، العتمة وهي تلفّ الغرفة، كلّ ذلك كان من شأنه أن يعجّل بأطياف الأحلام، أحلام غير مترابطة غير أنّها لذيذة، لحظيّة، بارقة في سلسلة زمن خلّبيّ غير منظور، ترى أثيريّة ولا صورة، أرواحا هفهافة، أشياء تعتقد إذا أفقت أنّك ربّما تكون فعلتها أو رأيتها ذات مرّة ونسيت، وأنّك تتذكّرها الآن، وتغتبط لذلك، إلاّ أنّ بعض التّفاصيل، الجزئيّات البسيطة، واللاّزمة في الوقت نفسه حتّى تكتمل الرّؤيا، تفلت منك، تتميّع إلى حدّ الغموض، كانت لا تخلو ليلة من الأحلام، ومع أنّها كانت في أغلب الأحيان تترافق مع كوابيس سوداء مخيفة، إلاّ أنّها تظلّ مطلوبة ومرغوبة... أول ما أبتدئ به النّهار، والمزاج رائق، بعد التّغريبة الكونيّة، ميول سيظلّ ملاصقا إلى الأبد، في عداد المشروع الأبديّ، القراءة إلى ساعات وساعات، وإلى جانبي فنجان القهوة، وعلبة السّجائر، لم أكن معنيّا بالوقت الّذي يمرّ، كما لم أكن آبه بالحياة الّتي كانت تضطرب من حولي، الأصوات داخل البيت، والأشخاص العديدين وهم يدخلون أو يخرجون، وحتّى مؤامرات جدّي المحسوبة لاصطيادي، والزّجّ بي في خضمّ حديث لا أوّل له ولا آخر، عن الماضي الأثيل، وأوسمة الشّرف، ورؤسائه في العمل من إيطاليّين وفرنسيّين، اشتغل معهم ففرض عليهم احترامه كأوّل وطنيّ التحق بشركة السّكة الحديد في وقت مبكر جدّا... عن خيباته المتلاحقة، ومهانته، بعد العزّ والدّوالّ الكثيرة الّتي كانت له على الزّوجة والأبناء، ثمّ بعد أن خانته الحياة، فألزمته الفراش بعد العمليّات العديدة الّتي أجراها في غفلة من الجميع، وعلى أمل استعادة شباب ضاع منه في المنعطفات والسّراديب الباردة الخطرة، ينحطّ بثقله على الأرض، يجثو على ركبتيه مرغما، ويضطرّ إلى ملازمة الفراش بادئ

الأمر والتّبول في كيس بلاستيكيّ، واتّباع نظام حمية صارم والامتناع عن الوجبات الدّسمة المالحة، ثمّ في مرحلة تالية، وقد اقتنع أنّ الّذي فات لن يعود أبدا، وأنّ الإنسان يعيش حياته مرّة واحدة، وأنّ القوّة لا محالة إلى الضّعف راجعة، أصبح يستعين بعصا تميل إلى الاعوجاج لتساعده على بلوغ السّرير الخشبيّ الموضوع في رحبة الحوش، في ظلال «الفرندا»، يصعد الدّرجات الثّلاث، ببطء شديد، وقبل أن يتمدّد على الحشيّة يكون قد ألمّ بكلّ ما يدور في البيت بمجرّد أن يرمق المشهد بطرف عينه، يطمئنّ إلى وجود جدّتي ما أن يسمع صوتها يأتيه من المطبخ، يدمدم بكلمات، يبرطم بأحرف غير مفهومة لكن فيها تبرّما واضحا ومقتا وزراية، لا شكّ أنّه يذكر تلك الأيّام الّتي كان فيها السّيّد المطلق على كلّ شيء، ليس المنزل فقط، وإنّما أيضا الأثاث الّذي في المنزل، والأجساد وحتّى الأرواح، يعرف كلّ كبيرة وصغيرة، ولا يتورّع عن الضّرب، يسبّ، يشتم، يصرخ... يحرص أن يفعل كلّ شيء بنفسه، رغم المرض، يتحامل على هيكله الفاني، لا لشيء إلاّ «ليسجّل نقاطا إضافيّة» له على الجميع، بداية من جدّتي الّتي كانت صورتها مقترنة في ذهنه بصورة شيطان ذي أنياب حادّة، إلى خالتي المسكينة الّتي- رغم طلباته الكثيرة والمتكرّرة- كانت تداريه كما لو كان طفلا صغيرا، وتحرص جهد طاقتها على رضاه!!... كنت أخافه، أتفادى اللّقاء به ولو عرضا، حتّى لا أتورّط معه في الحديث، والحديث معه إذا ابتدأ لا تعرف متى ينتهي!!... تحلو القراءة بعيدا عن المنغّصات، كما تحلو حسوات القهوة، ومع القهوة ترتسم حدود وخطوط، وتنهار فواصل لتقوم مقامها فواصل لممالك جديدة، أنت تشكّلها وفق رغباتك ونوازعك، تؤسّسها كما يؤسّس الفارس القائد حصنا من الحصون الّتي كانت يوما ما شيئا ذا بال، وما زالت إلى حدّ الآن أثرا من الآثار، ربّما قدرا معجزا، وشاهدا من شواهد العمارة استطاعت أن تخلد، لا لشيء إلاّ لأنّ بها حسّا من جمال روح لم يكن يعنّ لها إلاّ أن تهب

نفسها، كاملة، بتمامها، كريمة مسماح، معطاء واهبة...!!

كأنّي في سباق، كأنّي كنت أخشى أن تضيع الفرصة منّي دون أن أحقّق ولو جزءا بسيطا ممّا كنت أنتوي أن أحقّقه. أماكن للزّيارة أخلف مواعيدي معها، وأعبر دون أن أتعرّف إليها في الخضمّ. أماكن بعينها عرفتها من قبل، قرأت عنها وشدّتني إليها كما يشدّ المغناطيس الأشياء ذات الرّنين، شوارع ذات روائح خاصّة، ودهاليز معتمة لا تصلها إلاّ بعد أن تتعثّر بها خطواتك بين الحارات والأحياء، وهيئة ما، خيال يتهادى أمامك، من موقفك في المقهى البعيد الّذي ولجته، وقد أفضت إليه عطفة السّلطان «الظّاهر بيبرس». تراها فكأنّك لأوّل مرّة ترى امرأة، لا لم تكن شابّة، ولكنّها ناضجة بتلك المشية المترجرجة، وذلك الكفل الخرافيّ وهو يتمايل كما يتمايل الغصن الأملود ذات مساء ربيعيّ وقد هفت من المدى هبّة نسيم عابرة، حاملة معها شذى كشذى المسك، الضّرب وسط الميادين، وعيناك تلوبان، رغبتك في استثبات العلامات، أو ربّما مجرّد لون أو شكل، واجهة باب، مدخل شارع، عتبة، أو بوّابة مسجد، أو نصبة من النّصبات المتوزّعة هنا وهناك، أو دكّان على النّاصية، كان ذلك يغني عن الأسماء، ولم أكن بحال قادرا على حفظها لكثرتها، كان التّاكسي آخر ما أفكّر فيه، حلّ غير مرغوب، فإذا ما بدأ التّعب على «رامي» قدته إلى أحد المقاهي، هناك نجلس ونطلب شايا وفنجانا من القهوة ونتطلّع إلى الفضاء الخارجيّ، نتوارب وسط الأصوات المتداخلة والحياة الّتي لا تكفّ لحظة واحدة عن الاضطراب، في «السّيّدة زينب»، و«بولاق»، و«سيدنا الحسين»، و«خان الخليليّ»، ومرّة عبرنا إلى «الجيزة» مشيا على الأقدام... كان النّهار في بدايته عندما أفقنا، اضطررت اضطرارا إلى التّخلّي عن عادة النّوم إلى الضّحى، وما أن ذهبت إلى الحمّام وغسلت وجهي وغيّرت ثيابي، الحذاء الرّياضيّ، القبّعة والقميص، حتّى غادرنا الشّقّة، من العمارة انعطفنا إلى اليمين، وانطلقنا باتّجاه الكاتدرائيّة ذات اللّون

الأحمر المميّز إلى مفترق الطّرق، ومن هناك إلى محطّة الحافلات، عبرنا المحطّة ومشينا مهتديين بالتّوجيهات الّتي كنّا نتزوّد بها في كلّ مرحلة من مراحل الطّريق، وبلغنا «الجيزة»، وذهبنا إلى حديقة الحيوان... ومرّة أخرى زرنا «الجيزة» بالحافلة، في بواكير الصّباح، كان المكان ساكنا، والحافلة مركونة في مكان ما، مازالت تنتظر الرّكّاب الّذين لم يأتوا بعد، دخلنا فلم يعترض سبيلنا أحد، جلسنا، كنت أنظر من خلال النّافذة الزّجاجيّة إلى النّاس وهم يروحون ويجيئون، إلى واجهات الأماكن المتباعدة، وإلى الخطوط الواضحة مرفوعة بشموخ إلى هام العمارات معلنة عن عيادة الدّكتور فلان أو علاّن، وإلى بعض الأشخاص على درّاجاتهم الهوائيّة يحملون فوق رؤوسهم صواني عليها كمّيّات لا تعدّ من الخبز، يجوبون بها الأحياء والدّكاكين ولا يعودون إلاّ وقد باعوا كلّ شيء، لم يمض وقت طويل حتّى غصّت الحافلة، وجاء السّائق و «الكمساريّ» وماهي إلاّ لحظات حتّى هدر المحرّك، استدار رجل طويل في اتّجاهنا، ملامحه محايدة لا تشي بشيء، كان يحمل دفترا، ولمّا اقترب منّا، قلت له بلهجة قاهريّة واضحة: تذكرتان إلى «الجيزة»، قطع التّذكرتين ومدّهما إليّ، فأعطيته أربعين قرشا، عندما اقتربت الحافلة من الوصول، غادرنا أماكننا إلى باب الخروج، كان علينا أن نغادر وثبا، ولم أكن قد حسبت حسابا للحذاء، انطلقت خارجا وما أن وطئت قدماي الأرض حتّى سقطتّ، لملمت نفسي بسرعة ووقفت وأنا أشعر أن كلّ النّاس من حولي قد التفتوا إليّ، أنّهم ضحكوا في داخلهم لهذا الغريب الّذي ما يزال غريبا في عالم متحرّك، لا يهدأ!!

العقارب لا تكفّ عن الدّوران، والسّاعة في صراعها الجهنّميّ تطوي الدّقائق والثّواني، تختصر الزّمان، وتولّد من داخل المكان أمكنة لا حصر لها، تبدأ هلاميّة، ثمّ، وعلى غير موعد، يمتلىء بها رحم الفراغ وما تعتم أن تظهر أمامك، عرائس، في أبهى حللها، تتزيّن من أجل اللّيلة الفاصلة، وقد ضربت موعدا مع النّيل، يرسمن صورا عن الفرسان

والأفراس، ويتبخترن، في خطى العذروات اللّواتي لم يطمئن بعد، ما ينتظرهنّ لا يهمّهنّ كثيرا، غير أنّهن متأكّدات أنّه بعد مراسيم الحبّ، والحمّى الجارفة، واللّواعج الّتي لا تسكن ستستقرّ النّطفة في العمق الغامض، وستخصب البويضة غداة اللّقاح، وما هي إلاّ أسابيع حتّى تبدأ الرّحلة الجنينيّة، العلقة فالمضغة فالعظام فالكساء لحما، ومع الشّهر التّاسع، بين أتون عوالم مائيّة، بين الخضرة العارمة، وحقول المرجان والأحلام البحريّة، والحكايات، تلك الغائبة الحاضرة في أصل ذاكرة لا تملّ من المعاودة والتّكرار، ستظهر إلى الوجود عرائس أخرى، لها ملامح العرائس الأوليات، الضّفائر المجدولة، القوام الرّشيق، النّظرات القاتلة، دورة كاملة، هي الحياة بأسرها، محفوفة بعشرات الأهرامات، ينتصب على غير مبعدة منها الملاك الحارس، أبو الهول، على الرّغم من الجرح في الأنف، والرّطوبة والحرارة وتقلّبات الطّقس في العراء المنسيّ إلاّ أنّه لم يفقد حاسّة الشّمّ بعد، يراقب الوجوه، الشّواهد الّتي يأتي بها النّاس، فيشهدونها على الشّواهد القديمة، وقد تركت بصماتها عليها آخر الملكات البطليميّات الّتي لا يعرفون عنها سوى أنّها كانت أجمل امرأة في العالم، لم يتولّه بها «ماركو أنطونيو» وحسب، وإنّما أيضا الإمبراطور الرّوماني «أكتافيوس» قيصر- أو «أغسطس» قيصر، كما صار يعرف فيما بعد... يا «كليوبترا»، الصّمت- البداية- النّهار- الحرارة- المدخل إلى المكان الّذي أراد أن يسيّج التّاريخ، فهل سيّجه فعلا؟- من يضع يده على كلّ شيء- المركبات الغريبة- الأفراس- في كلّ مكان- الصّيّادون المحترفون- وهم يفتحون لك الجنّة على مصراعيها- يستغلّون رغبتك الجارحة، جموح رغبتك إلى البداية، في الوادي، بين قبور الملوك، «رمسيس الثّاني»، «أحمس الأوّل»، «تحتمس الثّالث»، «نفرتيتي» الجميلة، من أجلها طلّق «أخناتون» العالم، تزوّجها، وكسبها إلى صفّه، شخصا آخر، يعتنق ديانة الشّمس، يتخلّى عن التّعدّديّة الدّينيّة، ويبني معبدا لإلهته

الجديدة في تلّ العمارنة... كان من السّهل علينا أن ننطلق إلى الجانب الآخر، مجرّد أن نتوخّى الجادّة، وما هي إلاّ لحظات حتّى نصل إلى الأهرامات، ولكن وجدناه أمامنا، كالقضاء الّذي يأتي على غير موعد، بكرشه السّمينة وجلاّبيّته الزّرقاء غير النّظيفة، وضحكته الصّفراء، من النّظرة الأولى كشفته، بدا عاريا أمامي، قال إنّه من غير الممكن الوصول إلى الأهرامات من تلك النّاحية الّتي كنّا ننوي الذّهاب فيها... قلت: كاذب، وتعمّدت أن تظهر آثارالكلمة على ملامحي، غير أنّه كان ينوي الصّمود إلى النّهاية، كان يعتزم الانتصار في المعركة، لا شكّ أنّه يعتبرها معركة لا بدّ فيها من تحقيق الفوز، فأربعون جنيها تستحقّ أن يخوض من أجلها حربا ضروسا...

قال، وقد اقتنعت تماما أنّه تحوّل إلى تاجر، بحركة يديه، وشفطه الدّخان من سيجارته على مهل، وابتسامته، وهيكله الّذي حرص أن يجعله رشيقا رغم أنّه ليس من الرّشاقة في شيء:

- إذا أردتم المركبة، أو أن تركبوا فرسين، وسيصحبكما دليل... كلّ ذلك بعشرين جنيها للشّخص الواحد...

تمهّل، تباطأ قليلا، وهو يرمقنا بعينيه الذّئبيّتين، ربّما لاحظ شيئا ما على وجهي، فقد ضبطته وهو يحاول أن يتفاداني وعلى شفتيه ما يشبه الامتعاض، «رامي» كان طلبته، ولعلّي اكتشفت ذلك، في الوقت المناسب، أخذت بيد «رامي» وانتحيت به جانبا، قلت له قبل أن نتورّط:

- أفضّل الذّهاب مشيا على الأقدام.

قال «رامي» معترضا:

- ولكنّ الرّجل قال إنّ ذلك غير ممكن...

تصدّيت مقاطعا بغضب، ولا أدري لماذا فعلت ذلك:

- وهل صدّقته؟ إنّه كاذب!

كان «رامي» مصمّما على خوض التّجربة، فقال حاسما الأمر:

- لنفرض أنّه كاذب، ما يمنعنا نحن من التّجربة، والمبلغ، على كلّ حال ليس كبيرا، فقط أربعون...

وافقت على مضض... وجاء الدّليل بفرسين ساعدنا على امتطائهما، المرّة الأولى الّتي نركب فيها أفراسا، كنت أحسّ بشيء من الخوف، ولكنّه طمأننا قائلا، إنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذا الخوف، كانت الفرسان سلستين، طيّعتين، ومضينا ثلاثتنا نشقّ بعض الممرّات الضّيّقة، لاحظت أنّ الدّليل قد انتقاها مسبقا لأنّ له فيها أشخاصا يشتغل معهم، بائعي بطاقات بريديّة، ومصوّرين، وبائعي أفلام فوتوغرافيّة... نداءات مغرية، جرس معتاد منذ اليوم الأوّل الّذي نزلنا فيه القاهرة، الألقاب الّتي تخرج من الأفواه جزافا:

- أفلام، يا بيه!!...

بلا مبالاة:

- بكم؟

- بعشرين فقط.

- كثير جدّا!

- بخمسة عشر.

- كثير أيضا.

- بكم تريده إذن؟

- بعشرة فقط.

- خلّيها اثني عشر وشيل.

- آخر كلام بعشرة...

مشهد مبتذل من فصل تعمّدته كي أغيظ الدّليل، أتحيّن فرصة مراقبته، أتظاهر بالنّظر إلى الجهة الثّانية، ولمّا تقع عيناي في عينيه أتماسك كي أجعله يظنّ أنّها مجرّد مصادفة، يتقلّص وجهه، يحطّ عليه حزن مفاجئ، يتماسك بدوره كي لا تبدو لعبته مكشوفة، صيد آخر يضيع، ولربّما لم يعتد في حياته أن يضيع منه صيد بهذه السّهولة،

يتكلّم طوال الوقت، يجهد أن يتغلّب على اضطرابه بالكلام، ويبدو أنّه كان متمكّنا من عمله جيّدا، يعرف الأماكن مكانا مكانا، الموادّ الّتي صنعت منها المشغولات والتّماثيل، كنت بجانبه وكنت أتظاهر بسماعه، وما كان يشغلني حقّا نهاية الرّحلة... هاجس يهتف بي أنّه سيطلب نقودا، مع أنّه أكّد في البداية أنّه لن يأخذ شيئا منّا... كنت أقول لنفسي لا يمكن أن يكون هذا الدّليل أفضل من ذلك الرّجل السّمين «الّذي ضحك على ذقوننا»... وكان الأمر الّذي كنت أخاف منه، قال «رامي» غاضبا:

- لا تدفع له شيئا!

أجبته وأنا أحاول جاهدا أن أكظم الغيظ:

- الآن تقول ذلك... لا تنس أنّك أنت الّذي كان يصرّ!!

- ولكنّه قال إنّه لن يأخذ مالا!!

قلت وقد بدأت نبرة صوتي تعلو قليلا:

- وهل تصدّق كلّ ما يقال لك، خصوصا ما يقوله هؤلاء المتحذلقون!

غدت يباسة رأس «رامي» لا تطاق وهو يقول:

- لا تدفع...

التفتّ إلى الدّليل، قلت بازدراء:

- كم تريد؟

بدت على شفتيه ابتسامة ماكرة خبيثة، تنحنح ثمّ قال:

- أربعون!!

لم أتمالك نفسي وانفجرت في وجهه:

- أنت مجنون...

وبعد قليل:

- لن أدفع شيئا.

قال بمسكنة وقد بدأ يقتنع أنّه ربّما خسر كلّ شيء:

- ادفع ما تريد.

كان لا بدّ من أن أشفي غليلي، وقلت محتدًا:

- هذه الطّرق الملتوية لا تعجبني، لا شيء كان يجبرك على الكذب؛ ومع أنّك لم تكن واضحا معنا سأعطيك خمسة جنيهات!!

وأخرجت الورقة النّقديّة من الحافظة ورميتها تقريبا في وجهه، وانصرفت فتبعني «رامي»، وقد سمعته يقول «مع السّلامة» ولكنّي تجاهلته كما لو كان شيئا من الأشياء الّتي خلّفناها وراءنا، ولو أنّها كانت أخفّ حملا وأغلى ثمنا!!

لماذا كان انشغالي بالتّاريخ أكبر ممّا عداه؟! أكبر من كلّ شيء آخر، الأحياء الرّاقية، والفنادق، والمحلاّت ذات الواجهات العملاقة وهي تزهو بشتّى البضائع النّادرة، وحتّى المكتبات الّتي كنت منذ اليوم الأوّل شديد السّؤال عنها، والأكشاك، حيث الإسطوانات القديمة لـ «السّتّ»، وأشرطة كاسيت لفنّانين مازالوا في البال، وتنكّر لهم الزّمن، فاختفت أسماؤهم من الأسواق كما لو كانوا بقايا مرض عضال يخشى على النّاس من فتكه، وهم الّذين كانوا ملء العين والبصر، في مكان غير المكان، وفي زمان كان يعرف كيف يقدّر الموهبة ويحتفي بها... لكنّ ذلك حديث آخر، وشوق يلمّ بين اللّحظة واللّحظة، في حالات من الصّفاء والتّجلّي، عند الخلوّ، لا جليس سوى الصّمت والوحدة، والأصوات الصّادحة تأتي من الحاكي أو المسجّل القائم غير بعيد منك!!

في القلعة جنون آخر، انسيابيّة لا أدري كيف أصفها، مع شدّة تمنّع أقرب إلى الحياء، تبدو في استحالتها وكأنّها تأبى أن تتلوّث بأصداء الحياة الآتية من الجهات السّتّ، حتّى الطّريق إليها، خارطتها، مواربة في طيّات لا يهتدى إليها إلاّ بالسّؤال، حيث تقطع مسافة من الطّريق ثمّ تتوقّف عند حدّ ما، وقد تملّكتك الحيرة والاضطراب وأنت ترى ذلك الخليط من النّاس، من أهل البلد ومن سيّاح، يمضون في أرتال متتابعة، إليها، لكن تسأل نفسك: من أين يدخلون؟! والأسوار

قائمة أمامك في شموخ القرون الدّابرة، والبوّابات الّتي ترتفع عن الأرض عشرات الأذرع كأنّها تذكّر بمنعتها وسلطانها... نمضي في شارع كان يرتفع قليلا قليلا، وكلّما مضينا مسافة من الطّريق كنّا ننظر إلى الحيّ الّذي أخذ إسمه من القلعة، تطالعنا الحافلات، والبنايات الكبيرة الكثيرة، والوجوه العابسة الضّاحكة، في ذلك اليوم الممطر، نغذّ المسير، وبعد لأي نصل إلى بوّابة الدّخول، تعبق رائحة المكان في أنوفنا، ومن أكناف القرون السّحيقة، كما لو كان في الحلم، يجيء الغلمان بملابس التّشريفة فيستقبلوننا مرحّبين، ونتبعهم، نحسّ إحساسا غامضا أنّ المكان بأسره هو طوع أمرنا بما فيه ومن فيه، ونرتقي الدّرجات إلى المسجد، إلى القباب الّتي تكاد ذوائبها تعانق أجواز الفضاء، الأعمدة، النّقوش، والسّجّاد الأحمر، وفي الأعلى من كلّ جدار أبيات «البردة» للشّيخ «البوصيري»، كنت أرى «محمّد علي باشا»، أراه حتّى من قبل أن تنطبع صورته في مخيّلتي، يهبّ من مرقده بشاربيه ولباسه السّلطانيّ وسيفه وقد تخلّص من كلّ المماليك، وقام في النّاس معلنا بدء عصر جديد، لكلّ ركن رائحته الخاصّة، وفي كلّ زاوية من الزّوايا ينتابك شعور جديد، تتمنّى لو يعود بك التّاريخ إلى الوراء، إلى العتاقة الضّاربة جذورها عميقا في خصوبة الأرض المعطاء، أرض ولود تشيل الهموم سنين ثمّ تنتفض فجأة فيتغيّر وجه العالم... ومن المسجد نمضي إلى المتحف، إلى المقصورة، الّتي لا شكّ أنّها أنشئت وفق تصوّر ماضويّ كان يستوحي من روح الزّمن الدّابر، ولكنّي كنت تحت تأثير إحساس لا يقاوم أنّ كلّ ما كان يحوطني هو في الحقيقة واقعيّ إلى أبعد حدود الواقعيّة، وأنّ أولئك الأشخاص، الّذين لم يكونوا إلاّ دمى قد ألبست الطّرابيش العثمانيّة والملابس المنشّاة بالقصب والأحذية الّتي تستقيم ثمّ تنعقف في النّهاية، إنّما هم كائنات تسمع وترى، وتحسّ بنا ونحن ندخل، إلاّ أنّها لسبب ما كانت تتجاهلنا وتخوض فيما كانت تخوض فيه، الوالي على كرسيّ السّلطنة، ومن ورائه الحرّاس، وعلى

يمينه وعن شماله الوزراء والمستشارون، وفي الوسط الأركيلة الطّويلة، وقد انتهى خرطومها في فم «محمّد علي»... نخطو إلى الأمام، نوغل في عمق المكان، ألتفت إلى «رامي» فأضع إصبعي على فمي دلالة الهدوء، أنصحه بالحذر، أقول له إنّ للحيطان آذانا وإنّ للمنازل حرمات، وهل لمكان آخر حرمة أكثر من حرمة المكان الّذي انتهينا إليه، حيث الكسوة الشّريفة، الّتي كان يذهب بها المحمل إلى الكعبة المشرّفة؟ تعبق روائح زكيّة، سرعان ما تسطع الأنف، ويسري الخدر والانتشاء إلى المسامّ، وتردّد الأعماق في تبتّل وخشوع: «أمن تذكّر جيران بذي سلم...»!!

أشعر بحمّى في الرّأس، تتشوّش الأحداث ويمتزج الحاضر بالماضي، ويغيم المستقبل في مخيّلتي، وحينما أتطلّع إلى صورتي في المرآة، أفاجأ باللّباس الّذي كنت أرتديه، التّرس والخوذة والسّيف والسّراويل الفضفاضة واللاّمسة الّتي تتهدّل فتغطّي الأذنين، أسأل نفسي بعد أن يعاودني الهدوء ثانية: - ما شأني أنا بالجيش والإنكشاريّة؟! ما شأني بهذه الأسلحة الّتي لا يحصيها العدّ، الخناجر والسّيوف، والمدافع وهذا البارود الكثير، وكلّ هذه الغدّارات؟! ما شأني بالهزائم والانتصارات، ومن مات ومن ظلّ على قيد الحياة؟! ما شأني بكلّ ذلك ما دمت هنا، وبعد رحلة القرون أشاهد ما أشاهده دون أيّ شعور بالذّنب أو الخطيئة، يلفّني حياد، وأستشعر متعة أولئك الآتين خصّيصا ليروا الأشياء عن قرب، وعندما ينهون جولتهم الختاميّة لا تسمع منهم ذلك الصّوت الحيّ الصادر من القلب، الّذي يشي بالتّعاطف والمشاركة، ولكن فقط تلك الصّرخة غير الواقعيّة، الخياليّة كخياليّة أفلام «الكاوبوي» الأمريكيّة:

- مدهش!؟!

وأنا أخرج، سمعت صوتا، كنت أعتقد أنّه آت من ورائي، التفتّ، فلم أر شيئا، واصلت سيري، فسمعت الصّوت ثانية، ولكنّي لم ألتفت هذه المرّة، طأطأت رأسي، لابت عيناي في صدري، بدا لي كأنّه كان يرتفع

وينخفض باستمرار، وتسارعت دقّات قلبي، بدا الصّوت واضحا، وهو يقول:

- رحم الله محمّد علي!!

لم أصمد طويلا، وجدت نفسي أسأل دون وعي:

- وهل مات؟!

أجاب الصّوت بنبرات اكتنفها تأثّر فترقرقت:

- نعم.

ذهب الحياد دونما رجعة، وفي لمح البصر وجدت نفسي معنيّا بكلّ ما كنت أروم التّنصّل منه، السّيوف والغدّارات والبنادق والمدافع والخوذ والتّروس والرّماح واللاّسات والبوقات والمنجنيقات والولاة والإنكشاريّة العثمانيّين والأمويّين والعبّاسيّين ومن مات ومن عاش ومن كان ومن لم يكن، ووجدت نفسي معنيّا بالماضي والحاضر العاثر والمستقبل الّذي لا يبشّر بغير المأساة... طفرت دمعة حرّى من عيني، تركتها تنزل على خدّي، أحسست بها في ذقني، كنت أبكي في صمت، قلت هامسا كأنّي كنت أريد أن أشهد الفضاء على ما أقول:

- رحم الله محمّد علي، فقد كان أكبر من حلمه!!

***

أفقت على رنين جرس المنبّه ووقع خطوات «رامي» تعبر الممرّ إلى الحمّام، نحّيت اللّحاف جانبا وقصدت النّافذة فأزحت السّتائر عنها، ثمّ اشرأبّيت بعنقي إلى الخارج فطالعتني العمارات المقابلة وهي تشمخ بطوابقها العديدة، ونظرت إلى الأسفل، إلى الشّارع الّذي ما يزال نائما، والظّلمة تنحسر عنه رويدا رويدا: لم تكن هناك أصوات باستثناء تلك الّتي تصدرها أبواب المقاهي وهي تصرّصريرا حادّا كان يمزّق جوف السّكون، وبعض السّيّارات، وبعض الأشخاص وهم يحثّون الخطى إلى مكاتبهم ودواوينهم...

نازعتني نفسي إلى تدخين سيجارة، ووجدت قدميّ تقوداني إلى المطبخ... ملأت الرّكوة ماء ووضعتها فوق النّار، وسحبت علبة السّجائر فأخذت منها سيجارة أشعلتها ورحت أدخّن، وأنا أفكّر في الدّعوة والغداء، والضّيوف الّذين لن يلبثوا طويلا حتّى يقدموا... كنت على وشك الشّرود ولكنّ وشيش الماء أعادني مرّة ثانية إلى الرّكوة الّتي كانت على النّار، أخذت ملعقة وفتحت علبة القهوة فملأتها من الطّحين الأسود ذي الرّائحة الذّكيّة النّفّاذة وصببتها في الرّكوة ورحت أحرّكها بهدوء شديد؛ سمعت خطوات «رامي» في طريقه إلى غرفته فسألته إن كان يريد فنجانا من القهوة، إلاّ أنّه اعتذر في البداية لكونه لا يفضّل شيئا على الشّاي، ولكن يبدو أنّ الرّائحة القويّة المغرية الّتي تسرّبت من المطبخ إلى الشّقّة كلّها جعلته يغيّر رأيه فجأة؛ جهّزت كلّ شيء وأخذت الصّينيّة إلى الصّالة، قرّبت نضدا من الأريكة الكبيرة المستندة إلى الجدار وضعت فوقها الصّينيّة... وتراجعت إلى الوراء ففتحت باب الشّرفة وبقيت متّكئا على الإفريز أتطلّع إلى العالم الّذي استفاق دفعة واحدة كأنّه صحا من سبات قرون... جاء «رامي» فجلس، وعدت القهقرى فجلست بقربه وشرعت أرشف من الفنجان وأدخّن...

لم نقل شيئا، وظللنا صامتين؛ وإذا كنت أنا ذا نزوع متأصّل إلى الصّمت سيّما في السّاعات الأولى من الصّباح، فإنّ دوافع «رامي» الّتي ألجمت لسانه- وهو الّذي لا يني يتحدّث ويتحدّث، بسبب أو دونما سبب- فلربّما تعود إلى تفكيره بالدّعوة وما يمكن أن تجرّه من هرج ومرج ووجع رأس... لم أنس أنّه هو الّذي اقترح، وهو الّذي خطّط لكلّ شيء، وكنت أنا مجرّد تابع خلال اليومين السّابقين، حيث نزلنا إلى ميدان العتبة، فعرّجنا على سوق الخضار حيث اقتنينا مستلزمات السّلطة وغلالا كثيرة، واشترينا اللّحم، وبعض المشروبات، وعندما عدنا إلى الشّقّة بعد جهد ومشقّة، مضى «رامي» إلى التّلفون فاتّصل بأحد المطاعم المعروفة، الّتي تفضّل العمّ «أحمد» بإمدادنا بعنوانه لسرعة

خدماته ولكون أسعاره في متناول أمثالنا من السّيّاح غير المحترفين؛ حرصت أن أكون قريبا منه، وهو يتحدّث بلهجة محطّمة، لا تشبه في شيء لهجة أهل البلد، وأحسست بعد فترة أنّ صوته يتلجلج وهو يؤكّد على زجاجة الويسكي وقناني البيرة... أقفل الخطّ، ووضع السّمّاعة، ثمّ ضمّ يديه إلى بعضهما وبدأ يفركهما وهو يبتسم، في وقت ما بدأ يرقص، كان رقصه مرتجلا، متلكّئا وكأنّه لم يرقص في حياته أبدا...

قال:

- مضت فترة طويلة لم أشرب فيها...

قلت مسايرا، فيما يشبه الشّرود:

- ولكنّك ستشرب الآن!!

وبما أنّ الحديث يجرّ حديثا غيره، وبما أنّ الشّجون تستدعي إلى الذّهن شجونا أخرى، فقد عادت بي الذّاكرة إلى أحداث بعينها، وألفيتني أفكّر في «روحيّة» وفي ضحكتها العالية، في اليوم الثّاني من حلولنا بالقاهرة، وهي تضرب على كتف «رامي» وقد كادت تلتصق به... كانت متألّقة إلى أبعد الحدود، وكنت في نهاية الصّالة بالقرب من الشّرفة مستلقيا على ظهري أنظر إليهما من حين لآخر، ثمّ ما ألبث أن يجمح بي الخيال بعيدا؛ فجأة صحوت على قهقهات معربدة، ولمّا نظرت إليهما رأيت «روحيّة» ترفع نهاية فستانها بحركة سريعة عن ساقها إلى أن انحسر عن فخذ مربربة عظيمة، رفعت كفّها إلى الأعلى وضربت الفخذ ضربات فيها إغراء وملاوعة، اهتزّ اللّحم وتماوج، استدارت إلى «رامي»، أنعمت فيه النّظر بحسّ الأنثى الّذي لا يخيب، وحوّلت نظراتها إليّ، ثمّ عادت إلى «رامي» تتأمّله، للحظات كنت عاجزا عن التّفكير، أصبت بما يشبه العطالة، وانحبست أحاسيسي انحباسا تامّا، لفّني المشهد فتواريت بين ثناياه، وشطّت هواجسي: أيّة امرأة هذه؟! أيّة شيطانة ألقت بها الصّدف في طريقنا؟!... بعد لأي، عدت إلى ما فرط من أمري، وقلّبت في رأسي احتمالات شتّى، لعلّها كانت تجسّ النّبض،

لربّما أرادت أن تلقي بشباكها، وتجرّب، فنحن في نظرها مثل كلّ الرّجال، ومن غير المعقول، بالنّسبة إليها، وقد شهدت بأمّ عينيها ما جلبناه من نقود، أن نفلت منها كلّفها ذلك ما كلّفها... إلى ذلك الحين كان ما فكّرت فيه مجرّد تخمين ليس له ما يبرّره، لكن ما حدث بعد ذلك، والجوّ الّذي حاولت خلقه، أكّد إلى حدّ بعيد ظنوني، كانت تورد النّكات النّكتة تلو النّكتة، وكانت كلّ نكتة أسوا من صاحبتها، تضوع منها رائحة مشبوهة، ليس فيها خفر أو حياء... وكان «رامي» فارسا من الفرسان الضّالعين بالنّكت، عرفته محدّثا لا يضاهى، حتّى ونحن نخوض في مواضيع لها علاقة بالفنّ والأدب والحداثة والمعرفة وتاريخ العلوم والإبستيمولوجيا لا يعدم وسيلة يورد فيها نكتة بذيئة، وما دامت الفرصة قد جاءت تسعى إليه فقد اغتنمها بحسّ الصّيّاد، وراح يكيل لـ «روحيّة» من نفس مكيالها...

قالت:

- تزوّج رجل امرأة، ولكن لسوء حظّه حدث أن مات أحد أقاربها، فتألّمت ولبست السّواد حدادا عليه... ولمّا كانت حزينة، فقد منعته من نفسها وكلّما حاول أن ينال منها وطرا كانت تصدّه، إلى أن ذاق الرّجل بها ذرعا وأصبحت حياته معها لا تطاق... ولمّا كان الرّجل صاحب كيف ومزاج فقد كان يذهب إلى القهوة وهناك يجلس مع أصحابه ورفاقه يتبادلون الحديث والصّنف، وفي يوم من الأيّام زلّ لسانه فحكى لهم حكايته من البداية إلى النّهاية وهو مهموم مغموم، أسقط في يد الجماعة وأسفوا له أشدّ الأسف، لكنّ أحدهم قال له لا تقلق، فما بعد الشّدّة إلاّ الفرج، ودلّه على امرأة من اللّواتي يضربن الرّمل ويخبرن عن البخت: وذهب الرّجل إليها وأخبرها بقصّته، فاستمعت إليه وقلّبت مسألته من جميع جهاتها، ومدّته بالخبر اليقين... ورجع الرّجل إلى البيت فلمّا كان اللّيل، وضع شريطا أسود على ز(...) واقترب من امرأته قائلا: ما تعال نن(...)!!

أغرق «رامي» في الضّحك حتّى كاد ينقلب على ظهره، وشعرت أنّي أخذت على حين غرّة فارتسمت على شفتيّ ابتسامة بلهاء غبيّة... قالت «روحيّة» وهي تعود إلى هدوئها الأوّل، وما تزال تلقي بيدها على كتف «رامي» تداعبه:

- ما فيش أحلى من الضّحك...

وبعد قليل:

- وأنتم بعدكم والحمد لله شباب!!

«روحيّة»- لغز- بقدر وضوحها أجدها في الكثير من الأحيان غامضة، في رأسها الصّغير لا شكّ أنّها ترعى أفكارا لا حصر لها، وتتعهّد أحلاما شتّى، ولئن ما زالت لم تعلن بعد عن نواياها الخفيّة فقد نجحت على الأقلّ في أن تجتذبنا إلى فلكها ومدارها... كلّ يوم، وفي مواعيد ثابتة لا تتغيّر، تأتي دائما ولا تخلف موعدها، تجيء في الصّباح قبل الجميع، وإذا جاءت السّتّ «زينب» بعد ذلك، والعمّ «أحمد» فإنّها لاتجلس معهما باعتبارها شغّالة مثلهما، وإنّما ترابط معنا، في الصّالة تحكي وتلمّح، ولا تتوقّف عن الحديث البتّة، ولسبب ما كنت أخمّن أنّ السّتّ «زينب» ربّما كانت تكرهها أو تغير منها، سيّما إذا رأتها تتّجه إلى المكان الّذي نكون فيه!!

ومهما يكن من أمر، مهما يكن من الدّفع والجذب، وبعض الأحيان من الغموض وعدم الوضوح في تفسير بعض الأشياء، أو تجاهل بعض الأشياء الأخرى، أو المجازفة الّتي غدت بالنّسبة إلى «روحيّة» ملحة يوميّة لا يخطر ببالها أبدا أنّه يمكن أن يترتّب عنها ضرر ما، أو سوء فهم يمكن أن يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه، إذا أخذت بعين الاعتبار الأعين الكثيرة في العمارة، الأعين الّتي تراقب باستمرار دون كلل أو ملل، وربّما كانت تنتظر أيّ شيء، أيّة فضيحة، حتّى تلوكها الألسن... مهما يكن فإنّ «روحيّة» كانت مفيدة إلى حدّ كبير، سواء عن قصد منها أو غير قصد، فمنذ اليوم الأوّل، وما أن زارتنا في المساء، وجلست إلينا في الصّالة

بعد أن هيّأت لنا كؤوس الشّاي وأخذت كأسها وراحت ترشف بصوت مسموع، توصّلنا إلى معرفة أسرار وحقائق كان أولى بنا أن نعرفها، كي نتفادى أيّة مفاجاة أو أيّ حادث من شأنه أن تكون له مضاعفات غير محمودة... أكّدت على إغلاق الباب وعدم فتحه لأيّ كان، اللّهم إلاّ أن يكون ذلك لأحد الشّغّالين الموجودين بالعمارة أو العمّ «أحمد» الّذي قالت إنّه سيكون موجودا دائما، وتحت الطّلب، وإذا ما احتجناه يجب أن لا نتردّد في مهاتفته، لمّحت إلى نساء ربّما اتّصلن بالتّلفون، أو دققن جرس الشّقّة، وقالت إنهن ربّما رابطن ساعات أمام الباب ينتظرن أوّل بادرة أو فرصة يفتح فيها الباب حتّى يهرعن إلى الدّاخل، وهناك لا مفرّ... لا بدّ ممّا ليس منه بدّ!! ضحكت بعربدة، صهلت وهي تغمز وقد تحوّلت كلّ ملامحها إلى ساحة للتّلميحات، كان يبدو أنّها تريد للرّسالة أن تصل بشكل غير مباشر، أن تشرح في كلمات ملتبسة غامضة الوضع في العمارة، المواعيد غير المنتظرة، الشّبكة الواسعة الّتي كان الكلّ متورّطا فيها وتدار بداية من البوّابة، على كرسيّ البوّاب، وانتهاء بآخر دور في العمارة ربّما وراء مدخل باب حيث يقبع شخص متنفّذ يضرب أخماسا في أسداس، ويجمع ويطرح، ويستعرض وجوه «نسائه» ويقدّر الأثمان ويحسب أخيرا ما يمكن أن يضعه في جيبه في اليوم، ثمّ في الشّهر، وهكذا.... وكخطوة عمليّة لتجنّب أيّ طارئ من تلك الطّوارئ قالت إنّه يفضّل أن ننظر من العين السّحريّة قبل أن نفتح الباب، أو نفتح الشّرّاعة الكبيرة للتّأكد من هويّة الطّارق، وبعد ذلك لنا الخيار أن نفتح أو لا نفتح...

وفي نفس اليوم، وبعد أن غادرت حوالي السّاعة السّادسة والنّصف، رنّ التّلفون، فقام «رامي» للرّدّ عليه، وبقيت أمام التّلفزيون القديم الّذي تصوّرت قبل أن نؤجّر الشّقّة أنّ أيّا من الشّقق الّتي سنؤجّرها لا بدّ أن يكون بها هوائيّ، ولا بدّ أن تكون هناك قنوات عديدة نستعين بها على تزجية الوقت، ولكن عبثا، فحتّى

الجهاز الّذي كان موجودا ما أن وقعت عيناي عليه حتّى تذكّرت جهازنا القديم، منذ حوالي عشر سنوات، في منزلنا بالمدينة، وقد قرّرنا أخيرا التّخلّي عنه مقابل تلفزيون جديد بالألوان... حينئذ، لجأت إلى الخيار الأسوأ، انهارت عزيمتي تماما ودفعت إلى التّدخين دفعا بعد أكثر من خمس سنوات من الانقطاع، كان جهاز التّحكم عن بعد بيدي أضغط على أزراره دون وعي، وذهني منصرف إلى المكالمة المفاجئة، وأنا أشفط من السّيجارة، كنت أفكّر في هذا «الشّخص» الّذي كلّف نفسه عناء الاتّصال من يكون ومن أخبره برقم الشّقّة والعنوان، ولم يمض على إقامتنا إلاّ ساعات قليلة، خطر لي البوّاب، أو عمّ «أحمد» نفسه، وربّما «روحيّة» على الرّغم من كلّ الكلام الكثير الّذي قالته... تناهى إليّ صوت «رامي» من المدخل، ومن طريقة كلامه، وضحكته الرّائقة، وبعض العبارات الهامسة، والوقت الطّويل الّذي قضاه في المهاتفة حدست أنّه يكلّم امرأة، وأنّه كان يحاول معها، كان يساوم على شيء لن يكون من السّهل المساومة عليه!!

لمّا عاد، وأخذ مكانه على الكنبة لم أساله وظللت أتفرّج على التّلفزيون وأدخّن، ومن حين لآخر أنظر من باب الشّرفة إلى السّماء في الخارج وهي تتلبّد بسحب سوداء كثيفة...

تنحنح، وامتدّت يده إلى الصّينيّة على النّضد القريب فأخذ كأسه وحسا حسوة منه وقال وهو يتنهّد تنهّدة ذات معنى:

- هل تستطيع أن تحزر من الّذي كان يتكلّم؟

اتّجهت نحوه دون أن أنبس ببنت شفة، وتعلّقت نظراتي به، وقد كان ذلك كافيا لإعطائه مبرّرا لمواصلة الحديث، أخذ الكأس من على النّضد دون أن يشرب منه وأعاده ثانية إلى مكانه، وكأنّما كان غرضه من تلك الحركة أن تساعده على ترتيب أفكاره أو الكلام الّذي ينوي أن يقوله... سمعته يقول وقد تغيّرت نبرته، غدا جرس الكلمات أقرب إلى هسهسة الأوراق وهي تسقط عن شجرة بفناء منزل غداة قدوم

الخريف:

- لا شكّ أنّك حزرت أنّ المتكلّم كان امرأة...

والتقت نظراتنا دون أن أكلّف نفسي عناء التّعليق أو التّعقيب، وواصل:

- العجب كلّ العجب كيف عرفت رقم التّلفون... ورقم الشّقّة!

وكأنّما قصد أن يزيد في الإثارة وأن يحرّك بأصابعه وحكايته جميعا أوتارا لكثرة خمولها وخمودها تصلّبت وصارت غير قادرة حتّى على ترجيع الصّدى، لذلك قال:

- هل تعرف أنّها عرفت أنّنا اثنان في الشّقّة؟

ولعلّ صمتي قد بدأ يضايقه فقرّر أن يقحمني مثل الجملة الاعتراضيّة في سياق الكلام، اتّجه بكلّيته نحوي سائلا:

- من تعتقد أنّه أخبرها؟!

بلا مبالاة قلت، وقد شعرت أن الكرة ما تزال بعيدة عن المرمى الحقيقيّ:

- لا أدري!!

وبعد قليل:

- قد تكون محض مصادفة، وقد يكون أحدهم سأل فعرف؛ وعموما هذا الأمر ليس بالمشكلة الحقيقيّة...

فقاطعني قانعا منّي بما تفوّهت به ومدركا أنّ عليه أن يمسك بالزّمام من جديد:

- أتعرف...(ورمقني بطرف عينه): من كلامها بدا لي أنّها محترفة من الدّرجة الأولى... سيّارة ومحمول ومواعيد ثابتة والأجر مقدّما...

انتظر قليلا، وأخذ كأسه فرشف منه ثمّ أعاده إلى النّضد، ولعلّه أراد للمباغتة والمفأجاة أن تكون مضاعفة، وأن يحكم قبضته على خناقي، فقال لي:

- أعطني سيجارة!!

نزل طلبه عليّ نزول الصّاعقة وهو الّذي لم يدخّن في حياته، وقد استغرقت بعض الوقت حتّى أفيق من الصّدمة، وفي اللّحظة الّتي امتدّت فيها يدي إلى العلبة وجدته يسبقني فيأخذ سيجارة ويشعلها ثمّ يأخذ نفسا عميقا وقد أغمض عينيه كما لو كان يستعيد ماضيا أو تاريخا بأسره.

- قالت لي خمسون...

وصمت مرّة أخرى، ريثما أخذ نفسا ثانيا، ولكنّه هذه المرّة أخذ يسعل فابتسمت وأدركت أنّ التّجربة الأولى بدأت تفعل فعلها، قلت مداعبا:

- لا تقلق بضعة أيّام فقط وستتعوّد!

- فأل الله ولا فألك... إنّما كانت تلك مجرّد رغبة عارضة وسيذهب كلّ شيء في حاله.

واعتدل في جلسته على الكنبة إيذانا بعودته إلى «المهمّ» كما قال لي وهو يطفئ السّيجارة في المنفضة، ثمّ واجهني تماما وبدا صوته حالما وهو يتكلّم وكأنّه يتخيّل المشهد الّذي لم يقع بعد غير أنّه يمكن أن يحدث مع ذلك إذا توصّلنا إلى معالجة بعض التّفاصيل ووضع بعض النّقاط النّافرة على حروفها المتباعدة:

- قالت إنّها على استعداد أن تبيت، وحاولت معها في الثّمن غير أنّها أصرّت.

بدا لي أنّ الموقف على ما هو عليه في حاجة إلى بعض الحزم؛ فقد كانت الرّغبة الجامحة الّتي لمستها في كلامه منذرة بضعفه، قلت:

- لا تحزن: ستجد غيرها...

ثمّ:

- ولا تنس أنّ المجيء، وفي اللّيل لا يخلو من مخاطرة، ربّما استغلّت فرصة وجودها في الشّقّة، وفي غفلة تأخذ كلّ شيء!!

ولم يطل الانتظار!

ففي ما بعد ظهيرة اليوم الموالي، أذكر أنّي كنت منشغلا بفعل شيء ما، في غرفتي، لمّا رنّ جرس البيت، ولا أدري لماذا بدا لي أن أترك ما كنت فيه وأفتح الباب رغم أنّه كان بالإمكان أن أدع «رامي» يفتحه... اجتزت الممرّ إلى المدخل، وفي المدخل انهارت كلّ نصائح «روحيّة» أمام قدميّ، وبدل أن أنظر من العين السّحريّة أو على الأقلّ أفتح الشّرّاعة لأرى من القادم، كانت يدي أسبق إلى المفتاح الّذي ما أسرع ما أدرته، فأحسست بالباب يدفع في اتّجاهي دفعا وإذا بفتاتين تجتازان العتبة في شبه هجوم جعلني عاجزا حتّى عن مجرّد الكلام... وعندما أفقت من آثار الدّهشة كانتا قد تجاوزتاني إلى المدخل تريدان الصّالة. بدا لي أنّ المكان كان مألوفا بالنّسبة إليهما، لا ليس المكان فحسب وإنّما الشّقّة بأسرها، وفي لحظة ما غاب عنّي أنّهما ربّما كانتا قد جاءتا إلى هنا من قبل، وأنّ اقتحامهما المباغت وتجرّأهما لربّما لم يكونا في نهاية المطاف اقتحاما سافرا وتعدّيا إلاّ في نظري...!! صحت بهما وأنا أكاد أجري وراءهما حتّى ألحق بهما قبل أن تبلغا إحدى الغرف أو تباغتا «رامي» دون أن يدري:

- انصرفا من هنا فورا!!

قلت ذلك بغضب ومازالت الدّهشة لم تزايلني تماما... فكّرت أنّ كلّ شيء كان غريبا، وأنّ دخول أحدهم إلى أيّ مكان بتلك الطّريقة الخرقاء ليس لائقا. ويبدو أنّ ذلك الهاجس كان طاغيا إلى درجة الانسحاق حتّى أنّي لم أدقّق جيّدا في ملامحهما وفاتني أنّهما ربّما كانتا على جمال كبير، ما تمكّنت من تمييزه للوهلة الأولى الابتسامتان الجريئتان على شفتي كلّ منهما، ابتسامتان جريئتان ووقحتان، رغم المظهر المحتشم: كلّ واحدة لفّت شالا حول رأسها بحيث كان يغطّي شعرها، وعباءة سوداء كانت تغطّي كلّ شيء، كانت إحداهما طويلة، تميل إلى الامتلاء، والثّانية أقصر منها، وكان يبدو عليها الامتلاء والبضاضة!!... كنت مصمّما على طردهما، وركبني شيطان لعين،

فوجدتني أمتلئ بالتّحدي والرّغبة في المجالدة، صحت، أو بالأحرى كنت أصيح منذ البداية، وأنا أحاول أن أسبقهما لأقطع عليهما الطّريق، ذهني كان منصرفا إلى الحقائب، إلى حافظة النّقود والدّولارات في داخلها، انتصبت أمامهما وجرّاء ذلك كان من غير الممكن أن تتقدّما ولو خطوة واحدة، بدأتا تتراجعان وتحوّلت تانك الابتسامتان إلى امتعاض خفيف، واستدارتا وأنا وراءهما، وكم كانت فرحتهما طاغية لمّا سمعتا صوت «رامي» يسأل من القادم، إذن هناك شخص آخر، صوت آخر، وفي هذه الحالة سيكون من اليسير عليهما أن تتجاهلاني وتتعلّقا بتلابيب «رامي» كما يتعلّق الغريق بقشّة... رأيته يدخل، وفي الحال تعلّقت عيناه بالقادمتين، همدتّ، عندما رأيته في تلك الحالة، والدّم الّذي كان إلى حدّ تلك اللّحظة فائرا أخذ يتراجع عبر الشّرايين إلى الأعماق الخفيّة المجهولة، السّحر، المغناطيس وحده الّذي يملك القدرة على فعل الأعاجيب، وما رأيته كان بالفعل أعجوبة، سحبني من يدي، قال لي الأفضل أن تتوقّف عن الصّياح والصّراخ، فالأمر عاديّ ومألوف وإذا كنت أنا لا أرغب في «ملاعبتهنّ» فالأولى أن أترك له أن يختار واحدة!!...

مضى إليهنّ ثانية، وسمعت همسا، وانطلق الثّلاثة إلى الغرفة الملاصقة لغرفتي، وما هي إلاّ لحظات حتّى لمحت «رامي» يقودهنّ إلى الحمّام...

مشهد أشبه بالبانوراما، تتتابع صوره وأحداثه بسرعة عجيبة جدّا!!

ألفيت الفتاة الممتلئة البضّة تعود إلى الصّالة، واعترضتني الأخرى في الممرّ وقد خلعت ملابسها وتجرّدت إلاّ من غلالة حمراء، شفّافة، طويلة، تصل إلى كاحليها وتكشف عن قدمين رائعتين بيضاوين... أحسست بكتفها يلتصق بكتفي وبزنديها الرّيّانين يخترقان مجال رؤيتي فيشعلان نارا ذات أوّار... وددت لو أنّ الأمر تمّ بطريقة عاديّة مألوفة،

وددت لو أنّني لم أغضب، لكن ما حصل حصل!!... البطن الضّامرة، والنّهدان الشّاردان اللّذان توتّرت حلمتاهما حتّى كادتا تخترقان الغلالة، والكفل، الخصر والامتداد، كانت تبتسم وهي تصطدم بي، تتحرّش بي، وكان ذلك أهون عقاب بالنّسبة إليها!!... غيّبها باب غرفة «رامي» الّذي لحق بي في الصّالة، قال:

- ابق مع فتحيّة ريثما أفرغ، ولن ألبث أن أعود. (كان إسم الطّويلة الّتي تميل إلى الامتلاء «نعمة»، والأخرى الممتلئة «فتحيّة»)

جلست على الكنبة مقابلها دون أن أتكلّم، وقد سحبت سيجارة رحت أدخّنها في صمت؛ وشيئا فشيئا بدأت أنسى ما حدث، وأكثر من ذلك اكتشفت كم كنت أخرق أرعن، وحينما استعدت شريط الأحداث في ذهني، منذ دخلت الفتاتان إلى تلك اللّحظة الّتي كنت أجلس فيها مع «فتحيّة» وجها لوجه اقتنعت أنّ ما فعلته لم يكن له مبرّر على الإطلاق، لذلك قرّرت أن أكسر حاجز الصّمت بيننا فقلت بخبث:

- من دلّكما على الشّقّة؟

الخبيثة لم تجب على السّؤال وأرادت أن تستغلّ الفرصة، فبالنّسبة إليها ما يزال كلّ شيء قائما، ولرّبما لن تغادر حتّى «تؤدّي واجبها» وتقبض الثّمن، قالت وهي تضطرب في مكانها وتزيح العباءة قليلا فانكشف عنقها ومنبت نهديها:

- الظّاهر أنّك تزعل بسرعة...

وصمتت وعلى ملامحها بوادر مؤامرة، وبين شفتيها يتدفّق كلام غير كلامها الأوّل... قالت في إغراء:

- تعال جنبي.

قلت وأنا أشفط من السّيجارة، وكنت مازلت أفكّر في الشّقّة، والحقائب، واحتمال مفاجأة ما:

- أفضّل أن أكون حيث أنا!

ولكنّها لم تستسلم: خلعت الشّال عن رأسها فاسترسل شعرها

وتناثر على عنقها وكتفيها، وقالت وهي تحدّ فيّ نظرها بجرأة أقرب إلى الوقاحة:

- تعال... سنتكلّم فقط!!

وقفت، توجّهت نحو الشّرفة وقبل أن أبلغها مدّت يدها وأرادت أن تمسكني، وبينما أنا أستعدّ لتفادي قبضتها فوجئت بأصابعها تنزلق إلى أسفل، إلى ما تحت السّرّة. صددتها فضحكت وقالت:

- ما بك؟ ألست رجلا؟!

أردت إغاظتها فقلت وأنا أفتح باب الشّرفة وأستند إلى الإفريز:

- أحيانا يعنّ لي أن أنسى أنّي رجل!!

***

... بعد «نعمة» و«فتحيّة»، جاءت فتاة مع طفلة صغيرة فتح لها «رامي» الباب وقادها إلى غرفته، وماهي إلاّ برهة حتّى فتح الباب وخرجت الطّفلة إلى الممرّ وحينما اقتربت من باب الصّالة دخلت وهي تحمل لعبة في يدها... كنت ميّالا إلى مداعبتها، وحرّكت يدي في اتّجاهها إلاّ أنّها عادت فخرجت... بقيت وحيدا أنتظر، أتعلّل بمشاهدة التّلفزيون، لم يلبث «رامي» أن عاد، وشاهدت الفتاة تحمل طفلتها وتخرج مسرعة كأنّها ارتكبت ذنبا لا تريد لأحد أن يكون شاهدا عليه.

شممت رائحة غير عاديّة، واستنتجت من الوجه المغلق عدم الرّضى... قال:

- لعنة الله على الحظّ!

ثمّ بعد لأي:

- بعد نعمة تجيء هذه!!

قلت متضاحكا:

- كلّهن سواء؛ والمرأة تظلّ امرأة مثلما أنّ الكلب يظلّ كلبا ولو وضعت حول عنقه طوقا من ذهب!

بدت له المقارنة فجّة، والحديث نثريّا إلى أبعد الحدود، فانتفض في مكانه وقال غاضبا:

- ليس الأمر كما وصفت، ولو رأيت نعمة لزهدت في كلّ شيء، فتاة تعرف كيف «تتجهّز لذلك الشّيء»... إنّ لها «شيئا» رائعا لم أر مثله من قبل، ونهداها كأنّهما رمحان مصوّبان...

وبدأ غضبه يسكن وصوته يغدو أكثر هدوءا:

- لست راضيا اليوم، ولكنّي كنت مضطرّا؛ والأدهى أنّي دفعت أكثر، قالت لي إنّها جاءت من طنطا، وإنّها أرملة، وإنّها اضطرّت إلى هذا العمل من أجل إبنتها...

***

فتح الباب ثمّ أغلق مرّة أخرى، ودخل عمّ «أحمد» والسّتّ «زينب» و«روحيّة»... ظللنا نحن في الصّالة مدركين أنّنا لن نلبث إلاّ قليلا حتّى نراهم أمامنا، وما هي إلاّ هنيهة إلاّ والجميع يتّجهون نحونا في رتل منتظم، «روحيّة» في المقدّمة، ثمّ عمّ «أحمد» تتبعه السّتّ «زينب» كعادتها صامتة ساكنة كأنّ على رأسها الطّير، تبادلنا تحيّة الصّباح، وسألتنا «روحيّة» إن كنّا تناولنا فطورنا فأخبرها «رامي» أنّنا شربنا القهوة وأنّنا نفضّل أن تبقى معدتانا خاويتين استعدادا للمأدبة المرتقبة، أطلقت المرأة العجيبة ضحكتها الرّائقة المتألّقة وقالت معلّقة على ما قاله «رامي»:

- وهي ستكون مأدبة فقط، إن شاء الله ستأكل حتّى تنسى الأكل إلى الأبد!

وأشارت إلى السّتّ «زينب» وراءها فاتّجهت كلاهما إلى المطبخ، واختفى عمّ «أحمد» في الممرّ وسمعنا خطواته في الغرفتين كأنّه يرتّب شيئا ما أو يبحث عن شيء ما، وعندما ظهر أخيرا كان يحمل أطباقا متعدّدة في يديه، وكانت الأطباق مليئة بالخضار، ابتسم وهو يجلس

إلى جانبنا، ثمّ أخذ سكّينا وراح يقشّر في أناة وصبر، ولمّا كنّا ننظر إليه في حيرة لا ندري ماذا نفعل تحديدا، وكلّ منّا يتساءل إن كان من اللاّئق أن نكتفي بالنّظر إليه دون أن نساعده، رنا إلينا وكشفت له ملامحنا مدى الورطة الّتي كنّا نعانيها فقال مخفّفا:

- يمكنكما مساعدتي إذا لم يكن لديكما ما تفعلانه!

بادر «رامي» إلى الاقتراب، وقرّب إليه طبقا من الأطباق وشرع في فرز عيدان البقدونس الرّفيعة، ومن حين لآخر يتأمّل الرّجل الكهل كأنّما يريد أن يرصد حركاته كي يتعلّم منه... ولم أتأخّر أنا أيضا، فاقتربت منهما، وأخذت سكّينا بدوري وجعلت أقشّر حبّات البطاطا الكبيرة وأقطعها...

من المطبخ تناهت إلينا أصوات غناء مختلطة بأصوات متداخلة شتّى، غير أنّ صوت «روحيّة» وهي تغنّي وترفع طبقتها شيئا فشيئا كان أوضح الأصوات وقد ارتفع على ما عداه... كان الصّوت جميلا، مطربا، وفيه بحّة آسرة، جعلتني أتساءل بيني وبين نفسي كيف يمكن لامرأة ربّما تجاوزت الأربعين، وقد بدأت تترهّل وتمتلئ أن يكون لها مثل ذلك الصّوت...!!

هبّت نسمة من الخارج فجعلت السّتائر تحتكّ وتهسّ، وتوالت مويجات الهواء المتدافعة دون انقطاع حتّى غدا الجوّ داخل الصّالة باردا، وتلاشى الدّفء الّذي كان مسيطرا منذ الصّباح... شعرت بقرصة البرد، فتأخّرت قليلا إلى الوراء، مبتعدا عن الشّرفة، وقد عنّ لي من موقفي الجديد أن أتطلّع إلى سماء القاهرة الّتي تصوّرت أنّها كانت، في تلك اللحظات، في متناولي، وأنّه يكفي أن أمدّ راحتي حتّى تنتشر فوقها زرقتها الّتي بدأ يمازجها سواد كثير؛ رأيت السّحب تتجمّع في المدى، تتلاحم وتحجب الشّمس، تتضامّ ويعضد بعضها البعض كأنّها تستعدّ لحرب متلاطمة، كانت كثيفة، ثقيلة تنذر بالمطر والعاصفة، ومن البعيد، في المدى الغير المنظور دمدم الرّعد وظهرت ألسنة من

البرق في جهات عدّة، كانت سريعة، خلاّبة، مباغتة، بعثت في نفسي مشاعر متنافرة من النّشوة الممزوجة بالخوف؛ هذا المنظر المفاجئ، بأبعاده الكونيّة الطّاغية، بعناصر الطبيعة الّتي أرادت أن تثور، على حين غرّة، وتحطّم أفق انتظار طالما ظلّ ثابتا متحدّيا، يمنح الشّتاء ثورة وغضبا ويعطي الصّيف حرارة لافحة تطيقها الأجساد حينا وتضجّ منها أحيانا أخرى فتختار الهروب إلى الأماكن القصيّة، تهجر المنازل إلى الشّواطئ البعيدة، حيث البرودة والبحر الغافي المسافر مع ألف أمنية وأمنية... هذا المنظر لا يتكرّر دائما، وفي مثل هذا الوقت من السّنة، على خلاف كلّ السّنوات الماضية، لم تشهد القاهرة صيفا كهذا الصّيف، والحرارة الّتي كانت تأتي مبكرا فتلفّ كلّ شيء بين أتونها تأخّرت على غير المعتاد، ممّا جعل الحاضرة تبدو وكأنّها في ربيع دائم، والميادين لا تخلو من الرّائحين والغادين في ليل أو نهار، والشّوارع تزهو بواجهات المحلاّت والأكشاك المتناثرة على طول النّواصي والأزقّة تعرض الصّحف والمجلاّت والكتب، والأشياء الأخرى الصّغيرة الّتي كان النّاس يقبلون عليها، في الغالب للشّراء، ولكنّهم في أحايين أخرى يلمّون بها من باب الفرجة والفضول...!!

قمت فأغلقت باب الشّرفة، وأزحت في نفس الوقت السّتائر حتّى نتمكّن من مراقبة المشهد في الخارج، توالى صوت الرّعد مدمدما وبدأت حبّات المطر تنزل، حييّة في البداية، ثمّ ما عتمت أن تكاثفت تلك الحبّات لتصير وابلا هائلا كان يضرب زجاج الباب دون انقطاع... قال عمّ «أحمد» دون أن يرفع رأسه عن الطّبق والخضار:

- صيف هذه السّنة غير عن السّنوات الماضية...

وأخذ حبّة من البطاطا راح يقشّرها في حذق ومهارة، وتطلّع إلى السّماء من خلال الزّجاج، وقال كالحالم:

- صار لي زمان لم أر مطرا بهذه الكثافة، وفي الصّيف!

كان الحديث إلى تلك اللّحظة أحاديّا، من طرف واحد، وكان «رامي»

ينصت كعادته إذا أدرك أنّه من الأفضل له أن يكتفي بالاستماع حتّى لايقطع على نفسه لذّة الحديث... عهدته دائما مستمعا من الدّرجة الأولى، إذا أحسّ أنّ الحديث ذا فائدة حرص أن لا يفوته منه شيء، وقد يضطرّ في الكثير من الأحيان إلى إخراج قلم كان يحتفظ به دائما في جيبه ومفكّرة لتدوين بعض الملاحظات، كان يقول إنّه لا يريد أن ينسى، وإنّه إذا بدأت الذّاكرة الّتي في الرّأس تضعف وتتلاشى لا بدّ أن نستعيض عنها بذاكرة ثانية... الأحداث... التّواريخ... أمثال... أسماء أشخاص: شعراء، مؤرّخين، علماء اجتماع أو علماء نفس، فلاسفة، وغيرهم... أبيات شعر... أزجال!! كلّ ذلك كان يسجّله، وبعناية فائقة، الشّاردة والواردة يكتبها، ثمّ إذا رضي أعاد القلم إلى جيبه، ودسّ المفكّرة في مكان ما...

شيء وقر في نفسي منذ التقينا بعمّ «أحمد»، سيّما إذا تحدّث، لا يتكلّم كما تتكلّم «روحيّة» أو السّتّ «زينب»، وفي لهجته ميل إلى أصول جنوبيّة ضاربة في القدم، قدّرت أنّه من الصّعيد، وبدت لي الفرصة الآن مناسبة كي أساله، سيكون من الأجدى أن نخلق أواصر ثقة بيننا وأن نؤكّد الألفة الّتي فتحت طيبة قلبه وبراءته الطّريق أمامها دون عوائق أو معوّقات!!

سألت:

- أعتقد أنّك لست من القاهرة؛ أليس كذلك، يا عمّ أحمد؟!

توقّفت يده عن الحركة، ورفع رأسه متطلّعا إليّ، وقد علت وجهه كلّه مسحة من التّسامح والتّشجيع، وقال:

- يا بنيّ، إنّها قصّة طويلة جدّا، تعود إلى ثلاثين سنة إلى الوراء...

ولمّا لمست رغبته في الحديث، واستعداده للكلام، مددت له يدي بعلبة السّجائر الّتي سحب منها سيجارة، أشعلت عود ثقاب فأشعلت سيجارته وسيجارتي، وأشرت إلى «رامي» وأنا أقرّب منه العلبة إلاّ أنّه هزّ رأسه دلالة الرّفض... سحب عمّ «أحمد» نفسا عميقا، وغامت

عيناه، ارتدّت ذاكرته إلى مجاهل غدت جزءا من ماض تليد، وقال مواصلا:

- جئت إلى القاهرة وأنا ابن تسعة عشر، تركت سوهاج، كانت والدتي قد توفّيت منذ زمن بعيد، ووالدي الّذي كان متزوّجا لم يقل خيرا أو شرّا، ويبدو أنّ زوجته هي الّتي دفعته إلى الصّمت، قالت له دعه يسافر حتّى نتخلّص منه...

سحب من السّيجارة ثانية... ترك السّكّين تسقط في الطّبق، واتّجه نحونا:

- في تلك الأيّام، كان مجيئي إلى «مصر» مجازفة، وليس لي من أقارب فيها... لا بيت، لا معارف ولا يحزنون!! الشّيء الوحيد الّذي كان يشفع لي شبابي، لذلك لم أجد صعوبة في إيجاد شغل: عملت في مقهى، ثمّ في فرن، وشهدت الحروب، الحروب كلّها، سنة ٥٦ كنت ما أزال شابّا فتيّا، وفي ٦٧ كان قلبي يعتصر ألما... وفي ٧٣ قلنا الله فرجها، لكن يا ولدي، مثل ما يقولون، الحلو ما يكملشي، والنّصر الّذي قلنا عنه نصرا راح أدراج الرّياح، اليهود باعوا واشتروا فينا، وعدنا مثلما كنّا، تيتي تيتي، مثل ما رحت مثل ما جيت، يد إلى وراء والأخرى لقدّام... آه، يا ولدي، ذاك زمان!

قلت:

- لكن كيف انتهى بك المطاف هنا، بعد المقهى والفرن؟

شاهدته يمسك عقب السّيجارة بين إصبعيه السّبّابة والإبهام ويدعكها في المنفضة، وبعد أن أخذ نفسا عميقا واستقام بجذعه على مقعده، قال:

- للضّرورة أحكام، والواحد منّا لا يظلّ شابّا طول حياته... تركت الفرن، وكان الله في عوني فسخّر لي أولاد الحلال، دلّوني على هذه العمارة، وهي لثريّ من لبنان، يجيء في كلّ سنة لتحصيل الإيجار ثمّ يعود إلى بلاده، والآن صار لي أكثر من عشرة أعوام وأنا أشتغل هنا...

ثمّ، كخاتمة للقصّة، وكتعبير عن رضاه بما قسّم له:

- الحمد لله رضى!

كان بإمكان الحديث أن يطول، وأن يتواصل إلى ما لانهاية، والدّنيا من حولنا تلتئم على نفسها، وتلتفّ بطبقة شفيفة من الدّفء، تماما مثل الدّودة الّتي تتشبّث بالشّرنقة كلّما حان موعد إفلاتها منها... كان المطر ما يزال ينزل وابلا، وزخّاته القويّة تضرب زجاج باب الشّرفة دونما هوادة، وكنّا إذا انقطع بيننا فيض الكلمات اشرأبّت أعناقنا إلى الخلف، وتطلّعت أعيننا خلال السّتائر إلى المدى في الخارج، على ارتفاع أربعة طوابق عن الأرض، هناك أصوات تصل إلينا وانية، ضعيفة، رتيبة، هي الأصوات المعتادة على تخوم الشّوارع، وفي نهاية النّواصي، ومن الحارات البعيدة، أصوات زبائن المقاهي، الّذين يأتون في أوقات بعينها، فيهرع إليهم النّدل بالأراكيل، وفناجين القهوة السّادة والشّاي، وأصوات نساء متلفّعات بالسّواد يصحبهنّ بناتهنّ الصّبايا وهنّ يطفن بالدّكاكين ويقلّبن البضائع بأناة وعناية كبيرتين، وأصوات حادّة تنادي من أبواب «الميكروباصات» المفتوحة على أماكن بعينها: العتبة. الموسكي. محمّد علي. السّيّدة زينب...

حمل عمّ «أحمد» أطباقه، وانطلق إلى المطبخ، فساد لبعض الوقت جوّ أليف من الفوضى، وتناهت إلينا ضحكات «روحيّة» مشفوعة بأوامرها إلى السّتّ «زينب»... أشعلت السّيجارة السّادسة أو السّابعة ورحت أدخّن، وفي فترات السّكون، عندما تهدأ الحركة، وأنفث الدّخان، أشرد، عيناي تحملقان في أشياء الصّالة بغباء، ونظراتي عليها غشاوة تراكمت طبقاتها من سنوات كثيرة أصبحت في عداد الماضي: إلى متى سأظلّ أعيش دون هدف؟! إلى متى الفراغ الّذي أتلف كلّ شيء بداخلي، وقيّدني بنتائج تجارب ما أزال واقعا تحت وطأتها إلى الآن؟!!... السّيّدة «ث»، والقصّة القديمة، وزمن الرّوائح المزهرة العطرة، بين الزّوايا المتباعدة، والأماكن الّتي لا تمتّ بصلة إلى

الواقع الملوّث، ونفحات الشّعر القادم من أغوار الذّاكرة العصيّة، تبشّر بالكنّ والألفة، وتزرع الطّريق إلى السّعادة بزربيّة قشيبة من الورود، بمختلف الألوان... ياه!! الويل لي من الذّكريات الّتي لا تنسى، من الماضي الّذي ما تزال رائحته في أنفي، تبعث في القلب المتيّم عشرات الأحلام الّتي لا تصدق حتّى في المنام!! ويأتي الصّوت، صوتها، وهي تقرأ؛ لم تكن تقصدني وحدي بتلك القراءة، أبيات الشّعر الّتي تنساب على شفتيها الرّقيقتين الحزينتين، وعيناها المتعبتان دائما، تنسكبان على النّضد، وأمواج البحر في الخارج، والرّمال الذّهبيّة على امتداد الشّاطئ اللاّمتناهي... وهي، كما هي، منذ عرفتها، حتّى عندما كنّا في ذلك الحيّ، على مشارف تلك المدينة الجنوبيّة؛ آنئذ، كنت أراها بعيدة، بعيدة إلى درجة الاستحالة، رغم القرب، التّداني في المكان، رغم الآلام المشتركة، والقرابة الّتي تجمعنا؛ وفي المعهد. حيث درسنا، وكنت أسبقها بسنة. كانت تذكّرني بكلّ التّراث القديم، تذكّرني بالعصور الّتي بادت، والتّماثيل الرّائعة في أبهاء الأولمب الزّيوسيّ، والعقود الكورنثيّة، والشّعر والشّعراء، وقصائد «بندار»، وخطباء الإغريق المفوّهين... اقترنت في ذهني بالإلهة «فينوس»، بفتنة، ربّما لم تكن موجودة إلاّ في ذهني، ومع ذلك كنت مكتفيا بذلك الإحساس، سعادتي حين أكون بجانبها، أتشرّب صوتها، وأحاول أن أختزن رنّة الحزن، أتزوّد بها في ليالي الصّمت الطّويلة، وأنا أناجيها، بمفردها، أطرح عليها كلّ الأسئة الّتي كنت أخاف أن أسألها إيّاها أمام أصدقائنا المشتركين؛ «هل تحبّينني كما أحبّك؟!»، «هل تبادلينني نفس المشاعر، نفس العذاب والرّهبة وأنا أتملاّك كما يتملّى النّاسك حقيقة يراها بأمّ عينيه بعد رحلة الإدراك والخلاص؟!»، «هل بإمكانك أن تضعي يديك، هاتين اللّتين كلّما فكّرت أنّهما على وشك أن تلمساني اجتاحتني قشعريرة الحمّى وأشفيت على الإغماء، على يديّ؟!»، المعذرة! المعذرة! لا أستطيع أن أتخيّل أنّ أيّة يدين، ولو كانتا يديّ، تجرآن على التّطفل على بشرتك

الرّقيقة الهفهافة دون أن تصابا باللّعنة الأبديّة: ليحلّ عليهما الوبال، وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم، إن كان يقصد النّيل منك، أو مضايقتك! ولتظلّي كما أنت، في البال، حلما عصيّ المنال، بنفس الملامح والقسمات، ونفس الصّورة الّتي انطبعت بداخلي، ونحن في القطار، في الطّريق إلى المدينة من جديد، بعد حرب أخرى خاسرة... كنت أرقبك، وكنت خائفا حدّ الانسحاق وأنا أتصيّدك بعينيّ، وأنت وحيدة في المقعد: أظنّ أنّك كنت مشغولة بشيء ما، ربّما كنت تقرئين، أو تكتبين، واستغلّيت أخيرا الفرصة، انتصرت، وبأعجوبة هزمت الضّعف والوهن اللّذين كنت أستشعرهما ثقيلين، جاثمين على صدري كالكابوس، وجئت فجلست بقربك، دون أن تكون لديّ الشّجاعة الكافية. دون أن أخاطر بالنّظر إليك، وأنت النّار، أنت الثّلج والبرد معا، يخضّان دمي خضّا، ويشرفان بي على الحدود والمتاهات، والصّحارى، والمهامه؛ وأنت [»جباليا»: مكنونة الرّوح، من بريق اللّمعات المرجانيّة تطرّز قفّاز الشّوك، وتحملها الأجنحة إلى الأبهاء ذات الصّلصلة- أنت «مينرفا» الشّوق، تكريس النّبع لترنيمة عشق أولى، الرّماد العاثر مأثرة لسبل الصّمت، مدى آخر، أطياف متعالقة من زمن الشّرود... أنامل الشّوك تنغل بين اللّحم والعظم، وأزمنة السّفر اللاّزورديّة الأنين، سلسبيل هو الحزن الجاثم في صمت الآلهة على الآرائك والحشايا، الأمواج محصّلة خوف أثيل آت من خلف سراب غير البحر... أنت مياه البحر الحريريّة الملمس تحملها خمائل السّوسن على أجنحة السّنونو الصّغيرة المسافرة إلى أزمنة اللاّحد، وأزاهر «التّوليب» من طينة الأرض النّفحة، تغريد تصوغه الأيادي الإلهيّة بأصابع العازفة على أوتار»الهارب» في أبهاء الأولمب الزّيوسيّ، من المرامي، خلف الأبعاد، بين اغتيال المسافات، على وجع النّبع المسافر، تتميّع الأشياء، وتنطفئ الأسماء، اللّغز الشّارد، أحاجي الزّمن الغابر ذات الرّائحة المزكمة، والنّفس الجنائزيّ، والمراتيج السّبعة من

بين شغاف القلب تزرع مأتم الميّتين الرّاحلين إلى منابع الزّهو الخفيّ... موت يقلع بأظافره الرّحيمة سويداء الفكرة الملول، فتنبعث العنقاء من أغشيتها الميّتة منذ انقراض الإنسان الأوّل، ومبعث الأرواح في عالم البرزخ...]

التّلجلج، الغصّة في الحلق، ولو وهبني أحدهم في تلك اللّحظة حرفا، لو أمسك بيدي وقادني إلى شطآن أمان، وأعطاني بداية الكلام لمنحته نصف عمري، لتنازلت له عمّا يريد... هبط الصّمت كالبركان، متخثّرا قاسيا غير محتمل، ران بكلكله، تضخّم حتّى أوشك أن يكون مرئيّا بأياد عديدة ومخالب دمويّة حادّة؛ قلت، ولا أعرف كيف خرجت الكلمات من بين شفتيّ:

- أحبّك!!

كلمة لها فعل القنبلة، وآخر ما ينتظره الإنسان، في مكان كذلك المكان، وزمان كذلك الزّمان، زمن الحرج والاندحار، والعالم يغلي غليانا ويقذف من جوفه حمما ولهيبا، أن تسمع عبارة مهرّبة من قصائد العصر الرّومانسيّ... هزّت رأسها بحركة لاإراديّة، فهالني الفراغ في عينيها والعتمة السّوداء الّتي لفّت كلّ ملامحها؛ أيّ انغلاق!؛ والجمال، أو ما كنت دائما أعتبره جمالا ملغزا، أين اختفى فجأة؟!

قالت، ولم أجد تفسيرا لما قالته إلاّ أنّها كانت ترغب في إقصائي، ولكن دون أن تجرحني:

- وإلى ما يمكن أن يؤدّي هذا الحبّ؟

اندفعت، ولم يكن أمامي إلاّ ذلك السّبيل، للدّفاع حتّى آخر رمق عن حلمي المهدّد في أيّة لحظة أن يصبح كابوسا:

- أنا مستعدّ للزّواج منك، وفي أيّ وقت تشائين!

الابتسامة الصّفراء على شفتيها، والغشاوة على العينين، ومساحة الصّمت الّتي تعمّدت أن تتركها تطول قبل أن تتكلّم أو تعلّق، قطعت آخر الخيوط الواهية الّتي كانت تربطني بها؛ سمعتها تقول دون

أن أعي كلماتها كلّها:

- ليس الأمر بالسّهولة الّتي تراها... أنا لا يمكن أن أتخلّى عن عائلتي، وبعد التّخرج سأشتغل لأسدّد بعضا من ديني لوالدي ووالدتي اللّذين ضحّيا من أجلي...

قاطعتها، في آخر محاولة لإقناعها:

- هذا لا يمنع أن...

ولم تتركني أكمل الجملة إلى النّهاية فقاطعتني بدورها:

- لا وقت لديّ للحبّ!!

وبقينا أصدقاء على الرّغم ممّا حدث، ولعلّي في قرارة نفسي كنت سعيدا أنّنا لم نرتبط. علّلت نفسي بالحرّيّة الّتي لم تهدر، والخلوّ من أيّة مسؤوليّة من شأنها أن تكبّلني وتشدّني إلى أوتاد الزّوجة والأبناء والجري في اللّيل والنّهارحتّى أتمكّن من سدّ الأفواه المفتوحة!!... آه، لكم تعاميت!! لكم تجاهلت أنّها فيما بعد ربّما كانت مستعدّة لفتح الباب مرّة أخرى، وأنّها كانت تنتظر منّي أن أعيد على مسامعها ما قلته من قبل، وأن نبدأ كما يبدأ النّاس عادة؛ ولكن أيّ شيطان كان يتلبّسني، وأيّ إحساس باللاّمبالاة كان يستبدّ بي كلّما رأيتها!! هل كرهتها، لمجرّد أنّها لم تقبلني في يوم ما كشريك محتمل لحياتها؟ هل زهدت فيها، أو ربّما تمنّيت أن تخوض تجربة فتفشل لأتشفّى فيها على طريقتي؟!! كلاّ، على العكس، لقد وجدت أنّه إلى جانب الحبّ، كان شيء آخر ينمو في نفسي تجاهها، مزيج من الاحترام والتّقدير، وشعور ما فتئ يتزايد بتمنّيات التّوفيق لها، مع رجل غيري!!... أنا الّذي ضيّعتها، أسلمتها لمصير مجهول فاختارت، انتظرت، ثمّ قرّرت أن ترتبط، وسمعت، ليس منها، ولكن عرضا، في لقاءاتنا المتوالية في المقهى، أنّها ستتزوّج قريبا... وخز، ألم حادّ مثل شكّة الإبرة أحسست به ينغل في القلب، ثمّ يصعد إلى الدّماغ، شعرت أنّي على وشك الانفجار، وكرهت أن أضعف،

فهربت إلى المجاهل، كانت الدّموع تنزل دون وعي منّي، والحزن يلفّني إلى أخمص قدميّ... حينئذ، اقتنعت أنّي خسرتها، أنّها ضاعت منّي إلى الأبد!! ولكن، هل سلوتها حقّا؟!

(صديقتي العزيزة الرّائعة:

كنت مخطئا جدّا حين اعتقدت أنّي تخلّصت منك

/ مرّة

وإلى الأبد!!!!!؟؟؟؟!!!!!)

... حلّقت بعيدا، وراء خيالاتي؛ وتساءلت عشرات المرّات، بين أتون التّيه والخراب، عن جدوى التّشبّث بأحلام أجهضت وأخرى في طريقها إلى الإجهاض: الآنسة «ث» صارت سيّدة، ومع الأيّام أخذت بطنها تتضخّم، والصّوت الّذي طالما أسرني انكتم إلى الأبد، فماذا تبقّى لأتعزّى به؟ أم هي مجرّد أوهام بدل أن تطامن المشاعر توتّرها من جديد، تشحذها بشفرتها الحادّة القاطعة: أحيانا، في صمت غرفتي، وحيدا، بعيدا عن العالم الرّحيب، يلذّ لي عذابي إلى أقصى الحدود، أستدعي الألم إلى الذّاكرة، وأتحوّل إلى كائن مازوكيّ!!... أتعامى، أتصامم عن الأصوات الآتية من أقطار الكون السّتّة، وهي تنذرني بالفجيعة والإفلاس القادم، وأنا لا أصدّق أنّها تزوّجت، وأنّها ستنجب طفلا، وبمرور السّنوات ستصير امرأة عاديّة، متعبة، مترهّلة، همّها ما ينذر به المستقبل المظلم المعتم، لا ما يعود إلى الوراء، ليلهب الذّاكرة المتأجّجة، ويبعث من رماد السّنين قصائد الشّوق وتمائم القربى. أعرف أنّي أتتبّع سرابا، أنّي أتعهّد مسخا أخذ في التّشوّه منذ وقت ليس بالقصير، لكن ما حيلتي؟ وأين المخرج من المأزق الّذي وقعت فيه؟!! لا أمل البتّة! لا مخرج، ولا حتّى بصيص من الضّوء يبشّر باحتمال وجود مخرج في أيّ مكان!!

أفقت، كما لو كنت مثقلا بساعات طويلة جدّا قضّيتها في النّوم، وحتّى أتخلّص من الإحراج، ومن عيون الأشخاص الّذين ازدادوا بينما كنت محلّقا على بساط شرودي وضياعي، لويت وجهي باتّجاه الشّرفة، وتطلّعت إلى السّماء الّتي بدأت تنقشع عنها السّحب شيئا فشيئا، وقد خلّف ذلك جوّا من الانتعاش والبهجة أضافت إليه أشعّة الشّمس المتلكّئة حيويّة فتّانة... في الصّالة، كان يجلس «طارق» و «هيكل»- الشّخصان اللّذان عرّفتنا عليهما «روحيّة»، وهما من نفس بلدنا، وكانا يتحدّثان إلى «رامي»، فأقحمت نفسي، وتعمّدت أن أندسّ بينهم، رغم أنّي لم أكن أعرف فيما كانوا يخوضون، وذلك حتّى أحرّر نفسي من بعض ما أعاني منه من الإفراط في لعبة التّباعد والتّداني، في وقت كنت فيه أحوج ما أكون إلى حضور البديهة والتّركيز، إذ ليس من اللاّئق، والنّاس يحتفلون من حولك ويضحكون ويشربون ويطربون، أن تكون «عذولا» بينهم، أو تصبح النّغمة النّشاز في لحنهم الرّائع الطّروب...

في تمام السّاعة الواحدة والنّصف بعد الظّهر، كان كلّ شيء معدّا جاهزا، وقبل ذلك بنصف ساعة أرسل المطعم زجاجة الويسكي والبيرة، والتأم الشّمل، مكتمل النّصاب؛ على إلفته، إلاّ أنّه يبعث في النّفس مهابة ووجلا، لكلّ تلك الوجوه الّتي تبدو غريبة إلى حدّ ما، وهي لم تتعارف إلاّ خلال أيّام قصيرة... أخذت «روحيّة» مكانها على رأس الطّاولة، وهي تعلن بفخامة أنّها ستكون هي سيّدة الشّرف، وكانت تقصد من ذلك تخليصنا من الحرج، وعلى اعتبار أنّها هي القاسم المشترك المحتمل بيننا جميعا؛ كانت هي الّتي تحرّك كلّ الخيوط، وتمسك بكلّ شيء بين يديها، كما كانت هي الّتي وزّعت الأماكن، بطريقة أكّدت بها أنّها صاحبة باع لا يضاهى في مثل هذه المناسبات!! جلس «رامي» إلى يمينها، وأخذت أنا مكاني على اليسار، و«طارق» و«هيكل»، جاءا بعدنا، وإلى جانبهما جلس عمّ «أحمد» والسّتّ «زينب»...

قالت «روحيّة» وهي تأخذ طبقا مليئا بالسّلطة وضعت منه في صحنها ثمّ مرّرته إلى «رامي»:

.والله، يا جماعة، ليس لهذا اليوم مثيل في الأيّام... كأنّنا في زمن السّلاطين!!

فضحك «رامي»، وقال يريد مجاراتها:

- وماذا ينقصنا عن السّلاطين؟!

كان الجميع يأكلون، وبين الطّبق والطّبق، كان ينتظم الحديث متّصلا حارّا، يخرج من أفواه مليئة بالطّعام، وهي تثني وتمتدح المرأتين على الجهد الّذي بذلتاه في إعداد المأدبة الكبيرة الّتي كانت تزخر بشتّى أنواع الأكل... ملوخيّة بالأرانب، بطاطا محمّرة، والسّلاطات بأنواعها، وفراخ، وما لذّ وطاب من فواكه في موسمها وأخرى في غير موسمها!! ومرّ الوقت سريعا، والدّفء يكتنف المدخل، والظّلمة تغزو المكان رويدا رويدا منذرة بقدوم المساء مبكرا... كان المطر قد عاد إلى الهطول، وعلى فترات متباعدة كان يأتينا صوت الرّعد مزمجرا مهيبا.

استأذن عمّ «أحمد» وتبعته السّتّ «زينب» وبقينا نحن، ولم نلبث أن انسحبنا إلى الصّالة، ومضت «روحيّة» إلى المطبخ لإعداد القهوة... تطوّع «رامي» فأحضر طبقا كبيرا عليه كؤوس صغيرة، وصحون مستديرة بها لوز وفستق وجوز وفشار، وفتح الكيس، وأخرج زجاجات البيرة أوّلا. فوضع أمام كلّ واحد منّا واحدة، ووزّع الأطباق بشكل ملائم فوق نضد صغير... امتدّت يدي إلى أحد الأطباق، في حين شرع البقيّة في فتح زجاجاتهم، ثمّ صبّوا في كؤوسهم، ورفعوها فسمع صوت طقطقتها، وبينما هم على وشك أن يشربوا دخلت «روحيّة» فجلجلوا بالضّحك وأهدوا أولى الأنخاب إليها... كانت تحمل صينيّة بين يديها فوضعتها على النّضد وأخذت مكانها إلى جانب «رامي»، الّذي قرّب إليها زجاجة من الزّجاجات المتبقّية، إلاّ أنّها اعتذرت قائلة إنّها ستكتفي بشرب فنجان من القهوة... كنت أراقب المشهد بتمعّن، وفي

كلّ مرّة كانت تلوب فيها عيناي أكتشف أنّنا ما نزال في حاجة إلى شيء ما، أنّ هناك شيئا ناقصا كي تكتمل الصّورة الّتي قرّرنا أن ننهيها بغير ألوانها المعتادة... انسحبت إلى غرفتي فجئت بجهاز التّسجيل، وجميع الأشرطة الّتي جلبتها معي، ووضعتها في زاوية من الصّالة... أخرجت «رباعيّات الخيّام» من مغلّفها ودسستها في الجهاز، وما هي إلاّ ثوان حتّى انطلقت بدايات الموسيقى... عدت إلى مكاني الأوّل، وامتدّت يدي إلى زجاجة البيرة ففتحتها، لم أكن في حاجة إلى الكأس، كما لم أكن مضطرّا إلى شرب نخب أيّ من النّاس، وإنّما نخب «سيّدتي» الّتي كانت آنسة في يوم ما... كنت تقريبا قد انتهيت من الزّجاجة الأولى، في حين كان «رامي» يروي إحدى نكاته البذيئة، وقد شدّ إليه انتباه البقيّة... فتحت الزّجاجة الثّانية، وصببت هذه المرّة في الكأس وأخذت جرعة كبيرة، ولا أدري لماذا استبدّ بي خاطر مشاكس في أن أقول شيئا، فأشرت إلى «رامي» بالصّمت، وقلت:

.أعطني بيتا...

وكأنّما كان الكلام على شفتيها، وكانت تنتظر فقط أن أقول ما قلت حتّى تتدخّل، حيث اشرأبّت بعنقها إليّ قائلة في زهو ومرح:

- ابسط، أنت عندك أكثر من البيت، ما شاء الله شقّة يرمح فيها الخيّال!!

لم أتفطّن أنّي وقعت في خطأ فادح إلاّ حين تكلّمت «روحيّة»، فاعتذرت، وكانت الأغنية على وشك أن ينتهي جزؤها الأوّل، وذهبت إلى غرفتي فأغلقتها، واتّجهت نحو السّرير فاندسست بين اللّحاف، ورحت في نوم عميق لم أصح منه إلاّ في حدود الثّانية صباحا تقريبا... أحسست بعطش وبجفاف في حلقي، وبمثانتي توشك على الانفجار... عندما دلفت إلى الممرّ كان النّور مضاء، ولمّا خطوت بضع خطوات تفاجأت لأنّ باب غرفة «رامي» كان مفتوحا، فامتدّ بصري إلى الدّاخل

دون إرادة منّي، وكم كانت دهشتي كبيرة حين لمحت «روحيّة» على فراشه، وقد انحسر عنها اللّحاف فكشف عن ساقيها وبداية فخذيها... شعرت بتأنيب الضّمير، وبالنّدم يتآكلني، ففررت، لم يكن ذلك التّطفل من حقّي، ولا ذلك التّطلّع الفاجرإلى ما ليس لي؛ وحينما بلغت الحمّام كان الباب مغلقا فعدت القهقرى إلى المطبخ، وفتحت البرّاد فأخرجت زجاجة مياه معدنيّة أقحمتها بين شفتيّ ورحت أكرع منها كما لو كنت ظمآن لم يعرف الماء في حياته قطّ.

في الصّباح، حكى لي «رامي» كلّ شيء، وختم بقوله، في نغمة حزينة تكتنفها شجنة:

- صدّقني لقد عرضت عليها المال دون أن تضطرّ إلى ذلك الشّيء الّذي فعلته معي... قالت لي إنّها لا تريد أن تأخذ شيئا دون أن تدفع مقابلا له، فحاولت أن أعتذر، قلت لها ابحثي عن غيري، فقالت لي لا بدّ لنا ممّا ليس لنا فيه حيلة، لأنّني أحببتك منذ اليوم الأوّل الّذي رأيتك فيه!!

.٧٠

[إنّ الكلام على الكلام صعب . التّوحيديّ]

** الثّامن من تشرين الثّاني ٢٠٠٢

هل كان في نيّتي منذ البدء أن أكتب سيرتي، أو شيئا شبيها بالسّيرة؟! وهل ما كتبته إلى حدّ الآن يمتّ إليّ بوشائج قربى، وهو من الصّدق والجرأة بحيث يشير إليّ، يومئ إلى الشّخص الّذي ولد يتيما،

وما يزال إلى الآن أعزب، حرونا، معرضا عن الزّواج، مضربا عن أيّ كلام أو نقاش فيه؟! هذا الشّخص الّذي ولد في الرّابع والعشرين من آذار سنة ثمان وستّين وتسعمائة وألف في مدينة صغيرة كانت في يوم ما قرية من القرى المغمورة في جنوب بلد صغير هو بدوره على إحدى ضفاف المتوسّط... هل كان الّذين يكتبون سيرهم، أو على الأقلّ الّذين يعترفون أنّهم كتبوا أو سيكتبون سيرهم، يفعلون ذلك حقّا؟! أم أنّهم يموّهون، رغم صدق نواياهم في أحيان كثيرة، واستعدادهم أن يسجّلوا كلّ كبيرة وصغيرة في تاريخ حياتهم الطّويل، ولكن ما أن تلامس أقلامهم صفحاتهم البيضاء، ويتوتّر الخيال حتّى يغدوا أشخاصا آخرين، بدل أن يكتبوا ما عاشوه بالفعل يجدون أنفسهم يكتبون ما يحلمون به، أو ما كانوا يتمنّون حدوثه في غفلة من الزّمان؟!... ربّما لو جوبهوا بكلّ تلك الأسئلة لقالوا، وما يضيرنا لو تداخل الموجود بالمنشود، وغدا الحلم والواقع وجهين لعملة واحدة؛ أو لقالوا إنّ الكتابة كانت دوما مخرجا من مآزق محرجة في حياة كلّ فرد منّا، فنحن نكتب كي ننسى، ونقول على الأوراق ما لا يمكن أحيانا أن نقوله بأفواهنا، ونكتب أخيرا كيما نقيم بأقلامنا جنّة على الأوراق، أو... إنّما نكمل النّقص الّذي فينا بالكتابة، وما دمنا كائنات من لحم ودم مجبولة على كلّ ما هو سلبيّ، فإنّنا نرفع الإنسان بالكلمات إلى مصافّ الأبطال أو أنصاف الآلهة الّذين كانوا في يوم ما ملح الميثولوجيا القديمة وسادة التّاريخ غير المكتوب!!

.أنا الرّاوي!!

الحقيقة الوحيدة القابلة للتّصديق في خضمّ الأحداث المتسارعة، والحركة الجهنّمية الّتي تجرّ وراءها كمّا هائلا من الأشخاص، والأسماء والأشياء، والاحتمالات والتوقّعات، والمستحيل والممكن... إنّها الحقيقة القادرة على جعلي أتكلّم وأعترف، دون

خجل، رغم التّحفّظ الأخلاقيّ الّذي آخذه على نفسي، أنّي لست كما كنت أزعم. كائنا يتعدّد في شخوصه ويأخذ من كلّ صفاتهم ويتوارب داخلهم حتّى يستطيع أن يقول ما يريده بكلّ حرّيّة، ودون قيود. وإنّما أنا، باختصار شديد، الشّخص نفسه الّذي قرّر في لحظة ضعف أن يقيم مشروعا، ابتدأ فكرة ثمّ تحوّلت الفكرة إلى سلسلة من الأحداث والأفكار والأخيلة والأحلام والهواجس... ولمّا تشابكت كلّ الخيوط، وتلاحمت كلّ هذه العناصر مع بعضها البعض صارت أقرب إلى نسيج روائيّ، لا تعوزه إلاّ الأوراق والأقلام، والوقت، والقدرة على لمّ الشّتات المتناثر وتقريب المتباعد في شبكة من الرّموز والدّلالات... بعد تفكير، وأخذ وردّ، استهواني «رحيل في بدايات الألفيّة»، كعنوان، وبعد أيّام من التّمحيص والاستغراق والتّأمّل بدا لي أن أقسّم الرّواية إلى أقسام، ووجدتني مدفوعا بقوّة لا تقهر أن أجمع أشياء كنت كتبتها من قبل بأخرى جديدة... ولم يكن ذلك اعتباطا، بل لقد عثرت بعد المقارنة والبحث على عناصر مشتركة، راعني عنصر السّفر الّذي يحكم كلّ الأجزاء الّتي كتبتها، هالني الهروب الدّائم والرّحيل اللاّمتناهي في أصل زمن هلاميّ، بدايات ونهايات، وأفول قرن وبوادر ألفيّة جديدة، وإحباطات ما فتئت تتراكم مع السّنين، جارفة وراءها حتّى الأحاسيس وما به يكون الإنسان إنسانا، وضربات قاصمة تهوي على الجسد المنهوك، فتحدث به كدمات ورضوضا ليس من السّهل شفاؤها، لأن ليس هناك من يهتمّ بها، حتّى الّذين طالتهم تلك الضّربات وحرمتهم حلم الوقوف من جديد، والعيش كأيّ كائن له هدف، أصبحوا غير مبالين، سقطوا الواحد تلو الآخر، وانشدّت رؤوسهم إلى الأرض، ولكثرة ما ألفوا لون التّراب الّذي مرّغوا فيه أنوفهم فقدوا إحساسهم بلون السّماء فوقهم... «أواخر القرن». إيغال في أعماق الشّخوص، كائنات اصطدمت بها فجأة، على غير انتظار، وكنت مجرّد «مسافرزاده الخيال»، يبحث عن محطّة أخيرة يتوقّف عندها، فيستريح قليلا ثمّ

يواصل السّفر، إلى أيّ مكان، مهتديا بشيء أكبر من الخريطة، وأوثق من البوصلة. شعور باطنيّ، لا يخطئ أبدا، ينبع في الدّاخل، محتميا برطوبة التّراب وخصوبته، وما يلبث إلاّ يسيرا حتّى يشقّ له طريقا عبر الظّلمة، ويورق فيأخذ الأبصار بجماله الأخّاذ وفتنته الّتي تجلّ عن الوصف!!

لا أدّعي أنّي أوجّه الأشياء والأحداث وفق إرادتي، كما أنّه ليس لديّ ما يكفي من الجسارة كي أقول إنّ كلّ ما تحدّثت عنه، وما أنا بصدد الحديث عنه الآن، قد مرّ عليه وقت طويل، وإنّه ما دام كذلك فقد أضحيت قادرا على تدوينه وتسجيله في تفاصيله وجزئيّاته الدّقيقة باعتباره ملكا لي، ولكونه قد غدا جزءا لصيقا من ذاكرتي...!! ما تزال الصّورة رجراجة أمام عينيّ، وما تزال المشاهد غير مكتملة، كما أنّ الشّخوص أنفسهم، الذّوات المتحرّكة، أحسّ في أغلب الأحيان أنّها تسعى إلى الإفلات من بين يديّ، وأنّها ترغب في التّمرد؛ تحسّ. وهذا ما انتهيت إلى الاقتناع به أخيرا. أنّها أكبر آلاف المرّات من مدار الرّؤية الّذي شددت نفسي إليه وتقوقعت فيه؛ طاقتها على الزّوغان لا تحدّ، وحلمها في الانعتاق أشعر به يزداد يوما بعد يوم، من خلال السّطور الّتي أكتبها، وفي طوايا الحروف، وعلى امتداد الفقرات الكثيرة؛ شخوص لا تراني سيّدها وصاحب مصيرها بقدر ما ترنو إليّ في ازدراء، وقد تملّكها القرف والغثيان، فما أنا بالنّسبة إليها إلاّ شخصيّة أخرى لا يميّزني عنها شيء باستثناء غفلتي المفرطة وعدم قدرتي على التّأقلم معها... أبحث عن المعنى، وأنشغل بالمغزى وراء الأقوال والأفعال، يداعبني أمل العثور على ما أنا في إثره من المنطق الّذي يتحدّد به كلّ شيء، ولكن عبثا، لا التّاويل ولا التّفسير، ولا حتّى التّخفّي المستحيل في ثنايا الظّلمة الضّاربة، وتأثّر الخطوات المحاذرة وهي تتفادى الاصطدام بي، في طريقها إلى الممرّات السّريّة، والدّهاليز المخيفة، بإمكانها أن تنجيني

من السّقوط المكتوب عليّ منذ البدء!! فهل لذلك علاقة بالضّعف الّذي جبلت عليه؟ بتساهلي إزاء صنائعي الّتي تشكّلت على يديّ، فلمّا استقامت بشرا سويّا كان أوّل ما عضّت اليدين اللّتين امتدّتا إليها؟ هل لذلك علاقة بتنازلي، ونزولي من القمّة إلى الأرض، إلى الثّرى الّذي تعفّرت فيه حتّى عافتني الحياة والنّاس، وعفت نفسي، وزكمت أنفي روائح أشبه بتلك الرّوائح الّتي تصدر عن الجيف المرميّة في عرض الطّريق؟!

قدماي تخيسان كلّما تقدّمت إلى الأمام، والقلم يرتدّ عن الورق، وذبالة النّور تصارع الدّيجور فيصرعها... وأتقدّم نحو السّرير، وما أن أبلغه حتّى ينازعني الحنين إلى الكتابة، تجتذبني الأوراق والقلم، ويهرب النّوم، وتنبعث في جسدي حياة لا أدري كيف لمثلها أن تتوارى داخل جسد مهدود قد ألفه المرض وسكنته العلاّت؛ أم أنّ الكتابة لا علاقة لها بالمرض والعلل، وإنّما مصدرها سرّ غير مرئيّ في الدّماغ؟!... النّكوص والارتداد، والجسارة والإقدام، صار ذلك كلّه ديدنا، وتأصّل عادة أخرى من العادات الّتي لا حصر لها، انضافت إلى الشّرود والهيمان، وشعور مرضيّ بعدم القدرة على التّآلف مع الحياة، عدم القدرة على رؤية الأشياء كما هي، في واقعيّتها، في أسمائها المختلفة، ورتابتها، وسكونها؛ الكائن القديم، والسّنوات المتباعدة المتقادمة، والأخرى المتسارعة دون رحمة، وفي جريها لا توفّر شيئا وتسحب كلّ شيء يعترض سبيلها، أشكّ أنّي كنت ذلك الكائن أو عشت تلك السّنين؛ ولكنّ الشّكّ نفسه لا يمكن أن يرحمني، وأن يرشدني إلى الحقيقة، لا يمكن أن يتحقّق الوجود الّذي ضيّعته بمجرّد أنّي أشكّ، أو أنّي أحاول أن أقف ضدّ العالم كلّه...!! الكلّ يضحك منّي، يشير إليّ، ولو كانت لديّ مرآة في تلك اللّحظات من الخطر الحرج لتطلّعت إلى منظري فيها، فلربّما كنت منكوش الشّعر، أو حافي القدمين، أو زائغ البصر أتطلّع إلى

مسخ مشوّه لا يجدي شيئا؛ لربّما كنت أجري ووجهي إلى الخلف يرصد السّديم القادم من أبواب الجحيم، ولا أحد غيرك يهتمّ بالجحيم، والنّهاية الّتي لا محيد عنها، ولا حتّى «بدر»، أو «عبد المنعم»، أو الشّيخ «محمّد السّويسي»، أو السّتّ «توحيدة»، أو... أو...؛ الّذين أحببتهم، على الرّغم من كلّ الألم والتّهافت، على الرّغم من الخيال، وشطح الفكر، وحتّى لو كانوا أشخاصا وهميّين، من صنع أوهامك، إلاّ أنّك بمجرّد أن بعثتهم إلى الحياة صارت لهم معزّة خاصّة في قلبك.

أين الحقيقة؟ واللّهاث وراء ذرّات الواقع الغير المرئيّة، والتّعثر إلى النّهاية دون التّسليم بوجود ما يمكن تسميّته بالسّقوط الأخير، هل من شأنهما أن يجلّيا أوّل الخيوط إلى النّور المتعالي؟ هل يستطيعان أن يمحوا كلّ ما هو رجراج ومموّه، ومن عدم يستنبتان كلّ ما هو ثابت، وغير وهميّ؟! إنّي أتساءل عن حدود الثّبات فيما أكتبه: أتساءل عن حدود الوهم، ومقدار هذا الوهم من الحقيقة، أو مقدار الحقيقة من الوهم المزروع بداخلي!!...

أقول لنفسي مرارا:

. هل من إمكانيّة للمواءمة بين التّناقض؟! هل من سبيل إلى تجميع الشّتات، ورأب الصّدع، لتحقيق ولو جزء يسير من الهناءة الموعودة، والعيش في سلام مع الذّات دون الإحساس المتواصل بالذّنب والخداع؟!... وأستسلم لقناعة ما، تستبدّ بي فكرة النّضال فتنزرع بداخلي نشوات القرون الماضية، وتنهار كلّ الفواصل الّتي اعتقدتها عصيّة على الامّحاء، لأنّها كانت تراعي دائما أسّ المنطق الّذي لا يفلت منه شيء، ولو كان ذلك خيالا جامحا يرفض أن ينضبط بالقواعد والحدود!! بإمكان الواقع أن يشحذ الخيال، وبإمكان الخيال أن يغيّر رتابة الواقع، وأن يؤسّس من لاشيء كلّ الأشياء، وأن يعطي أسماء الكون القديمة أسماء جديدة بعدد العناصر الّتي فيه، وأن يفيض

عليها... صحيح أنّ البحث عن مرجعيّة من فراغ ربّما يكون صعبا جدّا إن لم يكن مستحيلا، وهو يتطلّب تضحيّات جساما ربّما لا قبل للخليّ بها، وصحيح أنّه إذا اكتفي بالواقع وحده، وانشدّ الطّموح إلى الأرض، إلى العراء القاتم، تحوّل الوجود نفسه إلى بؤرة من الجحيم لا تصلح لغير الموت والانتحار، ولكن إذا تآلفنا مع الواقع ونحن نفكّر في الحلم، أو إذا عشنا على الأرض ونحن نفكّر في السّماء كان بإمكاننا أن نصنع من الحياة جنّة فيها تتناغم كلّ العناصر الكونيّة، وأن نحيا دون أدنى إحساس بالنّقص أو القرف أو الغثيان... ستسقط المعادلات من وعينا، وستتفتّت التّرسبّات في ذواتنا لنولد من جديد، وقد ارتددنا سيرتنا الأولى، نتوق إلى تجانس اللاّمتجانس فينا، ونسعى إلى إقامة الوحدة المنشودة من أشياء كان يفترض فيها أنّها لا تلتقي أبدا، وأنّها تتناقض حتّى يقضي أحدها على الآخر... يغدو الفرح والحزن سواء، واللّيل والنّهار، والغضب والحلم، والألم واللّذة، والأهواء والأحلام، وزمن النّثر وزمن الشّعر، والبداية والنّهاية، والماضي والمستقبل...

كان من المحتمل أن تأخذ الأشياء والأحداث وجهة أخرى لو لم أشاهد ما شاهدت، ولو لم أسمع ما سمعت! كان محتملا أن أشعر بفداحة الحواجز الّتي ربّما كانت ستواجهني على مفترق الطّرق، في دروب الغيب الشّائكة. فقبل كلّ شيء وبعده ليس من اليسير أن نستند إلى وهم دون أن تكون لنا مقوّمات ذلك الوهم... «بدر» كان ممكنا أن أنظر إليه بطريقة مختلفة رغم أنّي لست متأكّدا إلى حدّ الآن أنّي ما كتبته عنه يمتّ إليه فعلا، وهو في جزئيّاته البسيطة وأدقّ دقائقه ذلك الكائن الّذي رأيت ملامحه ترتسم شيئا فشيئا كلّما تقدّمت في الكتابة: لا أنكر أنّي رأيته، وأنّه منذ البدء، حتّى من قبل أن أسافر إلى القاهرة قد رسمت له صورة محدّدة في خيالي، وأنّي كنت أعرف أنّه في الوقت الّذي سأغادر فيه لا بدّ أن أذهب إلى الوكالة الّتي كان هو يشتغل فيها لأحجز تذكرة العودة: ليست الصّورة نفسها وإن يكن فيها بعض

الشّبه، والكلام الّذي وضعته على فمه، والخواطر الّتي جعلتها تحلّق في خياله، قد تكون افتعالا، أو زيفا، ومع ذلك يظلّ الاحتمال سيّدا مطلقا، وما كنت أتصوّره وهما ربّما يكون هو الحقيقة نفسها بلا زيادة ولا نقصان!!... ربّما تكون لـ «بدر» قصّة أخرى، غير الحكاية الّتي قيّدته بها، ولكن بدا لي أنّ الرّؤية الّتي أطّرته ضمنها إنّما هي الوجه الآخر لكائن أردت لصورته في الواقع أن تتعاضد مع صورة أخرى وجدتني مندفعا إليها... لعلّي كنت أبحث عن البطل الموعود، بطل الخيال، وخلال رحلة البحث الطّويلة عثرت على بطل الواقع، ولمّا كان لا يختلف عمّن رأيتهم في خضمّ الحياة جنحت به إلى تجربة قصوى هي أقرب إلى المغامرة... الكائن الّذي لا يرضى بشيء، أو أنّ إحساسه بلا جدوى وجوده دفع به إلى التّيه على أمل أن يجد ذاتا غير الذّات، وأن يؤسّس وجودا غير الوجود، بعيدا عن دنيا النّاس، في فراغ سيكون من الأنسب له أن يعيد حسابات الماضي الآفلة وأن يقيم تجربة السّنين المنصرمة على أمل السّموّ والتّعالي المطلقين!!

لم أشا أن أعزله، وأن أجرّده من الانتماء القديم، وإنّما كان دافعي لا يقاوم في جعله فردا «متعدّدا»، متعدّدا في علاقاته، الأشخاص الّذين رأيتهم في الوكالة معه، «مفتاح» و«عبد المنعم» أخوه، و«فتحي»، وشخص آخر لم أره، أحالني لقبه على جغرافيا مكان موغل في البعد، «السّويس» وذكريات ولّت على رجع الحنين المتردّد في كلّ الزّوايا الّتي شدّتني إليها وأنا في الدّاخل، جالسا على الكرسيّ، أتطلّع إلى الصّمت والفراغ، والطّريق المؤدّية إلى «خان الخليليّ»... والسّتّ «توحيدة»، امرأة لم أسمع عنها ولم أرها في حياتي البتّة، و«نعمة»، و«درّيّة»، و «زينب»، أسماء تؤطّر المشاهد وتكمّلها، وتعضد الأفق الرّوائيّ، وتؤكّد رغبة في الهروب والرّحيل!!

.٨٠.

[يا ليت لي قلبك... محمود درويش]

** الحادي عشر من تشرين الثّاني ٢٠٠٢

لا أحد يختار قدره!

لعلّي لم أكن آبه كثيرا من قبل، ولعلّ الجملة لم تجر لي على بال، لأنّه لم يكن هناك داع لها؛ فلماذا أجد الكلام كلّه يذوب في مخيّلتي، ويتزعزع كيان اللّغة في هذه اللّحظة جارّا خلفه إلى الهاوية جميع الحروف والكلمات، ولا تبقى إلاّ هذه الجملة، وهذه الجملة بالذّات... لا أحد يختار قدره؟!! بلى، أن تتفاجأ، وتقضي هزيعا لا بأس به من عمرك أشبه بالأعمى، تتوهّم أنّ ما رأيته وما سمعته نهاية المطاف، ولا إمكان لحدوث أيّ عارض غير متوقّع، والأرض، ليست كلّ الوجود والكون اللّذين لا حدود لهما، وإنّما مساحة بحجم الجزيئ تتحرّك ضمنها وتحسبها العالم الأثير الّذي لا معدى عنه؛ والسّماء خيمة أقمتها على الأوتاد ذات ليل ساج وقد ألقى بك الأرق إلى التّيه خارج البيوت المغلقة والنّوافذ الّتي أسدلت عليها ستائر شديدة الكمود، بحثا عن أمل ضائع ربّما في اللّقاء «بها» أو «به»!! شيطان الشّعر لا يحسن دغدغة المشاعر وحسب، ولكن أيضا له القدرة على جعلك تحتجب فتنسى أنّك الكائن الّذي سيظلّ كائنا على الرّغم من كلّ شيء، يحدّه الزّمان ويقهره المكان... ونتيجة لذلك، وحتّى تحسم الصراع المؤرّق وتحقّق سلاما مع نفسك، ألغيت الكون الّذي لا قبل لك باستيعابه، تناسيته عن قصد، ولمّا طال الأمد عليك انتهيت إلى نسيانه؛ واختصرت الزّمان في ذاتك واستعضت عنه بالذّرّات الّتي تشبه الأنفاس في شفافيّتها، ولو واتاك

الحظّ وأسعفك بـ «شلّة أنس» واندغم خيالك في حلقات الحشيش، والجوزة تتبادلها الأيدي تباعا لتهافتّ إلى عوالم السّكون الّتي لا تحدّ وشكّلت أفقك وفضاءك من الأسرار والألغاز الّتي تحملها بداخلك، وأنت المتعب، أنت سندباد وقد قرّر أخيرا أن يتوقّف عن الرّحيل، من فرط إحساس غامض بالغبن، والكبر، والحنين الّذي ما فتئ يتضخّم، إلى مدن كانت في معيّته في الحلّ والتّرحال، فهل كان بوسعه مثلا أن ينسى البصرة، أو بغداد... أو مدنا أخرى لفرط ما ألمّ بها تماهت مع المدن الأخرى، مدن الميلاد والذّاكرة الطّفوليّة والماضي بين الحارات والأزقّة والنّواصي العديدة والميادين الّتي تفضي بدورها إلى ميادين أخرى أوسع وأرحب...؟!!

ليس تجمّلا ما أحسّه، أو متعة منشودة من القلب، ما أن تنساب حتّى تنبعث فرحة الخلود ويعمّ سلام الأبطال العائدين من المعركة مظفّرين؛ لقد كان عجزا ثقيلا لا يحتمل، ويأسا، لا دواء منه سوى إيهام النّفس بالاحتضار والموت... من أنت؟! من أنت، أيّها القميء كحشرة، المنتفخ كبالون على وشك الانفجار؟! وتراودك الرّغبة في تضخيم ذاتك، وأن تكبر في التّوّ لتغدو خامس الّذين امتلكوا العالم، وللحظة تداعب في خيالك الغضّ صورة «الضّحّاك»، وتتخيّل «النّمرود» العملاق يسقي النّار من العرق الطّافح في جبينه ويحدّث مريديه عن الحياة بعد الموت...!! لعلّها نكتة أخرى، أو لعلّي أريد أن أتعزّى بهذه الأفكار الّتي تلقي بي إلى الجهات كلّها، فأتناثر كما تتناثر الأوراق الصّفراء في الحقل المتروك مع بدايات الخريف العابس الغاضب؛ أو لعلّي كنت أؤجّل الصّدمة إلى ما لا نهاية، فلا أكتوي بالنّار والجليد، ولا ينتهي رأسي محطّما على أحد الجدر الكثيرة الّتي أراها في الحلم واليقظة على حدّ سواء.

أقول:

.العالم ينتهي هنا!

لا يمكن للعالم أن يكون أكبر ممّا تخيّلته! وحدوده كأنّي أراها أمامي، لا تتجاوز مدى بصري، وأبعاده، مسافاته، أسراره، ألغازه، أنا المتحكّم بها، والكفّ الّتي بعنايتها اللاّمتناهية تنضبط الأشياء ويستوي المنطق هي كفّي!؟! فمن أين جاءت العوالم الأخرى إذن؟ والأميال اللاّمحدودة؟ والبلدان؟ كيف ألقى بي القدر في لمح البصر إلى تيه أكبر من كلّ المتاهات... هنا، عند هذا الحدّ من المفاجأة والانشداه، غامت الأحرف جميعها، وتهافتت اللّغة، لتبقى جملة واحدة فحسب: لا أحد يختار قدره!!

منذ سنوات، ألفتني العزلة وألفتها، وتقمّصت أدوارا لأشخاص عثرت على أسمائهم فيما بعد، في كتب عديدة، ودراسات، ووثائق انتهت إليّ بالمصادفة، وعجبت آنذاك أشدّ العجب، لأنّه ذهب في ظنّي أنّي أبتدع ما لم يسبقني إليه أحد، وكانت تلك أولى الخيبات، وخيباتي . فيما علمت، حين ارتددت كائنا كما ينبغي لكائن أن يكون . كثيرة لا يدركها الحصر: خيبة ليتها أعادتني إلى الواقع، وإلى الحياة الّتي تضجّ من حولي وتغلي كالبركان الثّائر، ولكنّها بدلا من ذلك ألقت بي إلى الوهم مرّة ثانية، وإلى الموت أبحث عنه آلاف الأميال بعيدا عن الأرض... تصوّرت المدينة، وهي كلّ ما لديّ، والغرف الصّغيرة الّتي استأثرت بها في البيوت الّتي ضمّتني إليها على امتداد السّنوات الأولى من عمري، المنتهى، وهي مدار الحركة والسّكون، والحياة والموت؛ والحياة رأيتها بعينيّ وسمعت أصواتها الخافتة بأذنيّ في الحوش الكبير الّذي ما يزال جدّي يذكّرنا في كلّ مرّة إذا اشتدّ النّزاع بينه وبين أحد أخوالي أنّه حوشه، ويشير إلى الباب الخارجيّ في تحدّ أنّ من لا يرغب في احترامه والاعتراف بسلطته ما عليه إلاّ أن يحمل أغراضه وينصرف إلى «الجحيم»: في الحوش ذكريات الصّبا الأولى وذكريات الميلاد، وأنا الّذي لم أتخلّص بعد من الحنين إلى الالتئام ولمّ الشّتات، والزّيارات

الّتي تتكرّر بين الفينة والأخرى، فتأتي خالتي وأبناؤها، وزوجها، وتأتي خالتي الأخرى من طرف الحيّ هي وأبناؤها أيضا، وننتظر اللّيل فنتحلّق في تلك الغرفة الكبيرة وتبدأ الحكايات الّتي لا تنتهي، والسّمر العتيق؛ وروائح الماضي من يعيدها وكيف لما انقضي أن يستعاد؟! كيف أنسى أنّ خالتي سيدور عليها الزّمان دورته وسأشهد ميلاد طفلتها . تلك من كان إسمها تحدّيا لوالدها بعد أن صمّم على الطّلاق رغم المحاولات ، وبعد أن تدخّل العقلاء ومن يفترض أنّهم حكماء العائلتين، وعاد الزّوجان المنفصلان إلى بعضهما، لم ينس زوج خالتي أنّ الإسم سيظلّ رمزا لا ينسى للإهانة الّتي ألحقتها به خالتي فأعاد التّسمية، وضحك طويلا حين فعل ذلك... الزّمن يدور، وتنقلب الأشياء كأنّها لم تكن في يوم من الأيّام، والحالات أشكّ أنّها تتواتر، وتحلّ الواحدة محلّ الأخرى في حركات محسوبة، وفي أوقات بعينها، فما بعد الحزن إلاّ الفرح، وتذهب الحرارة ليجيء البرد، والحلاوة شيء والمرارة شيء آخر، وما داما كذلك فلا غنى لنا عنهما، فالحياة تحتمل المتناقضات جميعها، وهي لا تستقيم إلاّ بتلك المتناقضات نفسها... كانت عزلتي تصوّر لي الأشياء بخلاف ما هي عليه، وكانت تزيّن لي الوجه وتخفي دائما الخلفيّة، أو العكس؛ حتّى السّعادة كنت أرى سوادها فحسب، ولا أنزعج إذا حطّت عليّ الكآبة أو الصّمت، ولا أبالي بالمسرّات أو المناسبات السّعيدة، وهي تقام باللّيل أو النّهار على بعد خطوات، بل لقد كنت أضجّ وأضجر، وأحتقر نفسي لأنّي لم أستطع أن أحرّرها من رثاثة الحياة الّتي أعيشها؛ أبحث عن الصّمت في الأماكن جميعها، وأتوخّى إلى السّكون سبلا مستحيلة، وأهرب مع أصوات العالم الآخر، تأتي في أواخر اللّيل من المذياع، في أزمنة قد تكون مجرّد احتمال، وأمكنة هي الأخرى قد تكون أماكن افتراضيّة، ولكنّي لا أعلم لماذا كنت مشدودا إليها، كحيوان أليف حتّى لو أطلقه أهله في الصّحراء لا بدّ أن يرجع إلى منبته ومرتع صباه!!... بلى، شهدت الحياة وهي تينع وتترعرع، والصّبيان والبنات

يكبرون، ويلتحقون بالمدارس، والأقارب الّذين كانوا يلمّون بالحوش في زمن قديم، فيأكلون ويشربون، وتقوم على خدمتهم جدّتي، فلا تدع شيئا إلاّ أتتهم به، ولا رغبة من الرّغبات إلاّ حقّقتها لهم، ولا عونا إلاّ بذلته، هؤلاء حين أقبلت عليهم الدّنيا كان أوّل ما فعلوه أن عضّوا اليد الّتي امتدّت إليهم حين العسرة، وسخروا، وتهكّموا، وزادوا فأسمعوا أصحاب الفضل ما يكرهون وأمعنوا في الإساءة حتّى فاض الكأس وبلغ السّيل الزّبى؛ وكما انطبعت صور الميلاد في البال كذلك كان الموت، والموت قاس، جبّار، شبح يتربّص في الأزقّة والمنعطفات، أخذ جدّي أبا النّجا؛ عرفته شيخا وقورا، ذا شارب أبيض، وجمّة بيضاء، يرتدي طاقية متآكلة ويلبس جبّة، وقد اعتاده أهل الحيّ لمهارته في حياكة ألبسة صوفيّة كانوا يحتاجونها في فصل الشّتاء، أراه في فراشه في الغرفة الآيلة للسّقوط، وقد بناها بيده تساعده جدّتي، هو يشدّ الحجر إلى بعضه وهي تأتيه بالمونة، شارد الذّهن، مخطوف النّظرات كأنّه كان يرى موته، أو يتواصل مع كائنات غير أرضيّة تفضي إليه ويفضي إليها، وتسارّه ويسارّها... وفي أحيان أخرى، كنت أرى جدّتي إلى جانبه، عند قدميه تمسك له الخيطان، وهو يدفع بالإبرة إلى الصّوف في حركة لا يجيدها إلاّ من تمكّن من الخياطة والحياكة مثله... بعد موته، ودفنه في المقبرة بظاهر الحيّ، وفي أيّام الجمع من كلّ أسبوع، كنّا نذهب جميعا إلى هناك بمعيّة أمّهاتنا وجدّاتنا، فنقوم على القبر، ونقرأ الفاتحة وبعض سور من القرءان وندعو له بالغفران، أتطلّع بعينيّ الطّفليّتين إلى أعين الكبار وقد سقطت عنها بعض الدّموع الكبيرة، وأسمع لازمة كانوا يكرّرونها بكلّ خشوع: «رحمه الله، لقد كان رجلا طيّبا!»... هل أحببته؟ وهل كانت سنواتي الأربع أو الخمس تكفي لجعلي أحسّ بعاطفة الحبّ نحوه؟ وهل شعرت بفداحة موته؟... هل تمنّيت لو بقي جدّي على قيد الحياة؟! هذه الأسئلة أطرحها الآن وأنا مدرك أشدّ الإدراك أنّه ما كان لي أن أطرحها في تلك السّنّ... صحيح

أنّي لم أكن أثيرا لديه، وربّما إلمامه بالكبار من نفس سنّه، وترفّعه عن مصاحبة الصّغار في سنّنا، أبعده عنّا وأبعدنا عنه. نحن أحفاده، ولكن لا أكفّ عن التّفكير فيه، بل إنّي أترقرق كلّما ذكرته، وصورته القديمة الّتي ربّما لم تكن تروق لي في صباي، وهو زائغ البصر يتطلّع إلى البعيد، غدت هي أقرب الصّور إليّ، أستعيدها في صمتي، وأداري بها ظلمة العزلة الّتي تلفّني!!...

لعلّ تاريخ الموت في العائلة قديم، يعود إلى سنوات إلى الوراء، وربّما عقود، ولعلّه ترك بصمته في القلوب قبل الأشياء والأماكن، وخلق جوّا من التّحفّز والتّحفّظ، والخوف أيضا، ومزيجا من الرّهبة والتّوجّس، وهذا ما جعل الكبار سرعان ما يثوبون إلى أنفسهم عند الاستئناس والقربى، فلا يتركون لعواطفهم أن تأخذهم إلى عوالم النّشوة القصوى، وتقودهم إلى إحساس مطلق بالسّكينة غير مشوب برائحة الخشية والرّعب، إذ تتلاشى سكرتهم في طرفة عين، وتحلّ بهم صحوة جارفة كما يحلّ قضاء نازل على قرية من القرى البائدة الّتي حكم عليها بالعذاب في قديم الزّمان؛ يستغفرون وأيديهم تتخلّل وجوههم، ويدعون أن يديم الله عليهم الصّحة والعافية وأن يتداركهم وموتاهم بالصّفح والعفو...!! الخوف، خوفهم، عالمهم الغامض، إيمانهم، وحتّى أساطيرهم وخرافاتهم لا تملك أن تقول إنّك تخلّصت من كلّ ذلك، وإنّك لم تحسّ الخوف الّذي كانوا يحسّونه، وإنّك لم تخش الموت، وإنّك لم تبك طويلا حين توفّيت جدّتك لأبيك... استعصى عليك الدّمع وأنت بالمقبرة، جفّت العينان، وغدت كلّ مشاعرك محايدة، حتّى ظننت أنّ ذلك الكائن الّذي واراه التّراب لم تربطك به أيّة رابطة في أيّ يوم من الأيّام، وأنّ الحبّ الكبير الّذي احتضنك، وتعهّدك صبيّا ويافعا وشابّا، ليس في الحقيقة إلاّ قبض ريح عابرة هفت على معبر من المعابر المقفرة ثمّ ولّت من حيث أتت كأنّها لم تكن... وفي العودة، تقودك الخطى الثّقيلة إلى مجثم الموت، وما أن تتهالك على

السّرير حتّى تفاجأ بدموع الكون كلّها تسحّ من عينيك، البكاء الّذي لم تعرفه في يوم من الأيّام، والغصّة في الحلق كأنّها الصّخرة يلقي بها السّيل، والحسرات، والنّكبة الّتي لم تستشعرها إلاّ في تلك اللّحظة بالذّات، كائن عزيز على القلب، عوّضك الحنان والدّفء والطّمانينة ونأى بك عن شبح التّشرد، واستعضت به عن فقدان الأمّ وجفاء الوالد وإعراض الحظّ، وداريت به الغربة، ها هو ذا يختار أخيرا أن يمضي بمفرده إلى المجهول، فلا شيء يحلو بعد ذهابه، ولا خلوة حبيبة في كنفه، حيث تختصر المسافات إلى مداها، وتمتلىء بسرّ الوجود كلّه، ولا شيء بعده... لا أمل يمكن أن ينسيك أنّك أصبحت يتيما، ليس يتم الأمّ أو الأب، ولكنّه يتم الجدّة، وما أقساه من يتم!!

«حيّ بن يقظان، والطّفل المتوحّش، وبين النّاس، في الكثرة تتفاقم الغربة، ويثقل القلب فيخرس اللّسان، ولا شيء ينجّي من الموت موتا، ولا حتّى طلبة الكهف المتباعد في طرف من أطراف العالم البعيد، نشدان الرّاحة، والخلوّ إلى النّفس، والغريب من النّسيب أقرب، والنّسيب بعيد بعد السّماء عن الأرض؛ وذلك ما أدركته بالعقل دون أن تسعى إلى النّأي، سيّجت به نفسك، وأغلقت بالمراتيج من الدّاخل على الهدوء والانضباط فانبعث الصّياح فوضى شاردة، بيديك تصنع أفكارك وتخاصمها فتشاكسك، وتقول لماذا أنا هكذا، وماذا ينقصني حتّى أرضى بقدري؟! ولمّا تستعصي عليك الإجابة تمعن في السّؤال إلى ما لانهاية... حلمت أن تكون صوفيّا، وتجعل من غرفتك صومعة ومحرابا وتطلب الحقيقة في باطن الأرض وذرّات الهواء، ورميت بكلّ حياتك وماضيك التّليد وراء ظهرك، غير أنّك عدت بعد طول التّرحال، وبعد أن ضيّعت عصاك، وفقدت عمرك في أوّل منعطف على طريق غير الجادّة... كنت حين تلتفت وراءك تبهر عينيك دنيا النّاس، وترنّ في أذنيك كلماتهم، في بيوت مغلقة ذات مساء شتائيّ، ووشيش الشّاي ينطلق مسترسلا من الأباريق على المواقد، وعشرات الأيدي تمتدّ في

نفس الوقت تطلب الدّفء... ومن الفراغ ينبعث صوت الرّاوي: «كان يا ما كان في قديم الزّمان، ملك ولا ملك إلاّ الله...!!»، تذكر أنّك سمعت شيئا كهذا في صباك، وحلمت بالشّتاء الّذي سيأتي، والصّيف الّذي ولّى، والأصدقاء من أترابك، والضّيوف العزيزين يأتون من الموسم إلى الموسم يحملون معهم البركات ورائحة الزّمن والأولياء... ياه! الزّمن! وعشق من يعشق، وعشقك لا تحيط به الكلمات ولا يحدّه وصف الواصفين، وما ضاع منك على أطراف الكشف أدركته في ذاتك، إلاّ أنّك ما اكتفيت يوما، وما كفّ عنك الرّحيل، عشت في الزّوايا المظلمة، المعتمة، وبنيت هيئة على شكل غير مسبوق، تضع اللّبنة فوق اللّبنة، وتنتظر ضيفا أعياك انتظاره...!!»

ماتت والدتي!

لم أكن أوّل من ماتت عنه والدته، ولكن قلائل هم من تركتهم أمّهاتهم في سنّ لم تجاوز الخامسة إلاّ قليلا، وأقلّ من ذلك بكثير من ابتلوا بمعاشرة المرض، مرض طويل، رتيب، أنشب أظفاره في القلب دون رحمة، فألزم والدتي الفراش، حكم عليها بشيء هو أقسى من الموت بكثير؛ وهل أقسى من مرض ترى الموت فيه كلّ يوم، يطيف بك ضاحكا على شفتيه ابتسامة تشفّ ماكرة... لم تبق إلاّ الذّكرى، وذكرى الكبر غير ذكريات الصّبا، وما لم تفهمه صغيرا تضفي عليه وعيا قد تضخّم مع السّنوات فتغدو المأساة بألف وجه، وما تعتم أن تشير أصابعك في كلّ الاتّجاهات إلى الجناة، وأوّلهم والدك!!... تزوّج بعد موتها، وقبل موتها كان يتردّد على بيت من ستكون زوجته الثّانية، كأنّ والدتي لم تكن تعنيه في شيء، وكأنّ الزّمان قد توقّف عند رغبته وآماله العراض في أن يجبّ وراءه كلّ ما يحيل على طفل أنجبه، لم يكن راغبا في إنجابه منذ البداية، وزوجة ستموت إن عاجلا أو آجلا. فإن لم يكن بالمرض، فبالحزن الّذي شاخ وهرم بداخلها. شبحا عملاقا أكبر من سنواتها الأربع والعشرين بعشرات الأعوام!!

. أريد أن أنسى!! وأفاجأ أنّي أفكّر في الّذي أريد نسيانه؛ وخبر الوفاة، واللّطوّ في عتبة الغرفة المتهدّمة، والإحساس المائع باللاّشيء، كان الصّياح والنّدب القادم من الحوش الكبير، واضطراب الجدّة الوالهة الثّاكل، كلّ ذلك ليس له من معنى في دماغك الصّغير... ولم تكن لتعلم لماذا بكيت حتّى لو نزلت على خدّيك الدّموع، والموت إلى تلك اللّحظة، لا يختلف عن الحياة، والحياة ربّما هي نفسها في الخضمّ ستفقد معناها، كما يفقد كلّ شيء معناه مع الأيّام والسّنوات... هي صورتها ما ظللت محتفظا بها، صورة بالأبيض والأسود، في طيّات جواز السّفر، شاهدا على أنّ الموت لا يملك أن يحرمنا من الحنين!!»

***

شيئا فشيئا تكبر الرّقعة من حولك وتنساح الدّنيا، ومن المدينة إلى الحاضرة، ومن العزلة والتّقوقع في الشّرنقة إلى الرّحابة والامتداد على الجهات كما لو كنت كائنا أخطبوطيّا قادما من الأعماق المجهولة لبحر ظلّ منسيّا في مجاهل الأقيانوس ثمّ سئم وحدته فاختار أن يجد له متنفّسا في فوضى الأحياء... سنواتك العشرون أو الواحدة والعشرون تشعر بها كأنّها الثّقل ترزح تحته، أو القدر المشؤوم الّذي آن له أن يتراجع إلى الظّلمات المتكاثفة في مكان ما من المملكة الّتي أسّستها في صباك المتأخّر وبداية شبابك!! والحاضرة ليست كغيرها، لا تشبه مدينتك في شيء، وأناسها كائنات أخرى، وأشياؤها تغري بالضّياع وتحمل على الاستكشاف، فتندفع باللّيل والنّهار، لا تهدأ، ولا يقرّ قرارك، وفي كلّ يوم ترى جديدا، وتسمع أصواتا أخرى ذات أجراس غير جرس اللّهجات الّتي نحتت لهجتك وصقلتها في الحيّ العتيق بالمدينة الرّاحلة...

قناعة بوجود منطقة كامدة متحلّلة، وفقر قاهر إلى النّور، وإمعان الزّمن في التّآمر عليك طوال السّنوات الّتي ولّت، وشعور

حارق أنّ هناك، من حولك، ما يستعصي على الفهم، وأنّ المقاييس الّتي كنت ترى بها الأشياء من قبل لا يمكن أن تسعف بالمطلوب وتوفّر الرّاحة والطّمأنينة وتضعك في نفس الكفّة مع بقيّة البشر من بني جنسك... ترمي بنفسك إلى المدى المتعاظم، بين اتّساع الدّائرة والتّيّار الهادر وهو يجرف في طريقه كلّ أمل بالنّجاة، والنّجاة نفسها لا تهمّ، بعد أن صحوت، وصار كلّ شوقك أن تتدارك ما فات، وتتعلّم في أقصر مدّة ما ظلّ ينقصك سنوات وسنوات!! دائما كان هناك من يتّهم، من ينظر إليك في ارتياب، ومن خلال نظراته تتبيّن ازدراء وتهكّما، ولولا بعض من الحياء، لما عدمت من يطلق ضحكة كاوية مشيرا إلى ما تتحلّى به من الجهل في عصر الذّرّة والصّواريخ العابرة للقارّات وأزرار التّحكم عن بعد؛ لا فائدة من الشّعر، وتاريخ التّصوّف الّذي وقفت عليه حياتك مجرّد هراء، وما لم ترض بالصّخب في الحلقات المفتوحة على الشّوارع، وخيار التّخلّي عن التّفكير بصوت مسموع حتّى لا يصنّفوك في عداد الممسوسين بلعنة الباطن، وتبسط يدك لتتشابك مع بقيّة الأيدي، ولسانك يلوك الأحاديث المعادة المكرورة عن كون شاخ، وهو على وشك الإفلاس، حكم عليك بالإبعاد؛ وما دمت قد اخترت طائعا أن تتقمّص حكمة الأحياء، حتّى تغدو حكيما مثلهم، فلا حيلة لك، ولا ضير، فأن تكون وسط الحشد، واحدا من بين آلاف، خير من أن تكون بمفردك، تعاشر خيالات مخيفة، وتتلبّس بك رهبة النّهاية... لتجر كما يجرون، ولتقف حيث وقفوا، لا تخاف أن تزلّ بك قدماك، فتخيس وتبتلعك الأرض الرّخوة، ولتتكلّم كثيرا عن الأحداث البسيطة، والأشياء المبتذلة، والرّجال الّذين يحبّون النّساء، والنّساء اللّواتي لا همّ لهنّ إلاّ أن ينتظرن الرّجال على أحرّ من الجمر، يمنّين أنفسهنّ بالعشّ السّعيد، والحياة الّتي يملؤها الصّغار الّذين سيأتون ذات يوم فينسوهن التّعب والنّصب!! لتسابق الزّمن، ولتكن لديك القدرة والشّجاعة والاستعداد لمسابقته والتّغلب عليه،

فلا حاجة بك قبل كلّ شيء إلى الجري وراء سراب قاتل... الموت!! وماذا لو متّ؟! ماذا لو انطبقت عليك حيطان القبر الوطيئة ولفّتك ظلمته، على الأقلّ ستخلو إلى بعض الرّاحة، وستنسى أنّ الإنسان ولد ليموت، وأنّ الحكمة تستوجب إذا هرم أحدنا فأحرى به أن يكون مستعدّا ليبلغ أقصى درجات الكمال ويتحوّل إلى بطل يستهين بالفناء من أجل الخلود!! والحياة!! هل بمجرّد أن نكون مفطورين بالغريزة على حبّها نتشبّث بها إلى آخر رمق؟! أم أنّنا نخشى مفارقتها لأنّنا لسنا متأكّدين ممّا ينتظرنا بعد الموت؟! أفّ للحسابات، ومطلق العادة في اختبار حميميّة ما نلبث أن نتّحد بها ونتماهى، فتصحبنا يوما بيوم، ولكنّنا نشيخ ولا تشيخ، ولمّا يحين الذّهاب ويحمّ القضاء، يصير لا همّ لنا سوى أن تخلص لنا في مفارقتنا، فإذا ما رفضت أو حرنت دعونا عليها، أو تخيّلناها وقد أصيبت بمصاب مثل مصابنا فنشمت ما طابت لنا الشّماتة، ونموت إذ نموت هانئين مرتاحي البال والضّمير...!!

«الحاضرة!!

أكبر منّي بالقطع، وكوني قبلها لا يتجاوز حدود مدينتي، ومع الأيّام اعتقدت أنّ البداية والنّهاية متناهيتين، ولم يخطر ببالي أبدا أنّ هناك عالما آخر، عالما أكبر من عالمي، وأنّ العالم الّذي لم أعرفه بعد هناك عالم آخر أكبر منه، وأنّ هناك عوالم لامتناهية، أكبر من عوالم أخرى، وأنّه كلّما كبر أحدنا استطالت أمامه الأماكن بشموخ تتحدّاه وتربكه، وتذكّره بعظمتها إزاء ضعته وقماءته...

لا أرغب أن أظلّ صغيرا، وما دامت الفرصة سانحة أن أختبر وأن أجرّب، وأن أحيا وأن أموت، وأن أعيش السّموّ وأن أتمرّغ في الوحل المبثوث أمامي، وأن ألقي بنفسي في الزّحام الشّديد، تزاحمني الأجساد المتلاحمة وأزاحمها فأستعيد الصّلة بانتمائي إلى الإنسانيّة، وأن أخطئ، وأن أشمّ رائحة عرقهم فأتذكّر أنّي لست بحاجة إلى الطّهارة وحدها، وإنّما الطّهارة هي الأخرى تحتاج إلى شيء من القذارة من حين

لآخر، وإلى كلام لا ينتهي، لا يحذف أحرفا أوكلمات بعينها، ولكن يحتفي باللّغة في كلّ أبعادها، فكما كانت اللّغة القديمة تجيزالكثيرمن الصّراخ والصّيحات المبهمة والإيماءات والإشارات، فكذا يجب أن تكون اللّغة الجديدة، فلا تتحرّج وأنت تستمع إلى الأصدقاء وهم يصخبون، أحيانا يلفّون المعنى البسيط في حلقات لا تنتهي من الحكايات، حكايات لا أوّل لها ولا آخر، تتوالد من بعض، وتقود الحكاية إلى أخرى أغرب منها، وأحيانا أخرى يختصرون نفس المعنى، فيشيرون مجرّد إشارة، على اختزالها تحيل على مجاهل، وتومئ إلى مفاتن، وتتجرّأ في سفور!! لتشمّر إذن، ولتخلع نعليك وعذارك، فهذي البنايات في الحاضرة تستقطبك كما لو أنّها مغناطيس، والوجوه، عشرات الوجوه، بل مئات منها، تراها ولم تكن قد رأيت مثلها من قبل في طيّات العزلة، تغريك فتنجذب إليها، تستغرب لآلاف المشاعر والعواطف الّتي ترتسم عليها باستمرار، تحمل هموما وآمالا في الخلاص، اختارت الواقع فاختارت معه الصّراع إلى النّهاية، وأن تسعى كما لم تسع؛ تستغرب أن يضحكوا ولكثرة ما عاشرت الخيالات والسّكون، واعتدت الحزن والخوف كدت تنسى أنّ هناك شيئا يلجأ إليه الإنسان في أوقات الفرح والطّرب، هو الضّحك، يطلقه من صميم فؤاده فيتطهّر من الأدران بداخله، ويعود إلى الحياة وإلى دائرتها المهولة متفائلا، مندفعا بتصميم إلى هدف ما لا شكّ أنّه يربض في مكان ما؛ وتستغرب إذا رأيتهم يبكون كيف يمكن لذلك الضّحك المعربد، والقهقهات المنطلقة، أن تنطفىء فجأة كالسّراب ويحلّ محلّها نشيج، وتباريح وعذابات؛ هذا الإنسان، وهؤلاء هم النّاس، عشت بعيدا عنهم، في السّماء الرّحيبة، مع أطياف أشبه بالأرواح الهائمة، عاشرتها حتّى كدت تصبح واحدا منها، أصابتك عدواها وانطفأت عيناك عن كلّ ما يمتّ إلى عالم غيرعالمها... اعتنقت الحزن فأنساك الفرح، وتعوّدت الألم والعذاب فنسيت اللّذاذات وأوّار النّشوة والحلول، وارتضيت أن تضع على طرفي عينيك كمّامة سوداء

كي لا تنازعك نفسك إلى التّطلّع إلى اليمين وإلى الشّمال، وتصاممت عن كلّ الأصوات، فلا ترى إلاّ شفاها تتحرّك، أو شفاها تنطبق على بعضها البعض في حركات لا معنى لها... آمنت بالموت، وحتّى الحياة الّتي استهوتك ظلّت مؤجّلة إلى أجل غير معلوم، ضبابيّة في سكون الغيب الضّالع في الصّمت!!

ستّ سنوات، في الحاضرة، ما بين الدّراسة والسّهر المؤرّق، إلى التّشرد، والضّياع، والتّحوّل في المكان، من المقاهي، والمسارح، ودور السّينما، إلى العلاقات الجديدة، وفي كلّ يوم علاقة أو صديق، وفي كلّ يوم، هروب إلى الأقاصي، إلى أحياء لم ترها من قبل، إلى أشخاص عرفتهم عن طريق أشخاص آخرين، والسّماء من فوقك جهمة غاضبة، والأرض حبلى لم يبق لها إلاّ أن تتلقّى القطر القادم، فتستعدّ للفوران، وتلتئم، تتطلّع إلى الجبال في الطّرف ا لآخر، في الأبعاد، وإلى اللّون الرّمادي الّذي كان يتسرّب إلى كلّ شيء، وتضرب في الشّوارع، ويروق لك أن تتجوّل هائما على وجهك تحلم وتحلم، وتنسج خيالات وترسم صورا تتزوّد بها في أوقات الفراغ والوحدة... وأنت رغم محاولاتك للإفلات من براثن الانطواء والارتداد إلى الباطن، ظلّت تهمي عليك في أوقات بعينها أحاسيس دافقة، تحوطك فتستسلم لها، وتؤخذ بشفافيّتها ورقّتها، وما أن تغمض عينيك عليها حتّى تمتزج بسراب الغموقة فيهما، فتتمنّى لو تحلّلت كما يتحلّل الجسد الفاني، وتنطلق الرّوح فيك إلى المجاهل الغير المدركة... تسعى إلى الاحتجاب، تروم الاختفاء في العالم الّذي كنت اخترت طائعا أن تطلّقه، ولكن هذه المرّة سيكون عالما مؤثّثا بآلاف الصّور والأسماء والأشياء؛ سيكون وطنا، وستكون هويّة وظلاّ لا ينقطع إلى الأبد!!

وفي الحاضرة، التقيت بـ «مي»، وفيها أيضا صحوت على نبأ

سفرها بعد أن تزوّجت، فتأثّرت قليلا، استرجعت في ذاكرتك المرّات القليلة الّتي كنت تقرأ لها فيها من شعرك، وهي تضع على عينيها عوينات سوداء ربّما كي لا تتوصّل إلى الاهتداء إلى الطّريق المؤدّية إلى قلبها: هل أحببتها؟! وهل كان حبّا ما كنت تحسّ به تجاهها؟! وهل أحبّتك هي؟! إنّه الوهم، الوهم الجميل، وخدر سرى في مفاصلك حتّى أنساك أنّ المكاشفة.ولو كانت حميمة.لا تكون دائما أقصر المسالك إلى الحبّ!!

رحلت «مي» كما رحلت كثيرات غيرها، ولم تبق إلاّ عصا التّرحال، في سفر دائم لا يكفّ، عبر الأميال الرّتيبة، ستحملك معها، بعد كرور السّنين، بمنأى عن الحاضرة الآسرة، إلى ألغازوأسرارجديدة، مبثوثة، على امتداد البحاروالمحيطات، في أقيانوس ساحربقدرما هو مخيف، مربك بقدرما هوواعد...!!»

.٩٠

[أماويّ إنّ النّاس غاد ورائح... حاتم الطّائيّ]

** الخامس عشرمن تشرين الثّاني ٢٠٠٢

لم يترك لي «شانيل» فرصة للتّراجع، وهوينطق كلماته في تصميم:
. ولم نؤجّل الرّحلة للعام القادم: سيكون ذهابنا هذه السّنة مناسبا جدّا...

ولكي يبدّد بقايا تردّدي، وما كان يساورني من رهبة إزاء فكرة الذّهاب إلى «هندستان»، مرّر يده على شعري، وكنت جالسا بجانبه في دكّانه بالسّوق التّجاريّ، وقال بإنجليزيّة متعثّرة إلاّ أنّها مفهومة:
. لن تكون هناك أيّة مشاكل على الإطلاق، وسنقضي معظم

الوقت بمنزلنا، فلا تقلق...

وبعد حين:

.ثمّ لا تنس؛ إنّها فرصة لا تتكرّر في كلّ يوم!!

من حيث أنّها فرصة، فقد كنت أدرك ذلك تمام الإدراك، ومن حيث المصاريف، والتّرتيبات، وما يمكن أن ينجرّعن اتّخاذ قرار السّفر في وقت لاحق، فلا وجود لمشاكل من أيّ نوع من هذه النّاحية؛ كما أنّ المسافة .كما علمت من مصادر محدّدة ودقيقة، حيث قصدت العديد من وكالات الأسفار وسألت وتأكّدت .تعتبر قصيرة نوعا ما، ثلاثة آلاف ميل على أقصى تقدير، وهي مسافة لا تقارن فيما لو فكّرت في الانطلاق من بلدي، ذاك القابع على ضفّة المتوسّط، من النّاحية الأخرى...

وافقت، ولم أكن مقتنعا بقدر ما كنت مفتونا، وندمت بعد أن أعطيت كلمتي، والمال المطلوب لحجز التّذاكر؛ أحاسيس شتّى كانت تجتاحني باللّيل والنّهار، ومشاعر متناقضة، أقبل وأرتدّ في نفس الوقت، وتأتي أوقات أحسّ فيها بسعادة لا توصف، عندما أفكّر في ذهابي إلى مكان لم يخطر على بالي أبدا أن أزوره، ثمّ ينقلب الإحساس الأوّل إلى خيبة، بل إنّ الخيبة في أحيان ليست بالقليلة تمتزج بخوف لا أدري مصدره، وكآبة، وشعور غريب أنّي خدعت، وأنّ «شانيل» لم يكن بريئا تماما حينما اقترح عليّ أن أقضي بعض الوقت في منزلهم ب «تريشور»، وإنّما كان يقصد من وراء ذلك أن أتكفّل بالقسط الأكبر من المصاريف الّتي تخصّ الرّحلة، سيّما أنه أعلمني بذلك منذ البدء، وبطريقة فيها صراحة تقرب من الوقاحة، ومغلّفة في الوقت نفسه برجاء لا يخفى أن لا أخذله، فهو.كما قال لي .لم يسافر منذ سنتين، وهو مشتاق لرؤية والده ووالدته...

لو كنت فقط قادرا على النّسيان والتّأسّي! لو أنّ الدّماغ يهدأ قليلا، ويسعف ببعض النّوم دون منغّصات! لو ينزاح الثّقل عن القلب، والنّزيف الّذي يعبر الشّرايين هادرا في ثورة عارمة يبلغ الشّاطىء

في أمان ويسكن، فأسكن معه وأخلد إلى الرّاحة! لكن، كيف لي بالهدوء والسّكون، وقد أسلمت كلّ شيء، ومنذ البداية، إلى «شانيل»؛ لعلّي كنت أثق به، ولعلّ ثقتي فيه كانت بلا حدود، وذلك قد يكون خطأ، إذا اعتبرت أنّ الفترة القصيرة الّتي تعرّفت فيها إليه لا تكفي حتّى يركن أحدنا إلى الآخر، وأن يثق أحدنا في الآخر... ولتعرّفي به حكاية، ولصداقتي معه حكاية أخرى، لا تخلو من طرافة وغرابة في الوقت نفسه، وقد تعرّفت إليه عن طريق أخيه الأكبر: «شاين لوهيداكشان كوتالا»، هنديّ آخر من الهنود الكثيرين الّذين يضطربون في مدينة «صور»، يقومون بأعمال لا تخطر على البال، ويفاجئونك بتمكّنهم من حرف وصنائع غريبة، ومعقّدة، ممّا يجعلك تتساءل كيف تعلّموها، ومتى وجدوا الوقت الكافي لإتقانها...

وقبل أن يشتغل في الدّكّان، ويسلّمه «شاين» زمام العمل كلّه، بعد أن أصبح على إلمام بكلّ شيء: تركيب الحواسيب وتفكيكها، والبرمجة وإصلاح الأعطاب، كان يتردّد على المكان من حين لآخر، وكنت أظنّه صديقا من الأصدقاء، أو زبونا مثل بقيّة الزّبائن، ولذلك لم أكن أحبّه، وقد تمكّنت في قلبي كراهيّته، إلى درجة كنت أتمنّى فيها خروجه وانصرافه كلّما جاء إلى الدّكّان حتّى يكون بإمكاني أن أخلو بصاحب المحلّ، الّذي كنت أتردّد عليه في تلك الفترة لسؤاله عن أشياء كانت تتعلّق بالحاسوب الّذي اشتريته منه منذ أشهر... وفي يوم من الأيّام سألت «شاين» عنه فأخبرني أنّه شقيقه، وأنّه يمتلك محلاّ لبيع الملابس الجاهزة، ولم يخف اشمئزازه وتأفّفه من أنّ «الأمور ليست على ما يرام، وأنّه يدفع المال دون طائل: فواتير التّلفون، والكراء، والصّيانة...»، وفي الأخير قال لي إنّه يفكّر جدّيّا في استقدامه كي يعمل معه؛ حينئذ، بدأت أنظر إلى المسائل من زاوية مغايرة، وأصبحت على قناعة أنّ «شانيل» ما دام سيأتي كي يبقى فلا بأس من الوثوق به، ولا بأس أيضا من الاعتماد عليه واستدراجه إلى الحديث كلّما

سنحت الفرصة، فبتلك الطّريقة وحدها يمكن أن أسبر غوره، وأن أعرف عنه ما يمكن أن يفيدني في وقت لاحق... آنذاك، كان كلّ همّي لا يتعدّى الإلمام ببعض الأعطاب وإمكان إصلاحها، كما كنت أحاول أن أتزوّد ببعض المعارف الّتي من شأنها أن تساعدني وأن تجنّبني الذّهاب إلى الدّكّان كلّما حصل عطل بالحاسوب، وقد نجحت إلى حدّ ما في الحصول على ثقة أصحاب المحلّ بعد جهد جهيد سيّما أنّ كلّ الهنود الّذين عرفتهم في مدينة «صور» ليس من اليسير أن تتعلّم منهم أيّ شيء، وأنّك مهما حاولت لن تجعلهم يتنازلون فيعلّموك أو يرشدوك ولو إلى جزء بسيط جدّا من أسرار صنائعهم وحرفهم...!!

«شانيل» و «شاين» ليس من السّهل أن تلاحظ الشّبه بينهما كأخوين للوهلة الأولى، رغم أنّه من الممكن أن يساورك تساؤل ملحّ عن العلاقة الّتي تربطهما كلّما نظرت إليهما حينما يكونان مع بعضهما في نفس المكان؛ وما يلبث التّساؤل أن ينهار دون رجعة إذا انتبهت أنّ العلاقة الّتي تقصدها لا تجمع بين الأخوين باعتبارها ميزة من الصّعب إنكارها وإنّما هي شيء يجمع بين كلّ الهنود في مدينة «صور»، وحاضرة البلاد، بل وكلّ حواضر الخليج؛ الغموقة الدّاكنة الّتي تحيط البشرة كما لو كانت علامة فارقة، والهياكل القميئة الّتي تحسب أنّها لن تصمد طويلا أمام الأعمال الّتي تتطلّب جهدا وقوّة، وأنّها عرضة للعطب في أيّ وقت، وتفاجأ، من حيث لا تدري، أنّ تلك الكائنات، وكنت تنظر إليها في بعض الأحيان بشيء من العطف، ليست كبقيّة الكائنات الأخرى، تقاوم الحرارة القاتلة، وتنصرف إلى أعمالها المختلفة في السّاعات المبكرة من الصّباح ولا تنهيه إلاّ في المساء المتأخّر، لا تسمعهم يتأفّفون أو يحتجّون، وتستغرب كثيرا لنبراتهم الهادئة الّتي لا تكاد تتغيّر البتّة، يعترضونك في الشّوارع، وتراهم في المقاهي أيّام الجمع، أو في المحلاّت المنتشرة هنا وهناك، يشربون الشّاي ويتحدّثون طويلا، أو تلمحهم في «كابينات» التّلفون، يخاطبون على الطّرف الآخر من المحيط زوجات

مجدودات أو أطفالا صغارا يحنّون إليهم رغم بعد الشّقّة ولاتناهي المسافات...

الشّقيقان قصيران، ولهما نفس الطّول تقريبا، إلاّ أنّ «شانيل» يميل إلى السّمنة قليلا؛ وهما شديدا السّمرة، وما يميّزهما عن باقي الّذين عرفتهم من الهنود أنّهما كانا يميلان إلى التّأنّق، تسريحة الشّعر، القمصان الثّمينة الغالية الثّمن، الأحذية الملمّعة، وبعض الأساور الذّهبيّة والعقود... عادات وسجايا لا غرابة فيها، بالنّظر إلى سنّيهما؛ شابّان أحدهما في الثّلاثين من عمره والآخر أقلّ منه بقليل؛ و«شاين»، الأخ الأكبر متزوّج وله بنت صغيرة. «باروتي»...

إنّها الصّدفة، أو القدر المتربّص، وهو يخطّط ويضعك أمام الخيارات المتعدّدة ويحدّد لك المسارات، وما عليك إلاّ أن تمضي دون تردّد، ستتّحد الجهات في لحظة ما، ولن يكون هناك من داع إلى التّشتّت والتّفكير الطّويل حتّى تهتدي إلى الجادّة الّتي ستلقي بك حتما إلى مجاهل المحطّة الأخيرة... وحينئذ، قد يهتزّ وجدانك بفرحة غامرة، فرحة الوصول وانتهاء مشقّات السّفر، فتترقرق لهاتك بالغناء وتصدح بآلاف الأغاني؛ ترى الكون مختصرا، مجرّد نقطة غير مرئيّة في فضاء هلاميّ لامتناه، فتحتقر الأمكنة وتودّ لو كنت آخر بلا حدود، تمتدّ على المسافات والأبعاد، طائرا له ألف جناح، كلّها تندف في نفس الوقت عابرة كلّ الأزمنة السّحيقة فترى ما لا يرى، وتشتفي من ظمأ طال حتّى كاد يودي بحياتك... واللّغة الّتي تسمعها رغم أنّك لا تفهم منها شيئا، أشبه بأصوات تفتقر إلى المعنى، تلتوي بها الألسنة في سلاسة، فإذا ما رام لسانك تقليدها وجدت نفسك تضيف إلى الإلغاز إلغازا جديدا وإلى اللّغة اضطرابا لا يفتقد المعنى وحسب وإنّما الشّبه نفسه الّذي يجعل كلّ اللّغات تمتّ إلى بعضها البعض... وإزاء الاضطراب والحيرة، والهوّة العميقة وانعدام المعنى، تسعى ما استطعت أن تستبعد المؤامرة، وذلك طبيعيّ، لأنّ اللّسان غير اللّسان، والملامح قلّما تسفر وتفصح،

وأقول لنفسي: «انظر إلى الوجوه... إلى السّحنات... التقط بعض الأشياء، بعض الأحرف وحتّى الكلمات الّتي قد تحيل... وبالقدر الّذي يمكن أن يصيرا فيه شخصين ملغزين يجب أن تكون أنت أيضا ملغزا، تحدّث إليهما، لتبعدهما قدر المستطاع عن منطقة الظّلّ، ولتخاطبهما بلسان محايد: الإنجليزيّة، لا العربيّة ولا لغة «المليالي»...»

كانا مجرّد إسمين، انتماء إلى شبه القارّة الواسعة: أرض واحدة، إلى حدّ تلك اللّحظة، بعيدا عن اللّغات والأديان والاختلافات جميعها، والأعراق والطّبائع، وما به يكون الإنسان مواطنا، لا يحمل جواز سفره في جيبه وملامحه على وجهه، ولكن يحمل معهما آمالا تأخذ طبيعتها من الأرض والبيئة الغامرة... واستغربت، منذ لقاءاتنا الأولى، في الدّكان، وقد كنت ألمّ به فيما بعد الظّهر، حوالي السّاعة الرّابعة، وبعد انتهاء الدّوام، إلى حدود السّاعة التّاسعة أو العاشرة، أنّ بعض الهنود ممّن كانوا يقصدون المحلّ للسّؤال عن بعض الحاجات لم يكونوا يتكلّمون نفس اللّغة، وأنّهم كانوا يلجأون إلى التّحدّث بالإنجليزيّة، وأنّهم لا يطيلون الحديث، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى أغلب الهنود الآخرين في المدينة حين يقصدون المقاهي أو بعض الأماكن الأخرى الّتي يقصدونها للتّرويح عن النّفس والتّريّض... ولم يكن هناك بدّ من سؤال «شانيل» فسألته، فتنطلق أساريره ويواجهني تماما، وهو الّذي كان يضيق بصمتي واستغراقي، فيقول ويسهب ويظلّ ساعات يتحدّث، إلى درجة أنّ حديثه قد يتحوّل في بعض الأحيان إلى مزيج من لغات شتّى، عربيّة محطّمة وإنجليزيّة تفتقر إلى بعض الوضوح والسّلاسة و «المليالي»... قال لي إنّ اللّغات في «هندستان» بعدد الولايات، وإنّه من «كيرالاّ» في أقصى الجنوب!!...

«دلهي»، حاضرة البلاد، عرفتها منذ صغري!!

وكأنّ الاتّساع والكبر كانا مجرّد مفاهيم نظريّة لا علاقة لها بالواقع، والجغرافيا خطوط وأشكال على الورق ليس إلاّ، إذ تصوّرت

أنّ كلّ هنديّ لا بدّ أن يكون قد زار «دلهي»، وأنّه من غير المعقول أن يكون أيّ شخص لم يذهب إلى هناك لسبب أو لآخر...!! ولعلّ ذلك ما ضاعف من استغرابي وجعلني أصاب بصدمة لم أفق منها إلاّ بعد أن قال لي «شانيل» وهو يشرح لي بعض الأشياء:

. لا يفكّر الواحد في الذّهاب إلى دلهي إلاّ إذا كانت له حاجة أكيدة هناك!!...

ثمّ:

. نحن نعيش في قارّة لامتناهية الحجم... متاهة!!

وابتسم، فانفرجت شفتاه، وهو يواصل مغيّرا الحديث والنّبرة كليهما:

. سنستغلّ الفرصة وسنذهب إلى هناك!!

فقلت وقد ارتسمت على شفتيّ ابتسامة غبيّة لا تشبه ابتسامته الّتي كانت تحمل الكثير من المعاني:

. هناك أين؟!

قال، وبدا لي أنّه كان متردّدا، كأنّه يخشى من شيء ما، أو يتحسّب من ردّة فعلي:

. لقد فكّرت مليّا... أعني لقد قلّبت المسألة على وجوه عديدة، ورأيت أنّه يحسن بنا أن نقضي بعض الوقت في دلهي...

لم يشأ أن يتمّ كلامه، والتفت إليّ كأنّما يجسّ وقع كلماته عليّ؛ وقد كنت مضطرب البال، مشوّش الذّهن، لعجزي عن اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب... و «شانيل» كان يعرف منذ أن سلّمته المال وفوّضته في ترتيب الخطوات المتعلّقة بالرّحلة أنّه بات يسيطر عليّ، ولا يتورّع في بعض الأحيان أن يفرض عليّ أشياء فوق احتمالي... كنت أجد رغبة في التّصدي له، أودّ لو أثور عليه، وفي الوقت الّذي أزمع فيه مجابهته أجد أنّ كلّ ما كان يقترحه عليّ يجد هوى لا يغالب في نفسي... أمل ما، اندفاع إلى اكتشاف المجهول هو ما يدفعني إلى

التّسليم، وهو نفسه الّذي يزيّن لي إغراءات «شانيل» ومشاريعه، فيحثّني على دفع المال وأعطيه، وأعلم أنّه كان يتصرّف في المبالغ الّتي أمنحها إيّاه، فظروفه الماديّة كانت تسير من سيّء إلى أسوا، ومع ذلك اضطرّ إلى السّكوت، أبتلع القهر والمهانة والإحساس المخزي بالخديعة، ولا أتجرّأ على المقاومة... هناك أمور، بعض الأشياء الّتي تمنعني من اتّخاذ الخطوة الحاسمة بيننا، أن نقطع العلاقة ويمضي كلّ في حال سبيله، ليس المال وحده، رغم أنّ المبلغ كان يزداد في كلّ يوم ويبلغ أرقاما خياليّة، فبالإضافة إلى ثمن التّذاكر والرّسوم، كان عليّ أن أدفع له أيضا . بناء على طلبه . مصاريف الفندق والأدلاّء الّذين سيصحبوننا خلال إقامتنا إلى الأماكن الأثريّة، وكذلك صاحب السّيّارة السّياحيّة...!! الكثير من الأسئلة ينطّ إلى رأسي، وتساورني خواطر أشبه بالإجابات الغير المكتملة، سرعان ما تنهار، وأعود إلى نقطة البداية، إلى الشّكّ، والصّراع الدّائم، وهزّات النّدم، وموجات متواترة من النّشوة المشوبة بالقلق: ما الّذي يجبرني على القبول، والتّسليم بهذا الشّكل؟ ولماذا لم أرفض اقتراح «شانيل» من البداية، وبشدّة؟... لماذا كلّ هذا الضّعف؟ وهل كان بإمكاني أن أجعل الأمور تسير وفق رغبتي وإرادتي؟!! ولكنّي رفضت التّدخل وأصررت على الانسحاب، وزادت الأمور تعقيدا، وتشعّبت المسارب وغدت الطّرق الّتي كانت واضحة المعالم من قبل مجرّد متاهات تؤدّي إلى متاهات أخرى، وتفرّعت الجادّة إلى مفترقين من الصّعب الاختيار بينهما!!... بدا لي أنّ في علاقتنا شيئا محيّرا يستعصي على الفهم، وأنّ القدر تدخّل بعنف ليجمع بيننا، ويقيّدنا بأواصر سيكون من غير اليسير علينا أن نتحرّر منها؛ فإذ أتخيّل أنّه سيأتي يوم أطلّق فيه المحلّ دون رجعة، وأنّني سأفتقد جلسات الشّاي اليوميّة، والأحاديث الّتي رغم تفاهتها والكثير من سوء الفهم فيها لكونها خليطا من لغات وألسنة ولهجات ولكنات متباعدة متنافرة إلاّ أنّها كانت كفيلة بتخليصنا من مساءات

مدينة «صور» الرّتيبة الثّقيلة... إذ أتخيّل ذلك أصاب بالدّوار، ويتلبّسني الغثيان، وأستشرف الفراغ الآتي، فيحملني إلى مشارف الأرض البعيدة، وإلى الحكايات الأثيلة الّتي لا تنتهي...

التّراجع... أيّ تراجع بعد الّذي كان!! ولم يبق أحد في المدينة إلاّ وعرف، لم يبق هنديّ إلاّ بتّ معروفا لديه، بالهيئة والشّكل والملامح، أشخاص لم أرهم من قبل، يقتحمون عليّ وحدتي في المقهى أو السّوق، ولا يستشعرون ذلك الحرج الّذي غالبا ما يباعد ما بين الغرباء، يقتربون، دون إطلاق التّحيّة أو السّلام، وكأنّما كوني سأسافر إلى بلدهم يعطيهم مبرّر امتلاكي، إن لم يكن على سبيل الحقيقة فمجازا .يطرحون السّؤال حتّى من قبل أن أفيق من أثر الصّدمة، بفضول:

.هل سافرت؟

وبدل أن أشعر بالغضب والثّورة على هذا التّطفل الوقح، أجدني منساقا إلى الإجابة، فألتفت إلى محدّثي وأقول:

.ليس بعد!!

«اللّعنة على «شانيل»! لتحلّ عليه اللّعنة والطّوفان والطّاعون! ليجرفه السّيل إلى مهاوي الموت والخراب!!... تلوّثت مشاعري، وكان هو السّبب، اضطربت الأحاسيس بداخلي، والتبس الغموض بالوضوح، ولم أعد أميّز بين المتناقضات... «هل سافرت؟!» . على ضيقي وعدم ارتياحي أن أحدا، أيّا كان، قد تسلّل إلى محرابي وقطع عليّ استغراقي وأويقات صفائي، إلاّ أنّ سعادة عارمة كانت لا تسعني كلّما اقترب أحدهم منّي، وبدأ يطرح عليّ سيلا لا حدّ له من الأسئلة: ربّما رأيت نفسي بحّارا مغامرا، يستكشف بحارا جديدة، ويطلّ على جزائر الدّنيا، وفي اللّيل حين يطلع القمر، وتنتشر النّجوم على السّماء مثل البرقع، وتهدأ أصوات الكون النّائم، تجيء الحوريّات الجميلات من الأعماق السّحيقة فيعزفن موسيقى الشّوق، ويسيل الخيال، وفي هينة من الزّمن الرّاحل وغفلة منه أتخلّى عن السّفينة والقارب،

وليس من نجاة، بل الهلاك اللّذيذ، ومتعة مجهولة تتجرجر على أديم البحر، وكلّما اشتدّ العزف وارتفع الغناء تأكّدت أن لا مفرّ من الموت، وأنّ الحياة ما تحمله الحوريّات... أغمض عينيّ وأرحل، وأنزل إلى العمق وأنا لا أحسن السّباحة، ولا أبالي، ومن حولي تلتفّ الدّوّامة ويخضّني الماء فأفرد يديّ، وأحرّك قدميّ... كانتا ثقيلتين لدنتين، مثل الرّصاص، تشدّاني إلى تحت، وتدفعني رغبة الحياة إلى المحاولة، وإلى الصّراع، فأجذّف وأجذّف، وتتراءى لي شطآن الأمان، فأصرخ، وتصخب الكلمات في حلقي وتطلّ الدّموع على مشارف الجفون... في وقت ما تمّحي صورة البحّار، والبحر يتحوّل إلى صحراء رحيبة، وأراني من موقفي، في الظّلمة السّاجية، تاجرا أو رحّالة على برذونه أو بعيره. ابن بطّوطة، يأتي من ذاكرة الزّمن المنسيّ، فلا أملك إلاّ أن أحلّ فيه وأتقمّص، ومدنه الكثيرة والكبيرة تصير مدني، وملوكه، سلاطينه المشهورون، من السّند إلى الهند، إلى مصر وبلاد الشّامّ، وفيما وراء النّهر، وجزائر الواق الواق، وما كان معروفا من العالم القديم وما كان مجهولا، والأمس البعيد، والزّمن الرّاهن، وأسرار الموجودات، وما كان منطويا في بطن الغيب، كان كلّ ذلك خارطة في ظاهر كفّي، أعرفها بتقاطيعها، ورسومها، وخطوطها الرّقيقة والغليظة، والمستدقّة، أعرفها بأنهارها ووديانها، ونجادها ووهادها، وسهولها وهضابها... يا الله!! ما أروع الخاطر! وما أحلى أن يتشظّى الجسد عن روح توّاقة إلى الهيمان، فتعتري البدن خفّة لا مثيل لها، ويحلّق في المدى، في جنان فيها الأنهار جارية، والعصافير صادحة، وكلّ الكائنات راقصة، والوجود لا يسع نفسه من فرحة اللّقاء وفورة الأحبّة، وهم يتعانقون ويتناجون ويتعاتبون...!!»

مهما أمعنت في الهروب، فلا مفرّ؛ ومهما ضربت في أرض الوهم الّذي ما يعتم أن يتبدّد ويتلاشى، فصوت «شانيل» يحاصر ويطارد، ويشدّ بأنامله السّاحرة على العنق مباشرة، ولا فائدة بعد ذلك من

الصّراخ أو الاحتجاج:

.أرى أن نذهب إلى دلهي؛ هناك سنقضي ستّة أو سبعة أيّام...

وواصل بعد قليل:

.ثمّ بعد ذلك نستقلّ الطّائرة إلى مومباي... أعتقد أنّ قضاء يومين فيها يكفيان، وما تبقّى من المدّة نقضيها في كيرالاّ، وهناك سيكون أمامنا متّسع كاف من الوقت للقيام بالعديد من الأشياء وزيارة العديد من الأماكن...

[لا يقترح، وحاجته لم تكن إلى الاسترشاد برأي، أو دراسة الفكرة من أساسها، بقدر ما كانت إشارة أنّه حان وقت الدّفع... وما ألبث أن آتيه بعد يومين أو ثلاثة بالمبلغ المطلوب!!]

... آمنت بالصّدفة، ولم أعد أتوقّع، وبين يوم وآخر، وفي لحظات بعينها تكون مفاجأة في الانتظار، وخبر يقال بحياد، بعد أن سقطت جميع الأقنعة، وغدا التّردّد القديم أثرا بعد عين!! فات الأوان الّذي كان يمكن فيه أن أحتجّ أو أرفض، وآخر محاولة في التّراجع ضيّعتها، انعقد لساني، وزايلتني الرّهبة والخشية وأنا أسمعه يقول إنّ صديقا من أصدقائه على استعداد أن يصحبنا في الرّحلة، وبالتّالي نكون قد أزحنا عقبة أخرى من طريقنا:

.«نايجو فيداسي»، لم يكن غريبا بالنّسبة إليّ، وقد تعرّفت إليه، من بين هنود آخرين: يميل إلى الطّول وله شاربان، ويعمل سائقا خصوصيّا لأحد الأشخاص المتنفّذين بالمدينة؛ رقيق الملامح، واضح القسمات، عفويّ، سهل المعاشرة؛ أمضى فترة لا بأس بها في مومباي، وهناك تعلّم لغة البلاد الرّسميّة وأتقنها...!!

داخلني ارتياح لصحبته، لكنّ شيئا ظلّ غير مفهوم، و«شانيل» حين تحدّث عن احتمال مرافقته لنا ربّما كان يتعمّد عدم الإفصاح، وقد ظللت أعتقد إلى آخر لحظة أنّه ما أن نصل إلى «مومباي» حتّى نقصد منزل زميلنا ونمكث فيه المدّة المقرّرة لإقامتنا، كما فهمت، من

خلال كلامه، أنّ بعض أقاربه كانوا يقيمون في المدينة الكبيرة، وأنّهم على استعداد لاستضافتنا... هكذا فهمت المسألة، ولم يساورني الشّكّ أنّه مع نهاية شهر يوليو سيكون كلّ شيء جاهزا: التّأشيرة والتّذاكر، وكذلك الحجز في الفندق!!...

لكن، أكتشف . لسوء حظّي . أنّ الأشياء ليست بالسّهولة الّتي أتصوّرها، وأنّ ما كنت أفهمه لم يكن بالضّرورة ما يفترض فيه أن يكون!! فـ «شانيل» كانت لديه دائما مبرّراته الّتي تجعله غير واضح وصريح، سيتعلّل بحجج، وسأكون مضطرّا لتصديقه، وقد أجد نفسي مدفوعا إلى إيجاد مبرّرات لم يكن هو نفسه ليفكّر فيها، فاللّغة عائق بيننا، ونحن معرّضان لسوء الفهم كلّما تحدّثنا، كما أنّ بعض ظروفه الصّعبة، الّتي كان يطلعني على بعضها ويخفي عنّي أكثرها، هي أيضا من الحواجز الّتي تفصلني وتبعدني عنه...

«النّسيان الملاذ!»! والانتظار قدر آخر، منذ طفولتي المبكرة وحتّى الشّهر الأخير قبل السّفر، كأنّما كتب عليّ أن أنتظر إلى الأبد وأن أتعذّب، وإذا كان غيري ينتظر ويتحمّل لأنّه يدرك أنّه في يوم كذا على السّاعة كذا ستنتهي آلامه وعذاباته، وسيحصل على ما كان يأمل فيه ويتوق إليه، فأنا كنت أنتظر، ولا أدري ما الّذي كنت أؤمّله: أبحث عن جدوى ما أفعل، وأوهم نفسي بأشياء، أداريها، وأخترع أسبابا ومسبّبات... وأطرد هواجس ما فتئت تتزايد وتتضخّم، حتّى أنّها بين الفينة والأخرى تصبح مثل عملاق أشعر مستعدّ لالتهامي وابتلاعي!!

أسأل، ألحّ في السّؤال، و«شانيل» يتظاهر بسماعي، ويبتسم، يكتفي بالابتسام ولا يجيب: مجرّد كلمات كان يلقي بها إليّ، ولا يزيد: اطمئنّ، سيكون كلّ شيء على ما يرام! سيتمّ كلّ شيء في حينه!! وأنا أعلم أنّه لم يحجز بعد، وأنّ الكثير من الأشياء ما يزال معلّقا، والمبالغ الماليّة الّتي كنت أدفع بها إليه من حين لآخر كان يتصرّف فيها، لا أدري كيف... وعندما يبلغ اليأس مبلغا لا متقدّم بعده، ويجتاحني الانهيار،

وأحسّ ذلك الهبوط والانتكاس العدائيّين، أتمنّى لو كان ما أعانيه مجرّد كابوس أو حلم ما أعتم أن أفيق منه، ويعود الحال كما كان: أتمنّى لو أنّي لم أعرف أحدا من الّذين عرفتهم، «شاين»، «شانيل»... و «نايجو»، و«ديداش»، و«ناندن»!!...

مازلت أتذكّر كلمات «شوبنهاور»، أستظهرها عن ظهر قلب وكأنّي أقراها في كتاب مفتوح، أستشعر مرارتها ونفسها اليائس، ورائحة الموت فيها، وكلّ ما حولي يذكّرني بالموت والنّهاية... المكان، الوحدة، الظّلمة القاتمة، والفراغ، بين جدران صمّاء، وبين حرارة قاتلة لا مفرّ منها إلاّ إليها: «حتّام نصبر على هذا الألم الّذي لا ينتهي! متّى نعترف أنّ حبّ الحياة أكذوبة وأنّ أعظم نعيم للنّاس جميعا في الحياة هو الموت!!» هل كنت متشائما؟! ربّما؛ ولو أنّي أفضّل استبدال «متشائم» بـ «متطيّر»؛ وما كنت أراه يحدث أمامي، بعض الأحداث الصّغيرة الّتي قد تمرّ دون أن يعيرها أحدهم أيّ اهتمام، وبعض التّصرّفات، وأنماط من السّلوك، أكّدت لي، وبفظاعة، أنّي لم أكن على صواب، وأنّ قراراتي الّتي اتّخذتها دون أن أمنح نفسي وقتا للتّفكير فيها كانت أقرب إلى الجنون، بل هي ضرب من ضروب الجنون؛ «شانيل» لا يمكن أن يكون مثل «رامي»، أو مثل أيّ صديق من الأصدقاء الّذين أعرفهم، لا في طباعه، أو سلوكه، أو أيّ شيء آخر، ولا ألومه بقدر ما ألوم نفسي!! أقول: لا شيء يربطني به، كلّ شيء فينا مختلف، فارق السّنّ، وهو الشّاب الّذي مايزال في ميعة الشّباب، يبحث عن الامتلاء، والحياة الفائرة، والمتعة السّافرة، في الزّوايا الّتي تنعكس فيها الأضواء الكامدة، وتتوزّع على جنباتها المناضد والزّجاجات الفاخرة وأكواب الشّراب، وأنا الشّيخ الفاني، الّذي يحسّ أنّه ينوء تحت السّنوات الأربع والثّلاثين الّتي يحملها على ظهره... قد ملّ الانتظار والاضطراب بين الأمكنة، بحثا عن الضّجيج والأصوات الكثيرة الّتي لا تهدأ، والانتقال بين الرّفوف لاقتناء مستحضرات التّجميل والعطور الباريسيّة وآخر

تقليعات الأزياء... ويجذبني الشّعر. أودّ لو أقضي السّاعات في القراءة والاحتجاب في غرفتي الصّغيرة بالمركز، على ضوء المصباح السّهاري، يهزّني الحنين إلى مدن الصّمت والسّكون، وتغريني المسالك الملتوية المؤدّية إلى تلك الكوى الشّبيهة بالكهوف أو المغاور حيث للحياة طعم آخر، ولذاذات أخرى، وحيث بإمكان الإنسان أن يتحوّل إلى كائن خالد لا يتهدّده الموت ويحتويه الخلود ويكتنفه؛ و «شانيل» . كائن نثريّ، صورة عن الضّياع القاتل في متاهات المدينة الضّائعة برائحة الإسفلت المذاب، لا يتوقّف طوال اليوم عن الحركة. من التّاسعة صباحا إلى العاشرة ليلا. في انتظار زبائن محتملين، سيرهقونه وهم جلوس إليه أمام الحاسوب، يؤشّرون إلى آخر النّغمات. وإلى «أسماء» غدت مثل الفطر تنتحل أصواتا وصورا كي تحتلّ لها مكانا على تخت الغناء والطّرب!! هراء... هراء... هراء!!

اللّعنة!! اللّعنة عليك يا «شانيل»!!»

.١٠.

[بم التّعلل لا أهل ولا وطن... المتنبّي]

** الواحد والعشرون من تشرين الثّاني ٢٠٠٢

(.دلهي.)

... ليست البواكير كالنّهايات وهي تتلكّأ منذرة بالزّوال والأفول؛ وليست الأحداث وهي تعبر دون إرادة منّا، وتتخطّفها أيدي الماضي الجبّارة بعد ذلك. إنّما تزوّدنا بذاكرة للتّأسّي، وتاريخا يهدّد ظلام الوحدة وعزلة الشّيخوخة، ولكن عذابا يضيف إلى العذابات الأخرى،

وجرحا بدل أن تلتئم به جراحات القلب ينكأها من جديد... ومنذ ثلاثة عشر عاما، على متن الطّائرة في طريق العودة، كنت أتماسك حتّى لا أبكي، وكان أصدقائي ممّن سافروا معي إلى لندن يضجّون من فرط السّعادة والفرح، وهم يعودون إلى الوطن بعد غيبة. الحقيقة أنّها لم تطل غير أنّها تركت في أعماقي إحساسا لا يوصف أنّي لم أعش يوما واحدا من السّنين الكثيرة الّتي كانت تسيّج حياتي، وتحاصرني مورّطة إيّاي في متاهات عمر لا سبيل إلى الخلاص منه؛ الإحساس ذاته، وشعور أنّ الأماكن ليست كلّها مثل بعضها، وأنّه سيّان أن تعيش في بلد صغير أو في بلد آخر يكبره، فالانتماء قدر، كالولادة والموت. ذلك الإحساس هو ما دفعني إلى التّفكير في البقاء، والمحاولة رغم المعوّقات، والصّعوبات الّتي وإن فكّرت فيها منذ البداية برومنسيّة مفرطة، وخيال حالم، إلاّ أنّي انتهيت إلى القناعة أنّ الواقع بفظاظته وفظائعه يقوم على طرف نقيض من الآمال؛ كان ذلك بعد أخذ وردّ، وزيارات عديدة إلى إحدى العائلات الإنجليزيّة، أيّام الآحاد من كلّ أسبوع، زيارات غيّرت الكثير من الأفكار الّتي كنت أتعهّدها بالرّعاية في مؤخّرة رأسي، وأكّدت عزمي على الصّراع إلى النّهاية من أجل إيجاد موطئ قدم في «بليوموث»...!! «غراهام»... «غراهام بالاّمي» . ربّ الأسرة، وقسّ بإحدى كنائس المدينة، ظنّني أندونيسيّا أوّل ما رآني، وسألني إن كنت مسيحيّا، ولم أنتظر طويلا، إذ منذ اللّقاء الأوّل أخبرته أنّي أرغب في البقاء بإنجلترة، وأنّي على استعداد أن أفعل كلّ ما يطلب منّي أن أفعله... ضحك، كانت ضحكة صغيرة محتشمة، فيها الكثير من دبلوماسيّة رجال الدّين، ولم أستطع أن أفهم منها فيما إذا كانت علامة موافقة أم ضحكة أراد أن يغطّي بها على حرجه ومفاجأته أم إشارة كان يقصد منها أن يدعني في منتصف الطّريق إليه، فلا يخسرني، وأرتدّ عنه من حيث أتيت؛ نظراته، ودماثته، والرّقة المتناهية الّتي حرص أن يشملني بها طوال الوقت، لم تكن لتفوتني دلالتها، وهو يراني الضّالّ الّذي ضيّع طريقه،

ولن يطول عليه الأمد حتّى يصير أحد رعاياه!!... وظللت أتردّد على الكنيسة والبيت، وتعرّفت إلى «ريتشارد»، النّجل الطّيّب، و«فيفيان»، و «جورج» العجوز، وتواصلت بيننا الأحاديث وامتدّت، وكانت الأيّام خلال ذلك تمرّ، ومع كلّ يوم ينقضي، تزداد الهوّة اتّساعا، ويتضاءل أمل البقاء، والحلم الّذي ظللت السّاعات الطّوال أدغدغه في خيالي، وأمنّي نفسي بتحقيقه يوما ما، كان يتلاشى ويتبخّر رويدا رويدا...

والآن، بعد كلّ تلك السّنوات، أنتظر أن تنزل الدّموع، وتأبى الدّموع أن تسقط، وأتلفّت من حولي، فلا أجد أحدا، رغم أنّ المطار، لازدحامه، ليس فيه موطئ قدم واحدة... كبرت، بل شخت، ونخر الزّمان جسدي، والحياة أواجهها بمفردي، من دون سلاح، والحلم الّذي طالما داعبني، أن تكون لي زوجة وأبناء، فيوقف كلّ ذلك نزيف اليأس الدّامي بداخلي، ويأخذ بيدي إلى الضّفّة الأخرى، لا أثر له، وهو كلّما تقدّمت منه عبس في وجهي مكشّرا، واختفى في ثنايا الوجود الوعرة، دونما رجعة... ماذا بقي إذن، غير السّفر؟! ماذا تبقّى غير التّرحال، والهروب من تيه إلى تيه آخر، ومن صحراء إلى صحراء أخرى؟!... وحتّى السّفر أقاد إليه برسن، أجبر عليه، ومع أناس لم أعرفهم من قبل، وألقى بهم القدر في طريقي؛ أنا لم أعتد الانتظار، وكان يروق لي أن أمضي، دون رفقة، آنئذ أكون حرّا، كائنا يواجه مصيرا بلا قيود، فإذا ما حدث ما ليس في الحسبان، كانت المسؤوليّة مسؤوليّتي!!

في صالة الانتظار، كلّ الوجوه الّتي أراها تضطرب هنا وهناك غريبة، خارطة من الغموقة، واللّهجات والنّبرات، والكلّ في عجلة من أمره...

لا، لم أكن سعيدا، والمكان بأسره استحال عدوّا، واللّيل عدوّ آخر، يتخضّب بالسّواد والغضب والتّحسّب، ولا شيء تبقّى لي لأدافع به عن نفسي، والدّقائق تمرّ، والسّاعات تختصر، والأشخاص القادمون والرّائحون همّ آخر يضغط على أعصابي، فأنكمش كالقوقعة: أشعر

أنّي أصبحت مكشوفا للجميع، وأجهد أن أنغلق حتّى لا يراني أحد فيرى على ملامحي ما يمكن أن يشي بعواطفي...

تحوطني الجهات، وتتداخل الأزمنة وتتشابك، وأرى الماضي البعيد، البعيد جدّا يستعاد، المطر وهو ينزل، والشّقّة الرّحبة، والأصدقاء، وصديقاتنا البنات، وأحاديث اللّيل؛ والسّمر ما ألذّه! أتسامر مع نفسي في الغرفة الصّغيرة، والسّيجارة بيدي: السّيجارة الأولى وقد أعطتنيها «كايتي» فلم أرفضها، وآليت أن أحتفظ بها كذكرى عزيزة منها، وذات ليلة، كان الحزن يتربّص بي في كلّ الزّوايا فقرّرت أن أدخّن، ولم أجد غير سيجارة «كايتي»... فتحت درج الدّولاب، وأخذتها، وبحثت عن القدّاحة فأشعلتها، أزحت السّتارة عن النّافذة وقرفصت فوقها، أخذت نفسا عميقا وأنا أتطلّع إلى الطّبيعة في الخارج، مرتفع من الأرض يسبح في عالم من الخضرة الدّاكنة، والثّلج يتساقط متلكّئا، مذكّرا ببداية الكون في طفولته الأزليّة!!

رحلة الغرب النّائي، في مدن الجليد والضّباب، على الأرض تحت السّماء، وبحر الشّمال يحاصر الجزيرة من بعض جهاتها، وكلّ ما رأيته كان يبثّ إحساسا بالكنّ ورغبة في الذّوبان والتّماهي...

لم يبق غير الأثر، الخطى الّتي إن عاجلا أو آجلا ستمّحي، وذكرى قاتلة بأنّ كلّ شيء في طريقه إلى النّهاية؛ والغرب يظلّ غربا والشّرق هو الآخر سيظلّ شرقا، وبينهما تتباعد المسافات وتقوم الحدود كالمتاريس، أعمدة ثقيلة بالغة الطّول، وغليظة، كلّما حاولت تجاوزها تحدّتك، وتبعتك أينما ولّيت وجهك!!...

لا أعرف كم كانت السّاعة عندما بدأت الطّائرة بالنّزول في مطار «إنديرا غاندي الدّولي»، ولكنّي كنت أعلم أنّ الفجر بدأ يسفر، والظّلمة الحالكة للّيلة السّابقة غدت شفيفة رقيقة، وقد زادها رذاذ الصّباح المبكر فتنة لا تقاوم؛ لم يلبث أن سرى في الدّاخل صوت المضيفة معلنا نهاية الرّحلة، ومذكّرا بدرجة الحرارة في الخارج، والسّاعة حسب

التّوقيت المحلّي... نهضت من مكاني ففتحت الصّندوق فوقي وأخذت حقيبتي، وتقدّمت مع بقيّة المسافرين إلى باب الخروج؛ لم أنتظر «شانيل» و«نايجو»، كنت متأكّدا أنّهما في مكان ما من الطّائرة، وأنّهما بمجرّد أن ينزلا سينضمّان إليّ...

عند الخروج كان التّاكسي في انتظارنا...

سلّمنا على السّائق وشخصا آخر قال إنّه يعمل بوكالة أسفار في العاصمة، وإنّه المسؤول عنّا طوال مدّة إقامتنا، وأفهمنا أنّه على استعداد لحلّ جميع المشاكل الّتي يمكن أن تعترضنا... كانوا طوال الوقت يتكلّمون بلغة لم أفهمها، وقد استغلّيت فرصة انشغالهم، فسرّحت طرفي في الفضاء المترامي الممتدّ أمامي؛ في تلك اللّحظة كنت حرّا، غير مبال بالحرج، وبدا لي خلال استغراقي أنّ «دلهي» ليست المدينة الّتي رسمت لها صورة أقرب إلى الخيال في ذهني، وإنّما هي مدينة في طريقها إلى الموت؛ كان القدم يكتنفها من جميع جهاتها، عتاقة متأصّلة في الزّمان، وكلّ ما فيها يثير الشّفقة، ويبعث على الحزن؛ شوارع متآكلة في أطرافها، ولا أثر للنّظام وسط الفوضى الصّامتة... أناسها متعبون، مرهقون، ولكثرتهم تتساءل من أين جاءوا، وكيف استطاعوا أن يقاوموا الموت كلّ هذه المدّة... يطاردهم الجوع، والفاقة والحاجة والعوز، ويشتغلون باللّيل والنّهار، يعملون كلّ شيء، ولا يخجلون... كنت أراهم من شرفة غرفتنا بالفندق يجرّون عربات يد عليها أنواع مختلفة من الغلال أو الخضروات، يبدو عليهم التّعب، والإرهاق، ولكنّهم كانوا يقاومون كلّ ذلك بعزيمة لاتفلّ؛ لعلّهم كانوا يحملون تاريخ «هندستان» وحضارتها في عقولهم وقلوبهم، وهذا ما كان يساعدهم على الحياة...

إنّي غريب!!

وكشأن الغرباء، تآلفت مع الوضع الجديد، تركت لغتي ورائي، طردتها من خيالي، وذات ليلة ظلماء، لا قمر فيها، حفرت لها عميقا

وردمتها في التّيه؛ واللّغة المتوفّرة لديّ الآن، هي نفسها لا تفي بالغرض، نادرا ما أستعملها، وبقيّة الوقت أخلو إلى الصّمت، أو أسترق النّظر والسّمع إلى «شانيل» و«نايجو»، وهما يضحكان أو يتحدّثان، وكأنّه لا وجود لي بينهما... أنظر إليهما فكأنّهما شخصان غريبان عنّي، لم أتعرّف إليهما في يوم من الأيّام، ولم نتجاذب أطراف الحديث بمدينة «صور»!! أهرب منهما، أشيح بوجهي عنهما، والغرفة الوحيدة المشتركة بيننا، عذاب آخر، لا أطيقه، وأخاف منه إلى درجة القرف؛ كانت لي دائما غرفتي الخاصّة، وأشيائي الخاصّة، وأسراري الخاصّة، ولم أعتد في يوم من الأيّام أن يقاسمني أحدهم نفس المكان... وتتضاعف مخاوفي وهواجسي، ويغزوني التّحسّب والرّهبة من صديقيّ، ولم أتأكّد بعد من احتمال وجود علاقة غير طبيعيّة بينهما: الشّذوذ؟! انحراف الميول؟! اشتباه له ما يبرّره، ولكن لماذا لم أنتبه إلى كلّ هذا من قبل؟! لماذا الآن فقط؟!... لن يعجزني إيجاد الأعذار لنفسي فيما لو حاولت ذلك، ولكن ما جدوى الأعذار!!

أنأى إلى الزّوايا، أتباعد، وبمهارة أجرّ حشيّتي إلى أقصى حدّ في الغرفة، ألفّ نفسي في الغطاء حتّى لا اضطرّ إلى رؤية المشهد الّذي لم أتوصّل إلى تحديد طبيعته... يتعمّد «نايجو» أن يتحرّر من ثيابه. كلّ ثيابه، ويكتفي بمنشفة يضعها حول وسطه، وبرعونة، وصبيانيّة، يلقي بنفسه فوق السّرير؛ يقترب من «شانيل»، يتماسّان، تنطلق ضحكاتهما، فيرنّ صداها داخل الغرفة، يتداعبان، والحديث إذا بدأ بينهما لا ينتهي البتّة؛ وإذا كان «شانيل» قليل الكلام، فإنّي كنت أستغرب لـ «نايجو»، فما أن يفتح فمه حتّى تندلق من جوفه الكلمات والحروف والأصوات، ولا يتوقّف أبدا؛ ماذا كان يقول؟! وهل من معنى لكلّ تلك الفوضى؟! سيكون عليّ أن أستمع وحسب، وأن أتظاهر بالنّوم، وأن أبقى صاحيا إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، وأن أعيش الصّراع بداخلي كلّ يوم، وأن أسال نفسي: لماذا تورّطت؟ ثمّ أقول: هل

كان بإمكاني أن أفعل خلاف ما فعلت؟!!

كنت أضع قناعا على وجهي طوال حياتي، وازداد القناع كثافة في فندق «ريجنت كونتيننتال»... فندق من الدّرجة الثّالثة أو الثّانية، في حيّ عتيق، أسلم نفسه للسّكون والهدوء، في شارع ضيّق، يتفرّع في جميع الجهات، ولولا السّائق وإلفته للمكان وتمكّنه من صنعته كصاحب سيّارة سياحيّة، له خبرة بمسالك المدينة وشوارعها وأحيائها لاستغربت أن يكون مثل هذا الفندق في مثل هذا المكان... أين صمته من صخب «كارول باق»؟ من الضّجيج الّذي لا يهدأ، وملايين البشر من مختلف العناصر والأعراق، لا تعرف ماذا يفعلون أو ماذا يشتغلون، فسيفساء من الأديان والأجناس، وفسيفساء من المطاعم والمقاهي المنتشرة كالهمّ على القلب، عشرات منها للنّباتيّين، بعض أصحابها يمارسون هوايتهم على قارعة الشّوارع، أوانيهم وأدوات طبخهم وأباريقهم، وأيديهم الّتي لا تكفّ عن الحركة، وأفواههم المغلقة، كأن لا وقت لديهم للحديث أو الثّرثرة... الماء! لا حاجة بي للطّعام! فقط قطرة من الماء وسط هذا الضّياع الّذي ليس له حدود؛ والظّمأ يقطّع أحشائي، والماء مغليّ، حارّ، تعافه نفسي فأجترّ خيبتي في داخلي، ولا أملك إلاّ أن أتبع خطى صديقيّ في رحلة بحثهم عن شيء يؤكل... سبعة وعشرون يوما، ثمان وعشرون ليلة، نسيت خلال كلّ تلك المدّة طعم الماء، ونسيت ما معنى أن يأكل الواحد رغبة في الطّعام، فيرى الأشياء من حوله، على النّضد الموضوع أمامه، أصناف من الأطايب، فتحرّضه وتزيد من شهيّته... كنّا نخرج سويّة من الفندق، ونمشي في الشّارع المقابل، ونعرّج بعد ذلك يمينا أو يسارا، ونضرب في الأزقّة، فيستغرقنا الوقت دون أن نشعر به... وكان «نايجو» دائما في المقدّمة، ارتضى لنفسه أن يقوم بدور الدّليل، بحكم عادة متأصّلة لديه في الاقتحام، وهو الّذي أمضى سنوات بأكملها يعمل بإحدى الشّركات في «مومباي»؛ وندخل أحد المطاعم، ويأتي صاحب المطعم، فأدرك أنّ

المشهد القادم لا يعنيني، وبعد أخذ وردّ سيختار صديقاي بدلا عنّي؛ والكلام صعب، واللّغة الّتي يتكلّمون بها أصعب، والوحدة، الغربة بين الجماعة مرارة، وانتحار بطيء؛ فلو كان فقط بإمكاني أن أبتعد عنهما، أن يرتدّ الزّمان إلى الخلف، وأن أكون صاحب القرار!!

يلتفت إليّ «نايجو» ويقول:

.هل تريد «برياني»؟

أحسّ بالإحراج، وبتفاهتي، إزاء كلّ ما يحدث حولي، فأن تختصر حياة المرء في نقاش حول المأكل والمشرب، يجعل كلّ شيء يفقد قيمته ومعناه... أبتسم ابتسامة صفراء أغطّي بها على كلّ المشاعر السّيّئة في داخلي، وأقول بنبرة أجهد أن تكون هادئة مسالمة:

.وما هو «برياني»؟

يحدّثني كأنّ لي معرفة بكلّ ما يقوله، وعلى علم بكلّ أصناف الطّعام المحلّيّة، والمشروبات؛ ويبتسم بدوره، ويقول:

.أرزّ... هناك أرزّ لحم، وأرزّ دجاج...

أقاطعه بجفاف، وأنا أشعر أنّ رغبتي في الطّعام وسط تلك الرّوائح القويّة، ومنظر النّدل، ورثاثة الأمكنة، والعالم الّذي يضجّ في الخارج وسط برك من الأنوار الضّعيفة الخابية، والقذارة المنتشرة في الشّوارع وعلى أطرافها... أشعر أنّ رغبتي تتلاشى، وأنّ جوعي قد تحوّل إلى شبع:

.لا أريد.

.فماذا تريد إذن؟

.وماذا هناك غير الأرزّ؟!

يصمت لبعض الوقت، ويلتفت إلى «شانيل» فيتبادلان كلاما لا أفهمه، كانا يتحدّثان «المليالي» فيما بينهما، ورغم أنّي لم أفهمهما إلاّ أنّي حدست أنّهما يتدارسان أمري... يذكران أسماء طعام، والنّادل حذوهما يتطلّع إليهما في انتظار الأمر...

.ربّما كنت تريد أن تأكل «مسالا»؟

يا إلهي! عن أيّة «مسالا» يتحدّثان؟ وهل كنت أتوقّع أن آكل في يوم من الأيّام شيئا لا أعرفه...

.«المسالا» مع بعض رقائق «الرّوتي».

ترتسم الدّهشة على وجهي دونما إرادة منّي، وأضطرب في مكاني، أتململ قبل أن أسال، وكلّ سؤال أطرحه أحسّ كأنّ روحي خرجت معه... كان الأفضل أن يتركاني، أن يدعاني لصمتي وأن يحضرا ما يريدان، سآكل شيئا إن وجدت الطّعام طيّبا، ولا يضير أن أبقى بلا طعام... أعرف أنّهما سيأكلان معي أو لوحدهما، وسيطلبان مزيدا من الطّعام إن لم يكتفيا، فما بالهما يصرّان على إزعاجي: الشّعور بأنّهما مسؤولان عنّي؟ وأنّ الواجب يقتضيهما أن يحرصا على راحتي؟! لا أعتقد ذلك، ولا أظنّ أنّهما كانا يقيمان لي كبير وزن، فأنا ما أزال غريبا عنهما، مجرّد زائر، دفع بعض المال، وتكفّل بتذكرة «شانيل» ومصاريف رحلته!!

.«مسالا»... «روتي»؟

إنجليزيّة «نايجو» لا تشبه الإنجليزيّة في شيء، فوضى كلمات وحروف، وأصوات بلا معنى، لذلك لم نكن نتبادل الكلام إلاّ في القليل النّادر وعند الضّرورة، وقد وجد نفسه الآن في حالة لا يحسد عليها، فمن أين له الكلمات ليشرح لي ويفسّر؟ وكيف يهتدي إلى حلّ الألغاز، وتفادي المأزق الّذي وقع فيه؟... لحسن الحظّ أنّ «شانيل» كان مستعدّا دائما أن يلعب دور الوسيط، ليس لأنّه يحسن الحديث بالإنجليزيّة، أو لأنّ إنجليزيّته أفضل من الإنجليزيّة الّتي يتكلّم بها «نايجو» ولكنّه يمتلك موهبة التّعاطي مع الغرباء، الأجانب، وهو في تلك اللّحظات قد استعاد صفته باعتباره مواطنا، أو بالأحرى نصف مواطن... ربّما تبدو العبارة غريبة حقّا، أو مستهجنة، فما معنى «نصف مواطن»، إن لم يكن مواطنا قلبا وقالبا؟ إنّها المرّة الأولى الّتي يزور فيها «دلهي»، وكذلك

«نايجو»، ومن هذه النّاحية لا فرق بيني وبينهما، فكما يقال في الأمثال: «كلّنا في الهمّ شرق!!»، غير أنّ المسألة تتشعّب وتتشابك بعد ذلك، إذا سقطت الأقنعة جميعها، وارتفع ذلك الجدار الحصين، لتنصبّ على واجهته دفعة واحدة أشكال وخطوط لغة عجيبة، أشبه بآثار النّمل على الرّمل؛ رسوم أقرب من الرّسوم الهندسيّة، فيها فنّيّة وجماليّة، ما في ذلك شكّ، بل إنّ السّامع قد يميّز بعض الكلمات العربيّة في أتون الكلام، ومع ذلك لا إمكانيّة لفهم ما يقال... حكم عليّ بالإقصاء من البداية، العزلة، والانزواء، فإذا ما رمت أن أتحدّث فيجب أن أتعوّد على الحديث مع نفسي في صمت، لا أحد هنا يتكلّم العربيّة، والإنجليزيّة لا فائدة منها في شبه القارّة الّتي يربو عدد سكّانها على المليون مليون نسمة؛ أحاول أن أتعامى، وأن أتصامم، في الغرفة وفي جميع الأمكنة الّتي تضمّنا، ثلاثتنا، ولكن لا أستطيع الصّمود طويلا، فسرعان ما يتملّكني الغضب والقهر، كلّ همسة تجري بين «نايجو» و «شانيل» أحسبها موجّهة إليّ، كلّ ضحكة أو ابتسامة، كلّ حركة، مقصودة أو غير مقصودة، وفي بعض الأحيان أتوهّم أنّهما يتعمّدان مضايقتي، حينما نخرج إلى بعض المحلاّت، حينما نتجوّل في السّوق، يبطئان أمام الواجهات، يتعاطيان مع الباعة، ويساومان، كأنّ الزّمن لا يعني لهما شيئا، أو كأنّي لست معهما، ومن حقّي عليهما أن يحسبا لي ولو بعض الحساب!!...

حتّى في «صور» كنت غريبا، وكانا هما، بشكل ما، جزءا من العالم الصّغير للمدينة؛ كانا نغمة في توليفة الأنغام الّتي تدرّبت الأوركسترا عليها طويلا حتّى اعتادت عزفها دون هفوات أو أخطاء؛ يشعران بحرّيّة من يمتلك الأرض، ويتكلّم اللّغة الّتي يريدها، فإذا ما اضطرّ أن يتكلّم بعربيّة أهل البلاد، لأنّه رغم كلّ شيء لن ينسى كونه جاء ليعمل ويتكسّب، تكلّمها دون خجل، ولاك أحرفها بلسانه فخرجت الكلمات ممزوجة بعجمة بيّنة... ومع الأيّام، انقطع النّاس عن الضّحك

والسّخرية كلّما سمعوا أولئك القادمين من وراء المحيط يتحدّثون بتلك الطّريقة، بل صارت تلك اللّغة الدّخيلة والكلمات المحطّمة لغة يتكلّمها أهل البلاد أنفسهم، وتلاشت العربيّة، ذرّتها رياح الخماسين، فباتت أثرا بعد عين!!

قال «شانيل»:

.«مسالا»...

أرتج عليه، لم تسعفه الكلمات، فعاد ينظر إلى «نايجو»، كنت أرى الدّهشة في أعينهما، والضّجر، كنت أحدس ما يدور بداخلهما، جوعا إلى الطّعام، إلى الأكل، فبعد المشي، والضّياع في المدينة الكبيرة، والميادين، والفوضى العارمة، وأصوات زمّورات السّيّارات، والحافلات، و«الأتوركشا»، كان بديهيّا أن يحسّا بالجوع...

عاد «شانيل» يقول ليحسم الموقف:

.سترى إنّها لذيذة، وستحبّها...

وتوقّف قليلا، وامتدّت فترة صمت قصيرة تطلّع خلالها إلى النّادل كأنّه يسأله، وانضمّ إليهما «نايجو» أيضا، وطال الحديث بينهم لبعض الوقت، وفي النّهاية التفتا إليّ، وهما يستعدّان للوقوف، وقالا بصوت واحد:

.لنبحث عن مطعم آخر، فهذا المطعم للنّباتيّين!!

إنّهما سيكونان نباتيّين إذا لزم الأمر! وسيكونان غير نباتيّين! ومجرّد كلمة منّي قد تحسم الأمر كلّه، ومع ذلك آثرت الصّمت، لأستمتع قليلا وأنا أراهما يجرعان من نفس الكأس الّتي كنت أنا جرعت منها، العذاب والانتظار والمعاناة، ومشاعر أخرى؛ فقبل كلّ شيء وبعده، وإذا كانت الرّحلة تسير في الاتّجاه المعاكس للنّوايا والرّغبات فلا أقلّ من أن أجعل المأساة مشتركة، وأن يتحوّل المشهد كلّه إلى مهزلة على طريقة «الكوميديا الإلهيّة»!!

النّوم... الطّقوس الرّوتينيّة اليوميّة... الحمّام... وعقارب

السّاعة تدور... الانتظار... والتّلكّؤ... والدّشّ اليوميّ، وحلاقة الذّقن وتشذيب الشّارب، والتّجمّل... العطر النّفّاذ والكريما الّتي يدهن بها الجسد كلّه، والثّياب الّتي تظلّ طويلا على السّرير، كآخر مشهد تختم به المأساة!!

أنهض قبلهما، أتعمّد أن أفعل ذلك، وقبل أن أذهب إلى الحمّام وأغلق الباب بالمفتاح ورائي، أرنو إلى الخلف غير بعيد عن حشيّتي، منظر فيه الكثير من رومانسيّة القرون الخوالي، على نفس السّرير، كما الحبيبين الصّغيرين، وبدا «شانيل» تطوّقان جيد «نايجو»، والأرجل تتضامّ في انسيابيّة رائقة، والجذعان العاريان يكادان يتماسّان، ووسطاهما ملفوفان في تلك الفوط المحليّة... كان «نايجو» طويلا، رقيقا، هشّا، وكان «شانيل» قصيرا ممتلئا، لا يفتأ يتحدّث عن النّساء ويتصيّدهن كلّما خرجنا لقضاء شأن من الشّؤون...

«نايجو» كان يحتفظ بألبومات صور معه، عشرات الصّور أخذت في «صور» و «هندستان»... في غرفته، في السّيّارة، في المقهى المفضّل لديه، هو وأصدقاؤه، بمفرده، كان مهووسا، لا يدع شيئا إلاّ سجّله، وكأنّه يريد أن يقهر الفناء والموت، كأنّه يريد أن يترك رصيدا يتزوّد به لأيّام الاكتهال والشّيخوخة؛ ومن بين الألبومات الّتي رأيتها ألبوم شاهدته على النّضد، في الغرفة بالفندق، وكان معزولا عن البقيّة، أخذته وتصفّحته، صور أخذت لفتاة في أوضاع مختلفة، فتاة ما تزال في مقتبل العمر، على جانب من جمال، لكن ليس ذلك الجمال الّذي يجعل كلّ الرّجال يتعلّقون بها... رآني «نايجو» عندما أخذت الألبوم فاقترب منّي، انحنى عليّ وهو يتابع حركتي وأنا أقلّب الصّور دون أن يقول شيئا، وحينما انتهيت، قال وهو يبتسم ابتسامة خجول:

.صديقتي.

ما أن نطق تلك الكلمة حتّى رنّت من الطّرف الآخر للغرفة ضحكة عالية، فاضحة، وتلاها صوت «شانيل» وهو يقول مخاطبا «نايجو»:

. لماذا تكذب؟ لماذا لا تقول الحقيقة، فنحن أصدقاء ولا أسرار بيننا؟

التفت إليه «نايجو» وأجاب على أسئلته بسؤال آخر:

. ماذا تقصد؟

«شانيل»:

. إنّها خطيبتك، أليس كذلك؟

كنت ضائعا بينهما، لا أدري أيّهما الكاذب ومن يقول الحقيقة، أو أنّ المشهد في مجمله كان نكتة القصد منها إثارة فضولي أو إضحاكي: ربّما كانت خطيبته، أو زوجة المستقبل الّتي اختارها، وخجله كان يمنعه من أن يفضح نفسه أمامي... لم أسأله، لم ألحّ عليه، واكتفيت بالصّمت، تظاهرت أنّي أنظر صوب الباب، وعندما أحسّ بألم في رقبتي أستدير ناحية التّلفزيون، صور تتواترويتلو بعضها بعضا، والصّوت لا أفقه منه شيئا، ولكنّ ذلك أفضل بكثيرمن توريط نفسي مع شخصين قد أحتاج إلى وقت غير قصير كي أقتنع أنّي لم ألتقهما في الواقع وإنّما جمعني بهما كابوس مرعب، ألمّ بي على إثر مأدبة نازعتني نفسي فيها للأكل حدّ التّخمة...

كان «نايجو» مايزال بجانبي حين قال كأنّه يهمس لي:

. تعمل في فندق صور...

قاطعته متفاجئا:

. من؟

. الفتاة الّتي رأيتها في الألبوم.

قلت في نفسي ما دام قد تكلّم من نفسه فسأحاول أن أجاريه، وهي فرصة على كلّ حال للخروج من حالة الاكتئاب، وجعله يفصح عمّا يختلج بقلبه من المشاعروالعواطف.

. ولكن قل لي هل هي خطيبتك فعلا؟

تسرّعت قليلا، ولم أدرما الّذي جعلني أغدو فضوليّا هكذا.

تجاهل سؤالي، وجلس على كرسيّ بجانبي، وقال:

.تعمل راقصة...

ثمّ بعد قليل:

. إذا أردت أعطيتك رقم تلفونها حتّى إذا ما رجعت خابرتها، وأنا بدوري سأحدّثها عنك...

«لماذا يتحدّث بتلك الطّريقة؟ كان يبدو جدّيا إلى أبعد الحدود، وتلك الجدّيّة نفسها حدت بي إلى التّساؤل من جديد، دفعتني إلى الشّكّ أن تكون خطيبته، بل إنّي شككت أن يكون يعرفها أصلا، فلم ألتق أحدا في حياتي يسعى إلى إيجاد «أصدقاء» لخطيبته، سيّما إذا كان هؤلاء الأصدقاء غريبين ومجهولين مثلي، ويتكلّمون لغة غير لغتها وقد لا يفهمونها ولا تفهمهم حتّى إذا التقى أحدهم الآخر!!»

لا، إنّي أفكّر، وبقدر ما أطرد صورة «نايجو» من ذهني أجدها تلحّ عليّ دون هوادة؛ هذا الرّجل، أو هذا الشّابّ، الّذي كان يدير الدّفّة في الخارج بكلّ مهارة، حينما نغادر الغرفة مع الدّليل إلى المدينة أو الأماكن الأثريّة الّتي تزخر بها «دلهي»، فهو الّذي يقودنا دائما، وما أن نغادر السّيّارة حتّى يتقدّمنا، ويتحدّث بطلاقة، ويضحك كثيرا، ودون خجل، ويتصرّف بكلّ تلقائيّة، ويشتري لنا البارد والمياه المعدنيّة من الأكشاك الكثيرة الّتي نمرّ بها في طريقنا، سرعان ما يستبدل جلده ما أن نعود إلى الغرفة مرّة ثانية، يحطّ عليه خجل، ويهمد، فإذا ما بدأ «شانيل» حديثه المفضّل عن النّساء اللّواتي كان يراهنّ في الفندق أو اللّواتي يلتقيهنّ صدفة في الشّارع أو المقاهي أو المطاعم الّتي نذهب إليها رأيته ينكمش كما القوقعة ويكتفي بالسّماع كأنّ الحديث لا يعنيه أو لا يهمّه؛ يتظاهر بالانشغال بأيّ شيء، ويلطو على السّرير، كان وجهه يحمرّ ويتلوّن، وينتظر طويلا حتّى يتكلّم، ولا يتكلّم إلاّ إذا تغيّر الموضوع، وأمن أنّ «شانيل» لن يعود إلى النّساء...

كانت تأتي عليّ أوقات أشكّ أنّه رجل؟ وألعن نفسي ألف مرّة

أنّي صحبتهما، وإذا كانت النّهارات تنقضي بحلوها ومرّها، وأحاول أن أحافظ خلالها على توازني وهدوئي، فإنّ اللّيل كان يؤرّقني: كنت على استعداد أن أفعل أيّ شيء، أو أن أدفع أيّ مبلغ مقابل أن تكون لي غرفتي الخاصّة: صحيح أنّي لم ألحظ شيئا غير طبيعيّ، لكنّ الشّكّ كان يدمّرني، وينغل في أعماقي، ما الّذي كان بينهما، وتلك الحركات الغريبة الّتي يتعمّدان إتيانها، وإصرارهما على النّوم فوق نفس السّرير، وخلع ملابسهما دون شعور بالخجل أو الحياء؟...

لعنت نفسي ولعنتهما!

ولعنتهما ورثيت لنفسي!

كانت «دلهي» تودّع كلّ شيء:

الأشياء والأسماء؛

وكانت تودّعني أنا.

كانت تودّع آخر الحمقى!!

***

«طلبت المستقرّ بأيّ أرض!!»... في البراح، والوجوه المتعبة، وفي الأطراف الدّامية، وخلفيّة الحياة الأخرى، حيث الفقر والجوع، ووهم الانتماء إلى مجتمع، ووطن، وأرض لا تميّزلونها الحقيقيّ، وسط المستنقعات والشّوارع المتربة، والأدخنة الّتي ترتفع إلى هام السّماء... تلوّث قاس يخرّب الطّبيعة، ويخرّب النّفس، ويأتي على كلّ شيء جميل، الأشجار والأطيار، والأزهار، والأودية والبحار... والإنسان المغلوب على أمره، كتب عليه أن يتحمّل، دون ألم أو ضجر، يبيت في العراء، ولا يستنكف من قضاء حاجته البشريّة أمام آلاف العيون الّتي لكثرة ما ألفت المشهد اليوميّ صار لا يعني لها شيئا على الإطلاق، ولا يهمّه أن يعرى أو يمسي كاسيا، حتّى لكأنّ اليوم ما يهمّه، والحياة الضّاجّة الصّاخبة سوف لن تكون ذات أهميّة بالنّسبة إليه إلاّ فيما

توفّره له من فرصة للحصول على الرّغيف، يكدح من أجله، ويستفيق في السّاعات الأولى من الصّباح، ويضرب في كلّ شبر من المدينة الخلّب، يتحرّك في كلّ الاتّجاهات، حيث عليه أن يكتسب، إضافة إلى الحواسّ المعروفة، بعض الحواسّ الأخرى الّتي قد تمكّنه من التّحايل على قدره الّذي لا يرحم... مئات الخيام المهلهلة جنبا إلى جنب مع البيوت الفخمة والعمارات ذات الأدوار المتعدّدة، والفنادق على اختلاف مستوياتها، وحيثما ولّيت وجهك كانت تسطعك الرّوائح العطنة، وأكوام القمامة، والكلاب السّائبة، وعشرات الأطفال، بعضهم عار تماما كما ولدته أمّه، والبعض الآخر عليه بعض الخرق المهلهلة، وكثير منهم استوطن الذّباب وجوههم والمرض أجسامهم الصّغيرة... ومع ذلك، وعلى الرّغم من كلّ شيء، لا يخلو الأمر كلّه من لذعة سخريّة كاوية، في الإحساس بأنّ الحياة على قساوتها تظلّ على جانب من الجمال الّذي يستحقّ أن يناضل من أجله... جمال تطلبه تلك الكائنات الفانية، وهي تتحامل على نفسها، فما يزال هناك أمل، وما تزال هناك لقمة تنتظر في مكان ما...

وفي كلّ شارع، في المرتفعات والمنخفضات، في الأزقّة والنّواصي، وأمام البيوت، وفي الغابات، وعلى مقربة من الأكواخ الحقيرة، ترتع الآلهة الحارسة، أبقار وثيران ذات قرون معقوفة، وأذيال لا تكفّ عن الحركة، وعيون عميقة، هادئة، ألفت الأرض وألفتها الأرض، وإذا كان وطن الواحد مدينته أو قريته، أو باديته أو الرّيف الّذي جاء منه، فإنّ وطنها شبه القارّة بأكملها، تخترق الأسواق، فتلتقط كلّ ما يعترضها وتلوكه بأشداقها الكبيرة، يدرك الجميع قيمتها، لذلك تركت لمصيرها، وحريّتها ذات قداسة لا سبيل إلى المساس بها... ليست على ذمّة أحد، ولا تباع ولا تشترى، وهوايتها المفضّلة السّير لعشرات الأميال يوميّا... ربّما ببركتها تمكّنت المدينة من مقاومة الوباء والمجاعات والفناء والفقر، والموت والأمراض، وفساد السّاسة الّذين لا يكفّون عن الصّراع على

جثث القتلى والموتى، والفانين!!...

** بانوراما. نشيد إنشاد، يبعث في النّفس شجى وحزنا، وموطئ قدمي قد أخطئه، وتكتنفني الهوّة العميقة، على الطّريق الشّاهقة، إلى القلاع والحصون، والمساجد والمآذن والمعابد، وذكريات المغول، والقرون الدّابرة، منذ أن توقّف الفرات والدّجلة عن الفيضان، ونهبت بغداد، وألقي بالمكتبة العظيمة إلى القاع حيث اختلط لون المداد بالدّماء، و«هولاكو» الأمس صار حكيما فيلسوفا حينما خلّف أبناء حكماء بدل أن يحرقوا ويخرّبوا ويدمّروا اكتشفوا أنّ الحضارة هي القوّة، وليست القوّة هي الّتي تصنع الحضارة!!... فماذا جرى؟! وهل هي عقدة الذّنب الّتي تلمّ بصاحبها فلا تتركه حتّى الموت؟!... هل هو احترام الإنسان لإنسانيّته المهدورة وبحثه عن الخلود بأيّ ثمن؟!!...

أصرخ، وأخاف أن تتمرّد عليّ الأصوات فتدوّي في الخارج، وأذكر أسماء الّذين ماتوا، وأنسى ثأري معهم، وأراهم يتحوّلون من أعداء حقيقيّين إلى أجداد لي: «بابور»، و«أكبر»، و«الشّاه جيهان»، وآثارهم، بعظمتها وأبّهتها وجلالها، وألوانها، وزخارفها، وما منها أثر إلاّ ويبعث في النّفس رهبة وقشعريرة... «تاج محلّ»... «هوا محلّ»... والمرصد العظيم... وحصن «أقرا»... ومئات المساجد... «وجيبور». المدينة الحمراء، بأسواقها، وأناسها، ومطرها، ورذاذها، ورائحتها الخاصّة، في المساءات البعيدة، وتلك السّيّدة الّتي رأيتها في بهو أحد الفنادق في الاستقبال، كأنّها أوّل امرأة أراها في حياتي، وأنست إليها لا أدري لماذا، شعرت حيالها بانجذاب، وراودتني نفسي إلى محادثتها ولكنّي تردّدت في اللّحظة الأخيرة: فما فائدة الحديث؟ وما جدوى الكلام، والرّحيل يطلّ بوجهه الكريه، ويكشّر عن أنيابه الفظيعة السّامّة؟!!

** يطيف بي الاستغراق حين أحزن، فأفتح شرّاعة القلب،

وأضيء شموعا بيضاء سوف يكون عليها أن تقاوم الاحتراق، وتدوم من أجلي، وسوف يكون عليّ أن أداريها، وأن أحتفظ بها وأحفظها من هبّات النّسيم الرّقيقة الّتي ما تنفكّ تهسّ بين الفينة والأخرى؛ وفي الخارج، على مبعدة يسيرة ذات النّخلة الفرعاء، ذات الجدائل والشّماريخ الصّفراء، وهي تزهو برطبها المستدير الفتّان، وينعكس عليها ضياء القمر في اللّيل، فتنساب الشّجون على خواء القلب، وتتساقط الدّموع كالمزاريب: لا معنى للحزن بلا دموع، ولا دموع تأتي إذا لم يستثرها الحزن، ولا قيمة للدّموع والحزن معا، إذا لم يكن هناك إنسان، مثلي، يحزن ويبكي... كان هناك أصدقاء، وفي الذّاكرة عشرات الأسماء، والملامح، والأحاديث الّتي ما زلت أستظهرها عن ظهرقلب، كما قيلت أوّل مرّة، بنفس النّبرات، ونفس الحروف والكلمات، زادا للأيّام واللّيالي العجاف، نثرثر ونضحك، ونتطلّع إلى البعيد، لحظة سكون، حيث يخلو كلّ واحد منّا إلى همومه اليوميّة وأشيائه الحميمة. بعضها يقال، وبعضها الآخر ينتظر دوره، حتّى تتّضح الرّؤية، ويتحدّد المسار: كم مرّة اكتنفنا المكان، وامتدّ الزّمن فينا؟ كم مرّة شفّت أرواحنا، وتماسّت، وتقاربت، فبات لزاما علينا أن نمزّق جميع الأقنعة ونرميها أرضا استعدادا لتلك اللّحظة الّتي لاتعاد ولا تتكرّر، لحظة صدق أمام النّفس قبل أن تكون أمام الآخرين؟! هل نخبّئ حقيقة أسرارا بداخلنا أم هو مجرّد وهم بامتلاك خصوصيّة ما؟! أو الهروب من عار الفضيحة؟! لكن أيّة فضيحة يمكن أن تعدّ كذلك في عالم، على سعته ورحابته، لا شيء يظلّ خافيا فيه، فما بالك بإنسان قميء حقير، من السّهل خداعه والضّحك عليه!... تضجّ الرّأس، وتتحلّل تلافيف الدّماغ، جرّاء الحرارة القاتلة، والرّطوبة، وبلل الثّياب، والعرق الّذي جفّ على الجسد فغدا الجسم كلّه دبقا، وصوت الدّليل الهندوسيّ وهو يتحدّث عن سلالة المغول بلغة إنجليزيّة متماسكة أعادتني قليلا إلى الإنسان باعتباره «حيوانا ناطقا»: كنّا جميعنا في السّيّارة، السّائق

في الأمام خلف عجلة القيادة وبجانبه دليلنا، وعلى المقعد الخلفيّ حشرت أنا، و «شانيل» و «نايجو»، في وضع غير مريح... تجمعنا رغبة في الانسياح، والامتداد على الأطراف، وبين الجهات، يصمت السّائق طوال الوقت، ووجهه مغلق، عيناه منزرعتان في المدى البعيد، ويده لا تتوقّف عن الضّغط على الزّمور، وما لا يمكن أن تتصوّره في أيّ مكان آخر، يتداخل هنا في شوارع «هاريانا»، و«راجستان»، نوق وجمال تجرّ وراءها عربات ثقيلة ملئت بأكياس الأرزّ والقمح، وشاحنات ثقيلة كتب على مؤخّرتها: «اضغط الزّمور رجاء!»، وصبيان ونساء وشيوخ ورجال على قارعة الطّريق أو في طريقهم إلى الأسواق، أو في المزارع المترامية تغطس أقدامهم في حقول الأرزّ المرويّة...

مناظر معتادة، لا شيء يتغيّر فيها، وعندما تتعب عيناي من التّركيز أغمضهما، وأستند إلى المقعد ورائي في محاولة للنّوم... وأحسّ بثقل في ركبتيّ، وبالحذاء يضغط على قدميّ، وبساقي «شانيل» أو «نايجو» تضايقاني...

كنّا نتوقّف في بعض المقاهي أو الاستراحات بعد ساعات طويلة من السّياقة، فنشرب القهوة أو الشّاي؛ والمقاهي في أغلب الأماكن الّتي مررنا بها عبارة عن فضاء مفتوح بلا باب أو نوافذ، قد ألقيت فيه الأواني والأباريق هنا وهناك، وفي الوسط موقد الغاز، ووراء القائمة كان يقف صاحب المقهى...

كثير من المدن، انطبعت صورها في ذاكرتي، ولكن ظلّت بلا أسماء، تغيم حينا، وتطفو على السّطح حينا آخر... كانت غريبة بالنّسبة إليّ، وما يربطني بها استراحة المسافر الّذي يقف شطرا من الطّريق، يتناول شيئا ليسدّ مسغبته ويروي ظمأه، ويذهب إلى دورة المياه، ثمّ يدفع الحساب، لتتواصل الرّحلة، إلى أماكن بعيدة لا يعرفها، ويترك مصير يومه بين يدي دليل محترف وسائق يحسن الاستماع طوال الوقت ولكنّه يحسن الصّمت أيضا...

ستّة أيّام، وكان من الممكن أن تكون سبعة. إلاّ أنّ اليوم الّذي وصلنا فيه إلى المطار، وقضينا معظمه نائمين في الفندق، كان محسوبا علينا. وحينما اتّصلنا بوكالة الأسفار وأعلمناها أنّنا دفعنا أجر سبعة أيّام وليس ستّة أفهمنا أحد العاملين بها أنّ اليوم السّابع هو نفس اليوم الّذي وصلنا فيه إلى «دلهي»، وكان مفروضا أن يأخذنا الدّليل خلاله في جولة عبر المدينة إلاّ أنّه تعذّر ذلك، بعد أن أشعرته إدارة الفندق أنّنا كنّا نياما...!!

«دلهي» كانت المحطّة الأخيرة في كلّ مرّة، نغادرها لنعود إليها من جديد، وفي اليوم الثّاني حملنا حقائبنا وتوجّهنا إلى «أقرا»، وهناك بتنا ليلتنا، وفي الصّباح ذهبنا إلى «تاج محلّ»... وفيه انهار كلّ شيء، وحطّ التّاريخ بكلّ كلكله على قلبي فجاء الحزن وكانت المأساة!!

وفي «أقرا» التقيت مصادفة بشخص لا أعرفه، سألني عن نفسي فأجبته، وكنت أنتظر أن يدعني لعزلتي أنتظر صديقيّ اللّذين اعتذرا لإجراء مكالمة هاتفيّة مع بعض أصدقائهما في «مومباي» غير أنّه صمّم على البقاء، وكانت رغبته في الحديث تحمل وراءها محاولة مستميتة في جعلي أدفع مبلغا من المال مقابل قيامه بجولة يحملني خلالها إلى بعض الأماكن في المدينة الّتي كانت تبدو لي في اللّيل عالما آسرا من السّواد الّذي كان يفصح ويفضح أكثر ممّا يخفي المعالم ويواربها...

قال:

. إذا قبلت سيّارتي في الانتظار...

وتقدّم منّي، كان يعرف أنّي أنتظر بعض الأشخاص من خلال تطلّعي باستمرار إلى أحد محلاّت الهواتف العموميّة... أمعن في التّقدّم حتّى صار في مواجهتي تماما، وحجب عنّي رؤية الباب المفتوح الّذي كنت أنظر عبر فتحته إلى «شانيل» و«نايجو»، وواصل قائلا:

. يمكنني أن آخذك إلى أيّ مكان تريده، والثّمن لن يكون باهظا.

قلت بفتور، وأنا أحاول أن أتفادى النّظر إليه:

.شكرا.

لم يكن يريد أن يسلّم بسهولة:

.ادفع المبلغ الّذي تريد.

أردت أن أسدّ عليه طريق المحاورة والمداورة، فشرحت له الأمر قائلا:

. هناك سيّارة على ذمّتنا، وسائق ودليل، ولسنا في حاجة إلى سيّارة أخرى...

كنت أعتقد أنّي كنت واضحا معه، وأنّه ما يعتم أن يذهب في حال سبيله، ولكن دون جدوى، إذ بدأ لعبة من نوع آخر حينما سألني:

.هل أنت متزوّج؟

بدا لي السّؤال غريبا نوعا ما، رفّت على شفتيّ ابتسامة فاترة، ومع ذلك أجبته بعفويّة وصراحة، وكان يمكن أن أكذب عليه:

.ليس بعد!

.غير معقول...

وكأنّما أراد أن يعطي لانطباعه ذاك مسوّغا فقال:

.كم عمرك؟

قلت وقد واجهته ونظرت هذه المرّة في عينيه لأجعله يحسّ أنّي كشفت لعبته أوّلا، وأنّي على استعداد لأن أطيل معه الحديث من باب الفضول وقتل الوقت ثانيا:

.ثلاثة وثلاثون عاما... قل أربعة وثلاثون عاما.

أشار إلى سيّارة كانت مركونة غير بعيد عنّا، وقال بفخامة وزهو:

.تلك سيّارتي؛ إنّها مريحة، لو فقط تطاوعني وتقبل عرضي، إنّه لن يكلّف كثيرا من المال.

وقبل أن أعلّق بأيّ شيء قال مغيّرا مجرى الحديث:

.أنا في الثّانية والثّلاثين من عمري، ولي بنتان...

قلت مجاملا:

.ما شاء الله!!

قال وهو يحاول أن يخمّن، ويرتّب في نفس الوقت لإقناعي بمحاولة الذّهاب معه:

.غير متزوّج، جميل...

وضحك ضحكة صغيرة، وواصل:

.بإمكاني أن آخذك إلى أماكن أعرفها بها الكثير من النّساء... وبها الكثير من الشّراب!!

كنت في ذلك اللّيل حزينا، ومكتئبا، وكان إحساس العطالة الّذي يضيّق الخناق عليّ قد قتل فيّ كلّ رغبة للصّخب والملهاة!!

قلت وأنا أتركه في طريقي إلى المحلّ للالتحاق بـ «شانيل» و «نايجو»:

.شكرا، ربّما في مرّة قادمة!

(مومباي)

الوشم الأخضر في خضرة النّباتات الطّريّة الهشّة في فصل الرّبيع، في أعلى الجبين، أو على الوجنتين، أو أسفل الذّقن، فتنة لا تدع مجالا للتّفكير بالألم، والمشرط الصّغير يحفر في الجلد، ويوغل حتّى ينزف الدّم، وتتقلّص الملامح، وينكمش الوجه... وشم هي المدينة الممتدّة الفسيحة، يمتزج فيها الألم بالنّشوة واللّذة، عاهرة أرهقت الزّمن، وتربّعت على ركام السّنين، تتشفّى في من ولّوا، وتحتضن القادمين، بين ذراعيها الدّاميّتين فتبعث رائحتها في الأنف أنفاس المرض والموت... لا ترتوي من شبقها وبكلاّبتيها تنتزع سرّ الحياة من الأجساد الفتيّة، الأجساد الفارهة الهاربة من المجهول إلى مجهول آخر؛ عمّ تبحث في التّيه، المخلوقات المجدودة الصّامتة؟ وما الّذي يعجبها في عالم الخوف المريع؟... الفقر، والطّوابير الطّويلة... طلبة المدارس، والنّساء والرّجال، والأطفال... الشّيوخ، والبنايات القائمة كما الأشباح، قديمها الآيل للسّقوط، وحديثها، الشّامخ المتسامق، تتراصف جنبا

إلى جنب...

لا مكان لي بين الأحياء، والأموات ماتوا وشبعوا موتا!!

وجوه بلا ملامح... مطموسة، وآثار الخوف أزالت كلّ مسحة للجمال أو الوسامة، والإرهاق باد على الأجساد المتعبة... والأرجل تتجرجر في حركة رتيبة لا تنقطع أبدا، على الأرض الّتي التأمت على نفسها، انغلقت على أسرارها العصيّة، تاركة للخيال أن يحلم وأن يحدس، بمرارة، ما توارى في باطنها؛ والموت المفاجئ الّذي فرد جناحيه على المدينة، وأنشب أنيابه وأظفاره في التّخوم القصيّة والحدود البعيدة الّتي لا ترام ليس شيئا آخر غير الموت...

قد يحسّ المريض بالألم، يشكو، ويتعذّب أيّاما وليالي، يتقلّب على جنبيه، وهو يدفع اللّحاف عنه برجليه فوق السّرير... يحسّ الألم ولا يعرف عن مرضه شيئا، ما أعراضه، ما تطوّراته، وعلاجه المناسب، مجرّد شعور بالألم، معاناة تحمل بين طيّاتها دائما أملا بالمعافاة والشّفاء...!! لكنّ المدينة تموت، أراها بعينيّ الأخرين، وقد أصابها الوباء والجذام: اجتاحها الطّوفان، مدوّيا، غاضبا، منتقما، وخلّف وراءه وديانا وبركا ومستنقعات، وما عتمت الرّوائح النّتنة العطنة أن انتشرت بين الزّوايا والأركان... ومات من مات، ومن بقي على قيد الحياة أصيب بلعنة المرض الّذي لا برء منه... المجذومون، الموبوءون، وأصحاب العاهات، والزّمنى، والرّجال والنّساء والشّيوخ... والصّبيان، والمنازل والأبواب المفتوحة، والشّرّاعات، والشّوارع، والكورنيش، أرى كلّ ذلك فأصاب بالذّعر، النّظرة الجامدة في العينين، والشّعر المشعّث، والصّفرة الّتي اعترت الوجه، صفرة الموت، واليدان اللّتان تجمّدتا، والرّجلان الثّقيلتان: مراسيم احتفال ما، والأيدي تتشابك مع بعضها البعض، والخطوات توقّع حركتها في انتظام وتناغم، ومن مكان ما يفرقع دويّ، وتسمع أصوات... متداخلة، منذغمة، مشوّشة، فيها حرقة وصخب وشجن وفرحة لا تكاد تبين... وفي وقت

ما امتلأ الفضاء بالتّرتيل والدّعاء، وارتفع على الهام والأعناق عشرات النّعوش، وقد ألقيت عليها ستائر مزركشة، خطّت على جنباتها وفي وسطها بأحرف متداخلة آيات بخطّ كوفيّ رائق... كانت السّتائر خضراء شديدة الخضرة، وكانت أحرف الآيات تكبر وتتضخّم حينا، وحينا آخر تتضاءل وتصير قميئة، حتّى لكأنّها تصير غير منظورة!!... والأصوات لا تتوقّف والدّعاء يرتفع ويعلو فيردّده الصّدى، وتذرّيه النّسمات في كلّ الاتّجاهات:

اللّهمّ إنّه عبدك...
ابن عبدك...
ابن أمتك...
فاعف عنه...
وارحمه...
وأدخله فسيح جنانك...
اللّهمّ إنّ له جلدا رقيقا
وعظما دقيقا...
فترفّق به...
واحشره مع الكرام البررة،
وأهل الحظوة ممّن قسمت لهم .
في جنّات نعيمك .
الفواكه والرّمّان،
والحور العين الحسان،
والملك الّذي لا يبلى...
اللّهمّ إنّه عبدك...
ابن عبدك...
ابن أمتك...!!

وفجأة تستحيل السّماء عينا كبيرة فتسحّ منها الدّموع، وما

تعتم تلك الدّموع أن تصير فراشات بمختلف الألوان، ورفيفا من السّنونوّات في حجم راحة الكفّ، تندف بأجنحتها الصّغيرة باتّجاه البحر الغافي... وتتفرّق تلك الجموع الّتي كانت تهينم وتدعو وترتّل، وتختفي، فتسقط النّعوش، ويحمل الهواء السّتائر من فوقها... وتتلاشى الخضرة، وتختفي الآيات كأن لم تكن، ولا أثر للموتى كأنّ الأرض انشقّت وابتلعتهم جميعا!!...

مجرّد هياكل، ركام من العظام الّتي شدّ بعضها إلى بعض بمسامير صدئة، وهي تسير باتّجاهي، على شفاهها العظمية ارتسمت ابتسامات بلون الدّماء، يحوطها الذّباب القاتل والبعوض؛ ولا مفرّ!! كانوا أعداء، وكان البحر سياجا عظيما يمنعني من الهروب أو الحركة!!... هل أصرخ؟ هل أتمنّى أن يكون لي جناحان رائشان ناعمان؟ أم أغدو هيكلا كالهياكل الّتي أراها فآمن شرّها وأكسب ودّها؟... هل أنسى؟ أم أتناسى، والموت لا يعتقني ولا يمكنّني من الخلاص من نيره؟!!

وما تلبث الأصوات أن تعود، والجموع الّتي احتجبت منذ قليل يلقي بها باطن الخواء إلى وجود الموت الأزليّ، على صدورها المسوح، وهي متجلببة بالسّواد وتضع على رؤوسها لاسات صغيرة قد نفرت من بينها جدائل وخطّها الشّيب وعبثت بها أيدي السّنوات وأناملها... كان موكبا مهيبا يتقدّمه القساوسة والبطاركة، ويليهم الرّهبان والرّاهبات، ثمّ رعايا الكنيسة المكرّسون، وهم يردّدون بصوت واحد فيه شجنة:

أبانا الّذي في السّماء...

ليتقدّس إسمك...

ليأت ملكوتك...

لتكن مشيئتك...

حشود في إثر حشود... يضيق بها المدى، وترتجّ تحت وطاة أقدامها الأرض الغافية السّاكنة!!

أصواتهم معربدة، حادّة، لشدّتها تكاد تتّخذ هيئة، وتتّحد

بأشياء الكون، فتتعلّق بذوائب الأشجار العارية، وتنساب مع سيول الماء، وتتمدّد على صفحة المستنقعات الّتي اكتنفت جوانبها حقول من الخضرة العفنة، ورفيف من الكائنات الصّغيرة، واليرقانات الّتي تتداعب في لامبالاة، غير آبهة للخطر المتربّص في مكان ما... كان الدّعاء يختلط بالنّحيب، والنّحيب إذ يمتدّ ويطول يصبح أقرب إلى النّشيج، أو ربّما فحيح أفعى... والجموع تتقدّم، نحو اللاّاتّجاه، تقصد اللاّحدّ، وكلّما تقدّمت تناهت في الصّغر، يرنو إليها النّاظر فيحسبها سربا من الحساسين أو الخطّاف، والنّعوش المرفوعة على الرّؤوس كأنّها ألسنة لهب ما تفتأ أن تأتي على الأخضر واليابس...

قد يفيق الميّتون من سباتهم، ويلتحقون بالأحياء؛ بل إنّ الميّتين أنفسهم قد يكونون أحياء، وإنّما تظاهروا بالموت، لينقذوا أرواحهم الّتي تلوّثت بالدّماء، وتعفّنت جرّاء الجري وراء طبقات السّراب المتكاثفة وقد صوّرتها لهم أخيلتهم سفنا تضرب في أتون العباب باتّجاه جزائر الذّهب والحرير، حيث لا تعب ولا نصب، وحيث يكفي أن يتمنّى أحدهم أو تهفو نفسه حتّى تنقشع ظلمات الغيب وينجلي المستور!!... مدينة النّحاس، وسرنديب الحافلة بآلاف الحكايات، والأساطير، والأصداف، وقواقع اللّؤلؤ، والسّحرة والمملوكين، والجواري اللّواتي تحرّرن من اللّعنة وغدون زوجات لملوك ملكوا الأقاليم والبلدان... وقصر المهراجا، تيجانه المزركشة بالدّيباج والزّبرجد، وملابسه الّتي موّهت بالذّهب والقصب، تشبه إلى حدّ كبير ألبسة النّساء في عصر غير العصر، ونضده القائم كالدّرّة وسط العقد عليه آنية شرابه وأركيلته ذات الخرطوم الطّويل، وعدّة الشّطرنج، وشفتاه وهما تنفرجان على نصف ابتسامة توحي بأنّ الحكاية الّتي ابتدأت منذ قليل لم تنته بعد، وأنّها في انتظار المهرّج الأحدب، كي يضع الخاتمة الملائمة للأحداث الّتي تشعّبت حتّى أصبحت كما لو كانت أذرع أخطبوط هرم على استعداد أن يلتفّ على فريسته حتّى الموت!!

الغريب أنا أم المدينة؟ المتكتّم، الصّامت، وهو يضرب بنعليه الدّاميّين أديم الأرض الرّطبة، والشّوارع الإسفلتيّة، يجهد أن يحثّ الخطى كي لا يضيّع آثار المجهولين السّاعيّين وراء مجهول... الكاظم غيظا يوشك أن ينفجر في أيّة لحظة، يداري غضبا وألما ما انفكّ يزداد، منذ اللّيلة الأولى، وقبل أن تقلع الطّائرة الّتي تأخّرت أربع ساعات عن موعد انطلاقها... مومباي، مدينة المطر والدّخان، والجهمة، والأزقّة الضّيّقة، والمنازل القديمة، والآمال المحبطة لآلاف الأشخاص المنبتّين، عائلات بلا عائل: تعرّفنا على إحداها، مات الأب، واختفت الأمّ على إثر حالة ولادة متعسّرة، ولم يبق إلاّ الولد، وهو بعد لم يجاوز العشرين من عمره إلاّ أنّه تعلّم كيف يتحمّل مسؤوليّة صبيّة لم يأت بختها، وأولاد صغار، ما يزالون في سنّ الخطر، يتشبّثون بتلابيب الفضيلة الّتي قد تسقط في منتصف الطّريق على حافّتي هوّة تظلّ فاتحة فمها باللّيل والنّهار كي تبتلع كلّ شيء... المأوى؟! البيت المترف، والحديقة الغنّاء، وآثار النّعمة، الحمّام العصريّ، والتّلفزيون الرّقمي، والسّخّان المستورد، والبانيو، والملابس الّتي تشترى خصّيصا للمناسبات، والأغاني الّتي تظلّ صادحة في كلّ ركن من أركان البيت، والأب الّذي يظلّل بجناحيه على أفراد الأسرة، والأمّ الرّؤوم الّتي تبدو أقلّ من سنّها بكثير وقد تزيّنت، وأحاطت معصميها وجيدها بأغلى اللآلئ ثمنا وأبهاها رونقا؟!... من أين لهم بتلك السّعادة؟ والفرحة البادية على الشّفاه، وحرارة اللّقاء، رغم رداءة الطّقس في الخارج؟ والكلمات الّتي تخرج بريئة، تسأل عن الغريب، ما إسمه، ومن أيّ بلد هو، وهل يرغب في كأس من الشّاي...

يفتح الباب فتتفاجأ، فلا ممرّ، ولا غرف، ولا ستائر ولا أروقة، ولا أسرار تنغلق عليها الصّدور الفتيّة، ولا نوافذ تحجب ما دونها عن الأعين الطّفيليّة: هي غرفة وحيدة، فسيحة، ينامون فيها ويستقبلون فيها الضّيوف، ويذاكر فيها الابن الأكبر، وتلي تلك الغرفة غرفة أصغر

منها كان يظهر من خلال الأواني الّتي صفّت بعناية داخلها وتنّور الغاز أنّها المطبخ، وربّما قامت في أحد أركانه دورة للمياه!!

مومباي:

اللّغز، الأحياء الفقيرة المتداعية، والأماكن الّتي لا تستطيع أن تحزر ما هي، والفوضى الضّاربة، عيادات ومستشفيات قد تجدها أينما توجّهت، ومطاعم لولا الطّوابير الطّويلة الّتي ألقت بها المكاتب والمؤسّسات في أواخر المساء، وآثار الأكل الّتي تحلّقت حولها عشرات القطط المتشرّدة القذرة على الأرض، وأصناف الطّعام الأخرى الّتي كان يلفّها البائع في أكياس بلاستيكيّة وأخرى من الورق، لشككت أن تكون تلك العربات المهلهلة الحائلة الألوان، بمظهرها غير اللاّئق، واحتمال أن تكون مرتعا لكائنات خفيّة غير مرغوبة، مطاعم يختارها الآلاف لأكلهم وشرابهم، فقط لأنّها رخيصة الثّمن، وهي لا تكلّف الجيوب الشّبه الخالية سوى القليل من «الرّوبيّات»!!... و«مومباي» لغز، امتداد، وفندق «مينالي»، والدّكاكين الّتي تبيع كلّ شيء في السّوق التّجاريّ، ومحطّة القطار على الطّرف الأيسر من الفندق، والقطارات الكثيرة ذات الصّفير والدّويّ، والجفون الّتي تبقى ساهرة طوال اللّيل لا ترفّ ولا تنام، والرّطوبة الّتي استوطنت الجدران في الغرفة بالطّابق الرّابع، والمطر الّذي يتسرّب من حوافّ النّوافذ الزّجاجيّة، فيبلّل جواربي، وحذائي، وسروالي، والمرض... «الإنفلونزا» المزمنة، والسّحب الثّقيلة البليدة الّتي لم تبرح سماء المدينة على امتداد يومين كاملين، فتداخل الزّمن في ذهني، وضيّعت جميع أسطرلاباتي!!

** على السّرير، تنسدل على العينين غشاوة كثيفة، والمرض الّذي حطّ على الجسم كلّه جعله خفيفا، أثيريّا...

الباب مغلق بالمفتاح، ولا صوت يسمع من الخارج، لا نأمة... كان فضاء الغرفة معتما، كئيبا، والنّور المنبعث من ذبالة المصباح

الكهربائيّ بالكاد يعطي للأشياء معنى وهويّة... إلى يساري، سرير يشبه السّرير الّذي تمدّدت عليه، وورائي سريران آخران كبيران، وفي أقصى الغرفة دولاب كبير، والحقائب، والتّلفزيون المطفأ...

وحدة... عزلة... واستيحاش، ومن لا صديق له يصبح المرض صديقه... تخيّلته حزينا، وهو يجلس بجانبي ناحية قدميّ... كان وجهه يشي بسيل لا ينضب من المعاني والكلمات، وعيناه تسافران في البعيد، تخترقان السّتارة الزّرقاء وتنساحان في المدى الغير المنظور...

.لن تموت بي!

.لماذا؟

.لأنّي لا أريد لك أن تموت الآن!

.فمتى تفكّر أن تميتني؟!

(ضحك، ثمّ صمت)

.لا تستعجل...

(وبعد قليل)

.ألا تنظر إليّ؟

(صمت)

.ألا تتكلّم؟

.سئمت الكلام!

.ألا تعرف أنّنا نتكلّم حتّى ننسى...

(مقاطعا)

.ننسى ماذا؟

.الآلام... العذاب... والرّهبة والخوف... والمجهول!!

(تململ، وصوت أشبه بالجعير)

.فلماذا جعلتني أتألّم إذن؟

(في تساؤل)

.أنا؟ كيف؟

. إنّك تحاصرني، وتجعلني أتألّم... أنت لم تحرّرني منك، لذلك فأنا أتألّم الآن...

. أنت مخطئ... أنا أريد لك أن تنسى وحشتك وغضبك!

. لا أصدّق!

. بل صدّق، ففي الألم راحة، وبعض الصّحة ألم أيضا!

. كلام غريب لم أسمع بمثله من قبل.

. ستعتاده، وتعتاد مثله... إنّ في بعض الألم أملا جديدا؛ والنّاس لا يموتون من الألم بقدر ما يموتون من فقدان الأمل، وأنت لم تفقد الأمل بعد، أليس كذلك؟

. أرجو ذلك!

(يقوم)

. سأدعك لنفسك الآن؛ إلى اللّقاء!

. إلى اللّقاء!

** اللّيل يفرد جناحيه الأسودين... يبسطهما ثمّ يقبضهما، فتغطّي السّماء وجهها حياء ببرقع ترصّعت في وسطه، وبين جنباته، ملايين النّجوم... كانت تبدو للنّاظر وكأنّها تتغامز، أو تترصّد عاشقا من عشّاق الحبّ القدامى لتغويه، والقمر متربّص، يختفي، إلاّ أنّ طلعته الّتي كانت تفيض على سطح البحر، فيما وراء الضّفاف البعيدة، من النّاحية الأخرى للمدينة القديمة، فتمتزج بسراب الأنوار الّتي كانت تحدث خدوشا في دياجير الظّلمة الدّامسة، تعطي انطباعا دافئا أنّه لن يلبث أن يظهر، فيؤطّر بهالته المتلألئة المشهد المخضرم...

إنّها المدينة الكولونياليّة!

يحرسها البحر من جهاتها العديدة، وتقود إلى شوارعها وعالمها الغافي البوّابة العظيمة... وعلى طول كورنيشها المسيّج، توزّعت عشرات المقاعد الخشبيّة، وانبعثت روائح الذّكرى، بهسهسات الحبّ

الدّافئة... عشّاق وعاشقات، إذا أتعبتهم المناجاة، وسئموا صمتهم اشرأبّت أعناقهم إلى الأمواج المتدافعة في صخب... في البعيد حيث الماء الأزليّ يصوغ أغانيه على هواه، وحيث الأصوات سمفونيّة أخرى تنضاف إلى الكمّ الهائل لسمفونيّات ستظلّ طيّ النّسيان ما لم تفتح مغاليقها يد الإنسان المغامر...

يضيق الصّدر، ويختنق الحلق بالعبرات، والمنظر الّذي يتكرّر أنّى اتّجهت نفسه لا يتغيّر، كأنّه كان منذ الأزل، وكائن إلى ما لانهاية، حتّى بعد أن يتهاوى الكون، ويتلاشى العالم بما فيه ومن فيه... لون الأوجه المخطوفة، ترى فيها الموت، فتخافه، وما تعتم أن تغمض عينيك حتّى لا تراه، على النّواصي المنسيّة، والأطلال البائسة، وعتبات البيوت، ومحطّة السّكّة الحديد، الّتي تنطلق منها القطارات إلى آخر نقطة في شبه القارّة المترامية... وتلك الخيام المصنوعة من النّيلون وأشباه الدّور، وحتّى في المزابل!!... أجساد أستغرب كيف اعتادت البرد، والمطر، وظروف الطّبيعة القاسية، تضرب صفحا عن كلّ شيء ما أن تلتفّ بتلك الخرق المهلهلة، أو الأغطية الورقيّة، لا تهتمّ ما دامت ستسافر في المنام إلى جزائر الأحلام المخمليّة!!... هو الفقر، بجميع ألوانه وكلّ روائحه الكريهة، والجوع، والانتحار الإجباريّ، والموت البطيء، يرين على الملامح والقسمات، والمدينة تزداد في كلّ يوم جمالا، غير عابئة، تتزيّن لعريس ليس من البشر، سيأتي ذات يوم على فرس ذات غرّة بيضاء وجناحين ساحرين، ويطير بها إلى ممالك كلّ أبوابها من الذّهب، وجميع أشجارها من المرجان والياقوت، وأناس ولدوا ليكونوا أمراء وملوكا وسلاطين!!...

أطفال يولدون في العراء... أمّهات يعانين المخاض، ولا أحد يلتفت إليهنّ، لا يصدّقن أنّهنّ بقين على قيد الحياة إلاّ إذا ارتفع صراخ

الوليد الجديد؛ صرخة لا أحد يدري إذا ما كانت صرخة فرح أم صرخة رعب ألهمت منذ البدء إشراق الأولياء والمقرّبين... وآباء لهم في كلّ شارع زوجة، وفي كلّ مدينة مأساة، يفاخرون بنسلهم كي يتسنّى لهم أن يغافلوا الألم والجوع...!! وفي المدينة موطئ قدم للجميع، إلاّي أنا القادم من فراغ السّنين وأشلاء المتاه...

ناطحات السّحاب، والبنايات الفاخرة، والعربات المجرورة، والعشّاق والموسرون، وطلاّب اللّذّة، والباحثون عن العزاء، والمتسوّلون المزيّفون...

والبحر...!!

و«راد ستريت»، والغواني اللّواتي ينتظرن آخر الزّبائن المتعثّرين، وآخر القادمين، يتطلّعن في رغبة، وقد نسين السّأم منذ اخترن طريقهنّ بمحض إرادتهنّ... يرتكين على السّيّارات... يمسكن بأيديهنّ حقائب اليد... ومن حين لآخر يخرجن أدوات زينتهنّ، ويشرعن في إحكام الأصباغ على شفاههنّ ووجناتهنّ، بحنكة اكتسبنها مع السّنين، يدركن بحسّ الأنثى فيهنّ أنّ آلاف العيون تراقبهنّ من شرّاعات النّوافذ وخصاص الأبواب، ومن داخل المتاجر والمحلاّت، ومن كلّ مكان، من الشّوارع والميادين، من المستودعات، من المخازن... لا يخشين على أنفسهنّ، وأجسادهن مبذولة بموجب قوانين الفضيلة، الّتي يقوم عليها رجال البوليس الأشدّاء، بملابسهم الكاكي وعصيّهم الطّويلة...!!

و«مومياي».

أعطتني سرّها وحديثها...

وكنت نزلتها عابرا،

وفي ليلة السّفر جاء من أعطته (

ساقها ومعصمها)

***

..الأربعاء، الرّابع من كانون الأوّل ٢٠٠٢
(كيرالاّ)

[عتبة]

نحن... ولا أقصد أن أتحدّث عن ضمير المتكلّم، أنانيّة الأنا مضافا إليها نكرة من النّكرات الموسومة بعار «الأنت» وفضائحه المخجلة، أو هوائيّة «الهو» المقصى، دائما، في الذّاكرة والوعي، ولا يخرجه من زاويته المظلمة وقبره المستديم سوى تفاصح اللّغة، وهي تفسّر نفسها، بغاية البحث عن القوانين الثّابتة والقواعد الّتي لا تتغيّر... لغة المركز، والانغلاق حول الذّات، والعجز عن إنقاذ الإنسان الوالغ، الإنسان الحامل لصفة الإنسان وهو مجرّد من إنسيّته، وأنسه ونسيانه؛ وإنّما أقصد «النّحن» غير اللّغويّة، « النّحن» الّتي لو وجدت أداة أخرى غير اللّغة لتعبّر بها عن نفسها لأنست بها ولركنت إليها!!...

حاجة البوح ملحّة، والقلب موشك على الانفجار، والجسد أشلاء مفكّكة، والدّماغ رخاوة، تلافيفه أدمتها الأفكار النّصف، ودمامة الهواجس، وارتباك الاستدراك، كلّما حمّ القضاء، وأزفت لحظة القرار...

فيم نفكّر؟ وماذا يمكن أن نقول؟ وهل نحن نفكّر حقّا لنقول؟ أم أنّها خطيئة من الخطايا المستعصية، دربة اللّسان وجعله يعتاد الكلام حتّى لا ينسى في لحظة من اللّحظات أنّ الكلام هو وظيفته، وأنّ لسانا لا تجري عليه الحروف، ولا ترطّبه الكلمات سوف لن يكون لسانا بالقدر الّذي سيكون فيه أشبه بقصبة هشّة في مهبّ الرّيح؟!!

نفكّر لنقول، نفكّر ربّما تحت وطأة إحساس أنّه مهما حاولنا فلن نستطيع الخلاص من لعنة التّفكير، وما دام التّفكير قدرنا الّذي جبلنا عليه، علينا إذا أخلدنا إلى أنفسنا من صخب الواقع، وضجيج الموتى الأحياء، أن نهرب من صمتنا وعزلتنا في الصّمت بالتّفكير: ونفكّر... نفكّر... ونفكّر... نفكّر في المرّة الأولى من باب مداراة الألم والخوف؛ ونفكّر في المرّة الثّانية من باب التّسلية؛ ونفكّر في المرّة الثّالثة لنبتكر أفكارا عظيمة حقيقة بأن تخلّدنا في سجلّ العظماء، حقيقة بأن تقيّدنا في خانة الحكماء الّذين انتهوا إلى اكتشاف سرّ الحياة، فتسربلوا بأردية الخلود، وكانوا مرجعا وقدوة لمن يريد أن يتأثّر خطاهم؛ ولكن بعد الجهد، والضّرب دون طائل في مهامه التّيه، ونجاد صحارى قاحلة ووهادها، وبعد الضّياع والتّشرّد، وكتابة قصائد، بلا عنوان، لمجهولين... لعشّاق، وصوفيّة، وقساوسة، وقدّيسين، وكتبة، وكذبة، وسوقة، ودهماء، وشطّار وزعّار، وعيّار، ومرضى وأصحّاء، وهوائيّين... ويتامى ومسكونين، وقادمين إلى سطح الذّاكرة، وعائدين إلى جنة النّسيان في بساتين بلا أشجار، ومنازل جميلة على شفا الهاوية، وقادة ومهزومين، وأرقّاء عبيد، وأمراء ممالك، لا تتجاوز حدود سلطتهم بعض الكيلومترات في كلّ الاتّجاهات، وملوك وخلفاء من عهد الانتصارات، وأمراء أمراء، وقضاة قضاة، ودول تسقط، وأخرى تؤسّس وتتألّق، وإمبراطويّات موغلة في أصل زمن منسيّ تعلن إفلاسها ما أن تسقط آخر مدنها في أرض العدوة، فينتهي تاريخ ليبدأ تاريخ آخر، وتتلاشى أمّة وتغدو أثرا بعد عين، لتنهض أمّة أخرى، تعلن في زهو ومجون وقحّة، بداية تاريخ يضيف كتابة إلى الكتابة، بل يشوّهها بدعوى أنّ من يملك مفاتيح الممالك المفتوحة له الحقّ أن يكون السّلطان والحاجب والسّيّاف... أن يكون الماء الّذي يشربه الجميع،

والهواء الّذي يتنفّسه الأحياء ويحلم به الأموات... أن يكون الأرض الّتي تنبسط فلا يمشي فوقها إلاّ من كان يؤمن، بقلبه ولسانه، أن من يملك النّفحة لا يمنحها لغير من يعترف أنّ النّفحة لصاحب النّفحة يسبغها على من يشاء، من حلفائه، ومن سيكونون حلفاءه، ومن اضطرّوا أن يكونوا حلفاءه، ومن سيأتون من بعد كلّ هؤلاء ليكونوا حلفاءه، وحملة لوائه في حروب مظفّرة دائما!!... أن يكون السّماء. ليست سماء الربّ الرّحيم الّذي يهب ويعطي دون حساب، ودون اعتبار للموالاة والتّحالفات والعهود والمواثيق، ولكن هذه السّماء من صنع الفولاذ والحديد، والأفران العالية، والذّرّة، واليورانيوم المنظّم، والصّواريخ العابرة للقارّات، والصّواريخ البالستيّة؛ ولا تأخذ إسمها من سموّ معاجم المجاميع، وتفوّق الألسنة، والأدمغة والعقول، الّتي تدرك بسليقتها الّتي فطرت عليها، أنّ النّاس سواء، وأنّهم كأسنان المشط، لا فرق بين ضعيفهم وقويّهم، وغنيّهم وفقيرهم، وولودهم وعقيمهم؛ وأنّهم سواء في الفراش، إذا تخلّوا عن كلّ ملابسهم، ليفرغوا لنسائهم؛ وأنّهم قوّة بالكثرة، يرهبون بها، ويغدون بها سفّاحين، وقتلة مأجورين، أمّا إذا ذهبت الكثرة، وتفرّقت الوحدة، وتحلّلت اللّحمة، لم يبق ليواجه مصيرا مجهولا إلاّ الإنسان الأعزل، الفرد، من دون كلام كثير، ومن دون فلسفة، ومن دون معرفة... من دون حياة أو موت، ومن دون أيّ شيء، ليواجه الخوف، وخوف الخوف، وخوف الفزع، وخوف الرّعب... وكلّ الخوف بمشتقّاته الّتي اشتقّ منها، والّتي اتّحد بها لتشتقّ من اجتماعهما آلاف المفرادات والعبارات... والتّرّهات والخرافات، وأساطير فتح حصون، وإنشاء دول، وبناء مدن اشتهرت في التّاريخ!!

[أمريكا موسيقى!!
* درويش:
.أمريكا وراء الباب.
.أمريكا هي الطّاعون
والطّاعون هو أمريكا.]
نفكّر... نفكّر في أشياء لا يحدّها الحصر، ولا نقول ما نفكّر فيه دائما!!

[ترنيمة... من سفر الهينمات والتّرانيم]

إناء ذاكرتي يرشح من فيض «أونام»، وينير دروب العشّاق المخطوفين الممسوسين، على نغمات الجوق، ما بين مدائن من لون البحر وطعم الخمر: فارقص، يا قلب، من القلب، وغنّ من بعض مقام لا يأتي، ونشيد إذ أصحو يجافيني... وليأت الحشد وقصّاد الواقف في حجب، يعزف للأنثى الغادة، يفصح عن شوق الآتين من الشّوق، ويراقص آلهة التّوت...!!

اليوم عثاري تعثّر في ضلعي، وطلبت الصّحبة والخلاّن... أوقدت شموعي، وتساميت، فلم يأت البوح، وطلبت أطايب عشق العشّاق، تربّعت على هجس الحرف: كانت رابعة... وحسين الحلاّج... وأبو القاسم... والشّبليّ... وشطح أوشك بي، أو جزت به درجات الفيض، فرأيت بعينيّ دروبا، ومجازات، ومفاتيح الكشف... رأيت بعينيّ النّور، ومجالس تعبق بالعود، فشكوت لصمتي يتأثّر في الظّلمة خطو السّاعين إلى الحضرة!!... يا صحبة دربي، العشق ضناني، وعلائق شكواي تعلّقت بها، علّي أعبر نهر الآلام إلى نهر الآمال، علّ الإتراب يبعثر مضغاي، فتمتدّ العلقات إلى واد الحمرة، والطّفل يبوح بحرف

التّكوين الأعظم...!!

قلت: مراميّ!!

قال: الصّبر، فطريق يعبر في الظّلمة صعب.

قلت: فقط ، مولاي، تداركني بحرف.

قال: تجلّد، فالحرف نهاية عشق، بدؤه، كلّ الحجب المستورة أبوابها حرف!!

قلت: فعلامة...

قاطعني...

قال: أنصحك أن تصمت دهرا... وتأمّل من حولك، كلّ الأشياء تقول، واللّيل يقول، والشّمس، القمر، الصّخر، الماء، وعبارة «كن»، والدّارة، النّخلة، حتّى الهمس الآتي من الهمس، والقلب النّابض... كلّ الأشياء تقول، فتأمّل، ولتصمت، ولتبك كثيرا، فزمان الأوجاع طويل، وزمان الآلام طويل، وزمان الرّفقة... زمان الصّحبة، والدّمع طويل...

فبكيت، لم ينزل دمعي، لكنّي بكيت، وسمعت ترانيما... أوشكت على نهر الفيض، فرأيت الصّوفيّة والقصّاد، ورابعة العدويّة، وحسين الحلاّج، وأبا القاسم، والشّبليّ... أوماوا لي، وكان النّهر العملاق يباعد ما بيني وبين تلاقيهم، لكنّي رميت بفؤادي، وطلابي، ورميت بنعلي، وسوادي، وبياض الشّعر، وهمّ القلب، وقلب الأحمال... وجذّفت إلى الضّفّة، كان التّيّار يعاكسني، وقواي تخور، فصرخت...

قلت: أحبابي...

قال: لا تعجل، فالدّرب طويل...

قلت: متى، فالصّبر يوشك أن يذوي، واشتعل الرّأس بياضا؟

قال: ابك!

فبكيت.

قال: تمدّد!

فتمدّدت.

قال: فلتغمض عينيك الآن، سيأتي الأحباب، فيلقون البركات بردنيك، وذاك لعمري من فيض العشق، يساعد في الوحدة، وثواني التّغبير، فالزم دارتك، وشدّ الصّخرة في بطنك، وارقص، ارقص، حدّ الغشوة، وارقص حدّ الصّرعة، والجذل القادم...

قلت: فأفرغ من فضلك صبرا، كي نحسن لقياك، وخواتيم الإحلال.

قال: فاجهد، فالصّبر ركاب المفضين من الشّطح إلى الشّطح، ومن إشراق إلى فيض الحالات...!!

(مدد،

مدد،

مدد...)

[*مقام أوّل*]

... أنا الرّاوي!!

كنت أخاف من الأسئلة، والأجوبة، ولا تعجبني المواجهة... وكان الصّمت يستبيني؛ وعلى امتداد الأيّام السّبعة والعشرين أو الثّمانية والعشرين الّتي قضّيتها، مشتّتا، في مدن «هندستان» ومقاطعاتها أو ولاياتها، كان كلّ ما فعلته، و ما حاولت فعله، بحثا متواصلا عن هذا الصّمت... كنت أتوق إلى لحظة خلوّ إلى نفسي دون منغّصات، دون أن تطاردني الأصوات والأوامر، والضّحكات، وصوت المفتاح يدار في الأكرة على حين غرّة، ليدخل إلى الغرفة بعد ذلك «شانيل» أو «نايجو»، أو كلاهما معا... فتتعالق خيوط أحاديثهما، وتتشابك، ويمعنان في المضايقة، فيأخذ أحدهما جهاز التّحكّم عن بعد، ويضاعف صوت التّلفزيون، ثمّ يشرع في الانتقال بين قنوات السّاتلايت دون أن يكون

معنيّا بما يعرض... لم أكن الوحيد القلق الّذي يحسّ بالضّجر والقرف، بل كانا هما أيضا يشعران بنفس الشّعور، غير أنّ الفرق ما بيننا كان شاسعا: كنت واحدا في مواجهة اثنين، وكان قلقي مضاعفا!!...

توقّفت عن الحلم... والأحلام الكثيرة الّتي كنت أراها في نومي بغرفتي الصّغيرة في ذلك البلد الصّغير الجاثم على إحدى ضفاف المتوسّط، أو تلك الّتي كانت تزورني لماما في مدينة «صور» تبخّرت هنا، في المدن الّتي لا يشار إليها إلاّ بتلك الاختصارات الّتي كنت أراها على لوحات السّيّارات، وكانت تحيّرني جدّا... بعضها أهتدي إليه بالحدس، أحزره، وحين أفعل ذلك تجتاحني فرحة غامرة، كأنّي «كولومبوس» الّذي اكتشف «القارّة الأمريكيّة»، أو «ماجلان»، أو «جاليليو»،... أو «كوبرنيكوس»!!... «د. ل»: دلهي. «هـ. ر»: هاريانا. «ر. ج»: راجستان... وحينما كنّا في «مومباي»، كان أوّل ما فكّرت فيه أن أتطلّع في غفلة من صديقيّ إلى لوحات السّيّارات، «الأوتوركشا» الخرافيّة، الأتوبيسات، والميكروباصات، والدّرّاجات النّاريّة... وصدمني الحرفان اللّذان رأيتهما، ينظران إليّ في تحدّ... يفرضان عليّ نفسيهما في وقاحة، وذلك ما كان يزيدني عنادا، ويجعلني حرونا... «م. هـ»، أدرتهما في ذهني مليّا، واستعرضت إسم المدينة، تملّيت حروفها حرفا حرفا، تهجّيتها... مـ... و... م... بـ... ا... ي!! لا مكان لحرف «هـ»، لا وجود له بين الحروف، فمن أين جاء؟ وما محلّه من الإعراب؟... لا أنكر أنّ القلق جعلني أبدو تافها في نظر نفسي، وأنّ المحاصرة الّتي كنت أتوهّم أنّ «شانيل» و «نايجو» يفرضانها عليّ، كانت تحيد بي إلى اتّخاذ القرارات الخطأ في الوقت الخطأ، بل إنّها كانت تغريني، في لحظات النّقمة والغضب، وكردّ فعل، بالابتذال، والسّخافة... فقد كنت أرى أنّه بالقدر الّذي أبدو فيه شخصا غبيّا، أو مهرّجا، سيزعجهما ذلك، وسيلفت نظريهما، وبالتّالي سيجدان نفسيهما مجبرين على اتّخاذ إجراء من أيّ نوع، ومهما كان الثّمن... الانتقام! نعم، الانتقام، ما كنت أصبو إليه... حرمانهما من

الرّاحة، ومن أن يتصرّفا بكامل حرّيّتهما!!

والحقيقة أنّ فضولي كان يغلب على تفاهتي: كان يغلب على الابتذال الّذي ركبني...

سألت «نايجو»، وأنا أشير إلى لوحة إحدى السّيّارات:

.«م. هـ»، ما يعني ذانك الحرفان؟

قال ببساطة، وبعفويّة، جعلت إجابته كأنّها مواصلة للحديث الّذي كان يخوض فيه:

.ماهرشترا!

[..نجوى..]

الشّارع خلفي ظلال، وخطاي بلا ظلّ...!

نفسي يرتدّ عليّ، فأزيح عن حلقي هاءات الآلام، وأحاول أن أبحث في العمق عن كنز ضاع، وتيه آخر، يعطي القافلة الأسرار... وسرّي!! أبحث عن قلب يعطي الشّمس حميّاها، ويعطي القمر التّرنيم، ولألاء الأنسام، ويعطيني بياض الشّمع، وحرقة من مات بظلّي... ويعطيني دموعي، فالقلب شرايين جفّت... والحلق تمائم من طين الأرض تناستني!!... إنّي مسكين مسكنه النّسك، وأحمال القصّاد، وروحي تهاويل، لا نور يجلّيها... ولا طرق تفضي من التّيه إلى التّيه... لا رمل يغريني نداه، فأغرف، يهتزّ لساني الظّمآن على البرد القادم من سرّ الأسرار...!!

جسدي دارات، أبواب تفتح... ودهليز للظّلمة، أشياء تأخذ أسماء من صمتي، وأشياء: قمر تحجبه الغيمة عنّي، وسحاب لا لون ولا طعم، لا ماء فيه، يبشّرني بأنّ النّاجين يوافوني، وبأنّ المفتاح سيعطاني إذا انتبت تهاويلي، وسلّمت لمن يكسر صمتي، ويرهقني!!

... أتأثّر خطوي، وخطاي خطوب، آثاري جروح الأرض، فمن يمحو الخطو وآثاري، فأعطيه مملكتي، وسمائي المسكونة بالبوح، وبالشّعر، وبالخجل المكشوف؟! من يحمي خطاي من الخوف، ومن تعبي، ويمنحني الأعلام؟!... يا ليت دخانا... يا ليت النّار تؤشّر لي، والكهف يجلّيني له، والممشى يأخذني بعلاّتي، ويقول: تعلّم!!

فأقول: تعلّمت... سنوات لم أشرب، لم آكل، لم أنطق حرفا، وبلادي تذرّت في كفّي...! أحجار الدّار، وبئر الباحة، أمّي، وآبائي، ومن كنت أمنّي النّفس بهم: أبنائي، لم أحفل إن غابوا بجفني!!... إنّي تعلّمت، فتداركني...

ويقول: تعلّم!!

فأقول: تعلّمت.

فيقول: الصّمت تعلّمت.

فأقول: وماذا؟

فيقول: تلبّد، ساكن ظلمة ليلي حتّى لا يهرب منك، وإن شئت نهارا فاحجب عينيك عن النّور، فلا نور يقيك أدواء الخذلان، ولا نور يجلّي لك المخفيّ...!!

(... وامتدّت بيني وبيني صروح العشق، فذكرت شيوخي، وتحاملت على بقاياي إذ زادت بي صبواتي، انتظرت السّاقي ليهرق في القلب كنف التّغبير، ويعطي لساني أولى كلمات النّزع إلى الرّوعة والتّرويع، في شطحي سمعت شطحات الصّوفيّة، وبدا لي شطحي أشبه بالسّكنات بلا قلب يكنف قلب السّاعين إلى خبز الرّفد القيّوميّ، ذكرت أولى الحروف قالها شيخي:

.وصعدت إلى الملأ، فابتدرتني ملائك ربّي، قلت أنا أنت، وأنت أنا، إذا حللتَ حللت-، وإذا حللت- حللتَ، وتناظرت مع مولاي فصرنا، لا فرق ما بيني وبينه، أقول فيعطي، ويقول فأعطى كلّ ما بين كان الكون ونونه...)

+ وتجلّت لعينيّ المراقي، فذابت نفسي، وسال القلب من حرّ التّلاقي، أيا ربّ تدانيت تدانيت فما لي عندك من رفد الممسوسين برقياك، وما لي في كينونة إنّيّتك العليا من الإسباغ الممزوج بخمر المفضين إليك ساعة شطح، ما بيني وبينك بين القرب، فيا ربّ امدد إليّ حبل وصالك كي أرقى وأعتنق العشق هوى فيك وإليك، وكي يهديني القلب إلى ذوب فيك، وما أشهى أن يفتضّ العاشق عشق المعشوق... ذكرت الصّحبة والإخوان، ومن سكروا إبّان النّفحة من طلاّب ومن جلاّس، ومن عشّاق، ومن سيّاح صوفيّة، فامتلات نفسي، ورغبت . أيا ربّ . بأن تعطيني ساعة لقياك بعض أحايين الكشف وسرّ الإعتاق النّورانيّ، فأمتدّ إليك بهم من كلّ الأقطاب، ونعلن آيات الحبّ، وشوق السّيّاح إلى الإحلال وموتنا في أفياك...!!

[*مقام ثان*]

دون إرادة منّي وجدت نفسي أفكّر في «الميتامورفوس»!

في الحافلة، في مكان ما من «مومباي»، في ساعات الصّباح الأولى، وأنا متكوّم في مقعدي، بيدي فنجان القهوة الّذي جلبه لي «نايجو»، أنظر من خلال الزّجاج إلى أحشاء المدينة المندلقة!!

لم أعرف بعد أنّ الرّحلة ستدوم حوالي أربعين ساعة إلى «كيرالاّ»، والشّعور الّذي كان يلفّني طوال الوقت قبل الانطلاق مزيج من إحساس لا يقاوم بالغربة، تشوبه بعض الرّاحة أنّي على وشك المغادرة سريعا، وأن حياة التّشرّد في الفنادق قد انقضت إلى الأبد، والحرّيّة الّتي افتقدتها، فيما مضى من الأيّام واللّيالي، سأسترجعها عمّا قريب... كنت سعيدا، أو بالأحرى كنت أستشرف السّعادة القادمة: الغرفة الخاصّة، عدم الاضطرار إلى انتحال الأعذار والمراوغة كلّما رمت

الذّهاب إلى دورة المياه. كان ذلك من العادات المزمنة لديّ، أكره دورات المياه، ولا أذهب إليها إلا سرّا، واضطرّ إلى الكذب إذا سألني أحدهم وأنا ذاهب إلى هناك، إحساسي أن الإنسان مهما بلغ من السّموّ، مهما زكّى نفسه، واخترق المعتاد، سيظلّ كائنا قذرا، مشدودا إلى معدته بقدر لا فكاك منه... أشيائي الخاصّة، حقيبتي، فرشاة أسناني، لحافي، نقودي، وقمصاني، وسراويلي، ومفتاحي الخاصّ، أضعه في الباب متى أشاء، وإذا عنّ لي أن أخلو إلى نفسي أدرته في الأكرة مرّتين، فلا إزعاج ولا خوف من الاقتحام...

عيناي تضيقان، وما تزال بهما آثار النّوم... في اللّيلة السّابقة عدنا إلى الفندق في حدود السّاعة الواحدة والنّصف، ولم ننم إلاّ ساعة أو أكثر من ذلك بقليل... عند السّاعة الرّابعة جاء أحد الأصدقاء بسيّارته، فحزمنا الحقائب والأغراض، واتّخذنا أماكننا في المقاعد، وانطلقت السّيّارة بين دروب مجهولة من المدينة الّتي كانت تعانق الصّباح وتتنفّس روائحه...

دكنة... سحابات ثقيلة ملأت السّماء، كانت سوداء، وقريبة جدّا إلى درجة أنّي توهّمت أنّها على وشك أن تلامس الأرض، وأن تنوء علينا بثقلها... كان اعتقادي أنّ أشياء الطّبيعة، وعناصرها، لها أحاسيس ومشاعر، مثلنا، وأنّها تتعاطف، تكره، تحبّ، تحزن، وتفرح، وأنّها تشيخ وتموت، وأنّها في لحظات النّزع تودّ، مثلنا أيضا، أن تعترف وأن تبوح برغبتها الأخيرة... تودّ أن توصي قبل أن يغيّبها ظلام القبر!! وفي ذلك الصّباح، بدت لي تلك السّحابات غاضبة، وعدوانيّة، وأنّها في أيّة لحظة قد تحطّ علينا دون رحمة... لم أر شمسا، ولا بصيصا من النّور، وصفحة السّماء مجرّد احتمال، أحسّ بوجوده ولست متأكّدا منه...

رغم الجهمة، والحزن، وتراكمات الألم بداخلي، كنت في غاية من الانتشاء، تداعب باطني كفّ ابتسامة أسيانة، صغيرة رقيقة، تنساب في هينة، فمرّة تنتابني قشعريرة خفيفة إذ تحتكّ بغشاء القلب، ومرّة

تتمدّد مع الدّماء في شراييني، ومرّة ثالثة تلتبس بتلافيف الدّماغ... ومرّة تخضّني خضّا، وتكاد تلامس لهاتي، لترتسم على شفتيّ... ابتسامة كانت هي نفسها اختصارا لأشياء لا أحسن التّعبير عنها بداخلي، كما كانت المدينة الكبيرة، في ذلك الصّباح الصّيفيّ الملبّد بالغيوم، اختصارا: مآذن المساجد الّتي لا تتميّزعن باقي المباني، وتتّصل بها، ولا تعرف الطّريق المؤدّية إلى أبوابها، والدّكاكين، والبيوت القديمة، والأخرى الحديثة ذات الأسوار والبوّابات الّتي كتبت عليها أسماء أصحابها، مؤشّرا إليها بالأحرف الأولى... والمصارف، والعمارات الشّاهقة، وحتّى الخيام المنتثرة على التّخوم والأطراف كأنّها النّتوءات، أو الدّمامل النّاقلة للعدوى في كفّ المدينة وكتفها... والحانات والمطاعم... وكلّ شيء... كلّ ذلك كان اختصارا للخضرة الدّاكنة، للّون الأخضر الّذي كان يسيّج العالم بأسره... غابات لا يحدّها البصر، تترامى إلى ما لانهاية، تجرح العينين للوهلة الأولى، ثمّ يتحوّل الجرح إلى هينة مستحبّة، تودّ لو يتماهى فيها كيانك كلّه...

وما أن تحيط بالمشهد، وتتشرّبه، وتغدو جوانبه منطبعة في ذهنك، وتتأكّد أنّ الاختصارلم يترك شيئا من أشياء الكون الفسيح إلاّ اختزله إلى عناصره الأولى، حتّى يستكين القلب إلى هدأته، يهمد، فتثقل جفون العينين بدورها، وتتماسّ الأهداب، في حلم يقظة جميل... ترى نفسك وقد غدوت أنت العالم الخارجيّ الّذي كنت تراه، بكلّ عناصره ومكوّناته؛ وتهتزّ جوارحك، وتنازعك رغبة جامحة في الرّقص والدّروان حول نفسك حتّى الغشيان!!...

كانت الغابات بيتا لمن ليس له بيت، وكانت المأوى، والسّماء الّتي تظلّل الأجساد العارية... وكانت الكفّ الحانية الّتي تمسّد على وجنات الأطفال الصّغارفي الأعياد، وسائرالأيّام وهم يحملون حقائبهم الهزيلة إلى مدارس ليس لها من صفة المدارس إلاّ الإسم... تتهجّى ألسنتهم الحروف الأولى في أصل لغة تتسامى على الفقر... والجوع... والألم...

والوطن الّذي تتحدّث عنه وترفعه إلى مراق لا ترام وطن لا يحطّ على وجوه أطفاله الذّباب القاتل، ولا يبيت أهله في العراء، ولا يقضون فيه حاجاتهم البشريّة أمام أعين الرّقباء والمتطفّلين... كان وطنا، وكانت أكنافه القشيبة قبضة من مسرّات الجنّة في الكتب الإنجيليّة، وأناشيد الإنشاد، والآيات القرآنيّة... وأسفار الرّهبان الهندوس، والحجيج الّذين أفنوا هزيعا من أعمارهم بين الجبال الشّاهقة، والتّلال الّتي تآكلت قممها عبر الزّمن، والسّهول المترامية الخضراء، الّتي كانت مرتعا لآلاف الخيول الجميلة الوحشيّة...!

ليس الجسد وحده الّذي يمرض، وإنّما الرّوح أيضا!! أو أنّ الجسد يعتلّ فتصيب عدواه الرّوح، أو العكس: فيتشوّه الإنسان، وتتفسّخ أعضاؤه، عضوا عضوا، يغدو جيفة تعافه حتّى الطّيور الجارحة الّتي كانت تتمنّى موته بفارغ الصّبر كي تجعل منه مأدبتها المرتقبة... بلى، لقد تغيّرت، تحوّلت، وكان التّغيّر الّذي حصل لي على امتداد تلك السّاعات الأربعين، من «مومباي» إلى «كيرالاّ»، أعمق أثرا من كلّ التّحوّلات الفسيولوجيّة والبيولوجيّة والسّيكولوجيّة الّتي عرفتها على امتداد سنواتي الأربع والثّلاثين!!

بلى، لقد كان «ميتامورفوسا»!!

ابتداء من العينين المتعبتين وهما ترفّان وترتجفان إذا ارتدّت عنهما بقايا النّوم، وتركتهما تلوبان، تتتبّعان أثر الصّديقين الهاربين: أسند رأسي إلى الزّجاج، فلا أرى إلاّ كثافة وضبابا سديميّا، ورؤى متداخلة لا تبين، فأظلّل عينيّ بكفّي، أقرّبها من الزّجاج تماما، وأسعى أن أتعقّب تلابيب الظّلمة لأطردها... ومن بين تحسّبي والخوف الّذي امتلأت به، من مكاني، أدفع عنّي نظرات المتطلّعين إليّ، وأتقوقع على نفسي، أتشبّث بصمتي، أقيمه متراسا من حولي، وأدعو الله أن لا يقترب منّي الكمساريّ، وأن لا يسألني عن تذكرتي، كنت ألاحق شبحي «شانيل» و«نايجو»...

الأسئلة تتراكم، وتقتحم أفقي فأسكتها، أدفعها عنّي بكلّ ما أوتيت من قوّة، تتظاهر بالارتداد، تنكص للحظات، وتعود ثانية متمترسة خلف دروعها وتروسها وأكياسها الرّمليّة: ماذا لو اختفيا؟ ماذا لو جاء الكمساريّ في غيابهما، والتّذاكر لديهما، ولا شيء عندي يثبت هوّيّتي، فحتّى جواز السّفر لم يكن معي، إذ كنت أعطيته «شانيل»؟... أراهما فأقتفي أثرهما، كانا يختفيان حينا ويظهران حينا آخر، وكأنّهما يعرفان أنّي أراقبهما فكانا يوطّنان العزم على الاختفاء والهروب منّي... في تلك اللّحظات كرهتهما... كان كرهي أسود، داميا، غير أنّي لم أكن أملك أيّ شيء حيال ذلك سوى الصّبر والانتظار...

ممتلئا بالقهر، ومتعبا، حزينا، أستدعي الدّموع إلى مآقيّ، خائفا كجرذ يهرب من القطّ على مبعدة منه، ويوشك أن ينقضّ عليه ويفترسه، مجرّدا من أيّ سلاح، ولا قدرة لي على مقاومة من هم على مقربة منّي... أجمع أكياسي من حولي، وحقيبتي، أنظر إليها، أعدّها... هل نقص شيء؟ هل سقط شيء ما في غفلة منّي؟... أراقب الكمساريّ شزرا، بطرف عينيّ، وهو بالقرب من السّائق يتحدّثان، ويدخّنان، وأحيانا يوسع لبعض المسافرين الجدد... وكان لديّ حدس أنّه مع اقتراب موعد انطلاق الحافلة. وكانت السّاعة تشير آنذاك إلى الثّامنة إلاّعشر دقائق . سيبدأ عمله في التّأكّد من تذاكر المسافرين... كنت أتظاهر باللاّمبالاة، كأنّي شخص ألقت به المقادير، في ساعة نحس، إلى مكان كلّ من فيه غريب، خليط من أشخاص يتكلّمون مليّا، ويثرثرون بلسان محيّر لا أفهم منه شيئا... أتجنّبه كلّما التقت عيناي بعينيه، أحيد، فأرتفق زجاج النّافذة، وأنا أراه يكاد يفترسني بنظراته المتسائلة... وممّا زاد من خوفي أنّي لم أعد أرى «شانيل» و«نايجو» كما لو أنّ الأرض ابتلعتهما، التفتّ يمينا وشمالا، واستدرت إلى الخلف، ونهضت فاشرأبّيت بعنقي ناحية زجاج الباص الأماميّ، ولكن لا فائدة...

في وقت ما، كان الكمساريّ يقف بجانبي، كانت شفتاه تتحرّكان، وأسمع صوته، ولكن لا أفهمه، وقد قرّرت أن أتحدّث إليه بالإنجليزيّة... فتحت فمي، أردت أن أخبره أنّي غريب، وأنّي جئت مع صديقين، وأنّ تذكرتي معهما، وأنّهما سيعودان بعد قليل، غير أنّ شيئا في ملامحه، وسحنته الداكنة، أكّد لي أنّ حديثي معه سيكون أشبه باللّغو... أرتج عليّ، تحرّكت في مكاني في محاولة للتّغلب على اضطرابي، تنحنحت مرّات عديدة، ووجهي ناحية الباب... أوشكت أن أسبّ، ووجدتني أمتلئ بكلمات كبيرة جدّا، لولا أنّ الحركة الطّارئة أمام مدخل الحافلة أعادتني إلى هدوئي، وارتسمت ابتسامة فاترة على شفتيّ، وأنا أرى «شانيل» و«نايجو» يقتربان...

قلت لـ «شانيل» وأنا أوسع له ليأخذ مكانه بجانبي:

.لقد قلقت! أين كنتما؟

قال:

.ليس هناك ما يدعو إلى القلق... سيكون كلّ شيء على ما يرام، بعد أن تنطلق الحافلة...

قاطعته، وقد وجدت في حديثه تشجيعا لأساله:

.كم ستدوم الرّحلة؟

قال وهو يسند رأسه إلى مسند المقعد:

.ما زال الوقت مبكرا...

ثمّ:

.سنصل بعد يومين كاملين تقريبا!!

***

العينان ليستا عينيّ، هما عينان لشخص آخر، لا أعرف من أين جاء غير أنّي أحسّه في داخلي، يضطرب كياني كلّه بأفكار لم أفكّر فيها، لا شكّ أنّها أفكاره، ويجري على شفتيّ كلام لم أفكّر فيه البتّة، قطعا

هو كلامه، وفي الوقت الّذي أشعر فيه أنّي في حاجة إلى النّوم، أو بعض ساعات من الرّاحة أتناسى فيها وضعي الغريب، ووجودي بين غرباء لا أعرفهم ولا يعرفونني، تنشدّ جفوني على اتّساعها، تتّسع، وتظلّ هكذا، ومهما حاولت أن أغلقها مرّة أخرى، لا تطاوعني... أستسلم لها، مع إحساس ما فتئ يتضخّم بداخلي أنّي أرضخ، على الرّغم منّي، لجفون شخص آخر، أسمع ضحكاته السّاخرة تتردّد في أعماقي، وتنغل في دمي مع الشّرايين، خلل الدّماء!!...

دمي، نعم دمي، تراه ما يزال أحمر كما كان، كما عهدته منذ وعيت في الدّنيا، وتفتّحت عيناي المتعبتان على الحياة؟!

هل هي نفس الحمرة، الّتي لم أكن أعرفها، والّتي انبهرت بها ذات يوم، وقد جرحت نفسي بسكّين المطبخ، فنزّ الدّم، أحمر متخثّرا، فاتنا؟... أتراه نفس اللّون الّذي أغراني آنذاك أن أتذوّقه بشفتيّ، أن يلامسه لساني، فيمتزج بريقي، ويسبح في برك فمي الغافي، صعودا ونزولا؟... أم أنّ الحمرة تذرّت دفعة واحدة، لتبقى حقيقة واحدة، بأنّ الحمرة أصبحت أميل إلى بياض شبحيّ، بلا روعة ولا فتنة؟!

«مازوكيّ»!!

لا مفرّ من الألم، ولا معدى عن العذاب؛ والمشاعر المرضيّة الّتي كنت أحسّها، والهواجس والأخيلة، كلّها استحالت أمراضا، دمامل كبيرة رغم أنّي لا أراها على جسدي، على رقعة الشّلو الّذي أصبحته، إلاّ أنّ الوهم كان يصوّر لي أشكالا متعدّدة لدويبات وكائنات غريبة كنت أراها تتحرّك بحرّيّة على كلّ شبر من جسمي، تكشّر عن أنيابها المخيفة، وتنشبها على غير انتظار في اللّحم الدّامي، في الكتفين، في جمّة الرّأس، وفي الصّدر، وفي السّرّة، والفخذين، وربلة السّاق، والقدمين، وما بين الأصابع... وأحيانا كثيرة في روحي!! كنت أتلوّث بالدّموع، برقرقتها، في فضاء العينين اللّتين لم تعودا عينيّ، ما بين أرخبيل الغدد، الّتي ينشط

عملها عند لحظات الضّعف، والإحساس بالغبن والمغامرة... أتماسك قدر المستطاع، ولا أريد لتلك البرهة الخلّبيّة من الذّوبان والتّلاشي بين ذرّات الكون، أن تزول بسرعة...

تآلفت مع المرض لكثرة ما عاشرني وعاشرته، وحينما أستشعر فتوره، وأنّ قبضتيه الحديديّتين، وكلاّبتيه المغروزتين في القلب، بدأتا ترتخيان، أستدعيه، أناجيه كما لو كان حبيبا متمنّعا، أو عاشقا قد سلا معشوقته، ليجرّب حبّا آخر وعشقا جديدا!!

هل كنت ألتذّ بتعذيب نفسي، أم مردّ ذلك إلى الإحساس أنّي لم أعد أنا، وأنّ طلبي للمرض ما هو إلاّ ساديّة قاتلة من جانبي، أريد بها أن أنتقم من المجهول الّذي حلّ فيّ، فأوجعني حلوله بداخلي؟!... سوف لن أتألّم بقدر ما سيتألّم هو، ولن أحسّ بقشعريرة العذاب الّذي ستنتابه هو قطعا، ولن أسهر اللّيل بطوله، أنتظر زوال المعاناة، وذهاب الأوجاع!!

كلّ شيء كان غريبا! كنت غريبا!

فنجان القهوة الّذي كنت أمسكه بيدي في الحافلة، ورددته إلى «نايجو» فارغا ليرجعه إلى صاحب المقهى، لم أشعر أنّي كنت أمسكه، وأنّي قد مددت يدي إلى صديقي، بل لقد خيّل إليّ أنّي لم أشرب قهوتي المعتادة، في ذلك الصّباح... وحتّى على فرض أنّي شربتها، وأنّي أحسست بحرارتها تدبّ في أمعائي، كما كان الحال دائما في أوقات سابقة، فإنّ شفتيّ وفمي مازالا يستبدّ بهما جفاف مضن... وجنتاي هما الأخريان يابستان لا رواء فيهما، متصلّبتان مثل قطعة متروكة من الخشب، قدماي في الحذاء، كأنّهما ليستا موجودتين أصلا، وأن لا سلطة ولا سيطرة لي عليهما... هل هو التّعب؟ الإرهاق؟ أم شيء آخر؟!... أستحلب ريقي، أستحلبه قطرة قطرة لأرطّب به شفتيّ، ثمّ أسحبه بعد ذلك إلى فمي لأجيله فيه، وراء الأسنان، في الحلق، وفي اللّهاة... ثمّ أقرّبه من

الشّفتين مرّة ثانية ولا ألفظه ولا أبتلعه، ولكن أظلّ محافظا عليه أكبر قدر ممكن... كان ذلك القدر من الرّيق الضّئيل حياة بالنّسبة إليّ، وكانت الحياة عزيزة، ولا غنى عنها للوصول بأمان إلى «تريشور» بعد يومين طويلين مضنيين!!

ثقل ما يشدّني إلى المكان، يسمّرني في المقعد، ولا أمل في الحركة يمينا أو شمالا، ثقل من أعماق سحيقة في وديان مظلمة، على مشارف هوى انفتحت فجأة بأعلى قمم جبليّة غير تلك الّتي كنت أرى بعينيّ الحافلة تزحف إليها، في طرقات بالغة الضّيق، تنساب بينها كأنّها كائن هلاميّ، زنته أطنان وأطنان... كائن يكفي خطأ بسيط أن يلقي به من سابع سماء إلى سابع أرض... أشبه بدويبة أرض لزجة الملمس، كثيفة، متخثّرة، لها قدرة عجيبة على التّحكّم بجسمها الطّويل، تحرّكة بطريقة لولبيّة، ولا تتوقّف البتّة عن الحركة...

شسوع... امتدادات لا تحدّها العين، ولا تدركها الرّؤية أو البصر... اخضرار دائم، وجغرافيا من الأشكال الهندسيّة الّتي لم أتصوّر في حياتي أن أرى مثلها... أسرار في التّيه... تيه لا يماثل المتاهات الّتي قرأت عنها، أو تلك الّتي انطبعت على سطح ذاكرتي، أشتاتا من ماض على تخوم صحراء لم أولد فيها، ولكن ظلّت تربطنا بها علائق لا تتفكّك، عبر وسائط، أناس من البدو كانوا يقومون على حرثنا ومواشينا، ويجلبون لنا شطرا من المحاصيل مع نهاية كلّ موسم... تلال وسهوب، وسهول مترامية لا يظنّ النّاظر إليها أنّ لها نهاية، تسرح فيها عشرات الأبقار العظيمة، تجترّ بأشداقها أكوام الحشائش الّتي كانت تنتشلها بين فكوكها في لامبالاة... يخيّل إليك أنّها مسافرة في المدى، لا تني عن الهروب، وملاحقة الحافلة وهي تنهب الطّريق المسفلت نهبا... وبنايات ترتفع إلى هام السّماء، بيضاء، تحسب أنّها تختال وتتهادى في مشيتها، إذا تطلّعت إلى السّماء من فوقك، ورأيت جزز السّحاب تخبّ خبّا، إلى

مناطق مجهولة من المدينة الّتي كانت تصرّعلى المطاردة، كانت المدينة عابسة، كأنّها غاضبة، أو لم يرق لها ذلك السّفر المفاجئ، فأدركت أنّه لا يرضيها أقلّ من العقاب... اللّعنة الممزوجة برائحة الدّماء، والرّوائح الصّباحيّة الغريبة، وعري أطفال صغار يلعبون غير بعيد عن دورهم وخيامهم، ونساء يحملن فوق رؤوسهنّ أطباقا كبيرة من القشّ في طريقهنّ إلى حقول خضراء على الدّوام...

بأيّ عين كنت أبصر العالم من حولي خلال ذينك اليومين المريرين؟ أو بالأحرى بأيّ عينين؟ وهل هما عيناي أم عينا شخصا قد يكون يمتّ إليّ بصلات قربى لا سبيل إلى انفصامها؟ أم عيون كثيرة لأشخاص عديدين كنت أتماهى معهم، في أوقات بعينها، يتبادلون، في مجال رؤيتي ووجودي، الواحد تلو الآخر، لكلّ دوره والعمل الموكل إليه، فهناك من يحزن بالنّيابة عنّي... وهناك من يفرح إذا أنس منّي سعادة ما... وهناك من يبكي... من يرثي لي، في أويقات الأرق، والنّوم مجاف، لا يأتي إلاّ لماما، ولم يكن نوما بقدر ما كان ألما وعذابا لا يطاقان... وهناك من يطير بي، من يأخذني معه إلى أجواز السّماء الّتي كانت تبدو في أحيان عابرة أقرب من كلّ ما عداها، بسحبها الملوّنة، الرّمادية والسّوداء، والبيضاء، وهي تتداعب دون توقّف... وهناك من يخاف، من يصيبه الرّعب، ولا يفصلنا عن الهاوية إلاّ أن تخطئ الحافلة مسارها فينتهي كلّ شيء في لمح البصر!!

المحرّك لا يهدأ، يفحّ فحيحا أقرب إلى فحيح الأفعى، وهي على وشك أن تستبدل جلدها، استعدادا لبيات سرمديّ... والسّائق من وراء عجلة القيادة جزء لا ينفصل عنها، كأنّه ولد ليكون هناك، في رحيل دائم إلى المجاهل، بين المقاطعات والأودية، والشّلاّلات، وسيول الماء الصّغيرة، وهي تتدفّق ببطء، من بين الأحراش والنّباتات الضّئيلة، في منحدرات خرافيّة، ومضائق، وأنفاق، أبادت الزّمن!!... ومدن رغم

أنّي لم أعرف إلاّ أقلّها بأسمائها، إلاّ أنّها ظلّت عالقة بذاكرتي، أشبه بالجروح أو الخدوش الّتي سوف تستغرق زمنا قبل أن تلتئم على نفسها من جديد... «بانغلور»... «كرندغا»... تملنادو»...!!

سماء غائمة لا ترى الضّوء، يزايلها النّهارلتغرق في ليل أبديّ، وأيد تمتدّ في يسر إلى أكثر الأماكن سرّيّة تبحث عن الدّفء، تحت اللّحاف... ودور تقاوم البلى، وقد تمكّن منها، مهلهلة حتى النّحاع، تنوء بأعبائها، وتنجرف أحيانا مع المياه إلى مشارف، في مجاهل غير معلومة، وأصوات تصرخ، وتتوعّد، طوابير من أشخاص لباسهم غريب، ويضعون على رؤوسهم خرقا تشبه العمائم، بعضهم ينتعل نعالا من تلك النّعال الرّخيصة، والبعض يخبّ حافيا... يتضامّون، في خطّ مستقيم، خلال الشّارع وعلى حافّتيه، فتتعطّل الحركة... تتوقّف الحياة خلال لحظات، وتسكن الأصوات دفعة واحدة، إلاّ تلك الّتي كانت ترتفع من المضخّمات، كأنّها تسبّ، أو تحرّض، أو تندّد... والجوع عدوّ... الهمّ الرّازح على الأكتاف... والفقر عدوّ... وتلك الأجساد الذّاوية... والجري من الصّباح إلى الليل، بحثا عمّا يسدّ الرّمق، ويذهب الخلّة ولو إلى حين...

كنّا نضطرّ إلى التّوقّف بدورنا، نداري قلقا ما فتئ يزداد كلّما امتدّت السّاعات، وساد الضّجر... ومع الصّمت، داخل الحافلة وخارجها، تنطلق بعض الكلمات هنا وهناك، وتزحف الأسئلة على سطح السّكون، وتشرئبّ الأعناق إلى الأمام أو الخلف، وتتدانى الرّؤوس... في تلك اللّحظات، ربّما ينسى الغرباء أنّهم غرباء، وأنّهم ما دام القدر ألقى بهم في أتونه، بين حدود مكان مشترك، فأحرى بهم أن تتقارب أرواحهم، وأن يتساكنوا... تغدو الحركة، مهما كانت يسيرة قربا، والكلمة أنسا، وهزّة الرّأس مشاركة...

التفت إليّ «شانيل»، وكان منذ قليل يتحدّث إلى بعض المسافرين ممّن تعرّف إليهم منذ بداية الرّحلة، وتطلّع من خلال زجاج نافذة

الحافلة المتوقّفة إلى الشّارع الّذي كان يعجّ بمئات الأشخاص الغاضبين، وبعد لأي قال، وكأنّ الأمر لا يعنيه في شيء:

. إنّها السّياسة...

بدت لي الكلمة الّتي قالها رجراجة بلا معنى، فاستدرت ناحيته نصف استدارة، وسألته:

. ماذا تعني؟

قال ولمّا تزايله لامبالاته:

. لقد خرج هؤلاء النّاس احتجاجا على حكومة الولاية؟

ثمّ مواصلا بطريقة أوحت لي أنّه لا يريد أن يواصل الحديث:

. هذه المشاهد تراها في بعض المناطق فقط، أمّا عندنا فالأمر مختلف تماما، لا أثر لهذا الاحتجاج أو الشّغب...

وصمت قليلا.

ثمّ:

. هراء!... أنا شخصيّا أرى أنّ الاهتمام بالسّياسة مضيعة للوقت.

***

لا شيء يبقى على حاله... ومع الوقت، تتغيّر الأشياء إلى درجة الغموض، تحيل ألوانها، وربّما استحالت تلك الأشياء الأولى إلى أخرى لا يربطها بتلك الّتي كانتها سوى الأسماء، وحتّى الأسماء قد تتغيّر هي بدورها... الكون نفسه ربّما أراه بعيني شخص آخر، غير عينيّ: كريها، واسعا، متاها، وعلى استعداد أن يلتهمني!!... الحافلة عدوّ مداج كان يداري مكره وخداعه، منذ البداية، وكان ذلك ضروريّا حتّى تنطلي الحيلة على الجميع؛ ولكن مع مضيّ السّاعات، مع مرور اللّحظات، ثقيلة رتيبة، بدأ يكشّر عن أنيابه الطّويلة، الّتي كانت ترشح دما وقيحا!!... وأنا نفسي كنت خلال يومين كاملين شخصا آخر، لا أحمل إسما محدّدا، لا ملامح مميّزة، ولا قسمات، ولا هيئة... ولا شهادة

ميلاد، ولا بطاقة هويّة، ولا وحدة تشدّني إلى التئامي القديم!! وربّما الشّيء الوحيد الّذي تبقّى لي من كلّ ما كنت أملكه، الوعي، الإحساس المفرط... وذلك نفسه ما كان يزيد في ضنكي وضناي!!... وعي ما فتئ يتزايد بالغربة... بأنّ أعضائي لا تطاوعني، بل إنّها كانت تنفصل عنّي دون إرادة منّي، وحتّى في انفصالها تأبى إلاّ أن تسبّب لي آلاما وتباريح!! الألم في قدميّ، وفي ساقيّ، والثّقل في رأسي، صداع لعين يحطّ بكل حمله الّذي لا يطاق... والعطش... كان جفافا قاتلا... وضربات القلب المفاجئة، تباغتني في أوقات بعينها، ونخسات موجعة كنت أحسّها في إليتيّ كأنّها الأسياخ... والنّوم مجرّد حلم... أمنية من الأماني الكثيرة الّتي لا تتحقّق أبدا، سيّما عند الطّلب والرّغبة... كنت في سرّي أغبط الجميع، كلّ الّذين كانوا في الحافلة، يأكلون متى جاعوا، ويشربون إذا أحسّوا بالظّمأ، ويتحدّثون... يتعارفون، ويتّصل بينهم الكلام عن أيّ شيء... كنت أرى «شانيل» وهو يغطّ في نوم عميق، و «نايجو» وهو يضطرب هنا وهناك، وحينما تتوقّف الحافلة في إحدى الاستراحات المنتشرة على طول الطّريق يشير إلينا بالنّزول، فنتبعه كالخرفان المطيعة...

آكل دون شهيّة... أشياء عيّنتها منذ البدء، واعتدتها، ليست لأنّها لذيذة، ولكنّي كنت أخشى أن أتورّط في صنوف مآكل لا أعرف عنها شيئا...

متعتي الحقيقيّة فنجان القهوة...

كنت أضع الفنجان أمامي، وأنظر إلى البعيد، إلى المطر الّذي كنت أراه نائيا جدّا، إلى المدى المتخضّب برقائق النّور الدّقيقة الآتية من الأعماق الخفيّة... وأظلّ كذلك، أشبه بالمسرنم الّذي فقد كلّ رابطة له بعالم النّاس، إلى أن تحين اللّحظة المرتقبة من جديد... لحظة الرّحيل الأزليّ...!!

***

[اعتراف]

المعدة!!

الأفكار جميعها... مخاوف ما قبل الرّحيل وبعده... والعطالة الّتي تريم، غبيّة، مشاكسة... تدمّرني، تشعرني بالعجز، والتّفاهة والابتذال؛ وكلّ همّي في دورة المياه، الخوف الطّارئ من أن تخونني معدتي على مرأى ومسمع من الجميع... كنت أخشى أن يتحوّل جسدي عدوّا آخر من الأعداء الكثيرين... أربط على أعصابي، طوال ساعات من الصّحو المدمّر، حين يستحيل الدّماغ أداة جهنّميّة في أتون صراع غير مأمون العواقب... وأستبعد من ذهني أزمنة بأسرها طالما افتتنت بها في مكان غير المكان، وزمان غير الزّمان... أزمنة سحر وفتنة!! زمن الشّعر، والقصص الّتي تتردّد في قصور الملوك والأمراء، من خلف الأبواب الموصدة، أبواب من الذّهب الخالص، ومن وراء نوافذ ماسيّة لا تخترق أظلافها النّسمات العابقة إلاّ فيما ندر؛ في قصور فرشت أرضيّاتها بعشرات السّجاجيد المزخرفة الّتي جلبت خصّيصا من مدن أسطوريّة ظلّت تعبق برائحة التّاريخ والذّكرى، من بخارى وسمرقند، وأذربيجان، وفارس، والسّند والهند... وجزائر الدّنيا السّبع، وبحر الظّلمات!!... زمن المضاجع والرّوائع، في أمسيّات الشّتاء الدّافئة، من تحت لحاف ثقيل، حين تأتي الأفكار سراعا، ويتسامى الإنسان إلى عالم أفكار، لا ترد من بينها أفكار المعدة، والبطون المتفسّخة... والفضلات، وخشية أن «يفعلها» الواحد على الرّغم منه، فيستثير الشّفقة، ويضحك الجميع سخريّة منه ونكاية فيه!!...

الجسد الدّاء، وهو العلّة الّتي ظللت أحملها على امتداد يومين كاملين، بخجل، أستشعر إفرازاته، تقلّباته، وهجوماته الكريهة، الّتي كانت تأتي أحيانا في غير أوانها...

دبق، كثيف إلى حدّ الغثيان، مرعب ومضجر، كأنّه كائن منفصل عنّي، وملابسي هي الأخرى أشعر كأنّي عار منها تماما، وأنّي مجرّد، وأنتظر، في أيّة لحظة، أن تتطلّع ناحيتي العيون، الّتي كانت غافلة عنّي، فتنعم فيّ النّظر لثوان، ثمّ تشير إليّ الأصابع في استهجان، ومن بين الشّفاه تنطلق الكلمات جارحة قاسية:

.اطردوا هذا النّغل الّذي دنّس قداستكم!!

... كنت أخاف أن أفعل ما يفعله الآخرون، عندما يوقف السّائق المحرّك، فيهرع بعض المسافرين إلى الباب، وينطلقون إلى الخلاء الفسيح... لا يبتعدون كثيرا... يولون ظهورهم إلى الحافلة، وبأيديهم المدرّبة، يفتحون بناطيلهم، وما هي إلاّ برهة حتّى يتناهى إلى آذانهم ذلك الصّوت المشرشر الشّبيه بصوت المنشار في الخشب!! أيّة لعنة!

ربّما خجلي كان يمنعني أن أفعل مثلهم، أو خوفي، أو الإحساس بأنّي قد أبدو مكشوفا، وأنا أكره أن أكون مكشوفا للجميع!!

أتحامل على نفسي... فتنشدّ أعصابي أكثر، وأتشاغل بما حولي، ولكن تظلّ دورة المياه ترنو إليّ من مكان ما بالحافلة... تتطلّع إليّ من خلال الزّجاج، من تحت مقعد من المقاعد العديدة المخلّعة... من وراء «شانيل»... من السّقف... من كلّ مكان أراه ولا أراه!!

كنت أتعذّب.

وكانت دورة المياه عذابا لا يرحم!!

***

[تغيير]

+ اللّيل طال أحبّتي، والدّار لم تحفل بصمتي، وكلّ من جاءوا رموني بالسّهام، تمنّعوا منّي، فلم أقطع صيام الصّمت، لبت في شرايين

المداد، واستطبت الشّوق يأتيني من الأعماق، ومن خفايا لست أذكر أنّني أنشأت منها جوانحي؛ أعلنت تشرّدي في حبّه، موتي القليل على أعتابه، وحفيت من زمن الهروب، فأمطرت كلّ الصّحارى اعترافاتي الكثيرة، واستأنست رجلاي بالرّمل النّديّ، أسامر القمر، النّجوم، وأسأل الآتين عن رفد، وعن ماء أخضّب الأعضاء منه: أغمض العينين، ألحوني، وأبكي، أنشب الأظفار في العمق، فتنزّ من جرحي الدّماء، أقول: قربان!!... دمي القربان، لم أرض بغير دمي، لا يؤمن المشتاق بالخيل، ولا الأبقار، والشّاء!!... دمي دمعي، ومذ أذكيت وجد المنشدين بأضلعي، مذ أزهرت أوصالي شوقا للّقاء، ومذ أوطات كون الفيض أذرعي، حمّلت صبري كلّه صبرا جديدا، وحفيت، وامتزج الحزن الشّفيف بالفرح، وانخلع الفؤاد، فجلّ في الكون الخفاء، ومدّ لي حبلا فأرقى من سماء لسماء... مدّ لي نهرا من الطّيب، فتنسلخ الرّوح الحبيبة من شباك حاكها الجسد الوضيع!!

إنّي أرى . مولاي . نارا، أسمع من بعيد نفخ ناي، وطبولا، وغناء ليس من جنس الغناء، وأشمّ عودا، وبخورا، فأرقّ، ويسيل البوح في جسمي، فأرقص بالدّموع، وأفرد الأحزان بالطّول لأهرب من طنين الهجر... فاعتقني، واقتل الضّعف الكمين، ومدّني حبلا من حبال الواصلين، فنجتني وجدا، ونسكر باللّذائذ، يا مغيث!!... نارا أرى، جبلا نأى عن رؤيتي، وغشاء دمعي سابل لا يرى غير الّذي أعطاه من ضعف ومن وهن، والشّوق ساج، ليله داج، وحزن الكون أحمال عليّ، فمن يعطي سراه للكسيح؟ ومن يلقي بقلبي بصرا، فالعين تظلم من شكاتي؟! من يقود الخطو ظعنا، إنّني أشتمّ عودا وبخورا، وبأذني أسمع التّغبير، والمدد المدد!! إنّني أشتمّ ريحا سابغا... ريحا ناغلا في مقلتيّ... ريحا ليس ريحا، بل أثيرا ساطعا من لحظة دهريّة كانت بفردوس الخلود، فجرجرت أذيالها، أخفت عناصرها التّليدة، أنشبت

أحداقها في مهجتي!!... حدقي انسكاب، وتقاسيمي ارتداد، حيرة تلتفّ بالشّده، وبالألم المرير... ونبض قلبي ثرثرات، نبرات لا معان، ربّما لم تعرف الحبّ، وشكوى المغرمين، ولم تعرف الوجد. الضّنى، لم تعرف السّهر الطّويل، وترقّب المحبوب يأتي عاري الأحداق، ملفوف الفؤاد في حرير وبراقع... لم تجرّب نغمة الشّوق الأثيل، ودمعة تهتزّ من حرّ التّلاقي؛ فمتى تكبّلني القيود، وتكبتني المواجع؟ وإلام يفترش العذاب حشاشتي، ويفرّخ الجسد الدّمامل، والمحبّون على شوط من الهجس يمدّون لي الأيدي تباعا؟...

قلت: السّرى!!

قال: السّرى يمتدّ... والسّرى وصل، وهو آخر الدّرجات للفيض الكبير!

قلت: اطّرحت الدّور!

قال: لا يكفي.

قلت: وما أوطأت جسمي ثاكلا أو ثيّبا... ولم أهو من كلّ الخرائد والجواري والغواني!!

قال: لا يكفي.

قلت: أحجمت... أوصدت النّوافذ... وانطلقت في كنف الفراغ لأزرع التّرتيل والآيات... سمّيت أشياء وهي عطل من عطائي...

قال: لا يكفي.

قلت: ساكنت السّكون... وصمت عن وجع، وتعلّقت عيناي بالنّجم الغريب، تشقّقت رجلاي دهرا، وابتليت من البلى، كلّ الجراح خبرتها، ودمي تلوّث بالصّراخ، وما أفقت من منام إذ عرفت البوح والتّغبير...

قال: لا يكفي... لا يكفي!!

قلت: فمتى الوصال؟

قال: لا تعجل... دروب العشق أهونها السّبيل... والسّبل الّتي

جرّبتها أشباه آلام، وبعض من كثير، فيه شكوى وشكاة، ودموع تملأ البحر، وخوف والتذاذ، وهروب كلّما أزمعت الرّوح البقاء، وصيام عن كلام الميّتين... واحتجاب، ومراق وجنون، والتياث وصبابات وعشق... ومجون... وخمور تجتني ثمر الفؤاد، وتسكب النّار أضعافا... فلا تعجل، فدروب العشق أهونها السّبيل!!

+ الحبّ خمر كلّهـــا راح — والرّاح عشق مستبـاح
والخمر تجدي في اطّراح — الودّ من بعد اصطبـاح

***

كم تمنّيت اعتناق الرّوح ودّ الأصفيـــاء
وسكبت العبــر من دمّ ومـــاء
وسألت القلب عن عهـد الإخــاء
هل يخون الصّبّ في شرع الوفــاء

***

يا سادتي ردّوا عليّ أحرفــي
ومدامعي كيما أروّي أضلعي
أنتم خلاقي واتّساق جوارحي
في حبّكم، فمتى تلبّى حاجتي

+ لوعـة:

اللّيل إذا لم توافوا ليل، والكلام إذا أعجزه ذكركم صمت صموت، والنّهار لا تشرق فيه غير طلعتكم، فإذا تصرّمتم، فلا النّهار نهار، ولا الضّياء ضياء، لا الشّمس شمس، ولا الجلاء جلاء، اللّيل من بعدكم ليل أليل، والسّكون سواكن لا تسكن، والدّمع جاف للخدود،

والفراش مجاف للجنوب، القلب خفق، والكبد حرّى، والدّمع سكب، والضّنى مضن، والإقدام إحجام، والحلم كابوس وهذيان، اللّيل كوامن تتلى، وما منها كامن إلاّ وهو جارح، وما منها جارح إلاّ وهو مدم، وما منها مدم إلاّ وهو سمّ زعاف لا يترك ذا العلّة إلاّ قتله، ولا ذا الخلّة إلاّ وراه، وأنا العاني وصاحب الحاجة والخلّة، فالمدد المدد، يا أهل المدد، إنّ النّوم مجانبي، والرّاحة رائحة بي إلى هلكتي، مدد مدد، يا أهل المدد!!؟!!

***

... لكلّ شيء بداية معلومة ونهاية محتومة!!

«تريشور» أخيرا: تتهدهدى الحافلة، وتقف على الرّصيف الأيمن للشّارع، فننزل مع حقائبنا...

الأضواء ساطعة... وأديم الأرض يسبح في برك ساكنة من رذاذ المطر المتأخّر... ربّما كانت السّاعة تدور في التّاسعة، أو أزيد من ذلك بقليل، وكانت المدينة شبه مقفرة، بعض الأفراد يضطربون هنا وهناك، والبعض الآخر ما يزال مرابطا أمام أبواب بعض المقاهي...

انحزنا إلى بعض الأماكن الآمنة لنتفادى سياط المطر، ويبدو أنّ منظرنا ونحن ننوء تحت عبء حقائبنا الثّقيلة قد أعطى الانطباع أنّنا كنّا على سفر، وأنّنا نحطّ الرّحال أخيرا، فما هي إلاّ لحظات حتّى كنّا محاطين بعدد من الغرباء... إحساس بالألفة، وأحاديث ابتدأت متلكّئة، ثمّ اتّصلت وانضمّ إليها «شانيل» و«نايجو»، فصارت أكثر حميميّة، ومع مضيّ الوقت، واتّصال الأجوبة والأسئلة عن الأحوال، اكتشفت أنّي لم أكن غريبا، في كلّ المدن والأماكن الّتي زرناها آنفا فحسب، وإنّما أنا غريب هنا أيضا... أنظر إلى الأشياء من حولي ولا أراها، وأستمع إلى الكلام يدور من حولي وكأنّي أستمع إلى ألغاز محكمة

المغاليق لا سبيل إلى فهمهما...

كنت أحاول أن أتفادى النّظرات الموجّهة إليّ، أتلافاها... أتظاهر بالتّطلع إلى البعيد، إلى نقطة غير منظورة، أتناسى بها الانفجار الّذي يضطرم بداخلي...

كلّ شيء يخصّني يحيل عليّ، بمعنى ما، يفضحني أمامهم... لون البشرة، الملامح الّتي زادتها الرّحلة الطّويلة كمودا وعبوسا، وسفعها المطر برذاذه المشاكس، وأغرقتها الظّلمة في مسحة من الحزن، وطبعتها بستائر رقيقة من الإقصاء والاغتراب... والملابس، وقد أصبحت دبقة، أحسّها تلتصق بي بين الفينة والأخرى، فتضيف إلى أحاسيسي السّابقة إحساسا جديدا بالنّفور واللّجاجة... وحتّى صوتي كنت أحاول أن أبتلعه في جوفي، مكتفيا بتلك الابتسامات الغبيّة على شفتيّ، كي لا تكون لغتي خيطا آخر يفصح عنّي ويعرّيني أمام أولئك الأشخاص الّذين كان عددهم يزداد مع مرور الوقت، وتأخّر السّيّارة .سيّارة «شاين» . الّتي ستقلّنا إلى المنزل العائليّ ب «كندشان كدفو»...

أنظر إلى النّاحية الأخرى من الشّارع... أرى أضواء شاحبة بالكاد تخترق سجف الظّلمة المتكاثفة... وألمس الفراغ في الأبواب المغلقة، والصّمت الحيّ، تمتدّ أصابعه الرّقيقة بين الزّوايا والأركان، فتمسّد على الأشياء الغافية تنيمها وهي تحكي لها حكاية لا تنتهي عن الأميرة النّائمة والقصر المسحور... و «شاين» لا يريد أن يأتي... لا يريد أن يخلّصني من الحلقة الصّاخبة الّتي كانت تضيّق عليّ الخناق بلا شفقة...

أحاول أن أستحضر صورته... أن أراه بعيني الأخرى، قبل شهرين،

في دكّانه بمدينة «صور»... الشّعر المنساب والقميص المكويّ بعناية، وبنطالون «دجينز»، والحذاء الملمّع... ورغبته، وهو يحدّثني بحرارة، في الذّهاب إلى البيت، أو الفندق، لشرب كؤوس من البيرة... كان في حميّا الكلام يدعوني للذّهاب معه، ويصرّعلى ذلك، وكنت دائما أعتذر إليه... التّحفّظ... وشيء ما يظلّ دائما يكبحني من الدّاخل... الخوف، أو التّحسّب من شيء ما... الخجل من الغرباء... حتّى «شاين»، رغم تعرّفي إليه منذ ثلاث سنوات تقريبا، كان غريبا بالنّسبة إليّ... كان رفيق درب ليس أكثر... وفي منتصف الطّريق سيذهب كلّ منّا في حال سبيله... سينضمّ هو إلى القافلة المتّجهة شرقا، وسأنتظر أنا قافلة ربّما لن تأتي أبدا...!!

+ حواريّة:

(سيّارة بيضاء من طراز «أمبسّادور»، شكلها نصف دائريّ، ولأبوابها مقابض من معدن بلون الرّصاص، تستثير فيك حنينا آسرا إلى عصور أدبرت وولّت، ولم يتبقّ من نسغها غير رائحة بالكاد يمكن تمييزها عن باقي الرّوائح الأخرى... ينزل منها «شاين»، وشابّ آخر يبدو أنّه هو الّذي كان وراء عجلة القيادة، وقد قدّمه لي «شاين» باعتباره صديقا... اسمه «ديداش صداننِدن»... تصافحنا بحرارة، وشعرت لأوّل مرّة بالقرب، كما أحسست أنّ «شاين» الّذي عرفته من قبل، ليس «شاين» الّذي أراه الآن أمامي، بقميصه الأزرق، وساقيه العاريّتين، وهو يحوط وسطه بإزار قلوظه بمهارة فائقة... لشدّما تغيّر، هو الّذي كان شديد الحساسيّة، بالغ السّخرية من الأشخاص الّذين كان يلاحظ فيهم عدم اهتمام، أو إهمال، بمظهرهم الخارجيّ... كان يمسك بيديه نظّارات سوداء، وحينما اقترب منّي ليصافحني سطعت أنفي رائحة البيرة...)

شـاين:

في هذا المساء، وهذا البرد، يحلو الشّراب؛ أليس كذلك؟!

(اكتفيت بالابتسام... في تلك اللّحظة انضمّ إلينا «ديداش»... كان يسلّم على «شانيل» ونايجو»، وعلى ما يبدو فإنّه التقط سؤال «شاين» الأخير)

ديداش:

معك حقّ!

شـاين:

هنا لا تستطيع إلاّ أن تشرب...

(وبعد فترة صمت)

خلّفنا العمل وراءنا، وكلّ الالتزامات، وجئنا إلى هنا لنقضي وقتا ممتعا.

(اعتقدت أنّه من غير اللاّئق أن يظلاّ يتحدّثان ولا أشارك في الحديث، فقلت، وأنا أستدير ناحية «ديداش»...)

: وهل أنت في إجازة أيضا؟

(رفّت على شفتيه ابتسامة، واقترب من حلقتنا أكثر)

ديداش:

نعم، أنا في إجازة... إجازة طويلة نوعا ما!

.........: وأين كنت تعمل؟

ديداش:

في الخليج... في العين...

(وتوقّف عن الكلام قليلا، كان يبدو عليه التّعب، ربّما جرّاء الشّراب، فقد لاحظت أنّ حركاته كانت تعوزها القوّة... واصل)

: ربّما أعود بعد ستّة أشهر... وعدني بعض الأشخاص بالمساعدة!!

ثمّ:

في الحقيقة، أنا في حاجة إلى العمل... امرأتي حامل، وعمّا قريب سأرزق بولد.

(في تلك اللّحظة ارتفع صوت محرّك مزمجرا وما لبث أن سكن... رأيت «نايجو» يجمع أغراضه ويدفعها إلى مؤخّرة سيّارة كانت مركونة إلى الرّصيف... وبعد أن فرغ، اقترب منّا مودّعا... تصافحنا... وقبل أن يغادر، التفت إليه «شانيل»)

شانيل:

سنلتقي قريبا.

نايجو:

قطعا... ثمّ لا تنس أن تخابرني بالتّلفون.

شانيل:

طبعا.

(يزمجر صوت المحرّك ثانية، وتنطلق السّيّارة الّتي كانت تقلّ «نايجو» وتختفي في العتمة... ينضمّ إلينا «شانيل»، وأشخاص آخرون لا أعرفهم... كانوا يتمعّنون فيّ باستغراب... وعلى شفاههم عشرات الأسئلة الّتي انطلقت من أفواههم تباعا دون سابق إنذار)

شخص١:

من هذا؟

شخص٢:

ما إسمه؟

شخص٣:

يبدو غريبا! من أين جاء؟

شخص٤:

لم نسمعه يتكلّم!

شخص٥:

هل هو أخرس؟

شخص٦:

لا يبدو أنّه من بلادنا؟

شخص٧:

إلى أين سيذهب؟

شانيل:

لقد جاء معي، وهو من بلد بعيد...

شخص١:

هل تفهمه إذا تكلّم؟

شانيل:

إنّنا نتكلّم الإنجليزيّة فيما بيننا!

شخص٢:

هل يأكل؟

شخص٣:

هل يشرب؟

شانيل:

(ضاحكا في سخريّة)

: وماذا تحسبونه؟ هل تظنّونه كائنا من كوكب آخر!!

(تسود العتمة بعد أن نركب السّيّارة، ونغادر... خلّفنا المشهد وراءنا، وكذلك الأشخاص، ولم تبق في ذهني إلاّ صورة غائمة عن بيت سيكون عمّا قريب بيتي، وعن أناس سأعيش معهم مازلت لا أعرف شيئا عنهم... وعن أيّامي المقبلة... وعن زوجة وزوج أذكر أنّي تعرّفت إليهما من خلال صورة رأيتها في يوم من الأيّام عند «شانيل»)

.١١.

[خاتمة المطاف]

(...) حوليّات ومذكّرات:

.تصدير:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصـــان فلا يسرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمـــان

.أبو البقاء الرّنديّ.

** ١٦ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

ليلا:

المطر ينزل بغزارة... والسّيّارة تنساب في أزقّة ضيّقة، متعرّجة، شبه معتمة... كنت أحاول أن أرى من خلال الزّجاج، ولكن دون جدوى... وأوّل فكرة تكوّنت في ذهني عن المدينة أنّها ليست مدينة، وأنّها فراغ من الخيالات، والأشباح الّتي تنتقل بحرّيّة في المعابر، تهدّد وتتوعّد، وتشير بأصابعها إلى أعداء محتملين في ليل لا قمر فيه ولا نجوم...

تنتفي الأبعاد جميعها، في مخيّلتي، وأبحث عن عمق الأشياء، عن انسيابيّة تكتنف الوجود في هجعته وسكونه، فلا أجد غير الخواء، وامتدادات رأسيّة تشرئبّ بأعناقها إلى هام السّماء... ذكّرني المنظر بآخر كنت رأيته في صباي، في مدينتي الصّغيرة، في أحد بلدان

المتوسّط... جدائل النّخيل... ذوائبها الطّويلة الشّبيهة بذوائب فرس فارهة جامحة... العذوق الصّفراء... وهي تتمايل مع هبّات النّسيم الخريفيّة... وفتنة مجهولة المصدر أنّ الكون كلّه يختصر، والفرحة الطّاغية، والسّعادة الّتي ليس لها حدود، والأسباب والنّتائج، ولا يعود هناك من داع إلى الحيرة، والبحث عن أعراض لا تهمّ كثيرا في مقابل الجوهر الّذي لا يزول...

لكن هل ما أتوهّم أنّي أراه الذّوائب نفسها، والعرائش الخالبة... والعذوق، والتّموّجات المغرية، أم صور يستثيرها الحنين في مخيّلتي، فتبعث فيّ تلك القشعريرة الّتي لاقدرة لي على مقاومتها؟!

.جوز الهند!!

(أو الكوكونت): كما خرجت الكلمة من فم «شاين»... وقد أضاف بعد لأي:

.جوز الهند في كلّ مكان!!

أحسست بشعور غريب، ووجدت لوقع الكلمة مثل السّحر... لحظة من اللّحظات القليلة كانت تلك اللّحظة... لحظة لا تعرف فيها سببا للفرحة الطّارئة، ولا سببا لسعادة تهزّ شغاف القلب... تضحك من العمق دون سبب ظاهر، أو تبكي فتنزل الدّموع، تسحّ على خدّيك، فلا تدري أهي دموع غبطة أم تعاسة... وربّما تعتريك أحيانا رغبة في الرّقص على الملأ... في الخروج من جلدك والتّحليق بعيدا في آفاق عوالم لم تكتشف بعد... يا الله!! في كلّ مكان!... أمكنة لم يفكّر فيها لا «شاين» ولا غيره، أراها أمكنتي، فضاءات لا امتداد لها، أراض بلا حدود، وكهوف ومغاور، وشلاّلات ذات مياه لجّيّة، وسماوات، ونتوءات، وبحيرات من زمن الضّياع، وأرخبيلات لا وجود لها إلاّ في أزمنة ما قبل الخلق... يا الله!!

في وقت ما، استدارت السّيّارة، وولجنا إلى مجاز ضيّق بالكاد يسمح بمرورها، وما هي إلاّ لحظات حتّى وجدنا أنفسنا أمام منزل من المنازل الحديثة الّتي لا تشبه في شيء تلك القديمة الّتي تعجّ بها معظم ولايات «هندستان»... منزل من طابقين... صالته فسيحة، وتنتهي بسلّم يقود إلى الطّابق الأوّل... استقبلتنا كلّ العائلة... رجل عجوز، تقدّم منّي ضامّا كفّيه، تحت ذقنه، ولأنّي كنت أجهل طباع القوم وعاداتهم فقد كنت أمدّ يدي للجميع، للرّجال وللنّساء، وقد سبّب لي ذلك بعض الحرج... كانت النّساء يبتسمن تلك الابتسامة الخجلة، يقفن خلف أزواجهنّ، وقد ظننت عندما كنت أمدّ إليهنّ يدي كأنّ عفريتا أطلّ فجأة بعنقه فسبّب لهنّ من الرّعب والخوف ما لا يمكن وصفه...

كانت تلك عائلة الجدّ... هكذا أخبرني «شانيل»!!

التّحايا والسّلامات، بعد غياب عامين، والأحاديث الحارّة، لولا التّعب والحاجة إلى أخذ قسط من الرّاحة، وتنفضّ الجلسة لتبدأ جلسة أخرى في اليوم التّالي... ودّعنا الجميع... واتّجهنا إلى منزل العائلة... كان السّيّد والسّيّدة «لوهيداكشان» في الانتظار، وزوجة «شاين» من ورائهما تحمل في حضنها ابنتها «باروتي»...

احتضن السّيّد «لوهيداكشان» «شانيل» بحرارة من لم يروله ردحا من الزّمن، ثمّ اقترب منّي فسلّم عليّ... دخلنا بعد ذلك إلى البيت...

كان الأب غاية في الظّرف، وكان يرنو إليّ كما لو كانت تربطني به صلات قديمة، وقد أصرّ أن أجلس إلى جانبه، ولم يتوقّف عن محادثتي طوال الوقت، ولولا إحساسه أنّي قادم من سفر، وأنّي في حاجة إلى الرّاحة، لظلّ يتحدّث ويتحدّث إلى ما لانهاية... ربعة، بل إنّه أميل إلى القصر، وهو تقريبا في نفس طولي، يلبس نظّارات طبّيّة، ويرتدي تلك الفوطة الّتي علمت، منذ وقت مبكر، أنّها جزء من اللّباس المحليّ، ليس في «تريشور»، ولكن في «كيرالاّ» كلّها... عاري الجذع، ينساب من

رقبته عقد طويل من الصّندل... قال إنّه قضى حوالي إحدى عشرة سنة بالخليج، انتقل خلالها بين بلدان كثيرة... عمل في شركات عدّة، ثمّ جرّب التّجارة الحرّة، وقرّر أخيرا أن يعود إلى مسقط رأسه بعد أن جمع مبلغا لا بأس به من المال، بنى منه المنزل، وزوّج «شاين»، وأودع قسطا في البنك تحسّبا لطوارئ الزّمن...

كنت متعبا، وقدماي في الحذاء تؤلماني، والحديث أسمع بعضه ويفوتني أكثره، وقد أدرك السّيّد «لوهيداكشان»، من خلال بعض الأسئلة الّتي كنت أجيب عليها بفتور لا يخفى، أنّه ربّما من الأفضل أن نؤجّل كلّ شيء إلى اليوم التّالي... قال مخاطبا «شاين»:

.اذهب معه لتريه غرفته!

صعدنا إلى الطّابق الأوّل... كنت أحمل حقيبتي... فتح «شاين» الباب وأضاء النّور... قال:

.لم تفتح هذه الغرفة منذ زمن طويل، هي غرفتك الآن... (وأشار إلى اليسار) في ذلك الجانب يوجد الحمّام... (وأشار ثانية إلى الأمام) وذلك الباب يفتح على رحبة، يمكنك أن تفتحه متى شئت، لتتفرّج على أشجار جوز الهند والغابات المترامية...

وصمت قليلا ريثما أخذ نفسا، ثمّ واصل قائلا:

.لا تنس أن تغلقه، فهناك لصوص في الجوار وقد يدخل أحدهم في أيّة لحظة.

طمأنته... كنت أنتظر أن يغادر الغرفة... إلاّ أنّه جلس لبرهة على حافّة السّرير، وهو يقول وعلامات الجدّ بادية على محيّاه:

.تلك غرفتي هناك، بجانب غرفتك مباشرة... إذا احتجت إلى أيّ شيء، ما عليك إلاّ أن تطرق الباب... البيت بيتك فلا داعي للخجل أو التّكليف!!

استاذن أخيرا، وتركني للوحدة والصّمت... واللّيل... كنت أخشى أن يقاسمني «شانيل» نفس الغرفة، وظللت خلال وقت ليس بالقصير،

أفكّر فيما يجب أن أفعله، إذا قرّ عزمه حقّا أن يجلب أشياءه، ويصعد ليقتحم عليّ عالمي وخلوتي... وكإجراء أوّليّ، سحبت حشيّة من الحشايا العديدة الّتي كانت مكوّمة في جانب من الغرفة، وركنتها إلى جانب النّافذة في مواجهة السّرير تماما، وجلبت مخدّة ولحافا، وتمدّدت بكامل ملابسي، وما أسرع ما وجدتني أغرق في نوم عميق، كأنّي لم أنم طوال ساعات وساعات!!

** ١٧، ١٨، ١٩ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

كدت أنسى منظر المطر... منظر تلك الحبيبات الصّغيرة وهي تنزل من السّماء، فترتاح على مصاريع النّوافذ، وحينما تتجمّع تغدو سيولا جارية، تتعرّج على صفحة الزّجاج، وتتثنّى، فيخيّل إلى النّاظر إليها أنّها خارطة من دون ألوان... رقعة خلو من البهرج والزّينة، غير أنّ لها قدرة على خلب الألباب، تذكّر بأزمنة الفتنة المدبرة، وتعيد إلى الذّاكرة سنوات الطّفولة الأولى، في الحيّ العتيق، حينما كنّا صبيانا وبنات، ننتقل من بيت لبيت، في شوارع مبلولة، تغطس فيها أرجلنا الصّغيرة... نطرق الأبواب، وأفواهنا تضجّ بالأهازيج، نستدرّ بعض الدّريهمات، أو الفواكه أو الخضار، كي لا ينقطع الخير، ويدوم النّعيم! ندعو، وندعو، بحلوقنا الّتي ما تزال لم تتأطّر بنبرات الرّجولة والأنوثة بعد، حتّى يأتي الشّتاء في موعده دائما، فإذا ما جاء جلب معه المطر... ونرقص، نقضي ساعات في الرّقص، تحت السّماء الرّحيمة، حول عرائس من صنع أيدينا كنّا زيّناها، وتعهّدناها بالرّعاية، نحفظها في منازلنا، ولا نخرجها إلاّ في أزمنة البرد والصّقيع!!

الشّمس القاتلة... الحرارة الّتي لا تخبو... والدّماغ يكاد ينفجر

من العطالة والرّخاوة: سنتان أو أكثر، أوشكت خلالها أن أنسى منظر المطر، كدت أنسى معاني كثيرة لطالما اتّصلت به في ذاكرتي، كما نسيت من قبل أسماء أشخاص كثيرين، أبناء عمومة، أطفال صغار حتّى بعد أن كبرت، وبلغت مبلغ الرّجال لم أنقطع عن اللّعب معهم، ومشاركتهم شقاواتهم... ياه! البرد، من لي بسوطه الجارح ينغل في أعماقي، فيعيد إلى جسمي بعض التئامه وتوازنه، وأنا الكائن الجنوبيّ، القادم من تضاريس الجليد الصّحراويّ؟!... من لي بتلك القشعريرة الحييّة، الّتي تعرف دائما كيف تتّخذ طريقا إلى الأعماق القصيّة من جسدي؟!... الالتئام، الأفكار البكر... أمنية ما، تنبع فجأة من المتاه السّديميّ، وأنا في الطّريق إلى المقهى والأصدقاء، نضحك ما طاب لنا الضّحك، ونرحل مع خيالاتنا بعيدا إلى المدن، والممالك، والقلاع والحصون، الّتي ظلّت دهورا تنتظر مجيئنا لنعيد فتحها مرّة ثانية، على وقع الطّبول والمزامير والكاسات... ويا ليل طل، ليطول معك الرّقص، وتحلو النّجوى، وساعات العشق والحبّ!!

«صور»، ولا مطر!

الحراراة ولا شيء غير الحرارة... الجسد المتراخي، والأفكار النّصف، غير النّاضجة، والخطى المتعثّرة على الشّارع الإسفلتيّ الطّويل الّذي لا ينتهي... ومقاهي الهنود، عفوا مطاعمهم، لا تسمع فيها غير لغة مبهمة، ولا خيار أمامك إلاّ أن تشرب شايا على عجل، وحيدا، متروكا، لا تفكّر في الشّاي بقدر رغبتك في البحث عن ملجأ من الفراغ في أيّ مكان... (كانت «صور» في سنة الهجرة الأولى، رائحة ولونا: رائحة بخور قويّ، تتسرّب عبر الخياشيم إلى الشّرايين، فتمتزج بالدّماء، تخضّها، وتحدث ذلك الخدر الّذي لا فكاك منه... رائحة «أحمد بن ماجد»، صورة لبطل، ارتبط به مصيري منذ الطّفولة، فارسا يأتي من الأقاصي البعيدة، ليغيّر صفحة البحر، ويكتب بالخطّ العريض تاريخا جديدا لملاحة لا

تعرف السّقوط والانهيار! كنت أرى في إسمه خرائط وأسماء جديدة، مدننا وجزائر... سومطرة، سرنديب، واق الواق... وبحر الظّلمات، وبحر الخزر، وسور الصّين العظيم، وحكايات لها طعم عرق السّوس في بيوت أسطوريّة في طرف الجزيرة العربيّة؛ وكنت أرى فيه انتمائي، وانتماء من مات من آبائي وأجدادي... كنت أرى فيه الماضي التّليد!!... واللّون، السّواد، الملاءات الّتي تخفي أكثر ممّا تبدي، وفي إخفائها، تستثير الخيال، فيهمي من عل، يرتدّ إلى الأرض، ثمّ يحلّق إلى السّماء، يكشف ويستكشف، ويرسم، يشكّل الصّور، والخيالات والأوهام، ويعيد بناء الكلمات والحروف لتصير قصائد في الحبّ والعشق... المرأة الّتي تجسّد كلّ النّساء، وكلّ النّساء اللّواتي يختصرن صورة لامرأة وحيدة، هي اختزال الفتنة والجمال!!)

الآن هنا، عبر رحلة الأميال... في سباق المسافات الطّويلة، تندغم في الذّهن والذّاكرة «صور» المدينة، وأنسى خلال ثلاثة أيّام بلياليها سياط الحرارة اللاّفحة، والرّخاوة، والموت البطيء، والأفكار اللّعينة عن الموت الّذي لا يأتي إلاّ في أواخر اللّيل، متخفّيا في برقع أسود، ليخطف الحياة والأنفاس... أنسى الجبال المنتصبة كالأشباح في المداخل والمخارج، والبحر حين يصبح نغلا، لا تضوع منه غير الرّطوبة والرّوائح الكريهة... وأتطلّع إلى منظر المطر في الخارج، فأنسى عوالمي القديمة كلّها، ولا يبقى إلاّ العالم الّذي يشمخ أمامي: عالم الخضرة والماء!!

لم ينقطع المطر عن الهطول خلال ثلاثة أيّام بأكملها؛ وحين صحوت في اليوم التّالي من وصولي، وتطلّعت من النّافذة إلى السّماء في الخارج، فطالعتني جهمتها ولونها الرّمادي، وعبوسها، ذهب في اعتقادي أنّ الوقت ما يزال مبكرا، وأنّي لم أنم إلاّ ساعات قلائل... إلاّ أنّ الأصوات الّتي ظلّت تأتيني من الطّابق السّفليّ، والضّحكات الّتي

كانت تخترق الصّمت من حين لآخر، كانت تنبئ عن أحاديث ليست وليدة اللّحظة، وإنّما عن أخرى قد تشابكت وتشعّبت منذ وقت ليس بالقصير... تناولت ساعتي ونظرت فيها... كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار... تفاجأت، واستغربت كيف لم يوقظوني طوال هذه المدّة... ذهبت إلى الحمّام فغسلت وجهي... ثمّ وضعت رأسي للحظات تحت صنبور الماء، كنت أريد أن أطرد الإرهاق والتّعب... وذكريات عشرة أيّام من المعاناة والعذاب!!

** ٢٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

كسبت جولة وخسرت جولات!!

والغرفة الّتي حسبت أنّها ستكون لي، في أوقات بعينها، لا يشاركني فيها أحد، صارت غرفتي في كلّ الأوقات... صارت سجنا، فيه ألوك وحدتي، وأجترّ آخر ما تبقّى من ذكريات لم يبق لي سواها...

النّافذتان... والباب مغلق، أحرص أن أغلقه بعد أن أدخل، وأتحسّب لأيّ صوت، لأيّة نأمة، لأيّة خطى في الممرّ تتّجه صوب الغرفة... إحساسي بالغربة، بالوحدة، جعلني عدوانيّا، صيّرني كائنا يكره بلا حدود؛ و«شانيل». من يفترض فيه أن يكون منقذا وصاحبا .خيّب ظنّي وآمالي، كان ينتظر لحظة الوصول، أن يتخلّص منّي ليفرغ لزيارات لا أعرف عنها شيئا، وأصدقاء، وأقارب، كانوا كلّهم إخوة وأخوات بالنّسبة إليه!! فلا يرى امرأة إلاّ خاطبها قائلا: «أختي!» ولا رجلا زائرا إلاّ هبّ لاستقباله، مناديا إيّاه: «أخي!»...

لزمت الغرفة!

وكنت لا أنزل إلاّ لماما، في أوقات بعينها، عند الغداء أو العشاء،

وفي الصّباح أنزل مضطرّا، فأجد فنجان القهوة على النّضد بالصّالة... كنت أريد أن أظلّ وحيدا، أن أبتعد عن شمل العائلة الملتئم حول مائدة الإفطار، لأذهب إلى أقصى نقطة لا تطالها أعينهم... ومن مكان ما، بجانب السّور، أرنو إلى الغابة الممتدّة أمامي... أسرح مع الخضرة والأكواخ الّتي رغم رثاثتها وقدمها كانت تبعث فيّ إحساسا غريبا بالرّضى... كنت أنتظر بفارغ الصّبر الفيل الصّغير الّذي كان يأتي دائما، وفي موعد لا يخلفه مدربّاه أبدا... حوالي السّاعة التّاسعة، أو بعد ذلك بقليل، يجلبانه ليحمّماه، ثمّ يسلكان به طريق العودة إلى المعبد الهندوسيّ القريب...!!

منذ الأيّام الأولى أدركت، بالفطرة المتأصّلة بداخلي ودون توجيه من أحد، أنّه من واجبي إزاء عائلة مضيفي، وحتّى لا يصدر منّي ما يمكن أن يخلّ بالنّظام، أن أعتاد بعاداتهم، أن أبدو مهذّبا في نظرهم، وأن لا أجلب الانتباه، رغم الاختلافات بين ما كنت أحمله بداخلي وأخفيه وما كانوا يبدونه باعتباره جزءا من حياتهم اليوميّة، وهي كثيرة، لا تكاد تحصى أو تعدّ...

تعلّمت أن أخلع نعليّ قبل أن أدخل، وأن أنتقل في أرجاء البيت حافيا... واعتدت أن أسمع النّداء إلى الطّعام، يطلقه السّيّد «لوهيداكشان»، فأتبعه في أدب، وفي صمت، وأغسل يديّ بعده، ثمّ ألحق به إلى المائدة الكبيرة... كنّا نجتمع أربعتنا في سائر الأيّام، أنا، وهو، و «شانيل»، و «شاين»، وتقوم النّساء على خدمتنا، السّيّدة «لوهيداكشان» وكنّتها... أمّا إذا صادف أن تغيّب أحدهم، لسبب من الأسباب، أو تأخّر، فكنت أتناول طعامي مع «شانيل»...

كنت أحرص أن أتناول وجبة لا تتغيّر، وكان خوفي من اضطرابات

المعدة، أو ربّما الإمساك، الهاجس الّذي ظلّ يطاردني طيلة الأيّام الّتي قضيتها في «كندشان كدفو»... «تشاباتي»، أو رقائق الخبز المحليّ، و «كاري» اللّحم أو الدّجاج، وبعض السّمك... أجهد أن أنتهي قبل الجميع، وأن لا أصدر أيّ صوت عند الأكل، وكان أكثر ما يسبّب لي الحرج، فيجعلني أحسّ بالحرارة تخترق كلّ مسامّي، وتغرقني في بحار من العرق، أنّ العيون كلّها كانت متّجهة نحوي، ربّما تنظر إلى طريقتي في الأكل، تريد أن تتأكّد فيما إذا كنت مثلهم، فيما إذا كنت كائنا أرضيّا، يستطيب الطّعام كما يستطيبونه، يأكل بشهيّة، فإذا ما اكتفى قام من حول المائدة... كنت أشعر بنظرات السّيّدة «لوهيداكشان»، وحركاتها وإيماءاتها، وهي تحاول أن تقرّب إليّ طبقا من الأطباق، أو أيّ شيء آخر، وكنّتها، وهي قريبة من زوجها، تخدمه، وبين الحين والآخر، تصوّب نظراتها إليّ، فأشعر بالانسحاق... يا للجحيم!... أتظاهر بالشّرود، وأطاطئ رأسي كأنّي أبحث عن شيء ضاع منّي، وتمتدّ يدي لاإراديّا إلى كأس الماء بجانبي، أمسكه مليّا، وأقرّبه من فمي ثمّ أعيده!! كان الماء ساخنا، ولطالما حاولت أن أتعسّف على نفسي فأغصبها عليه غصبا، ولكن دون طائل...

لم أرتو، وطعم الماء كدت أنساه... وكلّما خرجت مع «شانيل» بالسّيّارة، كان همّي أن نتوقّف عند أوّل محلّ مرطّبات لنشتري بعض قوارير الماء المعدنيّ، ولكن كان يتعلّل بحجج واهية، يتظاهر بعدم سماعي فإذا ما ألححت عليه، قال عندنا ماء في البيت، وبإمكانك أن تنتظر قليلا...

(كانت أيّاما صعبة!!)

**** ٢١ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:**
ألم فظيع!!... صداع لا يطاق!!

**** ٢٢، ٢٣ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:**

تعرّفت إلى الكثير من العائلات!!... رجال ونساء وأطفال صغار، وشيوخ، وصبايا، لا أدري مدى قرابتهم من عائلة مضيفي، غير أنّي كنت أستغرب للألفة الّتي كانت تجمع بينهم؛ كلّ واحد منهم يعرف الآخر، ويتصرّفون فيما بينهم دون تكلّف، وتجلجل ضحكاتهم، في أحيان كثيرة، كأنّي لست موجودا بينهم... فرحتهم بـ «شانيل»، الغائب الّذي قضى سنتين كاملتين بعيدا عن الأهل والأقارب، يضطربون من حوله، ويستمعون إليه وهو يحكي، وهو يصف لهم البلد الّذي جاء منه... كان معظم الحديث بـ «المليالي»، وذلك ما كان يشعرني بحرج أكثر، وبعض ما كنت أفهمه، أو ما كنت أعتقد أنّي خمّنته، يرجع إلى بعض الكلمات الّتي كنت ألتقطها بين الحين والآخر، منطوقة بالإنجليزيّة... أو النّظرات الموجّهة إليّ، مستفسرة عن إسمي، بلدي... مهنتي، ونسبتي، واللّغة الّتي أتكلّمها؛ وقد لاحظت استغراب الكثير منهم حينما أعلمهم «شانيل» أنّي لا أتكلّم «المليالي»، وأنّ لغتي الأمّ العربيّة... ربّما بدا لهم أنّ كلّ من يأتي إلى قريتهم الصّغيرة، لا بدّ أن يتكلّم «المليالي»، وإلاّ لن يكون ضيفا مرغوبا، أو على الأقلّ سيفقد الكثير من الاهتمام به لديهم... سيكون بعيدا عنهم، وعن أحاديثهم، ونكاتهم، وطرائفهم... وحياتهم البسيطة الهادئة، بين عرائش أشجار جوز الهند، والخضرة الّتي تؤطّر جميع المشاهد، في كلّ الاتّجاهات، إلى حدود البحر القريب!!

** ٢٤،٢٥ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

«أونام»... الفرحة الغامرة، والسّعادة الّتي ليس لها حدود!!... والبيت يعجّ بعشرات الآلهة، في نهاية الصّالة، إلى جانب السّلم المفضي إلى الطّابق الأوّل... «راما كريشنا»، بكامل أبّهته، وملامحه الطّفوليّة، في أوضاع مختلفة، يتطلّع إلى الوجود من حوله، بعينيه الحالمتين، ونايه في يده، ينفخ فيه... وآلهة أخرى... تحيط بها الأنوار من كلّ جانب، أنوار تظلّ تتغامز، على امتداد ساعات اليوم، وتمتزج بتموّجات البخور والعود المحروق، وهي تتثنّى، وتتعانق، في طريقها إلى السّقف...

ستأتي العائلة الكبيرة كلّها... الأعمام والأخوال، والأطفال والنّساء، في كامل زينتهم، وسيمتلئ بيت السّيّد «لوهيداكشان». الأخ الأكبر، بالحركة، وسيعلو الصّياح والضّوضاء... وسيتحلّق الرّجال حول زجاجات الويسكي الفاخرة، وسيشربون على شرف آلهتهم!!... وفي الختام، سيتناولون غداءهم، أطباقا خالية من اللّحم والدّسم، امتثالا للتّعاليم الّتي كانوا يتوارثونها أبا عن جدّ!!... كان يفترض فيهم، في اليوم الأوّل من «أونام»، أن يكونوا كلّهم نباتيّين، وأن يحتفلوا كما ينبغي للمتّقين المخلصين أن يحتفلوا!!

** ٢٦ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

في الصّباح، رافقت السّيّد «لوهيداكشان» إلى بيت عديله، أخ زوجته؛ شخصيّة نادرة المثال، وهو لا يشبه أحدا ممّن تعرّفت إليهم،

بمن فيهم أحد الأعمام، الّذي صادف أن كان بين أهله، في إجازته السّنويّة، وقد علمت، من خلال بعض الحديث الّذي تبادلناه، أنّه يعمل بالدّيوان السّلطانيّ بـ «صلالة»، وأنّه عمل بعض الوقت بمدينة «صور»، وأنّ عدد السّنوات الّتي قضاها بالسّلطنة يربو على العشرين!!

حرصت منذ البداية أن أحفظ بعض الأسماء، أسماء القريبين منّي... الأب، والأبناء، وبعض الأصدقاء، أمّا أسماء الآخرين، وهم كثر، بمن فيهم الأمّ الطّيّبة، الخجول، الصّموت، فقد كان يفوتني أن أسال عنهم «شانيل»، ولم تبق في ذاكرتي منهم إلاّ مجرّد ملامح وصور رجراجة غائمة!!

«الخال». هكذا كنت أسمع السّيّد «لوهيداكشان» يناديه أمامي، طوال، أقرب إلى النّحافة، داكن البشرة، يرتدي قميصا وبنطالا، تبدو عليه أمارات المرض... (إنّه القلب!!)... عمل مديرا لأكبر الشّركات بالبحرين، والإمارات، والسّلطنة، وقطر، وزار الكثير من البلدان في آسيا وغيرها... تعرّف إلى يابانيّين خلال زيارته الأخيرة إلى اليابان... زار كمبوديا، وماليزيا... وتايلند...

قال لي، وكنّا في الصّالة، وبعد أن أمر بإحضار الشّاي:

. لقد عشت حياتي بالطّول والعرض، وأنا لست نادما الآن... بعض النّاس يهدّهم المرض، ويجعلهم نزقين، أمّا أنا فلست نادما على شيء؛ ولو عاد بي الزّمان إلى الوراء لسلكت سيرتي الأولى في الحياة...

أخذ الطّبق من يد زوجته الّتي دخلت في الأثناء، ووضعه على نضد أمامنا، ثمّ أشار إلى فناجين الشّاي... أخذت فنجاني فرشفت منه، وتطلّعت إليه ثانية، قال:

. صحيح أنّ المرض لا يرحم، وقد أقلعت عن عادات كثيرة، فلا أشرب إلاّ بقدر، فإذا شربت فلا أسرف... والنّساء ربطتني بالكثيرات منهنّ علاقات، في فنادق، ودور سينما، وقاعات رقص، ومقاه...

ثمّ صمت قليلا وواصل مستدركا كأنّه نسي شيئا مهمّا:
.بالمناسبة، لقد تعرّفت إلى بعض الفتيات من بلدك...

وحين أبديت إعجابي بهندسة البيت وديكوراته الجميلة، وحسن ترتيب الغرف في الدّاخل، قال وقد بدت على محيّاه ابتسامة رضى، ولمست في نبرته شعورا بالزّهو:

.في الحقيقة، لقد طلبت من أحد أصدقائي اليابانيّين أن يجهّز لي تصميما للبيت، وقد فعل؛ والبيت في هندسته لا يضاهيه أيّ من المنازل الموجودة في الجوار...

... كان الوقت متأخّرا عندما غادرنا، وقد تحدّثنا كثيرا، وشعرت في لحظة من اللّحظات أنّي قريب من الخال، وأنّها لن تكون المرّة الأخيرة الّتي نلتقي فيها!!

** ٢٧ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

لم أتفاجأ، وقد كنت في الحقيقة أحدس الدّعوة الموجّهة إليّ من الخال للغداء... أعلمني بذلك السّيّد «لوهيداكشان» الطّيّب، بلغة إنجليزيّة محطّمة، في اليوم التّالي من زيارتنا الأخيرة له...

وقد حرص مضيفي أن نمشي المسافة من البيت إلى وسط القرية على الأقدام، رغم أنّه كان بإمكانه أن يدعوني للذّهاب معه بالسّيّارة... ثمّ امتطينا الحافلة الّتي أقلّتنا إلى المكان المحدّد، وقد كانت السّاعة تربو على التّاسعة صباحا!!

وجدنا الخال بصحبة أحد أصدقائه، وكانا متحلّقين حول مائدة وطيئة عليها إناء كبير به سائل كثير من جوز الهند، كانا يصبّان منه في كأسين كبيرين، وقد سلّمنا عليهما، ثمّ أومأ إليّ السّيّد «لوهيداكشان»

بالجلوس فجلست...

سألني الخال إن كنت أرغب في مشاركتهما، فاعتذرت، وتواصل بيننا خيط الحديث للحظات، كنت أحسّ خلالها أنّي وجدت أصدقاء حقيقيّين، لا يتجاهلونني، ولكن يحدّثونني باللّغة الّتي أفهمها، ويتبّسطون معي في الكلام، فإذا ما انزلقوا للحديث فيما بينهم، سرعان ما انتبهوا إلى أنفسهم واعتذروا إليّ... كان حديثهم المفضّل عن السّياسة... عن المشاكل الّتي يعانون منها، وسوء الإدارة... والفساد الّذي كان ينخر حكومة الولاية...!! ويبدو أنّ حديثا مثل ذلك الحديث كان لا يحلو لهم إلاّ إذا كان الشّراب أمامهم، فيشربون وهم يتناقشون، ويشربون وهم يتصايحون، ويحتدّون، ويظلّون، مع ذلك، أصدقاء، لا تشوب صداقتهم شائبة...

غادرنا الخال، وما أسرع ما عاد وبيده زجاجة الويسكي، مشروبهم الاحتفاليّ المفضّل، سيّما أنّ ذكرى «أونام» ما تزال عالقة بالأذهان والقلوب... وجلب مع زجاجة الويسكي زجاجات الصّودا، وترك لصديقه الممتلئ، ذي النّظّارات الطّبّية، أن يقوم بواجب الضّيافة!!

في الأثناء، كانت الزّوجة وبناتها يضطربن اضطراب من همّه إرضاء ضيوفه، فكنّ يأتين بأطباق عليها أنواع من السّمك... سمك مقليّ... ومشويّ... ودجاج... ومرطّبات وكولا...

كنت آكل وأستمع إليهم، وقد ذهب عنّي كلّ حرجي، وأنا أنظر إلى أولئك الرّجال، في خريف العمر، يشعرون أنّهم أدّوا واجبهم نحو زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم... تغرّبوا من أجلهم، وتحمّلوا المشاقّ، وربّما الإهانات، وتأثّروا أسباب الرّزق، وهم يحسّون الآن أنّه آن لهم أن يرتاحوا، أن يتمتّعوا بما جمعوه طيلة سنوات كدّهم وتعبهم، دون منغّصات...

** ٢٨ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

في المساء، كانت مفاجأة أخرى في انتظارنا... دعوة على المشارف والأطراف القصيّة، في المدينة الكبيرة. «تريشور»، الّتي تظلّ دائما في البال، تختفي بغتة، ثمّ تظهر على غير انتظار في أبهى زينتها وحلّتها!!... كنّا أربعة بالسّيّارة: «شانيل»، والسّيّد «لوهيداكشان»، وأخوه الأصغر، وأنا... وبعد حوالي السّاعة تقريبا انفتحت أمامنا بوّابة فدخلنا، واستقبلنا رجل بالزّيّ المحليّ، كانت تبدو عليه الوجاهة والثّراء، وقد تأكّد لي ذلك من خلال ما رأيته من حولي، المنزل الفخم الّذي لا شكّ أنّه استوعب مبلغا هائلا من المال في بنائه... الطّوابق العديدة، الحديقة الغنّاء، والأبواب ذات المقابض الذّهبيّة، والأنوار السّاطعة، والأثاث والرّياش... وشجرة العيد... والأشخاص الكثيرون، الّذين جاءوا من كلّ أنحاء العالم، من «دلهي» و «مومباي» و «كلكوتا»، والخليج العربيّ، و «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، و «اليابان»، و «الصّين»... و «كوريا» و «إنجلترة»، ومناطق أخرى من العالم: كلّهم هنود، منهم المدير، والممثّل التّجاريّ، والمدرّس، والمندوب، وصاحب المؤسّسة، والثّريّ الّذي يبحث عن شركاء... أصدقاء في لحظة بعينها، ينتظرون العيد، فيتواعدون، ثمّ يلتقون أخيرا في منزل أحدهم، وقد تجمّعوا هذه المرّة، عند مهندس ذائع الصّيت، له مكتب في «مومباي»... وقد أنستني المفاجأة، وجوّ المرح والصّخب، والأسئلة الّتي كانت تأتيني من كلّ جانب، وعلى غير انتظار، أن أسال عن إسمه، غير أنّ «شانيل» أخبرني أنّه عمّه!!

كانت ليلة ليلاء، كما يقولون! ليلة من ألف ليلة وليلة، لم أر

مثلها... شراب كثير، وأصناف من المآكل، منها ما أعرفه، وأكثره أراه لأوّل مرّة... وأحاديث، وخصومات صغيرة... وحين يسكر الرّجال، ترقّ مشاعرهم ويتعاتبون... في تلك اللّيلة كنت ضيف الشّرف، وقد لاحظت أنّ الجميع كانوا ينظرون إليّ بعين الشّكر والعرفان لأنّي لبّيت دعوتهم!!

** ٢٩ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

لم أتخلّص من الصّداع!

كان صداعا شديدا، ظلّ يلازمني خلال الأيّام الأخيرة من الرّحلة؛ وقد فكّرت أن أقدّم تاريخ العودة. فسلّمت «شاين» الجواز وتذكرة السّفر، ورجوته أن يحاول مع صديق له أخبرني أنّه يعمل بإحدى وكالات الأسفار... لم يكن «شاين» متحمّسا للفكرة، وأكّد لي أنّه من الصّعب إيجاد مقاعد شاغرة في هذه الفترة بالذّات، وهي . كما قال . فترة عودة طلاّب المدارس إلى مدارسهم في البلدان الّتي يعمل بها آباؤهم... كنت أشعر باليأس والإحباط، وخيبة الأمل، وكان كلّ همّي أن أغادر في أقرب فرصة...

** ٣٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

الأزقّة... الشّوارع... النّواصي... الممرّات... أمام الدّور وفي الجوار، في «كندشان كدفو» كما في «تريشور»، وفي أتون الغابات الخضراء، وفي المعابد... والمحلاّت والدّكاكين... ليلا ونهارا... مئات البشر يحتفلون بالعيد، بـ «أونام» على وقع الآلات والمزامير، تتقدّمهم صناديق ذات

دواليب بها صور الآلهة، ولوحات بالألوان الزّيتيّة، تجسّد مشاهد بعينها... كانت المواكب لا تتوقّف، وكان الأطفال يتصايحون، والنّساء يحملن أبناءهنّ في أحضانهنّ ويشرئببن بأعناقهنّ، يتدافعن، علّهنّ يظفرن ببعض من أشياء الآلهة المقدّسة... يبحثن عن النّفحة الخالدة والسّعادة الّتي إذا لم يكتب لهنّ الظّفر بها، وضيّعنها، هذه السّنة، سيكون عليهنّ أن ينتظرن سنة أخرى، وأن يتحمّلن ويتعذّبن... وكان الرّجال في غاية الوداعة، يقفون جنبا إلى جنب، ودون كلام كثير، تتطلّع أعينهم إلى الفيلة الضّخمة الّتي تتهادى في مشيتها، وعلى متنها بعض الأشخاص ممّن كانوا يوجّهونها إلى نهاية الشّوط...

حشد كبير، مئات المتجمهرين، تحسب إذا رأيتهم أنّ المدينة بأسرها قد خرجت للاحتفال، كأنّما كانوا ينتظرون مناسبة مثل هذه لكسر الرّوتين اليوميّ، وإعطاء الحياة نفسا جديدا، فتسري الدّماء في العروق، ويتجدّد الشّباب، وتورق أيّام الحبّ...

كان اللّيل فاتنا... رائعا، تتغامز نجومه؛ كانت نجوما كثيرة وكبيرة، تحيط بالقمر الجليل، وهو ينشر ألوانه البرتقاليّة فوق الرّؤوس الحاسرة، ويضيء زوايا المدينة العتيقة الّتي انقطع فيها التّيّار الكهربائيّ فجأة، غير أنّ المشهد لم يتوقّف وتواصل بكامل فتنته وجاذبيّته... أصوات آلات نحاسيّة، ومزامير، وطبول، ما تكاد تتوقّف إلاّ لتتّصل من جديد، أكثر صخبا وجلبة... ومجموعات من الرّاقصين بأزياء غريبة، على رؤوسهم عمائم ثقيلة، ويلبسون سراويل فضفاضة تشبه تلك الّتي كان النّاس يلبسونها في القرون الخوالي... وفتيات وشبّان في مقتبل العمر يضعون على وجوههم أقنعة ملوّنة، ويحملون صورا ومجامر، ويهزجون، ويلتحمون، في أوقات بعينها، فيسود الصّمت، وتهدأ الجلبة، وتتّسع الدّائرة المضروبة حولهم، فيضطرّ رجال الدّرك إلى إيقاف بعض السّيّارات، أو تحييد مسارها، أو تغيير وجهتها... كان الاحتفال فوق كلّ شيء... فوق قوانين السّير، والحركة،

وفوق الخصومات... والشّغب... والفوضى... وكان كذلك نقطة أمل تهمي للحظات في الأفق، فيتعلّق بها الجميع، ويرنو إليها الأطفال بأعينهم المفتونة، يتقافزون، بفرحة منقطعة النّظير، لاصطياد تلك الجرار الّتي كان يرفعها الكبار، يحاولون كسرها، للظّفر بما فيها من الحلوى والمرطّبات!!

** ٣١ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

منذ أن حللت ضيفا على «الكوتالز»، وخلال الأيّام الخمسة عشر الماضية، لم يزرني «شانيل» في غرفتي بالطّابق الأوّل إلاّ في اليوم الأوّل، وقد جاء ليطمئنّ على وضعي الجديد، فسألني إن كنت مرتاحا، أو فيما إذا كنت في حاجة إلى شأن من الشّؤون، وقد قدّرت له تلك البادرة، وتلك اللّفتة الكريمة من جانبه، والّتي ظننت آنذاك. أنّها فأل حسن، كما ذهب في اعتقادي أنّ جسور الوصل لن تنقطع بيننا، ليس فقط لأنّي ضيفه، وأنّه من واجب المضيف على ضيفه أن يقوم على راحته وخدمته، وإنّما أيضا لما بيننا من الدّوالّ الكثيرة والصّداقة الّتي لا يمكن أن تنفصم بين يوم وليلة... وانتظرت «شانيل»، بعد ذلك... انتظرته حتّى يئست أخيرا من مجيئه، وظللت أعزّي نفسي برحيلي الوشيك، وعودتي إلى «صور»، إلى وحدتي الاختياريّة الّتي اخترتها بمحض إرادتي، ودون أيّة ضغوطات من أحد...

كان «شاين» الوحيد الّذي يزورني بين الفينة والأخرى، وكنّا نتحدّث لبعض الوقت، قبل أن يخلد كلانا للنّوم؛ ومن خلال الأحاديث الّتي كنّا نتبادلها اكتشفت فيه أشياء جديدة لم أعرفها فيه من قبل... لمست فيه شيئا من الحنان، وكثيرا من الدّماثة، وأنّه قادر في أحيان كثيرة أن يكون متعاطفا، خلافا للفكرة الّتي أخذتها عنه، ونحن في

«صور»... كنت أعتقد أنّه شخص خال من كلّ عاطفة، وأنّ كلّ همّه في الحياة أن يجمع المال، ثمّ يبذّر المال الّذي جمعه على مباذله الّتي كنت على علم بأكثرها، إن لم أكن على علم بها كلّها!!

وعندما جاء «شانيل» إلى الغرفة قبل يومين على موعد السّفر، وجلس على حافّة السّرير، ثمّ لم يلبث أن اتّكأ على المخدّة وراح ينظر إليّ وأنا أكتب، حدست للتّوّ أنّ في الأمر سرّا، وأنّه لم يتجشّم عناء الصّعود إليّ، ولم يحرم نفسه من جلسته الحميمة إلى والدته وزوجة أخيه في الصّالة، إلاّ لأنّه كان يضمر شيئا أو يبيّت خطّة ما، وقد تأكّدت ظنوني بعد أن جاء «شاين» أيضا، فأخذ مكانه بجانب أخيه... كنت أفكّر في الخطّة القادمة، أتطلّع إلى الحديث الّذي كنت أعرف أنّه سيبدأ، لذلك لم أخدع كثيرا بابتسامهما المتكرّر، وسؤالي عن الأشياء الجديدة الّتي كتبتها، وشعوري والرّحلة توشك على النّهاية...

تظاهرت باللاّمبالاة، وكرهت أن أترك القصيدة الّتي بدأتها دون إنهاء، لكن اتّضح لي أنّ الأمر الّذي جاء الأخوان من أجله لا يحتمل التّأجيل أكثر، فقد بدأ «شاين» يمهّد للمسألة بأسلوبه الطّليّ الّذي عهدته فيه، قال:

.إذن أنت مستعدّ...

وتمهّل قليلا، ثمّ واصل:

.بعد غد تغادر... كان بودّي لو ذهبنا إلى «كوداي كانال»، لكن كما تعلم، الظّروف الطّارئة وضياع أوراق السّيّارة، ثمّ الزّيارات للأقارب... لكن...

وسكت ثانية، وقد رأيته ينظر إلى «شانيل»، ثمّ اتّجه إليّ مرّة أخرى، وقال بعذوبة متناهية:

.لكن سيكون بإمكاننا أن نتدارك الأمر!

لا أنكر أنّي خفت، وأنّي ارتعبت لتلك النّبرة الخادعة، إذ لن يكون بإمكاني أن أتحمّل حيلة جديدة من حيلهما الّتي لا تنتهي وأنا

أستعدّ لرحلة أعلم أنّها ستكون متعبة جدّا... ثلاث ساعات بالطّائرة إلى «مسقط» وثلاث ساعات أخرى بالسّيّارة إلى «صور»، وآلام الرّأس، الصّداع، الّذي ما زلت أشعر به يثقل على رأسي!!... بذلت محاولة أخيرة، جازفت، كنت أرغب من الصّميم أن أسدّ عليهما الطّريق... قرّرت أن أعارض أيّ اقتراح، وقلت لنفسي إنّي لن أذهب إلى أيّ مكان، فإذا كان هما يريدان الاستجمام أو السّفر، فليفعلا ما يحلو لهما، أمّا أنا فسألزم غرفتي حتّى يحين موعد الرّحيل!! قلت:

.لا أعرف كيف يمكن أن نتدارك الأمر!

واستغلّ هو تلك الفرصة فتصدّى للكلام قائلا:

.نذهب في رحلة...

فقاطعته:

.لا تنس أنّ بعد غد موعد رحلتي.

ولكن كان يبدو أنّه لا يريد أن يسلّم، فغيّر نبرته، صارت أكثر حزما وهو يقول:

.ما زال لدينا يوم كامل، ثمّ إنّ هناك من يريد أن يرانا...

قلت مأخوذا:

.هناك من يريد أن يرانا؟ ومن ذا الّذي يريد أن يرانا؟!...

كنت مستثارا، قلقا، أحتدم من الدّاخل وأسعى إلى ضبط أعصابي.

. بعض الأصدقاء... أناس نعرفهم، تعوّدنا إذا جاءنا غريب أن نأخذه إليهم، فيفرحون به، ويعطيهم بعض المال...

بدا لي كلامه غريبا نوعا ما، بل إنّي وجدته غاية في الغرابة... أصدقاء؟ إذا كانوا أصدقاء فلماذا لم أرهم على امتداد الأيّام المنقضية؟ ولماذا يخبرني الآن عن هؤلاء الأصدقاء إذا كانوا موجودين أصلا؟!... لماذا الآن؟... لما الآن؟...

.وأين هؤلاء الأصدقاء؟ لماذا لم يأتوا إلينا؟!

فقال وهو يتنحنح:

.إنّهم يسكنون في الغابات، وهم فقراء جدّا.

كنت أستمع إليه بتأنّ، أقرأ ما وراء كلماته، وقد انتهيت إلى شبه قناعة أنّ الأمر لا يخرج عن تفسيرين اثنين: إمّا أنّه يريد فعلا أن يترك لديّ انطباعا جيّدا عن الرّحلة، وهذا أمر مشكوك فيه إلى حدّ ما، وإمّا أنّه يريد أن يأخذ منّي مبلغا من المال، بطريقة لا تشعره بالحرج، ولا تجعلني أحسّ كأنّي محسن يتصدّق على بعض المساكين، وهو الأقرب إلى الصّواب... وقد جاء كلامه فيما بعد مصداقا لتخميناتي كلّها، فقد اندفع إلى الحديث بحماسة نادرة، ولم ينس أن يتبادل بعض النّظرات المتآمرة مع «شانيل»:

.لا داعي أن نحكي لك عن وضعنا المادّيّ فأنت أعلم به... فقط نريد منك بعض المال... في الحقيقة، لو كان عندنا شيء منه لما سألناك... أنت تعرف ظروفنا في صور... فواتير التّلفون والكهرباء، وإيجار البيت... ومصاريف السّيّارة... فقط نريد بعض المال... بعض المال من أجلك... من أجلنا، أنت تعرف، هؤلاء الأصدقاء تعوّدوا علينا، وسيكون معيبا في حقّنا أن نذهب إلى هناك، ولم نجلب لهم شيئا معنا...

أحسّ «شاين» كأنّه أدّى واجبه، وكذلك أحسست أنا، إذ أدركت أنّه لم يعد لديه ما يقول، وقد قرّر أن يدع بقيّة المهمّة في يد «شانيل» الّذي لم ينطق حرفا واحدا فيما كان «شاين» يشدّ خيوط حيلته الصّغيرة حول عنقي...

قال «شاين» وهو يغادر الغرفة:

.استعدّ إذن... سنغادر إلى الغابات في الصّباح المبكر... ستكون الرّحلة شاقّة، ما في ذلك شكّ، لكن بالقطع ستكون ممتعة!!

ثمّ:

.شانيل سيشرح لك كلّ شيء!!

كان «شانيل» متّكئا فاعتدل في جلسته، وسألني:

.كم بقي لديك من المال؟
قلت:
.لم يبق لديّ الكثير منه على كلّ حال.
كان يريد أن يعرف على وجه الدّقّة، وكنت أحاول أن أتهرّب:
.كم؟
.ليس أكثر ممّا تظنّ.
.أعلم، لكن كم؟
فقلت وقد ضقت ذرعا بمحاصرته:
. أنت تعلم أنّي صرفت الكثير من المال خلال الأيّام الكثيرة الماضية، عدا المبالغ الّتي طلبتها وأعطيتك إيّاها...
بدأت لهجته تخفّ شيئا فشيئا، فقد كان كلامي حريّا أن يعيد إليه شريطا من الأحداث الّتي ربّما بدأت تتلاشى في مخيّلته، قال:
. إنّي لا أنسى أياديك البيضاء ومساعداتك الكثيرة لي؛ ولكنّ الوضع محرج الآن ونحن في حاجة إلى المال...
وتطلّع إليّ، كنت أعرف أنّه يروزني بنظراته، وأنّه ينتظر اللّحظة الّتي أنظر فيها إليه، فلربّما لمست حرجه فأقرّر أن أضيف إلى الأيادي السّابقة يدا بيضاء أخرى، غير أنّي حرنت، ظلّت عيناي معلّقتين ببياض الورقة الّتي كنت خططت عليها بعض الكلمات الموزونة المقفّاة... قال:
.أعلم أنّه ما تزال لديك بعض العملة الأجنبيّة!
فعلا، كانت لديّ بعض العملة، لكنّي كرهت طريقته في التّدخل في شؤوني بتلك الطّريقة الغير المهذّبة... قلت:
.أنت واهم...
ثمّ:
. بقيت عندي ستّة آلاف «روبية»... سأعطيك ثلاثة آلاف، وسأحتفظ بالبقيّة...
وسحبت المبلغ من حافظة النّقود وأعطيته إيّاه... لاحظت عدم

الرّضى على سحنته، وانقبضت ملامحه، وقال وهو ما يزال يحتفظ بالمبلغ في يده:

.لكن هذا لا يكفي... أنت تعلم...

قاطعته بفظاظة، رغم اقتناعي أنّه من الأفضل لي أن أترك انطباعا جيّدا لديه، سيّما وأنّه لم يبق أمامنا غير يوم واحد، سيمضي كلّ واحد منّا بعده إلى حال سبيله:

. أنا أيضا في حاجة إلى المال... عندي أيضا أصدقاء، أريد أن أشتري لهم بعض الهدايا، فلا داعي أن تحرجني أكثر.

كان ذلك إعلانا واضحا بعدم مواصلة الحديث، قام، وهو يقول:

.لا بأس، سأتدبّر الأمر!!

ثمّ، كأنّه نسي شيئا مهمّا كان عليه أن يخبرني به:

.لا تنس... غدا صباحا... سأوقظك في الخامسة!!

***

لم أنم في تلك اللّيلة... رأسي تضجّ بآلاف الأفكار، تضطرم بسيل عرم من التّهيّؤات والخيالات السّوداء... كنت أستدعي في ذهني كلام «شاين» كلمة كلمة، ومداورات «شانيل»، وأقلّب الأمر على جميع وجوهه، وكنت أنتهي في كلّ مرّة إلى نتيجة واحدة: الأصدقاء الّذين كانا يتحدّثان عنهم، وأطنبا كثيرا في وصف فقرهم وحاجتهم، ليسوا في الحقيقة إلاّ احتمالات من صنع خيال جامح، ليسوا إلاّ غطاء لأشياء ما زلت إلى حدّ تلك اللّحظة أحدسها، ولا أظفر بها!! كنت أريد أن أبرّئهما... أن ألتمس لهما الأعذار، إذ أنّ الصّورة الّتي كنت أخشى أن تسيطر عليّ، وكانا هما يتجسّدان خلالها، بكلّ ملامحهما وقسماتهما، كانت من الفظاعة والسّوء بحيث لا يمكنني احتمالها بحال... صورة لوغدين... صورة لشخصين يظهران ما لا يبطنان، لم يهن عليهما أن يرياني أخلد لبعض الرّاحة بعد كلّ تلك المعاناة الّتي عشت في خضمّها،

متواريا في سوداويّتي، منكمشا بين أستار الوحدة والصّمت...!!

ربّما كنت مخطئا حينما قدّرت أنّ «شاين» ليس ذلك الشّخص الجافّ، الّذي لا يفكّر في غير مصلحته، وهو بطبيعته طيّب، لكن تعوزه القدرة للتّعبير عن تلك الطّبيعة!!

***

كنت مستعدّا تماما للمحنة الّتي كنت أعلم أنّها في انتظاري!!... دلفت إلى الحمّام، فاغتسلت، ثمّ لبست ثيابي، وبقيت أنتظر... جاء «شانيل» فنزلنا السّلم معا... ووجدنا في انتظارنا «ديداش»، وشخصا آخر قابلته مصادفة، لكن لم تربطني به علاقات صحبة أو صداقة، وعلى ما يبدو، من خلال صمته، أو من خلال بعض الكلمات القليلة الّتي كان يتبادلها مع البقيّة بـ «المليالي» في بعض الأحيان، أنّه لا يتكلّم الإنجليزيّة، وأنّ وجوده معنا كان لشيء آخر أكثر من مجرّد الصّحبة...

ركبنا السّيّارة، فانطلقت بنا عبر أزقّة «كندشان كدفو» الضّيّقة، ثمّ طوينا شطرا من الطّريق الطّويلة، وفي إحدى محطّات البنزين نزلنا ريثما فرغ عامل المحطّة من تزويد الخزّان بالوقود... لم أكن أعرف وجهة سيرنا، ولم أهتمّ كثيرا، حتّى أنّني لم أطرح أسئلة، ولم أكن أنتظر أجوبة، بل لزمت صمتا أخرق كاويا...

في أحد المطاعم الشّعبيّة توقّفنا... كان مطعما من تلك المطاعم الّتي لا تشعر حيالها بالفخار، أنّك توقّفت عندها، وأنّك تناولت فيها إفطارك، فشعرت بسعادة طارئة، وانتابك ذلك الإحساس أنّك تودّ أن تعود إليها ثانية لتستعيد شيئا من شعور كنت استحضرته في المرّة الأخيرة حينما زرتها!!... نزلت مرغما، ولم تكن غايتي أن أطلب شيئا لنفسي، وأن أشارك الجماعة إحساسهم بالاغتباط وهم يأكلون بشهيّة منقطعة النّظير، وينظرون إلى بعضهم من حين لآخر، ثمّ يومئون إلى

صاحب المطعم ليجلب لهم المزيد من رقائق «البوروتا» أو «الكاري»... فقط كنت أرغب أن لا يفوتني تناول فنجان قهوتي الصّباحيّ، أن أشعر أنّ السّاعات الأولى من الصّباح لم تمض عبثا، وأنّه من بين الآلام والعذابات والقلق والصّداع، كان هناك شيء يستحقّ أن أعيش من أجله، وأن أدافع من أجل الحفاظ عليه... كانت غربة، وما أعانيه إحساس الغريب، بين غرباء عنه، لا يهمّهم من أمره شيء، فلا يكترثون إذا أكل معهم أو ظلّ جائعا، ولا يتساءلون عن سبب قلقه، بقدر ما كانوا يفكّرون في متعتهم، في إحساسهم أنّهم يقضون وقتا ممتعا على حساب... شخص، وهذا الشّخص هو أنا!! مجرّد رقم من الأرقام، أو شمّاعة تعلّق عليها الخطايا والذّنوب، ولكن تظلّ مع ذلك شمّاعة مرغوبة لما قد تحمله بين طواياها الخفيّة من مزايا غير مرتقبة، وتظهر في اللّحظة الأخيرة، ليعمّ الفرح والفوضى، وترتفع الأصوات من حين لآخر، مشيرة إلى «المحسن الّذي جاد ببعض ممّا لديه» توقّره وتبجّله!!

آه، ما أكثر تلك المدن الّتي مررنا بها، والقرى والمقاطعات، وحقول الموز، وحقول الذّرة، والأرزّ، والغابات المترامية على امتداد البصر، بلا بداية تشير إليها، ولا نهاية تحدّها، كأنّها الأزل... و«هندستان» شسوع... مرام... ووجوه متعدّدة، وملامح تكاد لا ترى بعضها حتّى تنسيك ما قد رأيته من قبل... تطالعك من بين الكوى البعيدة، والفجوات القصيّة الّتي تظهر فجأة، كالجرح الدّامي، بين أشجار المطّاط، والصّنوبر والسّنديان... وتراها تنظر إليك من فرجات النّوافذ المفتوحة... قسمات لا تنسى، لأطفال وبنات، يحملون على سواعدهم الصّغيرة عشرات الحقائب، قاصدين مدارسهم الّتي تبعد عن منازلهم عشرات الكيلومترات... لا تتفاجأ لتلك الابتسامات الرّخيّة الّتي ترتسم على شفاههم الكامدة، ولا تبالي لألعابهم البريئة في ساحات خالية مقفرة، لا أثر فيها لتلك الحياة الضّاجّة الصّاخبة... والفقر، ليس هنا فقط، بل

في كلّ مكان، بلا أسماء ولا عناوين، كائن مخيف، متجبّر، طاغ، يتربّص للبطون الضّامرة، والأجساد الموشكة على السّقوط، وتلك الأخرى الصّغيرة الّتي لا تجد شيئا تتبلّغ به؛ كان الفقر كالمدن تماما، كالأماكن المسترسلة، يخيّل إليك أنّها تسابق السّيّارة في طيّها للمسافات، أماكن على كثرتها لا تحمل غير بعض السّمات الفارقة، غير أنّها خلو من الأسماء الّتي تحفظ هويّتها...

جذوع أشجار على الطّريق، دكاكين قد اندلق كلّ ما بها إلى الخارج... أسواق مرتجلة، وأناس يروحون ويجيئون... ومقاه مفتوحة... وحافلات مكتظّة لم يبق بها موطئ لقدم... وجلبة وأصوات... ونداءات تأتي من كلّ الاتّجاهات... ودور على الأطراف... وسيول من الأمطار، زخّات كبيرة، انفرج عنها بطن السّماء، فاستقبلها أديم الأرض، واحتضنتها المزارع الرّيّانة كما تحتمل المراضع الولدان... والطّريق لا تنتهي!! الوجهة لغز من الألغاز... نهاية من النّهايات العجيبة لحكاية من الحكايات الّتي ظلّت دهورا تترقّب شخصا ليضع اللّمسات الأخيرة على الأحداث!!

في إحدى مراحل الطّريق توقّفنا...

وقصدنا بعض المقاهي... وبعد أن شربنا فناجين القهوة والشّاي الّتي جاءنا بها النّادل، خرجنا... وكنت أظنّ أنّنا سنواصل الرّحلة، إلاّ أنّني رأيت «شانيل» و «ديداش» ينفصلان عن الجماعة ويقصدان بعض الأماكن على الجانب الآخر من الشّارع... وذهب «شاين» ورفيقنا الخامس إلى بعض الأكشاك، ولم يلبثا إلاّ قليلا وقد عادا وهما يحملان أكياسا صغيرة بها بارد وبعض المكسّرات... اتّضحت الصّورة إذن! وبدأت غفلتي الأولى تنقشع شيئا فشيئا أمام عينيّ!... ولمزيد التّأكّد من صدق ظنوني سألت «شاين» عن «شانيل» و «ديداش»، لم يسع إلى

المواربة، وكان صريحا معي؛ قال:

.هناك في الجوار بعض المحلاّت لبيع الكحول... (وأشار إلى إحدى البنايات على الطّرف الآخر)... انظر إنّها هناك... وهم يبيعون بالكلفة الأصليّة دون رسوم إضافيّة...

ثمّ أضاف قائلا:

.سيكون علينا أن ننتظر بعض الوقت، فهم يفتحون في العاشرة، وبعد ذلك نواصل الرّحلة!

هكذا إذن! لا أصدقاء، ولا فقراء ولا مساكين! والأصدقاء هم أصدقائي، والمال الّذي طلب إليّ دفعه كان عربون مودّة لرحلة في العبير!!

***

عندما خاطبني «شاين» قائلا وهو يشير إلى جبل تكاد تلامس قمّته بعض سحابات كانت تعبر صفحة السّماء، وتتوارب في أغشية كثيفة من الضّباب:

.انظر إلى هناك... إذا بلغنا تلك القمّة، ستنتهي رحلتنا!!

حينئذ ذهب في ظنّي أنّ المسألة هي مسألة وقت فحسب، وأنّه بعد حوالي السّاعة أو أكثر من ذلك بقليل نكون قد بلغنا المنتهى... كنت مخطئا، ويبدو أنّ تقديراتي لم تكن تستند ولو إلى حدّ ضئيل من الموضوعيّة... تساءلت في البداية، وأنا أنظر إلى الجبل الضّخم، وأرى تلك القمّة العاتية، المتحدّية، كيف يمكن للسّيّارة أن تصل إلى هناك... وشككت... تصوّرت الطّريق وهي تصعد وتصعد دون توقّف... والمحرّك يهدر دون انقطاع... و«شانيل» وراء عجلة القيادة، وهو دائم الدّوران كثور النّواعير... وكنت أنتهي في كلّ مرّة إلى صعوبة المهمّة... مرّوقت طويل قبل أن نبلغ بداية الطّريق...!!

وكانت صعوبات كثيرة تنتظرنا في المفارق والمنعرجات، أقلّها

المحرّك الّذي كان سرعان ما تطوّح به الحرارة فنضطرّ إلى النّزول لنزوّد السّيّارة بالماء، وقد كان الأمر يتكرّر بعد حين وحين... والمسافة تطول، توغل في البعد... تتحدّى الخيال والاحتمال، وتدمّر الأعصاب... كنت وأنا أرى الغابة وراءنا، ثمّ وهي تصعد مع السّيّارة، ثمّ وهي تتكاثف من حولنا فلا نرى الأرض الّتي لا شكّ أنّها كانت تتباعد باستمرار، ثمّ وأنا أنظر إلى السّماء الّتي كانت تبدو قريبة جدّا، أكاد ألمسها بيدي، وأمرّر كفّي على صفحتها، أشعر بالغثيان... يداهمني شعور بالخطر، وإحساس ما فتئ يتضخّم بالحذر... ماذا لو سقطت السّيّارة، ماذا لو تهدهى إلى الأسفل، إلى القاع، ولا شيء غير الصّدى، لا شيء غير وعي ما انفكّ يتزايد أنّ الغابة الّتي تلفّنا ليست مجرّد غابة، وإنّما هي متاهة لا متناهية، امتداد بلا حدود، في عالم من الخضرة، على قدر فتنتها فإنّها لا تعني شيئا آخر غير الموت... ذكريات الغابة الإفريقيّة... الغابة الاستوائيّة... وغابة الأمازون... وآلاف الحيوانات الّتي تتربّص، فيلة وأسود وفهود ونمور... وسباع، وضباع... وبنات آوى... وهذه الغابة لا تبعد كثيرا عن تلك الغابات، بل لقد كانت تبدو في إلغازها أكثر خطرا... كانت هناك حكايات تتردّد وتتناقلها الألسن عن الفيلة الّتي تظهر في نهاية المساء على الطّريق، والذّئاب الّتي هاجمت سيّارات كثيرة، وتسبّبت في الكثير من الحوادث... والسّباع الجائعة... والخوف الدّائم من المفاجآت الّتي قد تحدث بين الفينة والأخرى...

السّيّارة... والمحرّك... وعجلة القيادة... والسّاعات تمرّ... والرّحلة ما تزال في بدايتها... وفي شطر من الطّريق يحلو التّعلّل، وتتوق النّفس إلى بعض الشّراب...

رأيتهم ينزلون، وفي يد كلّ واحد منهم زجاجة البيرة... راقبتهم وهم يلتئمون على أنفسهم، يتقاربون ويتباعدون، فإذا شربوا شربوا بشهيّة، وكان «ديداش» أقربهم إلى النّشوة... يمسك الزّجاجة بين يديه ويعبّ...

وكنت أنا داخل السّيّارة أنظر إلى المشهد ولا أريد النّظر إليه... تمنّيت لو كنت في غرفتي... لو تركت لشأني، فهذه الرّحلة، في نهاية المطاف، لم تكن تعني لي شيئا، وحتّى لو كانت تعني شيئا ما، فإنّها ستكون كذلك بالنّسبة إليهم!!...

أخذوا بعد ذلك أدوارا من الويسكي، وكانوا يتحدّثون فيما بينهم ويمزمزون... المشهد آسر ما في ذلك شكّ... الأشجار، والحشائش الخضراء، وينابيع المياه الصّغيرة الّتي كانت تنحدر من أعلى القمم الجبليّة، توحي بعصر قديم، موغل في القدم، عصر الماء والمطر... والإنسان الأوّل في رحلة البحث عن السّائل المقدّس ليتعمّد به!!

***

لم أكن أظنّ الرّحلة قد تنتهي في وقت ما، ومن قبل كانت المسافات الّتي قطعتها مع بعض أصدقائي، والرّحلات الّتي كنّا نقوم بها في أويقات خلوّنا وفراغنا، لا تتعدّى بعض الكيلومترات، ولم تكن مضجرة أو متعبة بأيّ حال من الأحوال... وكنّا حيثما ولّينا وجوهنا لا يطالعنا غير الانبساط... البراح الّذي يتّحد في لحظة من اللّحظات مع المدى، ويذوب خلل الشّسوع اللاّمتناهي!!...

لا أدري كم كانت السّاعة حينما بلغنا القمّة، غير أنّ الوقت كان متأخّرا، وقد دهشت غاية الدّهش حين علمت أنّ الجماعة لا يعرفون طريق السّير الّذي يسلكونه، وقد بدا لي أنّ ذلك الشّخص الخامس الّذي لا أعرفه، والّذي لم أسمعه يتكلّم إلاّ لماما، وفيما ندر، كان هو الدّليل، وقد تزوّد ببعض الخرائط، الّتي تحمل أسماء لأماكن معيّنة، ربّما سمع عن جمالها، وقد كان لا ينفكّ يسأل عنها بعض الأشخاص ممّن كانوا يصادفوننا على امتداد الشّوارع الكثيرة الّتي كنّا نمرّ فيها...

كان عالما آخر فوق الجبل، غير العالم الّذي تركناه وراءنا... عالم غريب بكلّ ما فيه، بفقره الظّاهر وحياته الرّتيبة، ومسحة البساطة الّتي كانت تؤطّر كلّ شيء فيه... ولسنوات بعيدة، في زمن منسيّ، إلاّ أنّ الذّاكرة الجماعيّة ما تزال تحفظه إلى الآن، كان هذا العالم غير موجود أصلا، وغير معترف به، ولا يحمل سكّانه بطاقات هوّية أو ما يثبت انتماءهم وولاءهم، وكانت الحكومة لا تطاله، ولكن تحكمه حفنة من قطّاع الطّرق والصّعاليك، كانوا يجمعون الإتاوات من الأهالي ويهدّدون كلّ من تسوّل له نفسه أن يتحدّاهم أو يقف في طريقهم...

لم تتغيّر الأمور كثيرا، بعد ذلك، فقد ظلّ الفقر هو الفقر، ولون الوجوه الشّاحبة هو ذات اللّون الّذي طبع الوجوه في ذلك الزّمن المنسيّ، كما أنّ شكل المنازل والبيوت قد بقي هو نفسه الشّكل المفضّل والمميّز، لكن كنت ترى الابتسامة على الشّفاه، والفرحة لا تخفى، والحركة دائبة... وأكثر من ذلك بدأت الحقول تترامى وتمتدّ، تخضرّ في أكثر الأماكن، ليس على الأطراف فقط، وإنّما أمام المنازل والاصطبلات...

توقّفنا في بعض الاستراحات، فتناولنا غداءنا... كنّ نساء كلّ من يعمل بالاستراحة، وقد كنّ حريصات على خدمتنا، واستغلّ أصحابنا الفرصة، فكانوا يمازحونهنّ؛ وعلى ما يظهر فقد اكتشفن أنّنا غرباء، فكنّ يسألن عن المكان الّذي جئنا منه، ويبدين ظرفا زائدا وهنّ يفعلن ذلك... كانت المرّة الأولى الّتي آكل فيها لحم البقر، ولعلّي في أوقات سابقة كنت أتفادى بعض الأسئلة الّتي كنت أراها حرجة بيني وبين نفسي... اعتبرت البقر مقدّسا، ولا يجوز ذبحه أو أكله، وطيلة المدّة الّتي قضيتها في بيت مضيفي كان كلّ طعامهم إمّا سمكا أو دجاجا، لكن بعد الّذي رأيته من الجماعة، وفرحتهم الزّائدة حينما أبلغوا أنّ هناك لحم بقر مقليّ ومشويّ، وبإمكانهم أن يطلبوا ما يشاءون، ويأكلوا ما يشاءون، جعلني أسأل «شانيل»:

.أليس البقر محرّما أكله؟
فقال مازحا:
.على العكس هناك من يحبّه أكثر من غيره!!
***

كانت نهاية الرّحلة شاقّة جدّا!!
وقد سلكنا الطّريق الّتي جئنا منها مرّتين: في المرّة الأولى اصطحبنا شخص لا نعرفه، ولأنّني كنت أجهل «المليالي» فقد تخيّلت أنّه مجرّد عابر، وأنّه طلب إلينا أن نوصله إلى بعض الأماكن في طريقنا، واكتشفت، فيما بعد، أنّه دليل، وأنّه على دراية كبيرة بالمسالك والأماكن في الغابة الكبيرة المترامية... كان يروي لنا قصصا عن الحيوانات، والأوقات الّتي تستحسن فيها الزّيارة، وقادنا عبر شوارع ضيّقة متعرّجة إلى سدود مائيّة، بالغة العلوّ... ولكن أكثر ما بقي عالقا في مخيّلتي، محطّة تزويد المياه، امتداد أشبه بالبحيرة، قائم في وسطه برج كبير للمراقبة، إذا حدث أن كنت داخله، وتطلّعت إلى المياه تحتك، ذهب في ظنّك أنّها تسير بك إلى ما لا نهاية، وأنّك قد تصحو فتجد نفسك في مكان قصيّ، وراء كلّ الحدود المرسومة والمعروفة... كانت تلك «تملنادو»، وكان الشّوق، والإحساس أنّك قريب من السّماء، ومع الخوف من السّقوط، والحذر، كان الخدر والنّشوة، وشعور بالتّسامي، سيظلّ يلاحقني حتّى بعد نهاية الرّحلة...!!
ركبنا السّيّارة... كنّا جميعا مفتونين، ولولا أنّ ذلك الشّخص نصحنا أن نعود قبل أن يحلّ الظّلام، لكان بالإمكان أن يظلّ الواحد هناك إلى الأبد، دون أن يحسّ بالوقت أو الزّمن... (رغم كلّ شيء، كنت أعاني من الصّداع، وكنت أحاول أن أتناسى الألم، وأقول لنفسي: غدا أغادر فلا داعي للقلق!!)
***

«كندشان كدفو»...
السّاعة حوالي التّاسعة أو التّاسعة والنّصف ليلا... الجميع في الاستقبال... السّيّد والسّيّدة «لوهيداكشان»... وزوجة «شاين» و «باروتي» الصّغيرة...
تركتهم وصعدت إلى غرفتي... أخذت دشّا وأويت إلى الفراش... كنت أشعر بالتّعب... وبالإرهاق... وبالصّداع أيضا!!

** ١ أيلول ٢٠٠٢:

في المطار...
تركني «شانيل» وقفل راجعا... كنت وحيدا... وقد أنهيت كلّ الإجراءات وصعدت إلى صالة الانتظار... آثرت أن أحتفظ بكيس المفاتيح في جيبي... مفتاح باب شقّتي الخارجيّ بمدينة «صور» وبعض المفاتيح الأخرى... عندما مرّر عامل المطار آلته على ملابسي، بدأت تصدر أصواتا متّصلة... أشار إلى ركن جانبيّ أرخيت عليه ستارة خضراء، فتبعته إلى هناك... فتّشني من رأسي حتّى أخمص قدميّ، وأمرني فخلعت حذائي... أريته جميع ما أملك... أخرجت كيس المفاتيح، وبعض الأوراق الّتي كنت أحتفظ بها... وعندما أشار إلى الباب، إيذانا بالانصراف، حملت حقيبتي، وتقدّمت إلى الأمام فجلست على أحد المقاعد الشّاغرة...
كانت تضجّ برأسي أفكار كثيرة... أفكار محمومة، ومع اقتراب موعد إقلاع الطّائرة، عادت بي الذّاكرة إلى سنوات الطّفولة الأولى، ولا أدري لماذا كانت صورة خالي فوّاز أوضح من أيّة صورة أخرى في ذهني... كان هو أيضا يافعا، وكان طالبا بإحدى المدارس الدّاخليّة، بإحدى المدن

الّتي تبعد عن مدينتنا، وكان إذا طلب إليه المدرّس أن يحرّر موضوعا إنشائيّا. أيّ موضوع، كان يختم حديثه، بجملة أثيرة، وجدتني دون وعي منّي أكرّرها في لهوجة، من بين شفتيّ اللّتين كانتا تمتلئان بابتسامة كبيرة، لم أكن أدري في تلك اللّحظة فيما إذا كانت ابتسامة سعادة قادمة أم تعاسة آفلة:

.وداعا، أيّتها الحقيبة!! وداعا أيّتها الحقيبة!!

..انتهت..

صور «سلطنة عمان» في:

١٥ كانون الأوّل ٢٠٠٢

يتبع..

الجزء الثالث/

بوابات المواجيد

ماستر ©